دراسة

إيريك دورتشميد

حروب وأساطير
من معركة مجدو إلى سقوط روما

دور صنّاع الأساطير في تغيير العالم القديم



ترجمة: أحمد الزبيدي

حروب وأساطير
من معركة مجدو
إلى سقوط روما



Author: **Erik Durschmied**

Title: **From Armageddon To The Fall Of Rome**

Translated by: **Ahamed Al-Zubaydi**

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy**

P.C.: **Al-Mada**

First Edition: **2021**

اسم المؤلف: إيريك دورتشميد

عنوان الكتاب: حروب وأساطير - من معركة مجدو إلى سقوط روما

ترجمة: أحمد الزبيدي

تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: 2021



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+ 964 (0) 770 2799 999 — + 964 (0) 780 808 0800 — + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut. Bchamoun - Schools Street

+ 961 175 2617 — + 961 706 15017 — + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus. Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2276 — + 963 11 232 2275 — + 963 11 232 2289 — ص.ب: 8272

إيريك دورتشميد

حروب وأساطير

من معركة مجدو
إلى سقوط روما

دور صنّاع الأساطير في تغيير العالم القديم

ترجمة : أحمد الزبيدي



إهداء المؤلف:

إلى آن ماري

إلى ذكرى أولئك الذين حفظوا لنا وثائق تاريخية عن أكثر من 3445 سنة من الحروب التي لم تنقطع تقريباً وتركوا لنا مؤلفاتهم المهمة كمصدر ثري لبحوثنا.

وعندما يكتظ العالم كله بالبشر

تكون الحرب هي العلاج الأخير.

من ينتصر فيها سيعيش

ومن يخسرها يموت

- من كتاب اللفياثان

للفيلسوف توماس هوبز

صدر عام 1651

تمهيد

بحثاً عن الحقيقة التاريخية

«اعتادت آذاننا منذ فجر التاريخ الإصغاء إلى الأكاذيب، وتشبعت عقولنا على مرّ العصور بخزين من الافتراضات. جعلنا الحقائق تبدو غريبة وحوّلنا القصص المزيفة إلى حقائق».

هذه الكلمات كتبها قبل أربعة آلاف سنة المؤرخ الفينيقي سانشونياثون، ولا تزال تحتفظ بحيويتها حتى اليوم.

كانت الحرب عاملاً ثابتاً في الحضارة البشرية. حدثتنا الكتب عن الاضطرابات العنيفة التي هزّت العالم منذ آلاف السنين، والتي ساهمت في تغيير مجرى التاريخ، والتي كان معظمها يلمّع صورة المنتصر. لم تشر إلّا قلة نادرة من الكتب إلى الارتدادات المرعبة لذلك القتال الذي لا يرحم، وإراقة الدماء والدمار اللذين تخلفهما الحروب. نحن ننظر إلى الكتب التاريخية على أنها مقاربة وثيقة مع الأحداث كما حدثت بالفعل. وإن بعض الثوابت، التي تظهر في أعمال جميع المؤرخين الذين عاشوا خلال فترة محددة، والذين تمّ نشر رواياتهم بمختلف الترجمات والكتب على مرّ العصور، ليست سوى الحقيقة. نحن لا نسأل عمّن روى قصتهم. كانت السلطة الحاكمة دائماً هي المؤرخ، لأننا لا نستطيع أن نخترق العالم الذي اختار أن يعرضه أمامنا إلّا عن طريقه. على مدى ثلاثة آلاف عام من السرد الملحمي، لم يكن دور المؤرخ إخبارنا كيف كان يتصرف ملكه، ولكن كان عليه إقناعنا أن نؤمن بما كتبه. اندلعت الحروب للدفاع عن «الخير» ضد «الشر»، ولكن

عندما يتعلق الأمر بأسلوب خوض المعركة، كان من المثير للغرابة كم كان يتشابه «الخير» مع «الشر». فكلا الجانبين كانا يستخدمان الوسائل نفسها تماماً لقتل بعضهما البعض. وفي النهاية، ينتصر «الخير»، لأن كل إله (وكل كتاب تاريخ) كان يقف دائماً إلى جانب «الخير» وهو الطرف المنتصر.

لا يمكن أبداً الوصول إلى الحقيقة التاريخية بالكامل بسبب زيف الكتب التي تستند إليها، خاصة إذا كانت تتعلق بالتواريخ والأعداد وأسباب اندلاع الصراعات المميتة. إنها ليست خاطئة عن قصد. على سبيل المثال، كان هيرودوت، أبو المؤرخين، شخصاً يونانياً رأى الأحداث وسجّلها كمؤرخ يوناني، في حين أن أعداء بلاده، داريوس وزيركسيس، لم يكونوا كذلك. في كتابات هيرودوت، أصبحت «الذريعة المناسبة» عند اليونان «حيلة ماكرة» بالنسبة للفرس.

نحن نعرف كل خطوة قام بها الإسكندر الأكبر وانتصاراته، لكن ماذا نعرف عن أعدائه؟ تركت لنا اليونان، أرض الفلاسفة والكتّاب والمؤرخين، مؤلفات غزيرة تتحدث عن هذا الرجل العملاق، ولكنها جميعاً كانت تتحدث عنه من وجهة نظر اليونانيين. في الوقت نفسه، ضاعف المؤرخ ديودور من عدم الدقة عندما كتب عن «الإسكندر السكير»، واستقى ملاحظاته من المؤرخ هيرونيموس الذي عاش في مدينة كارديا الإغريقية أيام الإسكندر، والذي اعتمد على بطليموس، وحاول تضخيم أهميته، كمصدر رئيس له.

هل يمكن أن نتوقع أن هناك وصفاً عادلاً للحرب ضد بلاد الغال في كتاب تعليقات على الحرب الغالية؟[1] فبعد كل شيء، كان المؤلف أيضاً جنرالاً، وقد عكست روايته للأحداث وجهة نظره المتبجّحة.

---

1 يمثل هذا الكتاب مذكرات يوليوس قيصر الشخصية عن الحروب الغالية، وكتب بأسلوب الرجل الثالث. ويصف فيه قيصر المعارك والمؤامرات التي وقعت في السنوات التسع التي قضاها في محاربة الجيوش المحلية في بلاد الغال التي عارضت الهيمنة الرومانية. المترجم.

كان المؤرخ يوسفوس فلافيوس مواطناً رومانياً؛ لكنه في الأصل شخص يهوديٌّ يدعى يوسف بن ماتيتياهو. فمن هي الشخصية التي ذكر فيها رواية شاهد عيان عن تدمير الجيوش الرومانية للمعبد الكبير في القدس، وهو رمز معتقده الديني هل كانت شخصيته كروماني أم كيهودي؟ لقد وصف قلق المدافعين اليهود قبل الحصار، ويأسهم، وتصميمهم على القتال، ونشوة الرومان بالنصر، ووصف شعورهم بالمرارة أيضاً.

لكن اللغز الأكبر الذي يراود الجميع سيكون دائماً معرفة من الذي كتب سفر التكوين، أول أسفار الكتاب المقدس. تفسير هذا اللغز قد يعطينا فكرة عن ماضينا. وقد قاد هذا إلى حدوث خلافات كبيرة، لا زالت مستمرة وربما ستظل لغز التاريخ العظيم. هل كان موسى هو الذي أملى وصايا الرب عندما نزل من الجبل؟ أم إنه مزيج لكتابات عدد من المؤلفين، بمن فيهم غير التوحيديين؟ «والله خالق السماء والأرض...» كانت الكلمة الثالثة في النص العبري الأصلي هي «إلوهيم»، وتعني الآلهة. يبدو غريباً أن مثل هذه الوثيقة المقدسة، التي يُفترض أن يكتبها شخص توحيدي، تشير في العبارة الافتتاحية إلى الآلهة بصيغة الجمع، بينما، في بقية أجزاء العهد القديم، تكون الكلمة الله ومعناها الرب؛ وتظهر بصيغة المفرد. هل استوحى الآباء القدامى ذلك من الوثائق اللاهوتية التي جمعها سانشونياثون[2]، أحد معاصري الملكة سميراميس وكان يؤمن بكثير من الآلهة، والذي كتب تحليله عن خلق العالم قبل ألف سنة من مجيء موسى؟ في البداية تمّ نقل الكتاب المقدس بشكل شفاهي إلى المخطوطات الماسورتية[3] في حوالي القرن الثامن ق.م، تمّ تدوينها من قبل علماء من مدينة الجليل بالعبرية القديمة؛ وفي القرن الثالث ق.م، قام الملك بطليموس الثاني بحبس سبعين رجلاً حكيماً في زنازين فردية

2- سانتشونياثون، التاريخ الفينيقي عن Fragmenta historicorum graecorum, by C. Müller.

3- هي مخطوطات تظهر النص الماسورتي للعهد القديم. المترجم.

وأمرهم بترجمة الكتاب المقدس من العبرية إلى اللغة اليونانية. في هذه الترجمة، التي أنجزت في سبعين يوماً فقط، تمّ تغيير مصطلح (سبحوا يهوه)، أو إله الجيوش، إلى «الرب القوي».

تمّ تحليل هذه النسخة من قبل فلاسفة مثل بورفيوس، الذي دخل في جدل عنيف مع القديس يوسبيو، أسقف مدينة قيسارية، الذي قام بتفسير الكتاب المقدس وفقاً للإيمان الذي نشأ بعبارة هلليلويا المسيحية[4]! بهذه الطريقة، فإن النص الأصلي للكتاب المقدس الذي يعتبر أبا الكتب قد مرّ بمراحل عدة، فقد تمَّت ترجمته، وتصحيحه، وتعديله وتخفيف عباراته، لتناسب فترة معينة أو حاجة دينية. كيف يمكننا أن نميّز بين الحقيقة التاريخية والسرد الرمزي الذي يهدف إلى توصيل رسالة محددة؟ إن كتابنا المقدس لا يمثل فقط قصة خلاص الإنسان، بل هو المصدر الوحيد للأحداث التاريخية القديمة كما حدثت. لا يوجد عمل آخر كان له تأثير أكبر منه على تطور حضارتنا.

هناك في الماضي شيئان أكيدان: الأول، ما لا يتغير أبداً، والثاني، ما يجب اكتشافه. ما زال الناس ينشدون الأغاني التي تتحدث عن الأبطال العظماء الذين عاشوا في الماضي السحيق؛ وهم لم يديروا شؤونهم في الماضي بشكل أفضل من الإنسان الحديث في الوقت الحاضر. لذلك، وكما هو الحال الآن، فإن المعارك كانت هي التي تحسم الأعمال الرهيبة للحرب. غالباً ما أضرّت الحماسة التي جرت بها الحملات الحربية بالقضايا التي كانت وراء تلك الحروب. تغيّرت حماقة الإنسان في الحجم فقط، ولكن ليس بالتفاصيل. لفهم حاضرنا، لا يوجد شيء أفضل من دراسة ماضينا، مع أساطيره، ومخاوفه، وانتصاراته، ومجده، وتجاربه وأخطائه، وأخيراً، بما خلّفه من دماء.

ربما كان فولتير على حق عندما كتب: «كل تاريخنا القديم ليس أكثر من خيال معقول». فقصص البطولات القديمة هي في معظمها مجرد

4- هللويا أو «هليلويا» عبارة عبرانية للتسبيح والحمد للرب. المترجم.

أساطير. لا أحد يعرف حقيقة ما حدث بعد ذلك. لا تزال هناك حقيقة واحدة راسخة: إن العصور القديمة كانت موجودة، وإن الأحداث الهامة التي قرأنا عنها قد وقعت حقاً.

إيريك دورتشميد

دومين دي فالينسول، صيف 2002

الجزء الأول

ترتيلة (داييس إيرا)

1479–1010 ق.م

من الفرعون تحتمس إلى الملك داود

المقدمة

العنف المتوحش

«أنْ تدمر كل ما حولك أثناء الحرب ليس عملاً عنيفاً، بل هو عنف متوحش».

• **بوليبيوس مؤرخ يوناني**

«سأخبرك بأشياء لا يعرفها المؤرخون، سواء كانوا من الإغريق أو البرابرة. إنه لأمر مخيف أن نتحدث عنها فلا يمكن لأحد أن يصدقها. لقد أسعدني أنني تجاوزت هذه الكارثة بصمت، حتى لا تلصق بي سمعة تدوين شيء سيظهر للأجيال القادمة مهيناً تماماً».

• **من كتاب يوسيفوس فلافيوس، حروب اليهود**

كان يوجد على هذه الأرض عالم آخر قبلنا بفترة طويلة، عالم العصور القديمة. خرج الناس من الصحراء بحثاً عن أرض خصبة وساروا إلى أرض مليئة بالكوابيس، حيث لا يكون أمامهم إلّا أن يَقتلوا أو يُقتلوا. واجهتهم سلسلة ملعونة من الأحداث، وشبكة متداخلة من المذابح التي ارتكبها رجال طموحون، تشابكت مع سلسلة من أعمال الخيانة والرعب والوحشية. إن العصر الذي نطلق عليه تسمية «مهد الإنسانية» يعرض لنا

نصباً حزيناً يمثل القسوة والوحشية والرعب المطلق. لا شيء في تاريخنا الطويل الذي نعرفه يمكن مقارنته بالوحشية المطلقة للماضي البعيد.

لقد حدثت صراعات في الماضي، لكننا لا نعرف عنها شيئاً. وعمليات الإبادة الجماعية لم تبدأ مع العصور القديمة؛ بل إنها موغلة في القدم إلى عصور ما قبل التاريخ. كان الجنس البشري لعصور لا تعد ولا تحصى، هو الوحيد من بين الكائنات الحية، مهووساً بالحرب. وعندما تتقاتل قبيلتان من أجل قطعة من الأرض من أجل توسيع مواردها الغذائية المحدودة، كانت الأقوى هي التي تقهر الأضعف. بدأ الانسان معاركه باستخدام الحجارة والعصي والرماح الحادة. كان اختراع القوس تقدماً هائلاً – وأصبح بإمكانه قتل شقيقه من مسافة بعيدة. مع ظهور السكاكين المعدنية والسيوف ظهرت مرحلة متقدمة من شكل الحروب وبدأت المعارك المنظمة. ومعها بدأت عمليات الذبح.

بدأ البشر بالتغلب على كل مشكلة استراتيجية وتكتيكية، مثلما فعل الإسكندر بقطع عقدة غوردية[1]، لكنهم اخترقوا أيضاً كل الاعتبارات السياسية ولم توقفهم أبداً أي معضلة أخلاقية في تصميمهم على القضاء على مدن وقبائل وأمم بأسرها. وقدموا العديد من الأدلة على شهوتهم للدم، وكانت تعتريهم ما يشبه الفرحة التي ينتشون بها لمجرد القيام بعملية الذبح. لكن هذا الارتياح لم يخفف أبداً من هذه الشهوة الرهيبة لمزيد من الدم. أصبح الجنود آلات متحجرة، منفذين محايدين لأهواء جنرالهم.

1- هي أسطورة تتعلق بالإسكندر الأكبر، في فترة من الزمان كان أهل فريجيا بلا ملك شرعي. تنبأت عرافة في تلميسوس (عاصمة فريجيا القديمة) أن الرجل القادم الذي سيدخل المدينة راكباً عربة يجرها ثور سيصبح الملك القادم. كان هذا الرجل هو الفلاح الفقير غوردياس الذي دخل المدينة على عربة يجرها ثور فأعلنه الكهنة ملكاً. عرفاناً بذلك قام ابنه ميداس بتقديم العربة إلى الإله الفريجي سبازيوس (الذي يقابله عند الإغريق زيوس) وقام بربطها بعقدة لا يبرز منها أي طرف حبل. كانت هذه العربة لا تزال موجودة في قصر أحد ملوك فريجيا القدماء في غورديوم حين دخلها الإسكندر الأكبر الذي حاول حلها عندما لم يجد طرفاً للحبل ليحل العقدة قام بقطعه بضربة من سيفه. المترجم.

كانت هناك أيضاً مآثر بطولية لا تصدق، ولكن حتى هذه التضحيات الشخصية شوّهتها للأسف الوحشية والرعب التي رافقت سلسلة لا تنتهي من المعارك والغزوات. كانت المعارك تجري في بعض الأحيان دون تخطيط مسبق، تجد فيها حشوداً من جنود المشاة يهجم بعضها على البعض الآخر، تتأرجح صفوفهم ذهاباً وإياباً وسط تزايد أعداد القتلى نتيجة للقتل العشوائي. كان المنتصرون يتقاسمون الغنائم؛ تُمنح الأرض للنبلاء وتُدفع رواتب الجنود من الغنائم. عرفت العصور القديمة المنتصرين فقط، أولئك الذين أظهروا عناداً وتصميماً وجرأة ومهارة، أو قادوا قوة متفوقة إلى حدّ كبير. وكانت النتيجة النهائية هي إخضاع السكان بالقوة لشيء لا يستطيعون فهمه أو السيطرة عليه. صمد البعض منهم وقاتل من أجل حقوقه، بينما خضع آخرون بهدوء إلى نزوات أعدائهم. كان كثير من الغزاة طائشين، ومتوحشين، وقد أوصلتهم القوة إلى أبعد وصف من الجنون؛ قليل منهم استخدم الحماس الديني في المسائل الدنيوية. في التحليل النهائي، شعر الكثيرون بخيبة أمل مؤسفة، مثل أي شخص يرتكب شراً مطلقاً حتى ينتج منه خير غامض لا يستحق ما فعله.

كانت «فترة تأسيس» التاريخ قاسية. الظروف المناخية تغيّرت؛ تدفقت القبائل الرُّحل من مناطقها الجافة بحثاً عن المراعي. ما كان كافياً للحياة القبلية البدائية لم يعد كافياً لحضارة تتقدم بسرعة. توقع أفلاطون، وهو واحد من عمالقة الفلسفة اليونانية، الذي أخذ على عاتقه أن يحلّ محل سقراط، هذا الجانب المقلق في عمله الضخم الجمهورية[2].

سقراط: ستصبح الأرض التي كانت تكفي لإطعام ساكنيها صغيرة للغاية وأقل من أن تكفيهم، ألا ترى ذلك.

غولاكن: هذا صحيح تماماً.

2- عن الترجمة التي قام بها ب. جوي والصادرة عام 1888.

سقراط: عندئذ ألا نضطر إلى أن نعتدي على أرض البلد المجاور من أجل أن يكون لنا من الأرض ما يكفي للزرع والرعي؟ كذلك ألا يضطر جيراننا بدورهم إلى التعدي على بلدنا، إذا تجاوزوا، مثلنا، الحد الأقصى للضرورة، وانقادوا لشهوة التملك الجامحة؟

غولاكن: وهذا، يا سقراط، أمر لا مفرّ منه.

سقراط: وهكذا سوف نذهب إلى الحرب، يا غولاكن أليس كذلك!

غولاكن: بالتأكيد.

سقراط: إذن، دون تحديد ما إذا كانت الحرب نافعة أم مضرة، ففي وسعنا أن نؤكد، أننا اكتشفنا الآن أصل الحروب في ذلك الدافع الذي هو أصل جميع مصائب الدول والأفراد.

كانت الأمم التي تعيش في المناطق التي حبتها الطبيعة بالموارد مطالبة بالدفاع عما هو ضروري لها، تسببت الدعوة إلى زيادة أعداد المقاتلين مع تحديث وسائل القتال في حدوث المزيد من المجازر البشرية. كانت الخسائر الفظيعة المروعة هي المعيار المقبول للنجاح في المعركة. وعلى الرغم من أن خسائر المنتصر كانت متواضعة نسبياً، إلّا أن الخسائر التي عانى منها المهزومون وصلت إلى أرقام كارثية. في معركة غوغميلا[3]، بلغ عدد ضحايا الإسكندر 500 قتيل، بينما خسر الملك الفارسي داريوش 300 ألف قتيل. أما أولئك الذين تمكنوا من الفرار فقد سنحت لهم فرصة للبقاء على قيد الحياة للمعركة القادمة؛ كان الجرحى ذوو الإصابات البسيطة، ولكن لا يمكن علاجهم، «مرتاحين لمعاناتهم». تذكر لنا كتب التاريخ أن جميع المحاربين العظماء قضوا نحبهم بشجاعة بسبب قذفهم بالرمح أو إطلاق سهم عليهم. لم يسجل أحد الوفاة غير البطولية لآلاف لا تنتهي من المقاتلين والذين قضوا نحبهم بشكل رهيب بسبب الالتهابات

3- هي معركة وقعت في سنة 331 ق.م، بين الإسكندر المقدوني وداريوش الثالث. انتهت المعركة بنصر المقدونيين وأدّت إلى سقوط دولة الأخمينيين. المترجم.

أو الغرغرينا كنتيجة مباشرة لجروح المعركة[4]. وكان العلاج المفضل في تلك الأيام هو التعاويذ أو أعمال السحر التي يقوم بها العرافون. أما بالنسبة للأمراض المعدية، خاصة تلك التي تنتقل عن طريق الاتصال الجنسي، والتي كانت مستوطنة في أي قوة قتالية، فلم يكن لها أي علاج. وكانت جرعات من شراب مستخرج من نباتات مثل قفار الثعلب، أو الحماض، أو المردقوش أو الخربق هي العلاج لأي شيء من آلام المعدة حتى نزلات البرد. كان نبات الفطر يجلب الفحولة والشجاعة. كان ترك المقاتل ينزف حتى يصبح لون جلده أبيض هو العلاج الوحيد ضد لدغات الأفاعي. واتخذ مرض الإسهال، الذي كان الأكثر شيوعاً بين جميع الإصابات في ميادين القتال، أبعاداً وبائية، وكثيراً ما أدى إلى الموت. كانت إصابات المعركة التي يمكن علاجها بشكل عام تجعل المقاتل مقعداً بشكل دائم. كانت الجروح التي تسببها السيوف تضمد بالراتنج الساخن المستخلص من الصنوبر المظلي. وكانت تتم خياطة الجروح العميقة بالخيوط المصنوعة من أمعاء القطط. أما الأرجل المبتورة فكانت تُعالج بالكي بواسطة قطعة من معدن حار يوضع فوق اللحم ويصدر أزيزاً. كان المخدر الوحيد هو قطعة من الخشب الصلب توضع بين الأسنان، وكانت تحفظ بشكل خاص لعدد قليل من المحظوظين بتلقي بعض الرعاية الطبية؛ وهم المنتصرون. أما المهزومون فيتركون للنزف والتعفن. في العصور القديمة كان من المؤكد أن «لا شيء يمكن أن يبعث على الحزن مثل خسارة المعركة سوى الانتصار بها».

كان مسلخ الموت منتشراً في كل مكان في أرض المعركة. ولكن ما الذي تسبب في هذه الأرقام المروعة للخسائر البشرية التي تصل إلى 200 ألف، و300 ألف، و400 ألف؟ من المؤكد أن تلك الخسائر لم تكن ناجمة بشكل مباشر عن القتال. ربما تمّ تضخيم بعضها بشكل مصطنع لزيادة

4- لم يكن أعظم تحسن شهدته التقنيات العسكرية في القرن العشرين هو اختراع القنبلة الذرية بل اكتشاف المضادات الحيوية.

مجد الملك المنتصر. لكن أعداد القتلى أثناء المعارك وبعدها كان ضخماً بالتأكيد. لم يأخذ أحد في الحسبان المجازر التي يتعرض لها الأسرى بعد انتهاء المعركة، أو أولئك الذين ذبحوا بالسيف أو تمّ رميهم من قمم الجبال والمرتفعات. كانت تحدث بعد كل انتصار مجازر لا توصف. كان يتم ذبح المهزومين بلا شفقة، مع زوجاتهم وأطفالهم - وغالباً ما يتم ذبح قبيلة بأكملها. هذا هو البلاء الذي ميّز الحرب على مرّ العصور عن كل نشاط بشري آخر.

كان الموت المفاجئ يمثل دائماً احتمالاً مخيفاً. وكان أي حدث لا يمكن تفسيره يسبّب الذعر. كانت الظواهر الطبيعية تجعل السكان مسكونين بالرعب؛ فالعواصف تجعلهم يتلون الأدعية طلباً للرحمة من آلهتهم، وكان سماع صوت الرعد معناه اقتراب يوم الحساب، وكان ظهور مذنّب في السماء ينذر بتدمير كل شكل الحياة. وتصل السذاجة وسرعة التصديق حدودها القصوى في أوقات الكوارث. لم يكن الأمر يشكل فرقاً آنذاك - فقد استولى الرعب على الناس بسبب انتشار نبوءة تقول إن الكارثة على وشك الحدوث وإن العالم يقترب من نهايته. وكان لذلك تأثير ضار على عقول العامة والمؤمنين بالقدر. كانت الشعوب تؤمن بنبوءات المتعصبين المجانين، وأذكى الكهنة المسعورون نيران الإرهاب، بينما تلاعب الحكام القساة المتطلعون للفتوحات بمشاعر سكان بلدانهم السذج وجعلوها تصل إلى درجة من الغضب الذي لا يمكن السيطرة عليه تجاه «قوى الشر الموجودة في جيرانهم». تمّ تشييد قصور الحكام وتشكيل الإمبراطوريات وتداخلت الحضارات فيما بينها: المصرية والعبرية والآشورية والبابلية والفارسية واليونانية والرومانية والبربرية. وعلى أنقاض سقوط كل واحدة من تلك الإمبراطوريات القوية ظهرت «حضارتنا المستنيرة».

كانت العصور القديمة أيضاً عصراً سيطرت فيه على العالم إلى حدّ كبير الأنظمة الاستبدادية العسكرية، بحيث اعتمد سير الأحداث

التاريخية على أفكار وقرارات قلة قليلة من الرجال. ولكنهم كانوا مجرد بشر، وكانت الأمور تسير على هذا النحو: كلهم يولدون عظماء وكلهم يرتكبون أخطاء فظيعة. لم تكن الدروس المستخلصة من تجارب الآخرين ذات أهمية كبيرة في الفترة التالية لأي من المشاركين المعنيين باتخاذ القرارات. وكون المرء ملكاً أو جنرالاً لا يجعله متفوقاً بأي حال من الأحوال على غيره من البشر. ولكن أخطاءه تكون أكثر تكلفة. إنها تؤدي إلى عواقب تتجاوز تلك التي تتبع أي فعل من أفعال الإنسان العادي. نود أن نفكر في هؤلاء الناس كرجال عاديين لبوا النداء في وقت الحاجة لهم؛ منهم الشجاع، والطيب والقبيح، والمفكر، ومن يمتلك شعوراً بالإنسانية والجزار، كل واحد من هؤلاء نتاج عصره، ويعتقد أنه كان يلبي نداء القدر الذي اختير من أجله. سيطر البعض بوضوح على المشهد العام، ومثل هؤلاء كانت سيطرتهم في العصور القديمة أكثر مما كانت عليه في أي فترة تاريخية أخرى. وكما هو الحال في أي فترة أخرى، تمّ الاستيلاء على إنجازاتهم بالقوة. كان لدى البعض رؤية ولم يخططوا لكي تسير جحافلهم لتدمير الأراضي المجاورة؛ لم يفعلوا ذلك ولم يراودهم حلم الهيمنة على العالم، أو تأسيس إمبراطورية لآلاف السنين؛ لأنهم اعتقدوا أن الجميع كانوا محترمين وسوف يسيرون في المسار الصحيح إذا أمكن توجيههم إلى المسارات الصحيحة. كان بعض الرجال فطاحل زمانهم مثل الأنبياء والفلاسفة والعاملين في المجالات الخيرية والإنسانية والملوك. لقد أثروا في التاريخ بدرجة أكبر من أي وقت مضى؛ لقد ألهموا شعوبهم بمثالهم وجلبوا لأممهم الشهرة الأبدية.

«كان هدفي أن أكتب سيرة حياة الإسكندر الأكبر وقيصر، اللذين دمرا مدينة بومباي، ولكن تعدد إنجازاتهم العظيمة يوفر مجالاً كبيراً للكتابة عنها لدرجة أنني سأتعرض إلى اللوّم إذا لم يكن ينبغي عليّ الاعتذار مسبقاً للقراء لأنني قمت باختيار عينة بسيطة منها بدلاً من ذكرها جميعاً وقمت بتلخيص الأجزاء الأكثر شهرة في قصتهم، بدلاً من التركيز بشكل

عام على كل ظرف معين من قصتهم. يجب أن يؤخذ في الاعتبار أن غايتي ليس سرد الأحداث التاريخية، بل سرد حياة الأفراد[5].

كان يتعين على الرجال المؤهلين ليكونوا زعماءً كباراً أن يتمتعوا بجميع الخصائص التي تجعل منهم قادة في أي مجال: الشخصية الجذابة التي تأسر الأتباع الموالين لهم وتحافظ على ولائهم؛ والمهارات التنظيمية لإدارة وتوفير احتياجات الجيش في ميدان المعركة؛ والتصميم على تطبيق الانضباط والحفاظ عليه. كانوا غزاة وحكام وإداريين وقضاة في آن واحد وجمعوا كل تلك الصفات في شخصية واحدة. وعندما كان القائد يريد أن يغزو منطقة معينة كان عليه أن يعرف السمات الجغرافية، والقضايا الدينية والعرقية، والمحرمات والخرافات التي يؤمن بها رجاله فضلاً عن السكان الأصليين. لقد كان شخصاً يحسب خطواته ببراعة ثم يقوم بتنفيذها بكل هدوء.

وقد أثبت بعض الرجال العظماء حقاً أن المشاعر النفسية للمقاتلين في الحروب أكثر تأثيراً من قدراتهم البدنية. في معظم الانتصارات الخالدة في العصور القديمة، اكتسب القتال الفعلي أهمية ثانوية تقريباً. إن الحقيقة العميقة للحرب هي أن المعارك عادة ما يتمّ حسمها في أذهان القادة المتصارعين، وليس بأجساد مقاتليهم. سيكون أفضل كتاب تاريخي هو الذي يسجل أفكارهم ومشاعرهم، مع مجرد خلفية من الأحداث لإضفاء نوع من الإثارة، لكن كتب تاريخ الحروب النموذجية، عززت أوهاماً تناقض هذه الحقيقة حيث حدّدت سبب الانتصار في المعارك من خلال احتساب أعداد المقاتلين المشاركين فيها[6].

ليست الحرب علماً فقط. بل يمكن أن تكون فناً. وكان من بين أبرز الذين برعوا في فن الحرب: تحتمس، وداود، وثيميستوكليس، وسكيبيو، ويوليوس قيصر؛ لكن هولاء كانوا عظماء عاديين. وكان هناك من كان

5- راجع (Plutarch, Parallel Lives (AD 46–120.

6- من أقوال الكاتب والعسكري الإنكليزي البارز باسيل هنري ليدل هارت.

أعلى مكانة منهم وتربع على عرش القمة. الذي جلس فيه الإسكندر المقدوني وهنيبعل القرطاجي ونابليون. لم يكن من قبيل الصدفة أن اثنين منهما عاشا في العصور القديمة.

إذا كان التاريخ قد كشف لنا شيئاً ما، فهو التأكيد على أهمية وصعوبة الاستعداد لما هو غير متوقع. لقد نشأت الحرب دائماً من خلال تجمع مخيف لعدد من الظروف، وكان قانون الصدفة لاعباً رئيساً في كل حرب؛ ونعني بها الأشياء غير المرئية وغير المتوقعة. لعب الحظ والقدر، أو الغباء من جانب الخصم، دوراً كبيراً جداً في نتيجة أي معركة وهو ما لم يرغب القادة المنتصرون الاعتراف به. يقال إنه لا ينبغي الحكم على بلد من قبل جنرالاته. هناك جنرالات جيدون مثلما يوجد جنرالات سيئون. ثم هناك جنرالات محظوظون. يعرف كل قائد عسكري قوة الحظ والفرصة؛ والقائد العظيم يعترف بوجودها. معظم عواقب الحرب يمكن التنبؤ بها. لقد ترك لنا التاريخ مجموعة من الأمثلة لنتعلم منها الدروس. ولكن هل تعلمنا فعلاً؟

«الشيء الوحيد الذي يعلمنا إياه التاريخ هو أن البشرية لا تستقي العبر أبداً من دروس التاريخ»[7].

7- هاينريش فون سيبيل، مؤسس المجلة التاريخية(Historische Zeitschrift) في عام 1859، وهذه العبارة مأخوذة من فريدريك هيغل.

الفصل الأول

عند مكان يسمى أرمجدون
معركة مجدو
15 أيار 1479 ق.م

يبدأ التاريخ الحديث بشكل محدد مع عام 1479 ق.م وإذا ما تناولنا تلك الفترة بمفاهيم عصرنا يمكن أن نسميها الحقبة الاستعمارية الإقليمية. على مدار أربعة وثلاثين قرناً، كان كل الطموح السياسي، سواء للفرد أو للمجموعات البشرية، يهدف إلى الامتداد الجغرافي، وإخضاع القبائل والشعوب المجاورة».

• *ثيودور هـ. روبنسون، تاريخ إسرائيل، 1945*

بدأت الليلة الطويلة لأول مذبحة دوّنها البشر مع الوقائع الأولى لأول معركة في التاريخ، وهي محفورة بالخط الهيروغليفي على الشاهدة الجنائزية للفرعون المحارب، قبل قرنين من خروج موسى[1]. وهي تقدم سرداً لما جرى من سفك للدماء في أرمجدون (هرمجدون)، أي

1- وصل موسى إلى كنعان في منتصف القرن الثالث عشر ق.م. واتخذ إبراهيم من سارة زوجة له ولوط ابن أخيه، مع كل ما جمعوه من مقتنيات والأرواح التي حصلوا عليها في حران؛ وخرجوا متوجهين إلى أرض كنعان سفر التكوين (12، 5).

جبل مجدو[2]. أما الإنجيل[3]! فقد أطلق على الموقع اسماً آخر - وهو الاسم الذي أصبح مرادفاً لكلمة الجحيم، المكان الذي تنطلق فيه النيران من السماء، حيث التقت قوى الخير والشر و«اجتمع فيه جميع الملوك لخوض المعركة النهائية» في يوم الحساب الإلهي؛ تاركاً وراءه خارطة للموت: هذا الاسم هو أرمجدون[4].

بدأ ذلك اليوم مثل بداية يوم آخر منذ بدء الخليقة، مع شروق الشمس بأشعتها الذهبية. ولكن بعد ذلك حدث شيء آخر، كان صادماً ورهيباً لأولئك الذين شاركوا فيه وتركوا لنا رواياتهم عنه على جدران معبد آمون في مدينة طيبة المصرية. كانوا شهوداً في ذلك اليوم الحافل بالأحداث على أول معركة عرفها التاريخ، وهو اليوم الذي واجه فيه ملك قادش، حاكم سوريا وجميع قبائل أرض كنعان، الفرعون تحتمس الثالث.

قبل عدة قرون من ذلك اليوم، غزت الجيوش المصرية أراضي كنعان وجلبت معها آلهتها وكذلك نيرها القمعي. أُجبرت أجيال من السوريين على العمل في عبودية مدقعة تحت سياط الفراعنة القساة. كان ملك قادش واثقاً أن كل هذا سوف يتوقف الآن... مع وجود آلاف من رجال القبائل ومئات من العربات الحربية على استعداد للقتال، سوف يجلد الفرعون الشاب ويرسله وهو يئن عائداً إلى مصر. أغلق طريقي الوصول المحتملين إلى بلاد كنعان، وبالتالي سيقطع الطريق على الجيش المصري. إنها الخطة المثالية. لكن كما كان ينبغي لملك قادش أن يكتشف ذلك، في الحرب لا يوجد شيء اسمه «الخطة المثالية».

إن أثمن موهبة يمكن أن يطمح إليها الإنسان هي المعرفة الإلهية.

2- موقعه الفعلي غير مؤكد؛ وذُكرت مواقع أخرى له، مثل جبل الكرمل وجبل صهيون.

3- العهد القديم، كتاب الوحي (16، 16).

4- وفقاً لكتاب الوحي، هو موقع تجمع الجيوش للمعركة حيث سيحين وقت النهاية، إما بشكله الرمزي فيستخدم هذا المصطلح أيضاً بمعنى عام للإشارة إلى أي سيناريو يشير إلى نهاية العالم. المترجم.

جميع الصفات الإنسانية الأخرى تتضاءل أمامها. كانت هذه هي الفلسفة الكبرى عند قدماء المصريين. كانت الإلهة إيزيس، تملك أعظم القوى الإلهية، وهي من خَلق الجميع، والمسيطرة على الطبيعة منذ بدء التاريخ. وكان أبو الهول، الرابض بغضب أمام المعبد، هو الحارس الأبدي لها[5]. لجعل القبائل الوثنية في البحر الأبيض المتوسط تؤمن بآلهتهم فعلاً، كان من المفترض أن يعبر الفراعنة البحر الأحمر. لكن الحقيقة التاريخية تكمن بالتأكيد في مكان آخر. كانت الأراضي الواقعة خارج مصر تسيطر على طرق التجارة الحيوية شرقاً، وحتى وادي الهلال الخصيب وما بعده. كانت السيطرة على الطرق تعني السيطرة على الجزء الأكبر من آسيا الصغرى. تمّت المحافظة على هذه الهيمنة بمساعدة جيش قوي. أنشأ أحمس الأول، مؤسس الأسرة الثامنة عشرة للفراعنة (حوالي سنة 1580 ق.م)، جيشاً محترفاً ذا واجبات محددة بشكل دقيق. كان الجنود المشاة مسلحين بمجموعة متنوعة من الدروع والرماح ومدعومين من الرماة. يكمن السلاح الرئيس للجيش الفرعوني في مرونة حركته؛ تقدمت مركباته الحربية الهجوم مثلما تخترق فرقة الدبابات في عصرنا قلب دفاعات العدو. قبل ثلاثة آلاف عام من مجيء رومل وباتون، أدرك فرعون مصري قيمة خطة الهجوم هذه وطوّر قواته التكتيكية على أساسها. قام ثلاثة ملوك محاربين هم أحمس وأمنحتب الأول وتحتمس الأول بتوسيع إمبراطوريتهم إلى سوريا ومن هناك إلى الفرات. لم تكن حملاتهم سوى غارات عملاقة تمّ فيها تجريف مناطق عدة، وحرق المدن، وذبح السجناء واستعباد القبائل.

عندما جرت هذه الأحداث - أيار سنة 1479 ق.م- كان يحكم مصر الفرعون تحتمس الثالث. كان شخصاً مميزاً منذ ولادته. وامتلك في سن مبكرة الحكمة وكذلك النضج الروحي والعسكري مما أثار إعجاب الفرعون الحاكم، وهي عمته، الملكة حتشبسوت، التي عيّنته قائداً

5- عن Apulee, Les Metamorphoses, and Plutarch, Isis and Osiris.

لجيوشها. على الرغم من أنها برهنت أنها تدير إمبراطوريتها في النيل بكفاءة كبيرة، فقد ظلت غير نشطة عسكرياً في مقاطعاتها النائية. وقد شجع هذا على اندلاع تمرد مكشوف في المناطق التي غزاها أسلافها. بعد وفاة الملكة، ارتقى ابن أخيها سلم العرش باسم تحتمس الثالث.

كانت حركة الاستقلال عن مصر تحظى بدعم سريع في أرض كنعان[6]. وكان ملك قادش، حاكم سوريا الذي يمثل مصر هو قوتها الدافعة، والذي سعى من أجل السيطرة الشخصية على الأراضي المقدسة، وهي منطقة مضطربة منذ 3500 عام وحتى يومنا هذا. وقد دعا ملك قادش 330 من ملوك المدينة المحليين، إلى تكوين جيش، وكان جميعهم متحمسين للانضمام إلى تمرده. كان الكنعانيون الذين معه قساة للغاية، ومسلحين بشكل جيد إلى حدّ ما بالسيوف البرونزية، والرماح ذات الرؤوس المعدنية وعدد كبير من العربات الحربية. الأهم من ذلك، أنهم احتفظوا بميزة التضاريس، حيث تمركزوا في مدينة مجدو، وهي مفترق الطرق الحيوي في الطرف الشمالي من سلسلة جبال الكرمل، الواقع عبر طرق التجارة الممتدة من مصر إلى الفرات. تسيطر القلعة المحصنة فيها على ثلاثة طرق: الطريق الشمالي من قرية دورا إلى مجدو ومدينة يوكنعام، والطريق الجنوبي من قرية تعنك إلى مجدو، وطريق عارة الممتد من عارونا إلى وادي عارة. وهذا الطريق -وهو في الواقع ممر- هو الوحيد الموجود على طول مضيق النهر الضيق، وبالتالي كان يعتبر محفوفاً بالمخاطر بالنسبة لتحركات القوات الرئيسية، لأن أي قوة تمر به ستصبح منهكة للغاية ويمكن أن تكون فريسة سهلة لأي كمين يصادفها.

كان من الممكن أن تصبح مدينة مجدو مكاناً لأكثر المعارك قسوة

6- وتضم أجزاء كبيرة من فلسطين وسوريا اليوم، كانت أرض كنعان هي الرابط الاستراتيجي بين مصر وآسيا وأهم طريق تجاري يستخدمه التجار وتداهمه الجيوش؛ وقد غزاها الفرعون سنوسرت الأول قبل حوالي خمس مائة عام، في عام 1971 ق.م.

التي شهدها تاريخ البشرية. كان مكانها المقدس (تل المتسلم)، الذي أُعِيد اكتشافه في عام 1903[7]، قد تمّ بناؤه على جبل مسطح القمة يبرز من سهل خصب يمتد إلى وادي يزرعيل (سفر يشوع 16-17) من هذا الجبل المسطح يرتفع بشكل حاد جبل الكرمل، ليحرس شاطئ البحر الأبيض المتوسط. وتوجد إلى شماله تلال الجليل ومدينة الناصرة، وإلى اليمين يربض جبل طابور الضخم. في الوقت الحاضر يبدو تل مجدو مقسماً مثل كعكة الزفاف لأن الكثير من البعثات الأثرية قامت بأخذ قطعٍ منه. تظهر الطبقات الأرضية المختلفة وجوداً بشرياً مستمراً دام لثلاثة آلاف عام. لا شيء يشير إلى أن هذا التل كان يوماً ما موقعاً لسلسلة من المعارك الحاسمة. بعد تحتمس الثالث جاء جيش الفرعون رمسيس الثاني، وبعده جاءت النبية دبوره «وقعت معركة كبيرة عند مياه مجدو». فاجأ جدعون قوم مدين هناك، وخسر الملك شاؤول المعركة أمام الفلستيين، وتوفي يوشيا ملك يهوذا هناك... توجه الفرعون نخاو ملك مصر لمقاتلة ملك الآشوريين عند نهر الفرات: وتوجه الملك يوشيا لملاقاته، فقتله في مجدو، عندما رآه». (سفر الملوك الثاني 23، 29). هذا المقطع من الكتاب المقدس عانيت في ترجمته. في الواقع، كان الفرعون نخاو يساعد الآشوريين المكروهين، بمعنى آخر إنه كان «متوجهاً» لمساعدتهم وليس «لمقاتلتهم»، عندما حاول يوشيا منعه[8]. تمّ العثور على سلسلة من الإسطبلات في مجدو التي تضم 450 حصاناً على الأقل و150 عربة. وهذا هو سبب قيام الملك سليمان برفع الضريبة؛ لبناء... سور القدس، ومدينة حاصور، ومجدو» (سفر الملوك الأول 9، 15). وفي هذه الإسطبلات ذاتها، قام الصليبيون

7- على يد عالم للآثار في الجمعية الشرقية الألمانية.

8- عن: (Assyrologist C.J. Gadd, translating from a parchment in the British Museum 1923).

الأوائل بربط خيولهم بعد ألفي عام، وبنى فرسان الهيكل[9] قلعة فابا في بداية المدينة المقدسة. غزا صلاح الدين الأيوبي وادي مجدو، واستولى على القلعة وقتل الصليبيين في مذبحة شرسة.

تغيرت القلعة عدة مرات. فقد حدث هناك، في 16 نيسان عام 1799، أن الجنرال الفرنسي كليبر قاد 1500 فرنسي لمحاربة 25 ألف تركي بقيادة «أحمد باشا الجزار». عندما كان الجنرال كليبر محاصراً، شن 600 مقاتل من سلاح الفرسان الفرنسي، بقيادة الشاب نابليون بونابرت هجوماً، وقاموا بمطاردة الأتراك عبر الأردن. وفي 21 أيلول 1918، قام اللورد اللنبي، بصحبة قوة المشاة البريطانية، بسحق جيشين تركيين، هما السابع والثامن، وأجبرهما على الاستسلام في آخر معركة شهدتها منطقة مجدو. وقد اندلعت تلك المعركة بعد مرور 3939 سنة على أول معركة معروفة في مجدو، جرت وقائعها في عام 1479 ق.م.

وهكذا، على مدى آلاف السنين، أصبحت مجدو بؤرة اشتعال الاضطرابات الدينية والسياسية. لكن المعركة الأولى حدثت لأسباب اقتصادية بحتة. كانت مصر الفرعونية غنية للغاية، وكانت تعتمد على التجارة بدلاً من أعمال الغزو. وكان شركاؤها التجاريون التقليديون هم مملكة الحثيين، وعاصمتها حتوساس الواقعة على نهر هاليس، ومملكة ميتاني، ومملكة نينوى على نهر دجلة، وجميع الشعوب الأخرى التي تعيش في منطقة الهلال الخصيب حول مدينة بابل الواقعة على نهر الفرات. كانت الطرق الرئيسة تبدأ من مدينة ممفيس ومنها إلى ممالك تدمر وماري وبابل التي تقع على نهر الفرات، ومملكة آشور على نهر دجلة، ومن هناك تنحدر إلى مدينتي سوسة وأوروك. أو إلى الشمال عبر مدينتي غزة وجبيل ومن ثم إلى مدن أوغاريت وطرطوس على البحر

9- هم أحد أقوى التنظيمات العسكرية التي تعتنق الفكر المسيحي الغربي، وأكثرها ثراءً ونفوذاً وأحد أبرز ممثلي الاقتصاد المسيحي. ودام نشاطهم قرابة قرنين من الزمان في العصور الوسطى. المترجم.

المتوسط وإلى مدينة أفسس أو سميرنا. كان من يسيطر على هذه الطرق هو الذي يسيطر على التجارة. والسفر على طول هذه الطرق كان تسيطر عليه قلعة واحدة هي مجدو.

ما إن علم الفرعون تحتمس الثالث، الموجود في مدينة طيبة الواقعة على نهر النيل، بالاضطرابات المتزايدة في أرض كنعان، حتى قام برد فعل سريع وجمع جيشاً من عشرين ألف مقاتل. كانت هذه هي المرة الأولى في التاريخ التي يُستدعى فيها تشكيل يتكون بالكامل من وحدات مهنية مدربة تدريباً عالياً. قام بتقسيم قوته إلى أربع فرق مكونة من خمسة آلاف فرد نظامي للفرقة الواحدة، تحت إمرة (قائد فرقة)، يمكن تمييزه بواسطة درعه الملون. كان مفتاح قوة الفرعون في قوته الضاربة المتنقلة. تمَّ تعزيز فرق المشاة بواسطة سلاحه الذي كان فائقاً في أيامه، وهو العربة الحربية، التي يجرها حصانان ويقودهما سائس مع اثنين إلى ثلاثة من الرماة يمثلون مدفعية متنقلة. كانت وحدات الانتشار السريع هذه مدربة تدريباً عالياً وجيدة الإدارة، كانت العربات حتى ظهور عبقرية المحارب تحتمس، تُعتبر مجرد وسيلة نقل تمكن النبلاء من الدخول إلى المعركة بأناقة؛ بدون خطة هجوم متماسكة، لم يسبق استخدامها من قبل كقوة هجومية قوية وموحدة لإحداث تأثير قاتل. علاوة على ذلك، كان تحتمس أول من أدرك تماماً أهمية ما تقدمه تلك العربات من دعم: فقد سمحت له وسائل النقل والإمدادات وبناة الجسور بأن يقطع المسافة من مصر إلى غزة في غضون عشرة أيام فقط. بعد فترة راحة قصيرة، انتقل إلى مدينة ياحام، الواقعة على المنحدر الجنوبي لسلسلة جبال الكرمل.

نبّه القرويون حاكم سوريا، ملك قادش، إلى ظهور سحابة كبيرة من الغبار ترتفع من وسط الصحراء. وهذا ليس له سوى معنى واحد وهو أن هناك جيشاً يتحرك نحوهم. أرسل ملك قادش دوريات استطلاع على الطريقين الرئيسين؛ أبلغته بوجود تحركات للقوات المصرية على كلا الطريقين. بناءً على هذه المعلومات، أنشأ موقعين دفاعيين على الطريقين

الشمالي والجنوبي المؤديان إلى مجدو ووضع جميع عرباته الحربية التي يملكها، وكانت في حدود ستمائة إلى سبعمائة عربة، في موقع خلف التل. ومن هناك ستكون قادرة على التقدم إلى الأمام والهجوم على أي من الطريقين. لكنه فشل في تغطية الطريق الثالث، ذلك الذي يخترق وادي عارة الضيق. قام تحتمس بحيلة ماكرة. فقد أمر كتيبتين صغيرتين بالتقدم على طول الطريق الرئيس وإحداث كمية كبيرة من الغبار عن طريق سحب حزم من الأغصان المقطوعة خلف مركباتهم من أجل خداع وحدات استطلاع العدو. وعلى عكس مشورة مستشاريه العسكريين، اختار بعد ذلك سلوك الطريق المحفوف بالمخاطر الذي يمر عبر وادي عارة الضيق. وانطلق مع معظم قوات جيشه، من ياحام واندفع من دون مراقبة أحد إلى سهل أرونا. يؤدي ذلك السهل المتدني والمنخفض إلى سلسلة من التلال التي تغطيها غابة كثيفة من الصنوبر دائمة الخضرة. عندما انتقل الجيش إلى منطقة الممر الضيق، منحته المظلة التي كونتها الأشجار إغاثة مباركة من تعرضه للحرارة في السهل المفتوح. أسرع الضباط المصريون في المسير على طول أرتال ممتدة، وحثّوا رجالهم على زيادة السرعة. دوّى صوت صدى حوافر الخيول التي تجرها العربات مثل صوت الرعد ما بين الأسوار الصخرية. بعد سبع ساعات من المسيرة القسرية، دفع تحتمس جيشه بالكامل عبر الممرات الخطرة. ربما كان قد فوجئ بأن قواته لم تواجه أي مقاومة، ذلك أن العدو لم يضع حراساً على المنحدرات التي تصطف على جانبي النهر. لقد نجحت حيلته. انكشف الغطاء الذي كانت توفره الغابة الصنوبرية بمجرد أن بدأت أشعة يوم جديد تتسلل عبر الجبال البعيدة. وصل تحتمس إلى قمة التلال. كان يمتد أمامه المسار الذي كان ينحدر بشدة إلى سهل عريض ممتد لمسافة كبيرة، كان المرج الذهبي يعكس السماء الصافية التي فوقه، وتحده التلال على مد البصر. وكان هناك غدير ماء، تغذيه المياه المتدفقة من سفوح الجبال، قد قام بتقسيم السهل. لم يهتم الفرعون كثيراً بجمال الطبيعة؛ فكل ما كان يشغل باله هو ميدان الأرض الشديدة الجفاف، فقد كان مثالياً لشنّ

هجوم بواسطة عربات الحرب ذات العجلات البرونزية. من وسط السهل الواسع، كان يتلألأ المخروط البركاني الذي كان يرتفع بثبات وسط ما يوعد بأنه سيكون يوماً حاراً آخر. وفي القمة، انتصبت قلعة مسوّرة كانت حدودها واضحة في وسط السماء الزرقاء.

حدّق ملك قادش بدهشة في جيش فرعون الذي انتشر من مضيق آراه نزولاً إلى مرج ابن عامر (ويسمى أيضاً عيمق يزراعيل) ليفصل بين فرقتي جيشه الكنعاني. بعث الرسل، وأمر بالانسحاب الفوري. وقد تحقق هذا في الوقت المناسب؛ الآن يمكنه نشر قواته على المنحدر السفلي للمخروط البركاني المؤدي إلى القلعة. ومرة أخرى كان قد أخذ موقع المتفوق في المعركة. وضع تحتمس، الذي كان يواجه صراعاً شاقاً، فرقة مشاته في الوسط مدعومة من قبل مائة عربة حربية، وهو جزء صغير من العربات التي كانت بحوزته. والباقي كان ينوي استخدامه في مناورة منسقة على جناحيه. لقد وضع هذه العربات في مدى يمكن منه توجيه ضرباتها بسهولة، وقد أخفاها بشكل جيد عن العدو وراء أوراق الشجر الكثيفة التي كانت حافاتها تطل على غدير ماء يُدعى كوينا.

بدأت المعركة، مثلما تبدأ كل معركة في العصور القديمة، بالطقوس المعتادة والتي تتضمن ذبح الأضحية. أخذ ملك قادش فأساً ذات رأس مزدوج وذهب إلى المذبح، وهو عبارة عن منصة خشبية أُقيمت في وسط ميدان القتال. تمّ ربط كبش هناك. رفع الملك الفأس عالياً حتى يتمكن كل واحد من آلاف المحاربين الذين كانوا هناك من رؤية الشفرة المتلألئة قبل أن ينزلها بشكل دائري مقوس. قطع رأس حيوان الأضحية بضربة واحدة وقام بغمس الفأس في الدم المتدفق. ثم بدأ يلوّح بالفأس ويهتف. أطلق رجاله هتافاً موحداً امتد من بداية ميدان القتال إلى نهايته. أصبح بإمكانهم تبادل الأنخاب فرحاً. لم يعتقد الكثير من مقاتلي الملك أنهم قادرون على هزيمة جيش الفرعون وأن يكونوا على قدم المساواة معه. ثم خيّم الصمت على الجميع. انتهى وقت الغناء والصلاة. وحان الآن وقت القتال.

لم يحدث شيء لفترة طويلة؛ واجه الجيشان بعضهما البعض دون أن يتحركا من مواضعهم. وحلقت النسور والطيور الجارحة فوقهم ببطء ثم اندفعت عالياً وبسرعة نحو السماء، وأصبحت غير مرئية تقريباً. مع ارتفاع الشمس في وسط السماء، استنزفت أشعتها المنصهرة طاقة الجيوش، تمّ اختبار صبر المقاتلين بشدة وأصبحت الأعصاب متوترة. اعتمد ملك قادش على خصمه لبدء الهجوم، ليهاجم المرتفع، حيث اصطف أفضل المحاربين السوريين والكنعانيين على سفوح جبل مجدو، بينما كان مقاتلو جيش الفرعون في السهل المفتوح، والشمس متجهة إليهم مباشرة. كانت الشمس ترتفع في السماء، وسرعان ما بدأ المصريون يعانون من الحرارة. لم يزل تحتمس يرفض إعطاء الأمر للهجوم؛ لقد سمح بمرور الوقت حتى يتطور الأمر إلى حرب أعصاب يمكنه فيها الاعتماد على انضباط قواته وكفاءة ناقلات المياه التي لديه، وهو يرافق صفوف قواته التي تحمل المياه بالقِرب المصنوعة من جلود الماعز من وادي كوينا. في الواقع، كان على المصريين أن يثبتوا أنهم القوات الأكثر انضباطاً.

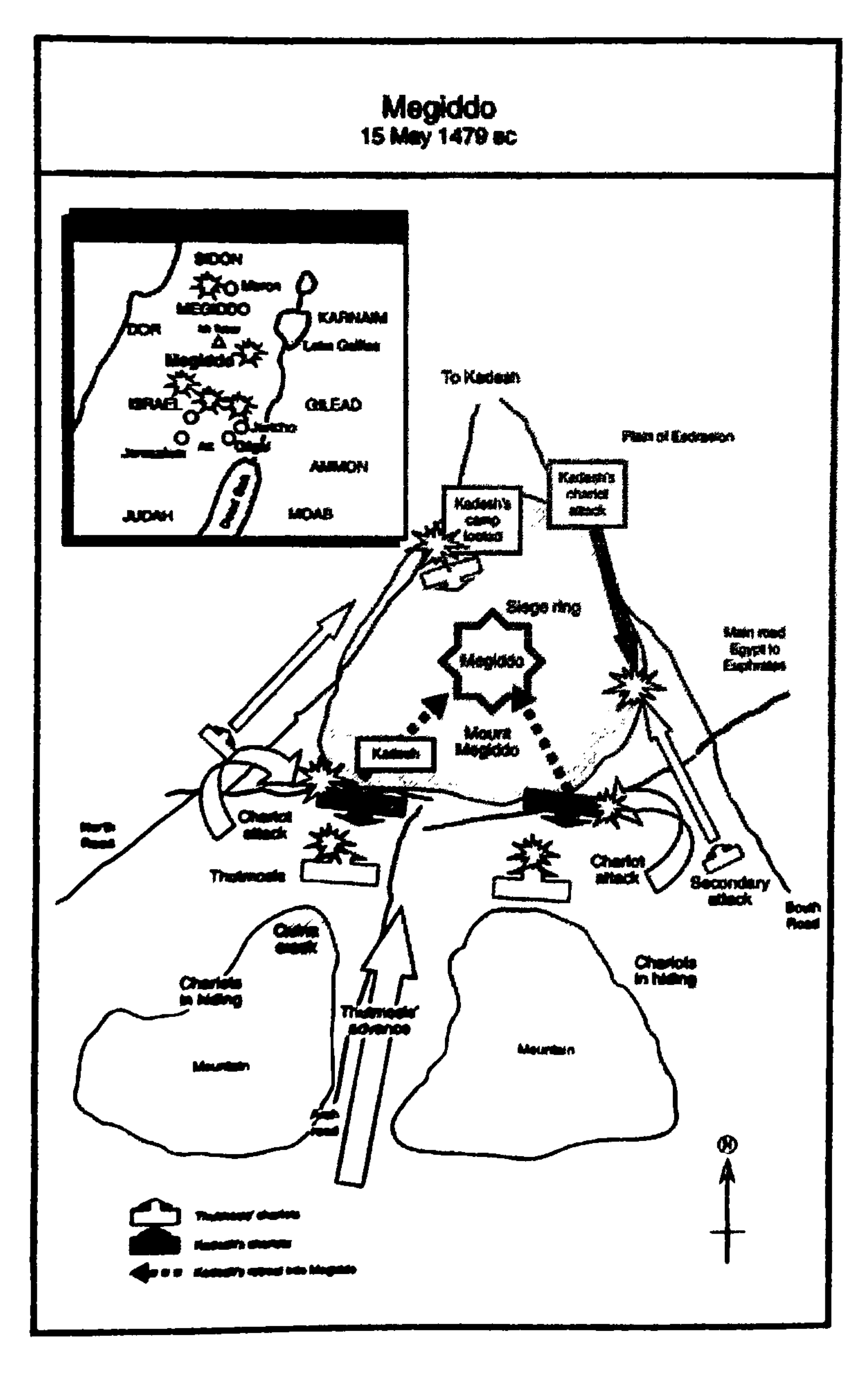
كان مقاتلو ملك قادش المتسلحون بدروع ثقيلة من طبقة النبلاء الذين اعتبروا واجباً عليهم أن يثبتوا شجاعتهم، ويتقدموا الصفوف، وأن يباشروا بعمليات القتل قبل الشروع بعملية الصدام الرئيسية. أراد ملك قادش التأكد من أن هذا لن يحدث. لكنه تصرف بعد فوات الأوان. قام عدد قليل من النبلاء الكنعانيين الأصغر سناً، الذين نفد صبرهم بشأن التأخير الطويل الذي اختبر شجاعتهم بشدة، بترك صفوف مقاتليهم ومضوا قدماً في الدخول في قتال شخصي. توجب على حراسهم الشخصيين والرماة وجميع المقاتلين الذين تحت إمرتهم اللحاق بأسيادهم دون أن تكون لديهم قناعة كبيرة بما يفعلوه. لقد جعلوهم يبدون مثل الغوغاء. اندلعت معارك متقطعة حيث حذا عدد من النبلاء الكنعانيين حذوهم. أدى ذلك إلى حدوث فوضى خطيرة في الخطوط القتالية الثابتة. لم يترك ذلك الأمر

لملك قادش خياراً آخر سوى التصرف قبل تفكك جبهته بالكامل. ارتفعت أصوات أبواق الحرب إشارة لبدء الهجوم العام. تخلى الكنعانيون عن موقعهم المتفوق في الحقل، وبدؤوا يتقدمون تحت وهج أشعة الشمس حيث كانت تتلألأ دروع الرجال والأسلحة والعربات الضخمة والخيول من خلفها وسط الحرارة. ما كان ينبغي أن يكون هجوماً يسير بشكل خط مستقيم بدأ يتلوى مثل الثعبان. كان الفرعون تحتمس يراقب تقدم العدو من عربته، ورصد الأخطاء المتزايدة في تشكيلات جيش الكنعانيين واستغلها على الفور. اكتسح صوت يشبه أنيناً ضخماً السهل والجبل، وبدأت الأرض تهتز بينما بدأ آلاف المحاربين المصريين بالتحرك إلى الأمام. وبدأ صوت الرعد يتعالى بينما كانت صفوف الرجال الهائجين تتقدم نحو بعضها البعض. ومثل النهر الذي يتدفق بسرعة، اجتاح الحشدان الضخمان ميدان المعركة، لم يكونا يتباعدان عن بعضهما إلّا لكي يلتقيا مرة أخرى. كانت النهايات البرونزية للرماح تلمع بشكل باهت في وسط ضوء الشمس الأصفر. تحرك الحشدان بسرعة، وهما يحطمان ويمزقان كل ما يقع في طريقهما. ثم يشتبكان مع بعضهما البعض. كان الميدان بأكمله يغلي في بحر يتلوى من الجنون، كان أحدهما يهتاج وهو يتقدم بينما يتراجع الآخر. أما الجثث فقد اكتسحها الفيضان البشري. اجتاحت موجة بشرية لقوات ملك قادش خطوط الفرعون القتالية، كانت تدوس على الجثث. امتزجت أصوات مقاتليها مثل جوقة تطلق عويلاً غير إنساني. اشتعلت النيران في شجيرة شوك جافة. وامتدت النيران إلى الغابة، وقد أضافت الحرارة والدخان إلى الأجواء الملتهبة التي كانت لا تطاق أصلاً. استمر الموت يحصد الأرواح بلا هوادة؛ سقط الرجال متأثرين بجراحهم العميقة، بينما راح آخرون يترنحون والدم يتدفق منهم، بينما سقط آخرون بسبب الإرهاق الهائل، أو لأن عيونهم بدأت تلسعهم بسبب العرق والحرارة والدخان الكثيف. سقط الرجال لأنهم لم يتمكنوا من ضخّ ما يكفي من الهواء في رئاتهم المحترقة؛ وأولئك

الذين سقطوا كانوا يترنحون أو ضربهم رمح أو سحقوا، وكانوا يتساقطون أحدهم فوق الآخر مثل تساقط الثلج على جبل الشيخ الذي تتوهج قمته عند غروب الشمس. كانت فوضى المعركة في كل مكان. كان الرجال يئنون ويقسمون ويصلون إلى أي إله يؤمنون به. وقف ملك قادش في وسطهم، وكل من حوله مرتبكاً، وهو يوبخ رجاله لشنهم الهجوم. بقوا غير منضبطين بشكل يائس، وهذا جعلهم عرضة للخطر. كان يعلم أن الأمر إذا استمر هكذا، فإن جنود الفرعون سيتدفقون من حول جناحي جيشه؛ ثم قد ينهزم محاربوه أمام التهديد ويهربون. وإذا حدث ذلك، يكون قد فقد تل مجدو ومعه كل أرض كنعان. في تلك اللحظة، بدا أن كل شيء يسير على ما يرام، حيث إن المزيد من محاربي الملك قادش كانوا يتقدمون بقوة وسرعة، وهم يصدرون عواء مثل الشياطين، وعلى استعداد للانغماس في الفوضى. لم يطلب أحد منهم أي رحمة ولم يكن هناك من يمنحها. كانت الرماح تخترق البطون والسيوف تقطع الرؤوس. لم يكن رجال ملك قادش سوى على بعد بضع خطوات من اختراق خطوط قتال جيش الفرعون، وكان يعتقد أنه سيكسب المعركة.

كان أول مؤشر على حدوث متاعب لملك قادش هو سرب من الطيور، كان يحوم في السماء منطلقاً من الشجيرات الموجودة على طول غدير كوينا، قبل أن تندفع مجموعة ضخمة من العربات الحربية لقوات الفرعون بشكل مفاجئ وتسبق رجاله من كلا الجانبين. اندفعت العربات مباشرة باتجاه الكتلة المشتبكة من المحاربين المقاتلين، مما جعل سحابة كبيرة من الغبار ترتفع وسط الميدان. لم يكن مقاتلو ملك قادش يعرفون عدد العربات التي هاجمتهم -هل كانت خمسمائة أو ستمائة، وربما كانت أكثر، فأسرعوا بجنون ليجتازوا المنطقة الحرام. وعندما أصبحت العربات في مرمى السهام، انقسمت وتدفقت نحو جناحيه. أطلق الرماة الراكبون على العربات موجة مميتة من السهام المصنوعة من القصب توجهت مباشرة إلى ظهور الكنعانيين. لكن المصريين عانوا أيضاً بشكل

كبير؛ فخيول عرباتهم التي أصابتها الرماح جثت على ركبها وهي تنخر مما جعل العربات تتطاير في الهواء، ووقعت على الرماة وكسرت رقابهم. وهناك مركبات أخرى تقطَّعت محاورها وتوقفت فجأة؛ سُحِبَت طواقم العربات منها على الفور وتكرر ذلك عدة مرات بشكل يثير الملل.



وبسبب انعطافهم إلى الجوانب لتجنب العربات الحربية للجيش المصري، ترك الكنعانيون مركزهم مكشوفاً بلا حماية. وعندما حدثت موجة جديدة من هجوم العربات المصرية، سقطت مجموعة من السهام على مقاتلي قادش قبل أن يتم سحقهم تحت العجلات البرونزية. حدق ملكهم عبر ميدان المعركة، نحو مرتفع صغير، حيث كان يوجد الفرعون اللعين والشمس تعكس أشعتها على خوذته الذهبية، كان تحتمس هذا، جالساً في عربته المتلألئة والمصنوعة من الإلكتروم[10] على قمة التل، مثل ملاك الموت، وهو يشاهد أعداءه يموتون. كانت دماؤهم تغذي الأرض حتى نما العشب وأصبح أكثر خضرة وسمكاً وغطى سهل زرعين[11]. أصبحت المعركة مشهداً من الأشكال والألوان المتغيرة. ارتفع الضجيج ليصبح شبيهاً بصراخ جوقة من الغجر؛ وكان وسط السهل يمثل بطن الوحش. انطلق المزيد من العربات الحربية المصرية من مخابئها، يتبعها الآلاف ممن يرتدون الخوذ المعدنية. وكانت تتألق الرايات التي ترفرف فوقها. كانت هناك مجموعات منفردة من الكنعانيين تحاول الصمود. كان ملك قادش يرفع سيفه ليحشد مجموعة من رجاله عندما هجم عليهم المصريون بالرماح والسيوف البرونزية. اندفع المصريون إلى الأمام، وجعلوا الكنعانيين يلوذون بالهزيمة.

أطلق الفرعون قواته الاحتياطية في هجوم أخير بالعربات الذي برهن أنه الأكثر تدميراً. تقدم تحتمس، على رأس ثلاثمائة عربة مع شفراتها المنجلية الملتفة الشريرة، وقطع بذلك الفجوة التي تفصل بين قوات قادش وقلعة التل. ومع خمسين، أو ستين عربة تسير جنباً إلى جنب، تقدمت آلة الحرب المصرية للاندفاع عبر الميدان. لا شيء يمكن أن يوقف اندفاع المئات من الخيول المحمية جيداً وهي تتسابق أمام العربات. تدحرجت

10 - هو سبيكة طبيعية المنشأ من الذهب والفضة، مع بعض كميات صغيرة من الرصاص والمعادن الأخرى. المترجم.

11 - مرج ابن عامر. المترجم.

عجلاتها البرونزية نحو عدوها الأعزل مثلما تكتسح الموجة الشاطئ. نزل الكنعانيون في جميع أنحاء الهضبة. تمّ فتح ممرات واسعة في صفوف الكنعانيين. تحت تأثير المناجل الملتفة المجنونة، بات خط سير مقاتلي ملك قادش متعرجاً، وهم يبكون، وينزفون، ويترنحون ويسقطون. انهار الآلاف من الكنعانيين بالجملة. في هذه اللحظات الأخيرة، دفع الآلاف أرواحهم لأنهم تجرؤوا على الوقوف أمام قوة مصر والعبقرية العسكرية للفرعون. لقد ترك وراءه مجموعة من الجثث، مستلقية مثل الدمى الرثة في المنطقة التي تحولت من لون الذهب الناضج لصباح خريفي إلى اللون الأحمر، بسبب المخلفات القبيحة لساحة القتال الدموية. إنها أرمجدون!

أولئك الذين تمكنوا من الفرار من المجزرة تركوا خيولهم ومركباتهم وأسلحتهم. وسارعوا للصعود وتسلق أسوار قلعة مجدو. وكان من بين الناجين ملك قادش السوري الذي كان ينظر إلى المذبحة الرهيبة والجثث المنتفخة والنسور التي كانت تتغذى عليها. شعر بألم نابض خلف عينيه. في السابق، كان هذا الألم يختفي دائماً بعد أن يقتل الرجال الذين خطط لقتلهم. ولكن هذه المرة لم يكن كذلك. وقد لعن نفسه لأنه -وقد أعمت بصيرته سخونة المعركة- قد غفل عن وجود المزيد من العربات الحربية المصرية الاحتياطية. بعد لحظات، ضرب الفرعون تحتمس بسوطه فحول الخيل البيضاء الثلاثة -وكأنه الإله حورس متسلحاً بمخالبه- وكان يتراكض أمام عربته، ما تبقى من أفضل المحاربين السوريين، الذين كانوا يفرون كما لو كانوا مرعوبين من أرواح شريرة.

لقد فوجئ المصريون بسهولة انتصارهم، فبدلاً من اقتحام قلعة غير محصنة، توقفوا عن المضي في مسيرتهم الظافرة ليقوموا بقتل الجرحى وتجريدهم من الدروع والمجوهرات. وكان هذا الاندفاع للحصول على الغنائم هو الذي أنقذ بعض السوريين. ومنح ملك قادش الوقت لتنظيم دفاعات البلدة. لم تقدم الكتابات الهيروغليفية على الجدران في مدينة طيبة أي دليل إضافي على طول فترة الحصار. ربما نجا المدافعون لأن

الفرعون سئم من تطويق القلعة. والنقش التذكاري لا يذكر سوى عدد الغنائم المستردة: 2000 حصان و900 عربة.

بعد انتصاره في مجدو، أخمد تحتمس بالقوة الممالك المتمردة؛ قام بإعدام ملوكها واستبدلهم بالنبلاء الأوفياء. اقتحم الفرعون معقل مملكة قادش، الواقع على الضفة اليسرى من نهر العاصي (بالقرب من مدينة حمص)، ثم انتقل إلى الآريين، الذين قاموا بغزو الأراضي الخصبة على طول منحنى الفرات العظيم، ودمّر مدينة حلب، قبل أن يعود إلى دياره في طيبة. ولغرض السيطرة على مياه البحر الأبيض المتوسط والأراضي المجاورة لها، أمر تحتمس ببناء أسطول حربي. وبذلك، بات يسيطر على تجارة البحر الأبيض المتوسط، وأصبح الحاكم لإمبراطورية واسعة بلا منازع. حتى إن البابليين والحيثيين البعيدين عنه أرسلوا له سفراء يحملون هدايا ثمينة. عندما توفي تحتمس الثالث عام 1447 ق.م، أصبح عهده يمثل قمة الحكم الفرعوني.

كان تحتمس أول من بنى إمبراطورية بالمعنى الحقيقي؛ وكان أول بطل عالمي. لم يصنع فقط انطباعاً عالمياً في عصره، بل منح انطباعاً بوجود نظام جديد... ويوجد اليوم اثنان من أعظم آثار هذا الملك، وهما مسلات هيليوبوليس، على الشواطئ المقابلة للمحيط الأطلسي كتذكارات لباني أول إمبراطورية في العالم[12].

في عام 1288 ق.م، انطلق فرعون آخر، هو رمسيس الثاني، على الطريق إلى مجدو، وكان الغرض هذه المرة تلقين الحيثيين درساً. فقد قام ملك الحيثيين مواتالي بتجميع قواته وغزا سوريا. واجهه جيش الفرعون رمسيس، وكان نسخة باهتة من جيش سلفه اللامع الفرعون تحتمس الثالث. قسم رمسيس جيشه إلى أربعة فيالق:ري وآمون ونارون

12- توجد المسلتان في مدينتي لندن ونيويورك. والاقتباس من كتاب تاريخ العالم القديم الصادر عن جامعة كامبريدج.

وبتاح[13]، وبقيادته فيلق آمون، عبر نهر العاصي شمال بلدة شبتونة، على بعد حوالي ثمانية أميال جنوب قادش. أوقع الملك مواتالي الفرعون رمسيس في الفخ. لقد أرسل مجموعة من «الفارين من الجيش» لإبلاغ الفرعون بموقف الجيش الحيثي، ووضعه شمال مدينة قادش. انتظره الحيثيون في كمين أعدوه عبر نهر العاصي، وما إن حاول فيلق ري التائه عبوره حتى تعرض للهجوم من قبل قوة كبيرة من العربات الحربية واقتيدوا في رحلة عشوائية. قام 17 ألفاً من جنود المشاة بقيادة الملك مواتالي بمطاردة المصريين في داخل معسكر الفراعنة واستولوا على كل ما يحتويه؛ ليس فقط الذهب والمجوهرات، ولكن أيضاً النساء، اللائي تركهن محاربوهن بدناءة ليواجهن مصيرهن. أصبح جيش مواتالي مشتتاً تماماً بسبب انغماسه في أعمال النهب والتمتع بالملذات الجنسية. اخترقت إحدى وحدات النخبة من مرتزقة رمسيس صفوف الحيثيين من الخلف، وأطلق الفرعون عرباته الحربية المتبقية، في الوقت الذي قام فيه فيلق آمون بالتحول إلى الاتجاه المعاكس وهاجم الحيثيين من الشمال. لقد أملى القدر سطوته وتمكن فيلق بتاح، الذي كان متخلفاً عن الركب، من الانضمام إلى المعركة. وبالتحام الفيلقين أجبرا الحيثيين على الفرار. تمكن ستة آلاف منهم، مع ملكهم، مواتالي، من الفرار خلف الجدران المحصنة في قادش. في المرة الأخيرة، ابتسم إله الحظ للمصريين. كانت معركة مجدو الثانية هي المعركة الأخيرة التي انتصرت بها إمبراطورية مصرية على الإطلاق. ومن إشارة وحيدة في سفر رؤيا يوحنا في الكتاب المقدس (الجزء 16 من 14-16) جاء مفهوم المحرقة الكارثية والتدمير النهائي، الذي ساد في البشرية منذ ذلك الحين. (فَإِنَّهُمْ أَرْوَاحُ شَيَاطِينَ صَانِعَةٌ آيَاتٍ، تَخْرُجُ عَلَى مُلُوكِ الْعَالَمِ وَكُلِّ الْمَسْكُونَةِ، لِتَجْمَعَهُمْ لِقِتَالِ ذلِكَ الْيَوْمِ الْعَظِيمِ، يَوْمِ اللهِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ... فَجَمَعَهُمْ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي يُدْعَى بِالْعِبْرَانِيَّةِ «هَرْمَجَدُّونَ».

13- أسماء الآلهة الأربعة. المترجم.

حُسِمَت معركة مجدو الأولى بهجوم مفاجئ للدروع المتنقلة. وأصبحت في الواقع، أول معركة دبابات في التاريخ.

من خلال انتصاره في معركة مجدو، أنهى تحتمس الثالث لمئات السنين أي تحدٍّ لحكم مصر على فلسطين وسوريا ووادي الأردن والفرات. وعلى مدى القرون الثلاثة التالية، حكمت إمبراطورية الفراعنة بلا منازع.

الفصل الثاني

سر النفق

القدس

18 آب 1010 ق.م

من يستطيع أن يصل النفق
سيتمكن من دحر اليبوسيين.

• *سفر صموئيل الثاني (5، 8)*

حدث ذلك منذ زمن بعيد موغل في القدم، عندما سار البطاركة[1] على هذه الأرض، أمر الرب موسى بأن يخلص بني إسرائيل من عبودية الفرعون في مصر ووعد بأن يقودهم إلى الجنة. أرض الميعاد. «أَلَمْ أُصْعِدْ إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، وَالفِلِسْطينيينَ مِنْ كَفْتُورَ؟» (سفر عاموس 9، 7).

غزت قبيلة محاربة من كفتور أرض الميعاد وهددت وجود إسرائيل ذاته: إنهم الفلسطينيون[2]. جلبوا معهم آلهتهم وثقافتهم. من أين أتوا، لم يكن أحد يعلم. لكن كانوا أينما ذهبوا يتركون وراءهم أثراً من الموت والدمار. تدفقوا عبر البلدان مثل سيل بشري، وعرباتهم التي تجرها الثيران

1- وهم بطاركة الكتاب المقدس، المقصود بهم إبراهيم وابنه إسحاق ويعقوب بن إسحاق. المترجم.

2- هم أبناء شعب قديم مذكور في الكتاب المقدس على أنهم من شعوب البحر التي هاجرت من جزيرة كريت أو الأناضول. المترجم.

محملة بكل ما نهبوه. وقد قاموا وهم مسلحون بالدروع الدائرية والسيوف البرونزية، بمحو الإمبراطورية الحيثية تماماً؛ والآن جاء دور إسرائيل. لقد خاضوا معركة، قتلوا فيها القادة الإسرائيليين، وقاموا بالعمل الأكثر كفراً وسرقوا الصندوق المقدس[3]، وقد التزم الكتاب المقدس الصمت بشكل غريب عن هذه الفترة. لم يكتب الكثير عن الفلسطينيين، بخلاف قصة شمشون، وهو رجل إسرائيلي لم يبتعد أبداً عن جادة الصواب. وعندما رفض تقديم فروض الطاعة والولاء لآلهتهم الوثنية، تعرض للخيانة من قبل أغلى معشوقاته، دليلة. تمّ القبض عليه وتقييده في المعبد الوثني، ثم استخدم قوته الخارقة لكسر أعمدته وأسقط السقف على رؤوس قادة الفلسطينيين. قدم النبي العبري صموئيل قرباناً للرب، مما أدى إلى انتشار وباء الطاعون بين الفلسطينيين؛ الذين بسبب خوفهم من سوء حظهم، ولإرضاء الشخص الذي أطلق عليه الإسرائيليون اسم ربهم، أعادوا الصندوق المقدس، وعلى الرغم من ويلات الطاعون[4]، كان الفلسطينيون بعيدون كل البعد عن أن يكونوا مثل الآخرين واستمروا بإلحاق ضرر كبير بأطفال الرب. أدى ظلم الفلسطينيين هذا إلى دفع الإسرائيليين للاتحاد فيما بينهم ليختاروا ملكاً لهم. كان نبيهم صموئيل قد وعد بأن يظهر ملك[5] قريباً لقيادتهم وتخليصهم من عبوديتهم. أول من ادعى بحقه في هذا التاج كان شخصاً من سبط بنيامين[6] اسمه شاؤول. استخدم لقب ملك[7]، لكنه كان مستبداً. كان لدى الملك حارس شاب، «وكان اسمه داود...» وكان داود هذا متحمساً لإيجاد وسائل ترفع الروح المعنوية لبني إسرائيل تؤدي بهم إلى النصر في نهاية المطاف.

---

3. صندوق في الكنيس يوضع فيه سفر التوراة. المترجم.
4. يشمل مصطلح «الطاعون» كل أنواع الأوبئة، مثل الجدري أو الحصبة أو نزلات البرد
5. ناجد بالعبرية في الأصل. المترجم.
6. هو الشقيق الأوحد للنبي يوسف. المترجم.
7. ملخ بالعبرية في الأصل. المترجم.

عندما تحطمت قوة شعبه وتملكه اليأس، شرع داود في مهمة لتوحيد مملكة يهوذا وإسرائيل في جبهة موحدة ضد مضطهديهم الفلسطينيين. في البداية، دفع الطموح والغيرة العديد من زعماء القبائل إلى رفض مساعدته. لكن هذا لم يوقفه عن مسعاه، ولم يستسلم. ذهب إلى إحدى القبائل، التي كانت خانعة ويائسة، وخاضعة لنير رهيب، وحوّلها إلى أمة من الأبطال الشجعان يشتهر الملك داود (1010–973 ق.م) بقتله لجالوت بطل الفلسطينيين. «فَخَرَجَ رَجُلٌ مُبَارِزٌ مِنْ جُيُوشِ الْفِلِسْطِينِيِّينَ اسْمُهُ جُلْيَاتُ، مِنْ جَتَّ، طُولُهُ سِتُّ أَذْرُعٍ وَشِبْرٌ وَمَدَّ دَاوُدُ يَدَهُ إِلى الْكِنْفِ وَأَخَذَ مِنْهُ حَجَراً وَرَمَاهُ بِالْمِقْلَاعِ، وَضَرَبَ الْفِلِسْطِينِيَّ فِي جِبْهَتِهِ» (سفر صموئيل الأول، الإصحاح 17 السطر 4 و49).

لم يكن داود مجرد قاتلِ عملاقٍ، بل كان أيضاً أحد المحاربين العظماء في العصور التوراتية، وأول عبري يوحِّد بين اثنتي عشرة من قبائل يهوذا وإسرائيل في أمة واحدة عظيمة. قتله لجالوت العملاق (بواسطة مقلاع) جلب له جاذبية شعبية كبيرة، وأثار هذا غيرة الملك شاؤول. ومن أجل استعادة سطوته على داود، تحدث شاؤول مع ابنه يوناثان وبعض القبائل الإسرائيلية لأجل خوض معركة مع الفلسطينيين «في قرية تعنك بجوار مياه تل مجدو» (سفر القضاة 5، 19). توجّه شاؤول ويوناثان إلى ما كانت تعتبر معركتهما النهائية. تدفق الفلسطينيون من أسفل جبل جلبوع، وقبل أن يكون لدى شاؤول الوقت لإصدار الأوامر لرجاله كانت تحيط به قوة ساحقة. طاردت أفراد جيش شاؤول الصغير عبر السهل وذبحتهم. بعد أن شاهد ابنه وهو يقتل، ألقى شاؤول بنفسه على سيفه ليتجنب الأسر[8]. تمّ تعليق جثتي شاؤول ويوناثان في جدران بيت شان في قلعة الفلسطينيين. مع وفاة شاؤول، انتهت أول مملكة لبني إسرائيل، وسقط شعبها في وهدة اليأس، دون أمل في تعويض ما خسره.

8- توجد لوحة شهيرة حول هذا الموضوع للرسام بيتر بروغيل معلقة في متحف الفن في فيينا.

سمع داود، الذي كان يعيش في ذلك الوقت في مدينة الخليل، بالكارثة التي واجهت شاؤول وقال حينها: الرب يساعد فقط من يساعد نفسه. ومن يظل يضع كل شيء خلفه سيبقى ضائعاً. لقد أخذ الأمر على عاتقه وأسس قوة حرب عصابات صغيرة. كان يخطط بعناية لعملياته حتى لا يخاطر أبداً بهزيمة كبيرة، فقد أجبر هو وفرقته الفلسطينيين تدريجياً على الدفاع، بينما كان، من ناحية أخرى، يعزز قواته باستمرار، وزاد من حجمها من وحدات صغيرة من الرجال إلى أفواج قادرة على مهاجمة مواقع أكبر للعدو. وتمكن في سلسلة من الكمائن التي أقامها في تلال ووديان مملكة يهوذا، من ضرب الفلسطينيين في الأماكن التي لا يمكن لهم أن يتوقعوها وألحق إصابات عديدة بهم. مع كل ضربة ناجحة، كان يرفع من معنويات رجال القبائل، حتى جاءت اللحظة التي تمكن فيها المتمردون من السيطرة على منطقة واسعة من مملكة يهوذا وحمايتها من أي هجوم وأعاد تنظيم قواته في جيش نظامي. حدث ذلك عندما أعلنت ست قبائل تنصيبها داود ملكاً على يهوذا. حينها شرع في توحيد جميع القبائل الاثنتي عشرة[9]. وفي خطوة سياسية ذكية، اتخذ من ابنة شاؤول، زوجة له، ثم تخلص بسرعة من معظم منافسيه. تطلب ذلك الأمر من داود سبع سنوات وعدة معارك أخرى قبل أن تقبله القبائل كملكٍ عامٍّ عليها، ثم توجه على رأس جيشه إلى سوريا، حيث هزم هدد عزر ملك صوبة. ومن هناك سافر عبر الصحراء إلى الفرات وحطم ملك الآراميين، الذي كان على استعداد لغزو أراضي الآشوريين. بهذه الطريقة، أنقذ داود الآشوريين من الانقراض، وأصبح بعنق الآشوريين دَين له قاموا بسداده بعد قرنين من الزمان من خلال القضاء على إسرائيل. ثم عاقب داود الفلسطينيين الموجودين في مدينة بيت شان، قتلة يوناثان وشاول.

قبل أن يوجه داود انتباهه إلى اليبوسيين، خاض معركة أخرى مع يوآب

9- وأسماء هذه القبائل هي: آشور وبنيامين ودان وإفرايم وجاد ويساكر ويهوذا ومنسى ونفتالي وروبن وشمعون وزبولون.

قائد جيشه وأبنير، اللذين ساندا ابن شاؤول الوحيد الباقي على قيد الحياة في تحديه لادعاء داود بالتاج. كان كل من يوآب وأبنير من المحاربين الشجعان، وفي الساعة المحددة، أحضروا اثني عشر من رجالهم إلى «بركة جبعون» (شمال القدس). لقد كان تبادل إطلاق نار بين رعاة بقر أكثر منه معركة حربية، خلفت وراءها الجميع موتى، باستثناء يوآب.

لأجل حكم مملكة يهوذا المتحدة مع مملكة إسرائيل كان الأمر يستدعي إقامة عاصمة رمزية. لم يكن هناك سوى مكان واحد مناسب لهذا الشرف، قلعة يبوس[10]، المبنية على صخرة إبراهيم التوراتية. سيوفر هذا المكان المقدس رمزاً موحداً لبني إسرائيل. لقد وهب الرب داود القوة وعظمة الروح، وها هو قد كرّس نفسه الآن لهذه القضية المقدسة وتعهد بشرف أن يضع الصندوق المقدس الذي يحوي التوراة في معبد قرر أن يبنيه على الصخرة. ولكن كان عليه أولاً الاستيلاء على المدينة من الأعداء اليبوسيين. وهذه لم تكن مهمة سهلة. فالمدينة تقع على منحدر صخري وتحيط بها أسوار ضخمة. حاول رجال يوآب طوال أسابيع التغلب على تلك الأسوار الصلبة، ولم تنجح محاولاتهم لعدة أسابيع. حاولوا ارتقاء السلالم لكن واجهتهم السهام والحجارة حتى أصبح الطريق المؤدي إلى المنحدر الحاد مليئاً بجثث القتلى والجرحى. أبلغ يوآب ملكه بأن المدينة تدافع عن نفسها بقوة لدرجة أن الوسيلة الوحيدة لفتح بوابتها كانت عن طريق فرض حصار عليها وتجويع سكانها. لم يكن داود يريد المزيد من إراقة الدماء، لكن لم يكن لديه الوقت لانتظار الاستسلام من خلال تجويعها. كانت بعض قوات القبائل المتحالفة مستعدة لترك المعسكر. فبدأ يبحث عن طريقة لإنهاء الحصار بسرعة.

فجأة وعلى حين غرة، حققت معجزة الكتاب المقدس ما فشل المسلحون في فعله. قيل إن الرب نزل من السماء في إحدى الليالي وفتح البوابة إلى المدينة. ودخل الملك داود وأتباعه دون الحاجة إلى القتال

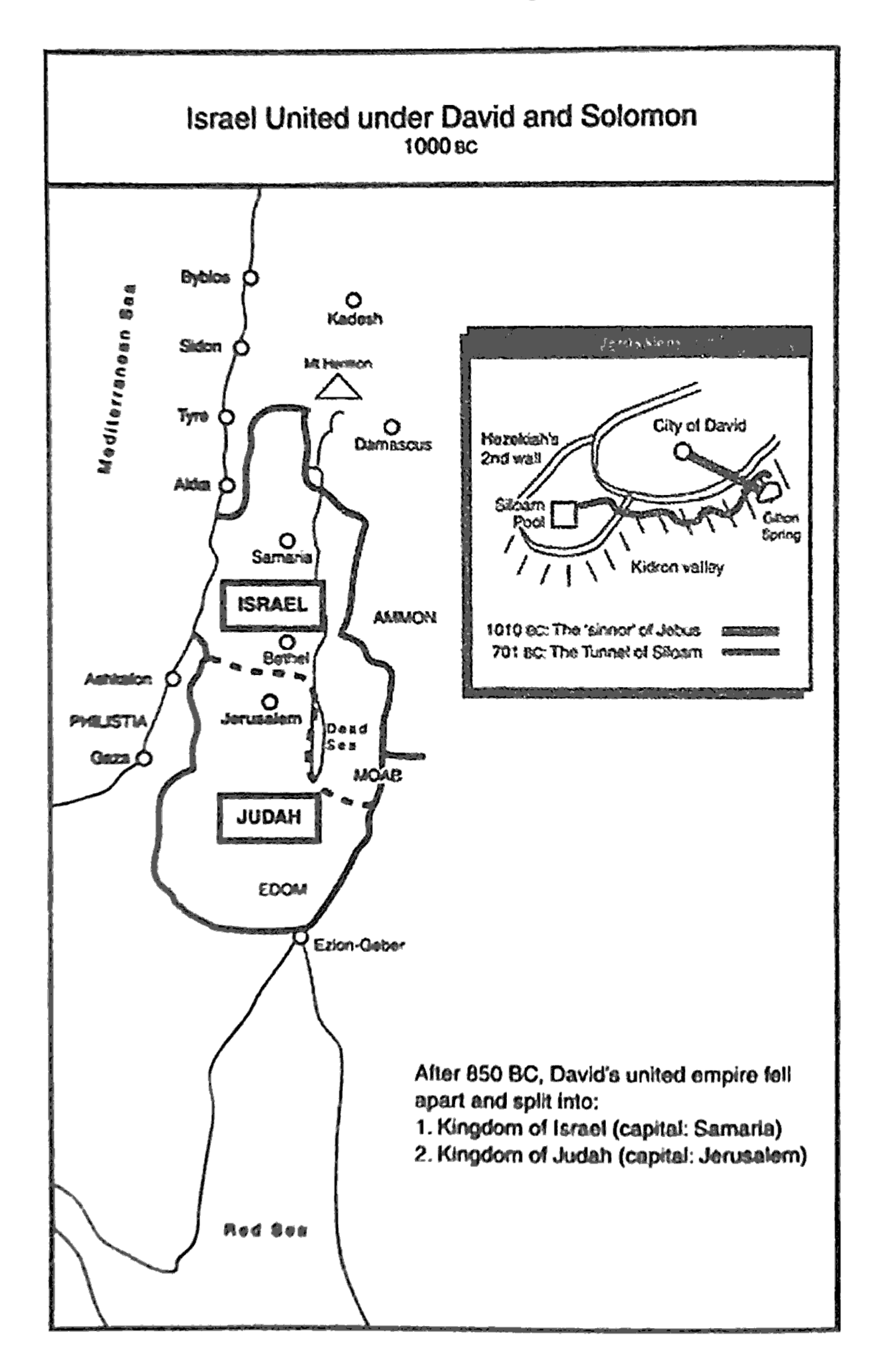
10- أحد أسماء مدينة القدس. المترجم.

من أجل ذلك. انتشرت أخبار سقوط يبوس، التي نتجت عن فعل الرب، والتي لم يكن ينظر إليها إلّا على أنها ليست سوى أمر خارق للطبيعة، وانتشر الخبر إلى أقصى أجزاء مملكتي يهوذا وإسرائيل. كانت تلك معجزة، والجميع اعتبروها كذلك. لم يكن حتى رجال الملك يعلمون كيف تحققت المعجزة.

على الرغم من حالات الحصار الكثيرة التي ستتبع تلك الحادثة في القرون القادمة، بما في ذلك هدم الأسوار والأعمال الوحشية التي ولدتها، فقد مرَّ ثلاثة آلاف عام قبل أن يكتشف ضابط في الجيش البريطاني كان قد قرأ الكتاب المقدس سر داود. أُخْفي السر في الكتب القديمة التي كان لا بد أن تكون لدى داود معرفة بها، وكانت تحتوي إشارة موجزة إلى شيء يسمى (sinnor). وهذه الكلمة تعني بالعبرية ثلماً أو صدعاً، ولكنها يمكن أن تعني أيضاً ممراً ضيقاً أو نفقاً. وكان ذلك صدعاً طبيعياً، اتسع على يد السكان القدامى في يبوس ليصبح نفقاً، يؤدي من قلب القلعة إلى مصدر للمياه موجود في الصخرة التي شيّد عليها المعبد. على مرّ القرون أصاب الإهمال هذا النفق وتمّ نسيانه.

في عام 1867، أمضى النقيب وارن، وكان قارئاً متحمساً للكتاب المقدس، إجازته السنوية في القدس. كان قد اطّلع على الإشارة التي وردت في الكتاب المقدس إلى (Ain Sitti Maryam) وتعني ينبوع ماء السيدة مريم، حيث كانت تغسل السيدة العذراء ملابسها فيه. كان رجلاً متديناً للغاية، وأراد أن يرضي فضوله، فزار ينبوع الماء، وشاهد فقاعات المياه وهي تخرج من ثقب في صخور الأساس كما كان حالها منذ آلاف من السنين. لم تكن تسمى دائماً نافورة مريم. قبل وقت طويل من مجيء النبيّ المسيح كانت تعرف باسم جيهون Gihon ومعناها بالعبرية «المبقبق». وبينما كان وارن يضم الماء بكفيه، نظر إلى أعلى ولاحظ ما بدا وكأنه ثقب من صنع الإنسان. استرجع بشكل غامض الإشارة التي وردت في الكتاب المقدس والتي لم ينتبه إليها جيوش من علماء الآثار:

«كل من يصل إلى النفق سيهزم اليهود» (سفر صموئيل الثاني 5، 8). هل يمكن أن يكون هذا هو النفق المذكور في الكتاب المقدس، والذي تمكن من خلاله الملك داود أن يهزم اليبوسيين؟ أمضى النقيب وارن ليلته دون أن يهدأ، وقرأ ذلك المقطع من سفر صموئيل الثاني مراراً وتكراراً. لقد اكتشف النفق...النفق... النفق...



عند شروق الشمس عاد النقيب وارن إلى نافورة السيدة العذراء، وبالاتكاء على كتف قوي لحاج ألماني، صعد إلى الحفرة. لقد كان يخاطر وكان يعلم أنه لا يجب أن يفعل ذلك، لكن فضوله كان قوياً. بدأ يزحف على يديه وركبتيه وهو يحمل مشعلاً للإضاءة. لقد راكمت الحيوانات البرية نفاياتها الطبيعية على مدى آلاف السنين. سرعان ما أصبح المصباح غير مفيد لأن النفق بات ضيقاً وكان الضوء قريباً جداً من وجهه لدرجة أنه كان خائفاً من أن يحرق شعر ذقنه. كل ما فعله اللهب هو إزالة الستار الكثيف الذي نسجته خيوط العنكبوت. كان السكان الوحيدون في هذا العالم السفلي هم العناكب المكسوة بالشعر وبأرجل مخططة والعقارب الصغيرة التي تزحف على الجدران. وكلما كان يزحف أكثر، كلما كان الهواء يصبح أكثر عفونة. في تلك الأثناء، كان سقف النفق منخفضاً إلى درجة أنه أجبره على أن يتحرك زحفاً على بطنه. لقد أراد أن يغادر هذا المكان المروع، لكن القيام بذلك يعني بقاء الغموض الذي يكتنف الموضوع، وبقاء الأمر محيراً كما كان من قبل وبدون أن يكتشف أي شيء وهو ما منعه من فعل ذلك. وصل النفق إلى نهاية مفاجئة. لم يتبق أمامه سوى القليل والثمين جداً الذي يمكن أن يفعله؛ كان محشوراً مثل قطعة فلين في زجاجة. نظراً لضيق النفق، لم يستطع حتى أن يعكس اتجاهه! كان الهواء متعفناً لدرجة أن التنفس أصبح صعباً. لقد أثار قدراً كبيراً من الغبار الجاف الذي جعله يسعل، لدرجة الاختناق. لقد ظن أنه سوف يموت وأن أحداً لن يعثر عليه مرة أخرى. للحظة لم يعد يهتم، ثم اصطدمت ركبته بشيء مدبّب وأعاد الألم الحاد التركيز إلى حواسه. حاول إعادة إيقاد شعلة الإضاءة لكن ذلك أثبت أنه من المستحيل، بالنظر إلى المساحة المغلقة وحركة ذراعيه المحدودة. بدأ ينقب في الجدار بنوع من العزم الميؤوس منه، بحثاً عن أية شقوق، عندما شعر بانخفاض في سقف النفق، كان مسدوداً جزئياً بحجر. بعد أن تمكن من دفع الحجر إلى أحد الجوانب، شعر بدخول نفحة هواء

جديد؛ كان الثقب يؤدي إلى مخرج في مكان ما في الأعلى! ومع التواء جسده، دخل في الممر، مما أدى إلى أن يقف بشكل مستقيم. دفع ذراعيه إلى الأمام، ومرّر يديه على الجوانب الملساء لمدخنة صخرية عمودية، عندما لمس درجات مقطوعة في الصخر. كان يعلم أنه كان على وشك أن يكشف السر القديم. بالنسبة له كان السبيل الوحيد للخروج من النفق هو أن يقف بشكل مستقيم. بعد مسافة قصيرة، اتسع النفق وانعطف مما جعله يتمكن من تسلقه على أطرافه الأربع، فبدأ يتجه أعلى ثم أعلى. ولأول مرة أصبحت هناك من حوله فسحة واسعة، فأوقد الشعلة. ثم وصل إلى كهف من الصخر المتكسر، ربما كان ملجأً تحت الأرض. كانت هناك خيبة أمل أخرى تنتظره؛ فقد سدَّت المخرج كومة من الصخور المتكسرة. بدأ يزيح الصخور، وينظف الأرض الرخوة فيما بينها. ومرة أخرى، تغلب عليه شعور باليأس. كان يصلي من أجل أن يحصل على ومضة من ضوء النهار، لكن صلاته لم تُستجَبْ. احترقت شعلته، ومع يأس متزايد تلمس طريقه مثل الأعمى نحو الكومة. تثبّتت يداه بإحكام من حول حجر كبير محشور. ثم حدث التالي: وقع الحجر الكبير، وتدفق الهواء عبر الفتحة. حجب الغبار الرؤية عنه قبل أن تدخل حزمة من الضوء. أخرج جسده عنوة من الحفرة، وزحف على يديه وركبتيه نحو النور ووجد نفسه في وضح النهار داخل فناء مزدحم بالركام - في وسط مدينة القدس! بعد ثلاثة آلاف سنة تمّ حلّ لغز غزو داود للقدس. وتكريماً له تمّ تسمية النفق بممر وارن[11].

تمّ الكشف عن بقية المكان بعد إجراء المزيد من التنقيبات التي قام بها عدد من علماء الآثار والعلماء المختصين بالكتاب المقدس والمؤرخين الذين اتبعوا خطى النقيب وارن. بطريقة ما، فإن الملك داود عثر في الكتاب

11- قدّم اكتشاف وارن مادة لنقاش ساخن بين علماء الآثار، الذين جادلوا بأن مخرج الممر لم يكن من الممكن أن يكون نفق الملك داود كونه ينتهي خارج أسوار المدينة التي كانت تحمي اليبوسيين أيام الملك داود، إلى أن تمّ حفر جدار آخر يعود إلى عصر ما قبل داود والذي أظهر أن المخرج كان بالفعل داخل المدينة.

المقدس القديم على ذكر للممر؛ أو ربما أخبره أحد أصدقائه اليبوسيين عنه. أمر الملك داود الجنرال يوآب الذي كان محل ثقته باستكشاف هذا المسار المحتمل. فقاموا بالبحث في قاعدة المنحدرات بحثاً عن المدخل إلى الممر، حتى وجدها أحد رجال يوآب خلف «موضع خروج الفقاعات». أرسلوا فتى إلى الممر، وقد حمل شعلة تضيء له المكان. في غضون ساعة، عاد الشاب وأخبرهم أن الممر يقودهم بالفعل صعوداً نحو جدران مدينة يبوس.

انتظر مجموعة من أفراد الجنرال يوآب، الذين تمّ اختيارهم خصيصاً وأقسموا على كتمان السر، حلول الظلام قبل صعودهم على طول أنبوب المياه. لم يكن بمقدورهم أن يحملوا رماحهم الثقيلة، ولا حتى سيوفهم. كان سلاحهم الوحيد هو التخفي والمفاجأة. ما إن أصبحوا داخل الممر الضيق، حتى تقدموا بحذر شديد. لم يجرؤوا على استخدام الضوء خوفاً من اكتشافهم، ولم يكونوا يعرفون أي من الوحوش الغريبة أو المفاجآت الأخرى التي يمكن أن يتوقعوا أنها تختبئ في ذلك النفق المظلم. بدؤوا يصعدون رويداً رويداً إلى الأعلى - ثم خرجوا إلى مدينة يبوس المظلمة. ومن خلال عدد من الممرات السرية، نجحوا في الوصول إلى بوابة المدينة. وما جعلهم يطمئنون أكثر أنهم لم يجدوا سوى عدد قليل من الحراس وهم يقومون بعملهم، وكانوا جميعهم قد ركّزوا انتباههم في ما فوق السور وليس خلفهم. لا بد أن أصوات أقدامهم قد نبّه اليبوسيين الموجودين عند البوابة إلى الخطر الذي داهمهم، لأن بعضهم استدار. ما إن اصبح لديهم ما يكفي من الوقت ليجفلوا مندهشين حتى انقض عليهم أفراد مجموعة الجنرال يوآب، وقبل أن يدق أي شخص ناقوس الخطر، أغلق صمت الموت شفاههم. وضع الإسرائيليون جذع بلوط ليغلقوا البوابة الثقيلة. عندما سمع الملك داود إشارة يوآب، التي أصدرها البوق المصنوع من قرون الكبش - والتي كانت واضحة مثل صوت النفير السماوي حتى لجيشه - تدفق الملك وجنوده نحو المدينة دون الحاجة

إلى القتال. وفي محاولة منه للتضليل وجعل الناس ينسون اسم المدينة (يبوس)، أطلق الملك داود تسمية أورشليم على المدينة وقد دُفِنَ سر النفق مع موت الملك داود والجنرال يوآب[12].

مع سقوط القدس، وسلسلة من الانتصارات المذهلة، جعل داود إمبراطوريته تمتد من بحيرة حمص (لبنان) إلى مدينة عصيون جابر على البحر الأحمر. فجاء جميع زعماء القبائل إلى الملك في الخليل. وعقد الملك داود ميثاقاً معهم في الخليل أمام الرب: ونصبوا داود ملكاً على إسرائيل... واستمر حكمه أربعين عاماً. (سفر صموئيل الثاني 5، 3-4). أصبح داود يحمل ألقاب ملك يهوذا وإسرائيل، وملك أورشليم، وملك شعب عمون، وحاكماً على الآراميين (دمشق) ومملكة إدوم، وملكاً على مؤاب وصوبة.

وهكذا سكن الملك داود في الحصن وأطلق عليه اسم مدينة داود. وشيّد بنايات من حولها. وأمر ببناء معبد لإيواء قدس الأقداس، تابوت العهد[13]، لكنه توفي قبل بدء البناء. ولحماية مملكته المتحدة، دعا داود إلى تأسيس جيش قوي، وهو الأداة التي يمكن أن يملي عليها إرادته؛ كانت التغييرات الكبيرة التي حدثت في القوات الإسرائيلية بمثابة مقياس للتغييرات التي حدثت في البلاد خلال هذه الفترة. بينما كان داود منشغلاً بإدارة مملكته ذات المساحات الشاسعة من خلال إنشاء نظام سياسي يوحد تجمعاً فضفاضاً من القبائل في دولة متماسكة، يديرها بكفاءة من خلال نظام للخدمة المدنية، فإن الفلسطينيين لم يستكينوا وجمّعوا جيشاً جديداً. وحين سمع الملك داود بذلك قال: سننقض عليهم مثلما يسقط ندى الصباح على الأرض الجافة ولن ينجو منهم أحدٌ. بمجرد رحيلهم،

12- في كتاب الحوليات الثاني الجزء 32 هناك إشارة إلى قناة مائية، دافع بها الملك حزقيا عن القدس ضد الملك الآشوري سنحاريب، تبدأ من نبع جيحون وتؤدي إلى مدينة داود.

13- المحفوظة فيه ألواح العهد. المترجم.

يمكنني أن أعيد بني إسرائيل إلى السلام. لقد فعل ما وعد به وانقّض على طليعة قوات عدوه في وادي ريفايم، التي وقعت في كمين في غابة من أشجار التوت. قام بإبادة طليعة قوات العدو واشتبك مع القوة الرئيسة للفلسطينيين في مدينة ميثيجاما[14] في السهل الساحلي، حيث هزمهم. بعد ذلك غزا السهول الساحلية حول يوبا (يافا) وقلّل من معاقل الكنعانية المتبقية. ثم تحرك مع الجنرال يوآب لمواجهة الموآبيين، الإدوميين والعمونيين. «فَتَقَدَّمَ يُوآبُ وَالشَّعْبُ الَّذِينَ مَعَهُ لِمُحَارَبَةِ أَرَامَ، وَلَمَّا أُخْبِرَ دَاوُدُ، جَمَعَ كُلَّ إِسْرَائِيلَ وَعَبَرَ الأُرْدُنَّ وَجَاءَ إلى حِيلاَمَ، فَاصْطَفَّ أَرَامُ لِلِقَاءِ دَاوُدَ وَحَارَبُوهُ. وَقَتَلَ دَاوُدُ مِنْ أَرَامَ سَبْعَ مِئَةِ مَرْكَبَةٍ وَأَرْبَعِينَ أَلْفَ فَارِسٍ» (سفر صموئيل الثاني الإصحاح 10، الآيات 13–18). وبينما كان داود يحاصر حصنهم في مأدبا، تحركت قوة إغاثة شديدة من الآراميين ضده. فكمن لها داود في وادي اليرموك. وبقضائه عليها قضى على آخر تهديد واجهه، وبذلك سيطر داود، ملك إسرائيل الموحدة، على جميع الطرق الرئيسة المؤدية من بلاد الغرب ومصر إلى آسيا الصغرى. من عمق اليأس، أنقذ داود إسرائيل، من نير الفلسطينيين ومنحها العظمة. وباعتباره ملكها، كان عليه حماية شعبه، وصدّ الاعتداءات الخارجية وكذلك التحديات من الداخل. وما تبقى من حكمه لم يكن سهلاً. وبسبب حبه لبيتشبع الجميلة، ارتكب داود خطيئة مميتة: فقد قام أولاً بخطف زوجة ضابط حيثي، يدعى أوريا، ثم قتله. وأخذ له زوجة ثانية، أخينوعم، والتي أنجبت له ابنه أمنون. عندما اغتصب أمنون أخته غير الشقيقة ثامار (من زوجة داود بيتشبع)، انتقم شقيقها أبشالوم لها وقتل أمنون. تسبّب ذلك بنشوب نزاع دموي بين العائلتين الملكيتين. وأخيراً، ثار أبشالوم ضد والده. وبعد مطاردته من قبل يوآب، شبك أبشالوم شعره الطويل في أغصان شجرة صبار وانتحر.

14- وتعني في الأصل مدينة زمام القصبة وجاءت في الترجمة العبرية «لجام الأمة». المترجم.

كان خليفة داود (تولى السلطة 1006 ق.م) هو ابنه الثاني من زوجته بيتشبع، سليمان (ولد في 965 ق.م)، الذي أعاد تنظيم الجيش، وأخذ ما هو مذكور في كتاب الموتى المصريين[15]، وجعل من العربة الحربية سلاحه الرئيس في الهجوم... وبات يعرف منذ ذلك الحين بسليمان الحكيم. أنجبت اثنتان من البغايا في اليوم نفسه. في الليل، خنقت إحداهن طفلها بطريق الخطأ أثناء نومها. واستبدلت طفلها الميت بطفل جارتها. في الصباح، عرفت أمه الحقيقية، بحادثة التبديل، فاقتادت المرأة الأخرى لتقف أمام الملك. وبدا اتخاذ قرار عادل أمراً مستحيلاً. لذلك، أمر الملك بأن يقسم الرضيع إلى نصفين مع إعطاء نصف لكل واحدة. قبلت إحداهما الحكم، لكن الأخرى جثت على ركبتيها وصاحت بألم: «لا، توقف! أتوسل إليك، دع الطفل يعيش. سلمه إلى هذه المرأة قطعة واحدة». عرف سليمان أن هذه الصرخة قد صدرت من الأم الحقيقية فأعطاها الرضيع.

كان الملك سليمان هو باني إسرائيل العظيم. أنهى بناء الأسوار المحيطة بالقدس. والأهم من ذلك، ركّز على العمل الذي وعد به والده؛ وهو بناء المعبد اليهودي أو ما يعرف بهيكل سليمان. كان هذا الأثر يحوي في الأصل على تابوت من خشب الأرز الصرف، منحوتاً من قبل أفضل الفنانين وتمّ طلاؤه بالذهب الخالص. قام اثنان من الكاروبيم[16] بنشر أجنحتهم على التابوت، رمزاً لوجود الله وليمثل موقعاً لحشد جيوش للقبائل. استغرق الأمر من أفضل فنّاني صور مدة سبع سنوات حتى تمّ تكريس المعبد مكاناً مقدساً يعبر عن الدين الإسرائيلي التوحيدي المميز. ارتفعت أساساته المتكونة من كتل رباعية الزوايا على طول جانب الجبل. وأصبح جزءاً منه يشكّل حائط المبكى.

15- كتاب الموتى هو مجموعة من الوثائق الدينية والنصوص الجنائزية التي كانت تُستخدم في مصر القديمة، لتكون دليلاً للميت في رحلته إلى العالم الآخر. المترجم.

16- جوقة من الملائكة مذكورة في عدة مواضع من الكتاب المقدس، وتعتبر أحد أقسام الملائكة في اليهودية والمسيحية. المترجم.

ما كان يبدو وقت راحة وسلام طويل الأمد، لم يكن سوى الهدوء الذي يسبق العاصفة التي ستؤثر على مصير بني إسرائيل. رحل سليمان عام 926 ق.م. ورحل معه حلم إقامة إمبراطورية إسرائيلية موحدة. وخلفه ابنه رحبعام (تولى السلطة عام 926 ق.م)، الذي لم يستطع إيقاف التنافس الذي تجدّد بين القبائل الشمالية والجنوبية. انشطرت إمبراطورية داود وسليمان الموحدة إلى مملكتين منفصلتين، هما يهوذا وإسرائيل، ودخلتا في قتال بينهما على مدى المائتي سنة التالية، مما أدخل الفرحة في قلوب جيرانهم. هوجمت البلاد من ثلاث جهات: من المصريين في سيناء، والموآبيين من مرتفعات الجولان، والفلسطينيين على طول نهر الأردن. اندلعت المعارك في إسرائيل ويهوذا، حول من ينبغي أن يكون الملك. في النهاية، تولى أحاب، ابن عومري، القيادة وقاتل الآراميين إلى أن أوقفهم عند مرتفعات الجولان. ولكن أحاب هوجم من قبل رامي سهام آرامي، أطلق سهماً نحو صدره. وعلى الرغم من جرحه المميت، فقد ظل أحاب يقاتل حتى حقق النصر ببسالة.

كيف لنا أن نعرف كل هذا؟ في عام 1868، كان فرانسوا كلاين، أحد المبشرين من منطقة الألزاس، يمتطي حماره عبر صحراء سيناء عندما لفت انتباهه لوح من البازلت الأسود يبرز من وسط الرمال. قفز الأخ كلاين عن دابته واكتشف أن الحجر كان مسلة منقوشاً عليها كتابة قديمة. قبل أن يتمكن من فك بعض رموزها، كان عدد من العرب المسلحين يحيطون به ويهددون حياته إنْ لم يدفع لهم فدية ضخمة. ولكونه راهباً فقيراً، تمّ إطلاق سراحه أخيراً بدون أن يحمل الحجر معه. وفي القدس، كشف حكايته المرعبة لفرنسي آخر، هو كليرمون جانو، الذي جعل الراهب يرسم له خريطة الموقع قبل أن يهرع لتفحصه. بالكاد صدّق الفرنسي عينيه: في النصف المدفون في الرمال كان هناك جزءٌ من الكتاب المقدس الأصلي. بعد النظرة الأولى، أدرك أنه مكتوب بلهجة أقوام الموآبيين، والتي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالعبرية القديمة. بدأ الحفر بحماس، وكما

حدث مع الأخ فرانسوا من قبل، وجد نفسه محاطاً بمجموعة من العرب وهم يصرخون. لقد اتهموه بالسرقة، وكانت العقوبة هي قطع يد السارق. لم يكن كليرمون جانو عالم آثار فحسب، بل خدم في السلك الدبلوماسي الفرنسي، وكان دبلوماسياً بارعاً، يجيد اللغة العربية. وباستخدام الهدايا والكثير من المداهنة تمكن من تهدئتهم. بمجرد أن وعدهم بشكل جاد أنه سيعود ومعه مبلغ كبير من المال لشراء الحجر، سمح له العرب بفرك الحجر باستخدام الفحم والورق. وقد ثبت فيما بعد أنها كانت بداية جيدة.

وقد ورد في الحجر ما يلي: «أنا ميشع، ابن كاموش، ملك موآب»... لقد بنيت هذا المكان المقدس لذكرى كاموش، إله أقوام الموآب، كملاذ وملجأ؛ لأنه أنقذني من كل الظالمين ومنحني السيادة على كل أعدائي. كان عمري ملك إسرائيل واضطهد شعب موآب عدة أيام، لأن الإله كاموش كان غاضباً على أرضه. وخلفه ابنه وقال أيضاً: سأضطهد شعب مؤاب... لكنني انتصرت على عمري واستوليت على منزله: وأهلكت إسرائيل إلى الأبد... حدث ذلك سنة 840 ق.م، وأعلن كاموش ملك شعب مؤاب النصر العظيم على بني إسرائيل: «لقد هلكت إسرائيل إلى الأبد...». كان ذلك هو السطر المهم في المسلة، لأنه يشير إلى الملك المكروه جيحورام. كان هذا هو الدليل الأخير على وجود جيحورام، مما يثبت قصة سقوط إسرائيل عندما نقض أبناؤها عهدهم مع الرب، وانصرفوا عن آلههم يهوه وعبدوا آلهة وثنية. قدم جيحورام القرابين لبعل (أي الإله) الوثني ولم يصلِّ إلى الرب. «ولَمْ يَكُنْ كأَخْابَ الَّذي بَاعَ نَفْسَهُ لِعَمَلِ الشَّرِّ فِي عَيْنَيِ الرّبِّ، الَّذي أَغْوَتْهُ إيزابيل امرأَتُهُ». (سفر الملوك الأول، 21، 25). وهكذا فإن مسلة البازلت - أقدم وثيقة كتابية - أكدت هذا الأمر! لقد أخبرتنا كيف تمّ تحطيم جيش أحاب العظيم، ولم تنجُ سوى عشر من عرباته الحربية التي كان يبلغ عددها ألف عربة، لأن ملك سوريا قد دمرها وجعلها مثل الغبار الذي يتناثر من حول درّاسة الحبوب. كان ذلك مصير أولئك الذين ابتعدوا عن الرب.

أخذ كليرمون- جانو الحجر إلى باريس، حيث قام أعضاء الأكاديمية بتكريمه وقدموا له المبلغ المطلوب لشراء اكتشافه المثير. لكن ما وجده عند عودته لم يكن حجراً، بل مادة لزجة سوداء قبيحة المنظر وسط الرمال! لقد اختفت أقدم وثيقة مكتوبة للكتاب المقدس. كان الجشع هو الدافع وراء ذلك. استخدم العرب البارود لتحطيمه؛ على أمل الحصول على سعر أفضل عن طريق بيعه بتكسيره إلى آلاف القطع[17]...

وقُدّر مرة أخرى، لنفق المياه أن يلعب دوراً حاسماً في تاريخ القدس. «فِي السَّنَةِ الرَّابِعَةَ عشَرَةَ للملِكِ حَزقِيَّا صَعِد سَنْحَارِيبُ مَلِكُ أَشورَ عَلَى جَمِيعِ مُدُن يَهُوذَا الحَصِينَةِ، وأَخذَها...» (سفر الملوك الجزء الثاني 18، 13). بعد الاستيلاء على مدينة لخيش المحصنة[18]، وتهديد سكانها بالكامل، كان الحاكم الآشوري في طريقه لاقتحام القدس (سنة701 ق.م). «وَأَرْسَلَ مَلِكُ أَشُورَ تَرْتَانَ وَرَبْسَارِيسَ وَرَابْشَاقَى من لَخِيشَ إِلَى المَلِكِ حَزقِيَّا بِجَيْشٍ عَظِيمٍ إِلَى أُرْشَليمَ...» (سفر الملوك الجزء الثاني 18، 17). مع التهديد بحصار طويل الأمد، أدرك الملك حزقيا أن الخطر الوحيد على مدينته المزودة بالغذاء ومستلزمات العيش بشكل جيد والمحصنة بشدة يكمن في قلة المياه. لذلك، أمر بشق قناة مجوفة من الصخر، بطول 500 متر، توجه المياه من نبع جيحون، «الموضع الذي تخرج منه فقاعات الهواء»، إلى بركة سلوان، داخل أسوار الدفاع الثانوية في القدس. «وهكذا قام حزقيا نفسه أيضاً بوقف مجرى مياه نبع جيحون العلوي، وتوجيهه مباشرة إلى الأسفل نحو الجانب الغربي من مدينة داود»[19].

تمّ اكتشاف النفق في عام 1880، عندما سقط صبي عربي في حوض للسباحة، ووسط حالة من الذعر أصابته ليحافظ على رأسه فوق الماء، قام

17- تم استرداد مسلة ميشع جزئياً. فقد تمّ تجميع قطعتين كبيرتين منها وثماني عشرة شظية أصغر وهي معروضة في متحف اللوفر بعد القيام بمسحها وتنظيفها.

18- توجد قطعة أثرية تتحدث عن معركة لخيش في المتحف البريطاني في لندن.

19- كتاب الحوليات الجزء الثاني 32، 30.

بالتجديف إلى الطرف الآخر. وهناك، عند قطعة من الصخر، وجد ممراً تحت الأرض. كان أنبوباً، عرضه حوالي 80 سم وارتفاعه 1.5 متر، وقد تعرج مثل ثعبان أسفل وادي الكدرون. هذه الحقيقة حيّرت علماء الآثار: لماذا لا يحفر النفق في أقصر الطرق الممكنة، وهو الخط المستقيم؟ ثم خطر في بالهم الاعتقاد القديم بأن المقابر الملكية لداود وسليمان كانت موجودة في مكان ما هناك، وكان الملك حزقيا يرغب في حماية هدوء أجداده العظماء وهم موتى. لم يتم العثور على مثل هذه المقابر أبداً. وما هو على الأرجح، أنه مع وصول الجيش الآشوري خلال أسابيع إلى القدس، وقيام العمال بحفر النفق بشدة من كلا الطرفين، فشل الفريقان في التلاقي بعضهم ببعض، على الرغم من وجود كتابة على جدار النفق[20] تمنع ذلك، انتهت عملية الحفر وأثناء قيامهم بإزالة الحاجز، كل منهم باتجاه زميله، ومع أنه تبقّت هناك مسافة ثلاث أذرع يجب أن يتمّ حفرها، أصبح بإمكان أحدهم أن يسمع صوت الآخر. ثم تدفق الماء من المصدر إلى البركة بطول ألف ومائتي ذراع...

تمكنت القدس من الصمود بسبب توفر إمدادات المياه لديها، واضطر سنحاريب ملك الآشوريين إلى رفع حصاره عندما تمّ إبلاغه أن قوة مصرية كانت متوجهة إليه. يعطي الإنجيل تفسيراً مختلفاً: «وَكَانَ فِي تِلْكَ اللَّيلَةِ أَنَّ مَلَاكَ الرَّبّ خَرَجَ وَضَرَبَ مِنْ جَيْشِ أَشُورَ مِئَةَ أَلفٍ وخَمسةً وَثَمَانِين أَلفاً. وَلمَّا بَكَّرُ صَبَاحاً إذَا هُمْ جَمِيعاً جثَثٌ مَيْتَةٌ. فَانْصَرَفَ سنْحَاريبُ مَلِكُ أَشُورَ وَذَهَبَ رَاجِعاً» (سفر الملوك الثاني الجزء 19، 35-36). لقد تسبب النفق في سقوط يبوس؛ وها هو الآن ينقذ القدس.

تم كشف سر قيام داود بضرب اليبوسيين في مذكرة توراتية تتحدث عن النفق. لقد تمّ الاقتحام خلسة. جمع داود بذكاء «معجزة أرسلتها السماء» مع نصر نفسي مذهل ووحّد إسرائيل ويهوذا حول عاصمة واحدة، هي القدس. كانت المدينة هي حجر الزاوية الذي أرسى قاتل العمالقة بواسطته الأساس الذي حوّل مملكته المتحدة إلى قوة عظمى.

20- قطعها الأتراك في نهاية القرن التاسع عشر ووضعت في متحف في اسطنبول.

الجزء الثاني

الأبطال

491–479 ق.م

(من ملتيادس إلى ثيميستوكليس)

«لذلك أهلك كل من فعل ذلك مرة أخرى...»

هوميروس، 900 ق.م

الفصل الثالث

صرخة ولادة أوروبا
معركة ماراثون
21 أيلول 490 ق.م

لقد انتصرنا!

- *فيديبيدس، جندي يوناني، 490 ق.م.*

دخل العالم القديم في دوامة من الاضطرابات. ومثل سحابة من الرعد انطلقت قبيلة من المحاربين المخيفين من الشرق. اجتاحوا آسيا الصغرى وقاموا بتصفية أسرها الحاكمة. قام زعيمهم، الذي أطلق على نفسه اسم أمير آنشان-كورش، بتغيير اسمه إلى كورش، وبذلك امتدت هيمنته إلى بلاد فارس. تحت حكم كورش، أصبحت بلاد فارس قوة عسكرية. لقد جمع جيشاً لغزو مملكة ليديا، حيث أقام ملكها كرويسوس تحالفاً متسرعاً مع مصر وبابل ودولة محاربة ناشئة حديثاً: هي أسبرطة. في 546 ق.م، غزا قمبيز -نجل كورش ملك بلاد فارس- مملكة ليديا وهزم كرويسوس بينما أخذ كورش جيشه لمهاجمة بابل. مع وفاة الملك بلشاصر في معركة طيسفون (30 تشرين الأول سنة 539 ق.م)، سقطت بابل بيد كورش. نال كورش لقب «ملك بابل وسومر وأكد وجهات العالم الأربع». تقدم مع جيشه على طول طريق مجدو نحو مصر. اشتبك مع المصريين ثم هزمهم بالقرب من منطقة رمانة شمال سيناء.

في عام 528 ق.م، قُتل ملك الجهات الأربع في العالم خلال مناوشات مع السكيثيين.

في عام 521 ق.م، عيّن داريوش حفيد كورش عدداً من الساترابات[1]. تبنى داريوش مخطط الملك كرويسوس الفخم عندما أمر ببناء أسطول عظيم يجعله يهيمن على البحر المتوسط وطرقه التجارية. ونظراً لأن السفر البري من مقاطعاته الغربية إلى مقاطعاته الشرقية كان يستغرق بعض الوقت، وكانت القوافل لا تحمل سوى كمية محدودة من البضائع، فقد أمر بحفر قناة السويس الأولى.

كان حكم الملك داريوش الأول بداية تطلعات بلاد فارس نحو أوروبا. في اللحظة التي قاد فيها داريوش جيشه العملاق عبر مضيق هيليسبونت[2]، دخل في نزاع ليس فقط مع رماح هيلاس[3] ولكن أيضاً مع ثقافة الغرب التي دافع عنها الإغريق. وعلى مدى المائتي عام التالية، أسفرت موجة من الغزوات عن سلسلة من المعارك، نادراً ما شهد التاريخ مثيلاً لها في نطاقها ودمارها، - ولم يتم تجاوز مدياتها أبداً إلى أن تمّ تدمير جيوش الإمبراطورية الأوروبية على يد نابليون، بعد خمسة وعشرين قرناً.

في سنة 520 ق.م، بدأ داريوش بالتخطيط لغزو العالم المعروف آنذاك. بدأ ببناء مدينة برسبوليس، وهي مدينة رمزية تليق بالملك الإله، حيث كانت التجارة ممنوعة فيها ولا تتم فيها أية أعمال إدارية. كان يسمح للشامان (الكهنة) فقط دخول المجمع المقدس. كان الفرس يبجلون نار زرادشت ويعبدون ميثرا الإله الزرادشتي. وكان ملكهم يشيد بالإله أهورامزدا باعتباره «الشخص العظيم الذي خلق الماء والأرض، ورجاله وخلقني أنا داريوش!» وعلى شرف إلهه، أمر داريوس بذبح الخيول خلال الاحتفالات التي كانت تنتهي بهلوسات نشوات وثنية، سببها تناول

1- اللقب الرسمي لحاكم المقاطعة في الدولة الميدية ثم الفارسية القديمة. المترجم.

2- في تركيا. المترجم.

3- اليونان حالياً. المترجم.

الكثير من المشروبات المُسكرة. أصبحت مدينة برسبوليس تمثل رمزاً للإمبراطورية الفارسية، وتم تصميمها للاحتفال بيوم الانقلاب الصيفي، يوم انتصار الشمس على القمر. عند كل يوم 21 حزيران، وفي تمام الساعة السادسة وعشر دقائق، عندما يكون أول شعاع من كرة حمراء ملتهبة قد ارتفع فوق أفق الصحراء واخترق قاعة التاج الرائعة، كان صاحب الجلالة المهيب الملك داريوش يواجه الشمس ليقول: «أنا، داريوش، الملك العظيم، ملك الملوك، ملك الكون وجميع من ينطق بكلمة في الأراضي القريبة والبعيدة، أقدم لك التحية أيتها الشمس».

كانت طموحات الملك داريوش، لا يوازيها شيء سوى نمط حياته الفاخر، لذا وجّه انتباهه إلى الغرب. لقد كان كافياً أن يشاهد المرء قواته تمرّ في موكب احتفالي ليعرف أنه لا يوجد شيء على هذه الأرض يمكن أن يقف أمام رغبته في الهيمنة العالمية. قرر داريوش أن تكون بلاد فارس هي مركز الكون، وأن أي شخص آخر لن يكون سوى حاكم صغير لمقاطعته. وما يقرره داريوش كان يُنفّذ، لأنه كان يمثل صوت الإله. في سنة 512 ق.م، مع جيش قوامه مئة ألف فرد، تمّ تحريكه وتزويده بـ300 سفينة، عبر مضيق البوسفور توجه لملاقاة السكيثيين للانتقام لمقتل جده. وبدلاً من الصمود والقتال، قام السكيثيون بتخريب الأرض. تورط جيش داريوش في الدخول إلى مستنقعات كثيفة في دلتا نهر الدانوب، وتحول الملك، الذي سئم من مطاردة الأشباح، إلى الشمال، وقام بغزو أوكرانيا، والانتقال عبر نهري الدنيبر ودونتس، والوصول إلى أقصى الشرق حيث نهر الفولغا، قبل أن يأمر بالتحول والتوجه جنوباً نحو مقدونيا. خشي الإغريق من رغبته في تنفيذ المشروع الذي بدأه جده كورش الكبير وهو دمج سكان بلاد فارس وبلاد الغرب في إمبراطورية واحدة شاسعة، وإخضاع مجموعاتها الإثنية عن طريق الانضباط القاسي المطبق في إيران. ولكن بعد ذلك بدّل داريوش رأيه وعاد إلى وطنه. لتغطية انسحابه، ترك وراءه جيشاً تحت قيادة الجنرال ميغابازوس، الذي نجح في تقليص رقعة إقليم تراقيا.

بعد وقت قصير من وفاة الملك كورش والصراع الدموي على خلافته، وقع حدث في أثينا كان له عواقب وخيمة على مستقبلها. أقامت أثينا، مركز التجارة والمال والثروة الهائلة، أول ديمقراطية في العالم تحت حكم كليسثينيس. أصبح ذلك ممكناً عندما أطاح ملك أسبرطة بطاغية أثينا، هيبياس، الذي هرب إلى بلاط الملك داريوش لطلب المساعدة ضد بلدته، التي طردته. استقبله داريوش بترحابٍ وأصبح خطر الغزو الفارسي واضحاً. وكان رد أثينا هو الدعوة إلى انبثاق الجيش الوطني، تمّ تقسيمه إلى (أفواج) يقودها (جنرالات). سُلِّمت القيادة العسكرية الشاملة إلى قائد عسكري كبير، ظل تحت الإشراف السياسي لمجلس أثينا، شكلت أثينا مع أسبرطة والمدن الأخرى الرابطة البيلوبونيزية. عندما أثيرت مسألة من يجب أن يكون زعيماً للرابطة، كانت أسبرطة متفوقة على أثينا في أعداد القوات وأصبحت بالتالي قائدها بحكم الأمر الواقع.

كان المثال الذي ضربته أثينا والمتمثل في الإطاحة بطاغوتها قد لفت إليه الانتباه بشدة في مدن آسيا الصغرى المضطهدة، وخاصة بين أقوام الإغريق الأيونيين في مدينة أفسس. قبل نصف قرن من الزمان، في عام 546 ق.م، هزمت جيوش الجنرال الفارسي هارباغوس الأيونيين واحتلت أراضيهم. عندما انتشرت الشائعات بأن داريوش قد هُزِم من قِبل السكيثيين، هبّ الأيونيون في مدينة ميليتوس للتخلص من ظلم حكامهم الفرس (499 ق.م) وطلبوا المساعدة من إخوانهم اليونانيين الساكنين عبر بحر إيجه. رفضت أسبرطة الانخراط في قتال لا يهمها، لكن مدينتي أثينا وإريتريا تجرأتا على تحدي داريوش باعتباره «ملك الجهات الأربع في العالم» وأرسلتا قوة صغيرة. فشلت الثورة الأيونية لأن المدن تنازعت حول مسألة القيادة وقد استغل الفرس بذكاء خلافهم الداخلي هذا لإخماد التمرد (494 ق.م). لقد تركت الوحشية التي سُحق بها التمرد مذاقاً مريراً، وأصبح الأيونيون، الذين كانوا من أصل يوناني، حكاماً بالاسم فقط ولم يستطع أي حاكم فارسي أن يثق بهم تماماً مرة أخرى.

وفي الوقت نفسه، واصل هيبياس، الطاغية الأثيني المخلوع، مؤامراته في البلاط الفارسي. وأشار إلى الخطر الذي يواجه الحكم الملكي عندما تمّ استبداله بشيء سماه الأثينيون بالديمقراطية. حرضت أثينا على قيام التمرد الأيوني، وقد أغضب داريوش كثيراً تدخلها في «حديقته الخاصة» لدرجة أنه قرر أن يجعل منها عبرة. ولأجل سحق المدينة الهيلينية، قام بتجميع عدد كبير من السفن الحربية بالإضافة إلى قوة برية تزيد عن خمسين ألف فرد. لم تكن بلاد فارس تعاني من نقص في القوى البشرية، وكان يجب على حكام المقاطعات دعوة كل من لديه القدرة على القتال لأداء الخدمة العسكرية. وتمّ إرسال هذه الدعوة إلى المواقع العسكرية في جميع أنحاء الإمبراطورية، وقد منعت خدمة الأفراد بعيداً عن مقاطعاتهم من احتمال قيام ثورة أخرى في وطنهم، مثل تلك التي قام بها الأيونيون.

استولى على الملك داريوش ما يسمى بهوس البلينوكسيا (pleinoxia)، وهي التي وصفها أرسطو في كتابه «السياسة» باعتبارها الوضع الذي تستولي فيه على السلطة الرغبة بالمزيد من الهيمنة والنفوذ إلى أن ينتهي بها المطاف إلى هزيمة مدوية. بحلول خريف عام 491 ق.م، كان داريوش مستعداً لغزو اليونان. من خلال هذه الخطوة الفردية، انطلق أول صراع كبير بين الغرب والشرق، والذي سيدوم مائتي عام، وفي النهاية دمر كل من بلاد فارس واليونان.

كان على الأسطول الحربي القوي لبلاد فارس تحت قيادة الجنرال داتيش أن ينزل في خليج ماراثون ليغري الجيش الوطني الأثيني للخروج من عاصمته. فيما كان على الأسطول الثاني تحت قيادة أرتافيرنيس حاكم ليديا، أن يبحر من حول منطقة أتيكا ويهاجم أثينا. كانت خطة داريوش الاستراتيجية ذكية، لكن تخطيطه التكتيكي كان غير كافٍ واستند إلى الثقة المفرطة بالتفوق العددي. عندما وصل داريوش إلى مضيق البوسفور وأعجب بما شاهده وهو في غرفة قيادة يخته الملكي، أمر بوضع حجر من الرخام الأبيض بجانب شاطئ البحر، «يحمل أسماء جميع الأمم والقبائل

التي كان يقودها»[4]. وسرعان ما أضاف حجراً آخرَ يحمل أسماء أكثر - مثل طيبة وأثينا وإريتريا وكورنثوس. تلك كانت خطته[5] في الأشهر الأولى من عام 490 ق.م، أبحر اثنان من الأساطيل البحرية للملك داريوش من جزيرة ساموس. ذات نهار وقد كانا في عرض البحر، تمّ رصدهما بواسطة سفينة تجارية يونانية، وتمكنا من الفرار من متتبعيهما وهرعا بالأخبار إلى أثينا. لم تكن الدولة المدينة[6] في وضع يسمح لها بمواجهة قوة بلاد فارس بمفردها، فدعت شركاءها في الرابطة البيلوبونيزية لتقديم المساعدة الفورية... وبأقصى سرعة تمّ إرسال ما يشبه البرقية العسكرية (كانت مطوية ومكتوبة على ورق البرشمان تتضمن دعوة جميع الدول الأخرى في الرابطة إلى الإسراع في مساعدة إحدى الدول الأعضاء) إلى أعضاء الكونغرس الهيليني. لقد عهد الأثينيون بهذه المهمة الدقيقة إلى أفضل عدّاء لديهم، الذي فاز بالألعاب الأولمبية. كان اسمه فيدييبيدس، وقيل إنه قطع بشكل لا يصدق مسافة 250 كيلومتراً في أقل من يومين. وعد سكان قرية بلاتايا بتقديم مساعدة فورية، وكذلك فعل الأسبرطيون، ولكن فقط بعد مهرجان كارنيا الديني، الذي يقام في 20 أيلول. عندما عاد فيدييبيدس حاملاً ردهم إلى أثينا، غضب مواطنوها وعبروا عن سخطهم بأقسى العبارات بحق أسبرطة بسبب رفضها الاندفاع لدعمهم، معتبرين ذلك، بحق، بمثابة خيانة لاتفاقهم. أصبح الموقف أكثر خطورة حيث كانت التقارير ترد عن هجوم وشيك لجيوش الفرس. جرت مراسم توديع قوة الدفاع الوحيدة الموجودة والتي كانت مستعدة للقتال ومن دون مساعدة من أحد. ولقي الجيش الوطني الذي تمّ تجميعه على عجل في أثينا، والذي يبلغ قوامه عشرة آلاف فرد، وكان بإمرة القائد كاليماخوس، توديعاً مهيباً تخللته دموع الأمهات والزوجات، وتقبيلهن أيدي المحاربين

4 عن (Herodotus, Histories IV)
5 المصدر السابق نفسه
6 دولة صغيرة مؤلفة من مدينة واحدة ويشمل هذا الاصطلاح مدن أثينا وروما وغيرها. المترجم

ودعوتهم إلى إيقاف الخطر الفارسي. وفي وسط عجلتهم للوصول إلى منطقة ماراثون قبل الفرس، ترك الأثينيون وراءهم دوابهم وعرباتهم التي تحمل المؤن وطلبوا من السائقين اللحاق بالركب قدر المستطاع. زادت القوات من طول خطوات مسيرها. كانت العقبة الرئيسة هي تدفق الآلاف من اللاجئين مثل تيار لا نهاية له باتجاهها، وهم يمسكون بأطفالهم وحزم ممتلكاتهم. لكنهم تمكنوا من تحاشيهم بطريقة أو بأخرى، وقد أثبتت هذه المسيرة القسرية التي قام بها القائد كاليماخوس ومقاتلوه الأثينيون أنها كانت حاسمة. فقد حالفهم الحظ في اللحظة التي خرجوا فيها من الجبل إلى شواطئ ماراثون، حيث التقوا مع ألف مقاتل إضافي من سكان بلاتيا، ظهر الأسطول الفارسي عند رأس خليج ماراثون وألقت سفنه مراسيها عند الخليج. لقد أصبح قريباً. أحدثت بضع ساعات كل ذلك الفرق. لقد عرقلوا خطة جيوش الفرس عن طريق تقدمهم بسرعة.

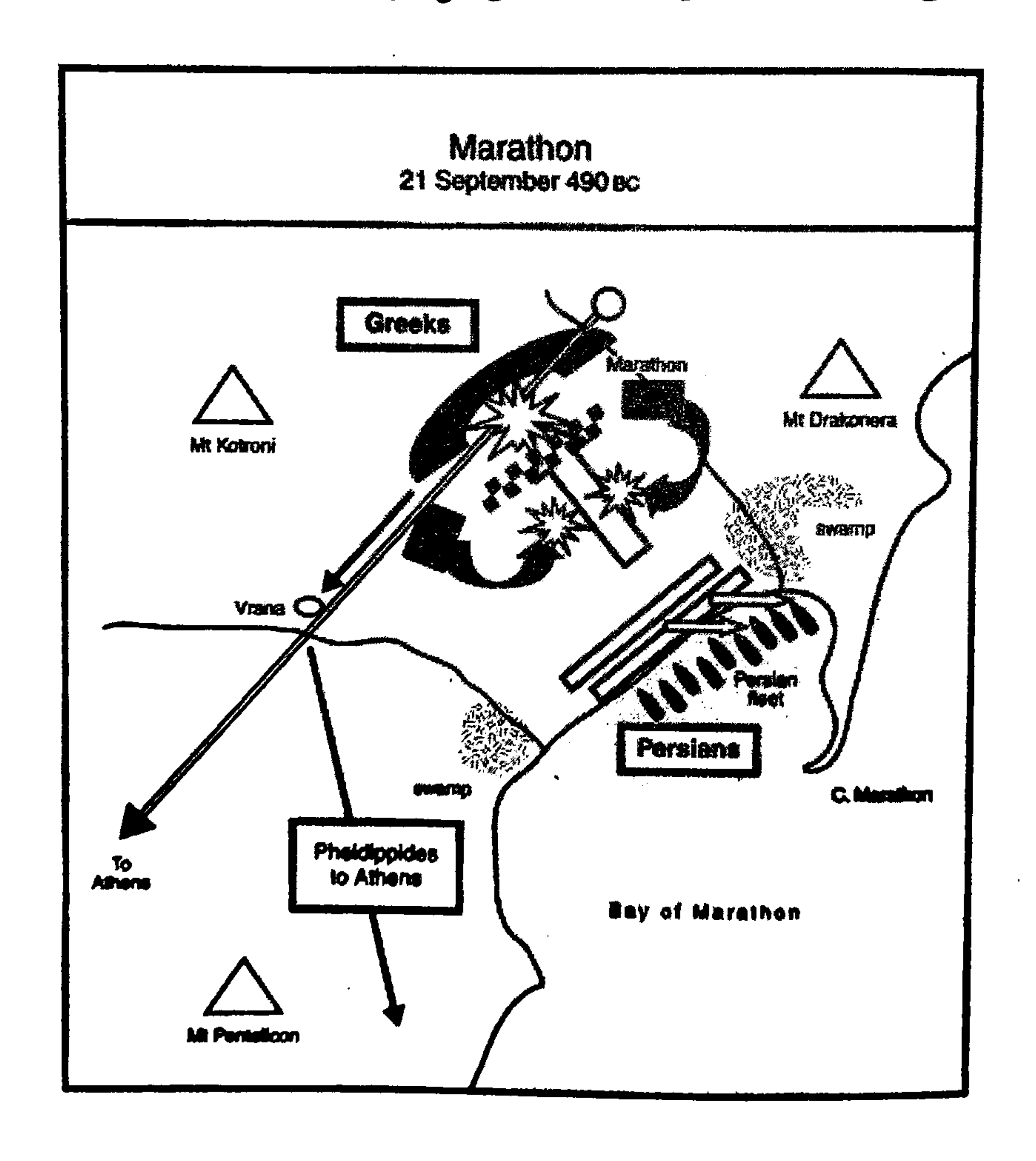
انطلق الجنرال الفارسي داتيش بجيشه بشكل جيد، لكن لم يعد بإمكانه الانتشار على طريق أثينا، حيث كان يعسكر الأثينيون وحلفاؤهم على طول ذلك الطريق، بالقرب من ضريح هيراكليس. ترك هذا الأمر الجنرال الفارسي محاصراً، ما بين الممر الجبلي الذي يسيطر عليه الإغريق أمامه والمحيط الذي من خلفه. نصب مخيمات لخمسة عشر ألفاً من رجاله وراء أحد الأهوار ليكون بمثابة حماية لها. لم يحدث أي شيء لمدة أسبوع، باستثناء غارة يونانية عرضية، أُرسلت ليلاً لاعتراض قوارب محملة بالإمدادات. كان كلا الجانبين في حالة انتظار وهما يواجهان أحدهما الآخر، كان داتيش بانتظار لنتيجة الهجوم على إريتريا من قبل الجيش الفارسي الثاني تحت قيادة أرتافيرنيس، فيما كان الأثينيون يصلّون من أجل الوصول المبكر للفرقة التي وعد الأسبرطيون بإرسالها، فرّ عدد من الإغريق الأيونيين، الذين أُجبروا على مساعدة الجيش الفارسي، من معسكر داريوش وانضموا إلى قوات كاليماخوس؛ تمّ إرسال بعضهم سراً إلى معسكر العدو من أجل تحريض إخوانهم الأيونيين: «إذا كان يجب

علينا أن نحارب إخواننا اليونانيين، فدعنا نقاتل بشكل سيئ...»، وهي نصيحة ستتكرر عدة مرات خلال القرنين التاليين.

بعد أن أصبح داتيش عالقاً في خليج ماراثون، وفرض أرتافيرنيس حصاراً طويلاً على إريتريا، بدأت استراتيجية الفرس تتصدع. بعد فشلهم في الاستحواذ على الممرات، اضطر الفرس إلى تغيير خطتهم. كان الحل الواضح هو إعادة تحريك قوات داتيش والانتقال إلى أثينا عن طريق البحر. لذلك، كان من الأهمية بمكان بالنسبة لليونانيين إبقاء الجيش الفارسي محتجزاً في خليج الماراثون على عكس ما كان يزمع الفرس في البداية من أن يسحبوا الأثينيين بعيداً عن مدينتهم. وبعبارة أخرى، كانت أثينا في مأمن من الهجوم طالما كانت بلدة إريتريا قادرة على الصمود أمام أرتافيرنيس، وأصبح داتيش عالقاً في مستنقعه. ولكن بعد ذلك جاءت الأخبار السيئة: تعرضت إريتريا للخيانة واستولى الفرس على المدينة. بات كل شيء الآن يتوقف على ماراثون. أصبح لزاماً على القائد كاليماخوس أن يعد العدة لمعركة ذات نتائج إيجابية، ثم يهرع بعدها لحماية أثينا من خطر أرتافيرنيس؛ أو على الأقل جعل الأمر باهظ التكلفة بالنسبة إلى داتيش لدرجة أنه يحتاج إلى وقت لإعادة تجهيز قواته. عرف كاليماخوس أنه لا يستطيع الاعتماد على وصول الفرقة العسكرية من أسبرطة إلّا بعد انتهاء احتفالاتهم الدينية، وسيكون ذلك مساء يوم 21 أيلول على أقرب تقدير. عندما أصبحت الأمور عاجلة، وصل خبر جديد سيئ: جيش أرتافيرنيس يستعد للتوجه إلى أثينا. كان من المتوقع أن يصل إلى المدينة خلال أسبوع. بالنسبة للرجال الموجودين في ماراثون، أصبح الموضوع الآن مسألة أيام، إن لم يكن ساعات. عقد كاليماخوس مجلساً حربياً. ولكونه لا يزال دون فعالية كافية، فقد التمس الحذر. لم تكن تشكيلات الهوبليت[7] التي معه من قوات المشاة النخبة قوية بدرجة كافية لإنجاز المهمة. لكن في الوقت

7- جندي الهوبليت، هو الجندي المدني في المدينة الدولة في اليونان القديمة. المترجم.

نفسه، هل يتمكن الأسبرطيون من تجميع قواتهم ولعب دور حاسم؟ كان الوقت يضغط عليه، ولم يكن الأسبرطيون قريبين. لقد كانت هذه هي الديناميكية التي كان على كاليماخوس التعامل معها. لقد أدى ذلك إلى نقاش عنيف، كانت خطة القائد للمماطلة تواجه تحدياً شديداً من قائده الأعلى الجنرال ملتيادس المسؤول عن كل الوحدات.



كان ملتيادس المولود في أثينا قد استولى على السلطة في شبه جزيرة خيرسون بالقوة وأصبح طاغية عليها. وعندما اندلع تمرد محلي، تمّ طرده من عاصمته كارديا وهرب عائداً إلى أثينا، حيث تمّ الترحيب بوصوله

كونه يضيف قوة إلى المجهود الحربي. لكنه أثار أيضاً أزمة سياسية. كان ملتيادس معادياً للفرس بشدة وانضم إلى مجموعة الأرستقراطيين في حزب الديمقراطيين في سعيهم لمحاربة داريوش. كان قد عبّر بقوة عن رأيه بأنه يجب إيقاف داريوش قبل أن تتاح له فرصة السير نحو أثينا. كان مشروع الملك الغازي الفارسي واضحاً: قهر أثينا، وعزل أسبرطة، وبعدها ستسقط بقية اليونان بين يديه من خلال استخدام أساليب الإرهاب المطلق؛ وبعد ذلك يقوم بتثبيت الطاغية المخلوع لأثينا، هيبياس، كملك ينوب عنه. عندما رفض أعضاء الجمعية الاستماع إلى ملتيادس، صرخ غاضباً: إن نبوءة القدر هي التي حتّمت قدومي إلى أثينا. لأن هناك أشياء رهيبة على وشك الحدوث وستكون هناك حاجة لرجل مثلي. توصل مجلس الحكماء إلى حل سياسي ديموقراطي نموذجي: تمّ اختيار الديموقراطي كاليماخوس كقائد عسكري وملتيادس المحافظ كمستشار عسكري له.

كان ملتيادس، الذي حمل كراهية لها ما يبررها منذ اليوم الذي توجب عليه أن يشهد الغارة التي قام بها الفرس وتسببت بمقتل والده، يعرف طرقهم أفضل من أي شخص آخر في المعسكر اليوناني. وبات يدعو الآن إلى تنفيذ ضربة عاجلة. كان قلقه مفهوماً: فبمجرد سماحهم لداتيش وفرسانه بالنزول إلى البحر المفتوح، لم تعد هناك طريقة لمنعهم. وما دام أنه قام بالفعل بالتحضيرات، فهذا يعني ضمناً أن الأثينيين لا يمكنهم انتظار الأسبرطيين. كانت حجة ملتيادس قوية، لكن المجلس الحربي المؤلف من عشرة جنرالات كان ما زال متردداً؛ ثم طلب ملتيادس طرح اقتراحه للتصويت. وكان أربعة لصالحه، ضد خمسة. التفت حينها إلى كاليماخوس، الذي حصل على التصويت الحاسم. أعطى القائد العسكري موافقته على الخطة. باتت المسألة الآن تتعلق بالتوقيت. لم يتمكنوا من الاتفاق على ذلك. ومن أجل الإسراع في المعركة في صباح اليوم التالي، ذهب ملتيادس صباحاً لزيارة المقاتلين، وإثارة حماسهم بشعارات وطنية:

«إنها أثينا العظيمة، أثينا التي لا يمكن أن تتنازل، كل واحد منكم ومنذ ولادته قد رضع هذه المبادئ مع حليب أمه». ولكونه ماكراً أكثر منه شرساً، فقد ناشد شرفهم وشجاعتهم. أقنعهم أن الفرس يريدون كل شيء؛ الاستيلاء على الأرض وشعبها مثل وحش ينتزع الطفل من رحم أمه. أجابه الأثينيون بالهتافات الهادرة ولم يعد هناك مجال للتراجع.

هذه الخطوة أنذرت كاليماخوس باحتمال حدوث تمرد في صفوف جيشه، فقرر المضي في المواجهة في صباح اليوم التالي. وأوكل مهمة تنفيذ العمليات العسكرية إلى ملتيادس، وهو عجوز ماكر ضليع جداً في أمور القتال ولا ينزعج بسهولة من احتمال مواجهته قوة تفوقه عدة وعدداً. لقد كان يعتمد على الشجاعة والروح القتالية لجنوده المدججين بالسلاح. وكان يعرف قدراتهم وحدودها، وكان العائق الرئيس لهم هو خوفهم المبرر من التقدم المنتظم لصفوف العدو. لذلك كان عليه أن يعيق هذا التقدم قبل أن يتخذ تشكيله النهائي. وقرر أن يشنَّ الهجوم الأولي بتشكيل قتالي مشهور في وقته، يدعى (phalanx) الفالانكس[8]. وكان جنود المشاة يتشكلون بنقطة مدببة عند رأس التشكيل، تشبه رأس الرمح، تخترق خطوط العدو. يوجه أفراد الصف الأول رماحهم إلى العدو في حين يسند أفراد الصف الخلفي رماحهم على أكتاف الذين في المقدمة لتشكيل كتلة من الرماح. وبعمق يتراوح ما بين ثمانية إلى ستة عشر رجلاً، مسلحين بحراب طولها ثلاثة عشر قدماً، كانت تلك التشكيلات قادرة على القيام بالمناورات الجيدة التوجيه في تشكيلات القتال. وكان الصف القتالي الواحد نفسه يسمح بحدوث فجوات ضيقة لتمكين وحدات مسلحة أخف وزناً ولكن أسرع مثل حملة الأسهم والرماح بالمرور.

وقع العبء الرئيس للمعركة على المقاتلين (الهوبليت). كانت دروعهم الثقيلة -التروس والدروع والخوذ والرماح- باهظة الثمن، ولم يكن يستطيع اقتنائها سوى الأغنياء جداً، أصبح حلم كل شاب

8- هي تشكيلة تكتيكية عسكرية، متألّفة بالعادة من المشاة الثقيلة بالكامل. المترجم.

منذ سن مبكرة أن يتم اختياره في صفوف (الهوبليت). كان تدريبهم صارماً وكان الأفضل فيهم يحصل على شرف تمثيل مدنه في المسابقة الأولمبية السنوية. كانت أسماؤهم معروفة وكان يتم تقدير أفعالهم. كان (الهوبليت) يفضلون القتال في المناطق السهلية، نظراً لتقدمهم بخطوة متزامنة، مع الحفاظ على جعل القدم «الضاربة» أمام القدم «الثابتة» (الثابتة بقوة على الأرض من أجل رمي الرمح). مباشرة خلف تشكيلات مقاتلي (الهوبليت) كان يأتي جنود المشاة حاملو الأسلحة الخفيفة، أو ما يعرف بمقاتلي (البيسيلو)، الذين يتمّ تجنيدهم من أبناء الطبقات الدنيا من سكان المدن؛ وكان يتم دفع رواتب لهم، ولكن عندما يتعلق الأمر بالقتال من أجل وطنهم، فقد كانوا يتقدمون أمام نبلاء الإغريق. كان تسليح (البيسيلو) بسيطاً للغاية وكانوا يعتمدون بشكل رئيس على سرعتهم، وكانوا يندفعون إلى الأمام لإطلاق سهامهم أو الرماح. وأخيراً، اشركت كل مدينة عدداً من كتائب المرتزقة، مثل قاذفي الحجارة الشهيرين من جزيرتي رودس وكريت. كانوا يطلقون الحجارة من المنجنيقات، كما فعل داود في العصور التوراتية عندما قام بقتل جالوت. لقد قاتلوا، وحاربوا بشكل جيد من أجل أولئك الذين كانوا يدفعون رواتب لهم.

ولكن كان هناك اختلاف واحد في قوى العدو. كان جيش الفرس يضم مجموعة كبيرة من قارعي الطبول، معظمهم من الميديين (أحد أقوام بلاد الفرس) وكذلك قوات مساندة يقودها حكام المقاطعات غير الموثوقين؛ فيما كان مقاتلو الهوبليت اليونانيون مواطنين أحراراً من أعلى مراتب النبلاء. وباتت تشكيلاتهم السلامية أو الفالانكس (phalanx) تواجه الفرس الآن عبر أرض سهلية تمتد على طول الخط الساحلي، يحدّها مستنقعان.

عند شروق شمس يوم الحادي والعشرين من أيلول سنة 491 ق.م، بعد أن خبت نيران حراس المعسكر، باشر الكهنة أعمال سحرهم العظيم، واستدعاء أرواح الأسلاف لمعرفة ما سيأتي به اليوم التالي؛

لقد ذبحوا القرابين للآلهة في جبل أوليمبوس لتمنحهم بركاتها. كانت البشائر جيدة. سار طابور مزدوج من الأثينيين إلى الأمام، كان مقاتلو الهوبليت في المقدمة، مدعومين بحاملي الرماح والرماة. توقفوا بين نهرين صغيرين،هما أفلونا وكارادرا، ولم يعد يفصلهم عن مواجهة جيش بلاد فارس بقيادة الجنرال داتيش سوى حوالي 500 متر. تسببت صيحات الحرب للمقاتلين الفرس وضجيج الدروع في خلق ضوضاء مخيفة اجتاحت صفوف الخصم في جميع أنحاء الميدان. اصطف الفرس في تشكيل واحد وظهورهم نحو البحر، لم يكن ذلك وضعاً جيداً يمكن من خلاله بدء المعركة. لكنه من الناحية النفسية أجبرهم على الانتصار. كان البديل هو الغرق في مياه البحر[9].

كانت نتيجة المعركة على الأرجح محسومة من قبل أن تبدأ. لم يحدث ذلك من خلال التخطيط، ولكن بسبب نقص في الموارد. كان ملتيادس يفتقر إلى القوة البشرية اللازمة لضمان تحقيق تقدمُ حاسم في قلب ميدان المعركة، مما أدى إلى أن يقوم بإحداث تغيير جذري في تكتيكاته. قبل وقت قصير من بدء المعركة، وبعد دراسته تشكيلات العدو، بدأ يخشى من أن ينتقل الفرس إلى قلب قواته، ويقسموا جيشه إلى قسمين ثم يدفعون الأجزاء المنفصلة إلى المستنقعات الحدودية. لذلك، أمر رتله المتمركز في الوسط بخفض عدد التشكيلات السلامية العادية المكونة من ثمانية صفوف إلى أربعة صفوف. كان مدركاً المخاطر التي تنطوي عليها هذه العملية، ولكن هذا حرر عدداً كبيراً من القوات لتعزيز جناحيه. وأمر الأجنحة بالتحول إلى الداخل بزاوية 45 درجة، مكوناً تشكيلاً بسيطاً يشبه حدوة الحصان، وطلب منهم عدم التقدم من دون أوامر محددة منه. لم يكن من المحتمل أنه كان على علم بالطريقة التي يتمكن فيها من تحقيق انتصاره.

عند حلول الفجر، خيّمت سحابة من الضباب فوق المنطقة، ولكن

9- راجع G. Rawlinson, History of Herodotus, London, 1880.

عندما ذرت الحرب بقرنها وبدأت المزامير تصدر أصواتها الصاخبة، بدأت أشعة الشمس، التي كانت قد توسطت كبد السماء، بالتوهج. كان قادة القوات الفارسية قد نظموا جنودهم في صفوف ثابتة، وباتوا يعانون من الملل إلى حد كبير ببذلاتهم ذات الجمال الباهت، التي تحوي مجموعة من الألوان المتنوعة، تعلوها الرماح اللامعة. تقدم الصف الطويل ببطء، على الرغم من أن القيام بالهجوم الأمامي على حشود الرماة وقاذفي المنجنيق كان بمثابة عملية انتحارية. كان الرماة اليونانيون قد تقدموا أمام مقاتليهم الهوبليت. وقاموا بتجميع أنفسهم بطريقة مناسبة لإجراء تغييرات سريعة في مدى وزاوية رميهم. تقدم الفرس، كتفاً إلى كتف، وعندما أصبحوا على مسافة 200 ياردة، عزّز جنود المشاة اليونانيون (البسيليو) صفوفهم برشقة من السهام والقذائف. في اللحظات القليلة التالية، كان الدمار الناجم عن كل واحد من الرماة الذي كان يطلق ما لا يقل عن عشرة حزم من الأسهم كبيراً. كانت الرشقات من الأسهم ذات أجنحة الريش تقطّع صفوف الفرس، وتكنس الميديين وحلفائهم مثل الأوراق. تعثرت الخيول، صرخ الرجال، وفقد داتيش العديد من خيرة مقاتليه في هجومه الأولي. أصبحت صفوف قواته غير متناسقة عندما كان الجنود يتعثرون مثل العميان في مسيرهم إلى الأمام، ويواصلون المسير من خلال وابل من القذائف، يكافحون من أجل البقاء واقفين على أقدامهم طوال العشرين خطوة القادمة. أصبح رتل جيشه عبارة عن صفٍ ضعيفٍ وفاتر الهمة، حيث استطال إلى أبعد مما كان يرغب. ومع ذلك، بدلاً من محاولة إعادة تشكيل صفوفه، أمر بمضاعفة الجهود، معتقداً أنه مع كتلة اللحم الهائلة هذه يمكنه أن يخترق تشكيلات اليونانيين ذات الرؤوس الحديدية. بالنسبة لأولئك الذين كانوا يتبعون الخط الأول الذي تمّت هزيمته، أصبح الأمر كابوساً وهم يتعثرون على الأرض التي أصبحت طرية بسبب الجثث التي تراكمت فيها. في النهاية نجحوا في الاختراق، وحدث الاصطدام الجبهوي بين خط القتال اليوناني الصغير الحجم والكتلة البشرية من

الفرس التي كان يرتفع صراخها. فُتِحَت ثغرات في رتل الأثينيين، كانت في البداية بحجم اليد، ثم اتسعت لتصبح بعرض ياردة، ثم بعرض ثلاثة رجال. في كل موضع اختراق اندفعت موجة من الفرس المندفعين والمتحمسين والذين مضوا قدماً مدفوعين بقوة زخمهم. أما قلب صفوف اليونانيين فقد التوى وانحنى بسبب تدفق أمواج المقاتلين الفرس الهادرة، وقد حافظ المدافعون الشجعان على بقاء دروعهم في المقدمة. سُدَّت الثغرات بسرعة عن طريق القوات الاحتياطية. ولعدة مرات، كان قلب جيش الأثينيين يغلق صفوفه وسط اضطراره إلى التراجع البطيء. أثارت الآلاف من الأقدام التي ترتدي الصنادل التي تحاول الإمساك بموضع قدم سحباً كبيرة من الغبار؛ تخثر الغبار فوق جروحهم التي تنزف، وغطى التراب الموتى، وكانت رئات المقاتلين تمتص جرعات كبيرة من الغبار. اندفع الرجال إلى الأمام ثم تراجعوا مرة أخرى فوق الصدور والوجوه المتساقطة، وهم يدوسون الأحياء ليجعلوهم موتى.

أمر داتيش باستئناف الهجوم مستفيداً من تراجع القوات اليونانية. قام الفرس بزجّ المزيد من القوات إلى أرض المعركة، وسرعان ما تمكنوا من إحداث ثغرة واسعة في قلب القوات اليونانية. لكن خط القتال اليوناني كان لا يزال صامداً. وبعد أن أصبح النصر في قبضته، حثّ داتيش رجاله على إحداث ثغرة في صفوف قوات المقاتلين (الهوبليت) وهي قوات نخبة قليلة العدد ومتميزة. بعض أجزاء القوات اليونانية المتعددة الصفوف أصبحت الآن عبارة عن صف واحد. لكنها صمدت وقامت بتوجيه طعنات إلى الفرس من وراء حاجز الدروع المتصلة مع بعضها. كانوا غاضبين بشدة لدرجة لم يسبق للفرس أن شهدوا لها مثيلاً في كل حروبهم السابقة. رفض الإغريق الاستسلام. أينما كان هناك خط من خطوط القتال اليونانية على وشك التشتت، كان يقفز نحوه مقاتلون من أماكن أخرى، ويحملون دروعَ ورماحَ رفاقهم الذين سقطوا لسد الثغرة في جدار الصدّ والدروع؛ كانوا يتجمعون بسرعة معاً، درعاً بجانب درع،

ثم يثبتون الرماح بقوة في الأرض. سمحوا لعدوهم بالخروج ليتلقى الموت على رؤوس حرابهم. ولكن لم يستطع أي قدر من البطولة الفردية أن يوقف الضغط المتزايد الذي كانت تعاني منه قواتهم التي في الوسط. فكانت أذرع مقاتليها المنهكة وأجسادهم المتثاقلة تستطيع بالكاد أن تمسك بالسيف أو الرمح، وباتت أنفاسهم متعبة، وعيونهم لا تبصر شيئاً بسبب العرق الذي يسقط عليها. استمر القتال، بينما كانت الجثث تتراكم، من الإغريق والفرس. كان يستسلم المزيد والمزيد من الإغريق. لقد وضع ملتيادس، الذي أظهر شجاعة شخصية كبيرة، خطة جريئة وكان متمسكاً بها. لم يسمح للعدو بمهاجمة جناحيه. وقد فهم جيداً أن الوضع الخطر الذي يواجه قلب قواته لا يمكن تجنبه وتعامل مع الموقف ببرودة مذهلة. كانت المعركة على وشك أن تصل إلى ذروتها، هرع كاليماخوس، الذي صمد بشكل بطولي في الوسط، لتولي قيادة الجناح الأيمن، بينما تولى ملتيادس الجناح الأيسر؛ وهو خيار جريء إذا علمنا أن قواتهم في الوسط كانت على وشك الانهيار. وقد صنعا بذلك فخاً فريداً من نوعه. ففي حين كان خط القتال الأثيني في الوسط يتوسع ويجذب تراجعه المزيد والمزيد من قوات العدو نحو الثغرة، فإنه كان يجذب المزيد من الدعم من قوات الأجنحة اليونانية التي توجهت نحوه، نتج عن هذه الاستدارة الداخلية حدوث تطويق مزدوج لجيوب قتال القوات الفارسية.

أما الرجال الذين كانوا يقاتلون من أجل البقاء على قيد الحياة ملتحمين بعضهم ببعض فلم يلاحظوا أبداً ما كان يجري على جانبهم ولا خلفهم؛ كان تركيزهم موجهاً بالكامل على العدو الذي أمامهم. كان هذا هو الحال مع الفرس. الذي لم يكونوا أبداً من قبل أقرب إلى النصر مما هم عليه حينها، حينما تحركت وبشكل مفاجئ أجنحة الجيش اليوناني الداعمة في ما تحول خلال ثوان إلى هجوم قاتل، انقضوا عليهم وهم يصرخون بهتافات التحدي «زيوس»[10]. واندفعوا لاقتحام الجناح المفتوح لتجمع الميديين

10- إله القوة لدى الإغريق. المترجم.

داخل جيوب الجيش الفارسي، وبمجرد أن تقدم أول تشكيل سلامي (فلانكس) من موضعه في الأجنحة، حذت جميع التشكيلات الأخرى حذوه؛ لم يكن غضبهم المكبوت يحتاج إلى أوامر لكي يطلقوا العنان له. هذا الهجوم المفاجئ من الأجنحة الذي قام به المقاتلون اليونانيون أدهش الفرس تماماً وأوقف تقدمهم. وسط الغضب الشديد، اخترقت تشكيلات الجناح اليوناني صفوف الفرس وشقّت طريقها عبرها وهي تكيل الطعنات لهم، ولم ترحم أحداً منهم. تناثرت جثث موتى الفرس في أرجاء ساحة المعركة على شكل أكوام بين تشكيلات الأجنحة التي كانت تقترب من بعضها بسرعة. ومع اقتراب إغلاق فكي الأسد، اندفع فيلق من سلاح الفرسان الفارسي في محاولة لمنع تطويق جيشه. تعرضت خيولهم إلى طعنات برؤوس رماح التشكيلات اليونانية المهاجمة. انكسر الفرسان وولوا هاربين. إن محاولة داتيش اليائسة لإنقاذ قوات مشاته من الإبادة لم تسفر عن شيء. في غضون دقائق، كان جيشه محاطاً من ثلاثة جوانب ودُفن تحت وابل من القذائف؛ كان لا يزال هناك طريق هروب واحد مفتوح لهم، نحو الشاطئ؛ وبعده تأتي المياه العميقة الغادرة. وسط تعرضهم للهجوم واضطرابهم انسحبوا إلى الخلف، في حين كان هناك المزيد من مقاتلي (الهوبليت) المدرعين والمخيفين يطوقونهم من الخلف ويقطعونهم إلى أجزاء. سرعان ما امتزجت رمال الشاطئ بدماء الآلاف من الفرس. كان ملتيادس وكاليماخوس في غمرة شجاعتهم وسرورهم، وكانوا يقودون أمامهم بقية أعدائهم نحو الموت غرقاً. أثناء الهجوم النهائي على حافة المياه، وقع كاليماخوس ميتاً ولم يعش ليرى انتصار جيشه الساحق. وكان ذلك حال الكثير من الفرس أيضاً. لقد ألقوا أسلحتهم وهربوا إلى سفنهم، التي سبق أن اختبأت في البحر، تاركين رفاقهم إلى الأسر أو الموت. فقد داتيش عدداً من الرجال في تلك الهزيمة الأخيرة أكثر مما فقده في المعركة: فقد تُرِك 6400 قتيل على الشاطئ. وعلى مدار عدة أيام تلت ذلك الحدث، ظل ماء البحر يقوم بغسل العديد من الجثث المنتفخة الملقاة على الشاطئ.

بينما انسحب أسطول داتيش من خليج ماراثون بدون أن يتعرض لهجوم، خرج وميض إشارة إلى سفينته من مكان ما على جبل بينديلي. أولئك الذين رأوا تلك الإشارة افترضوا لاحقاً أنها يجب أن تكون صادرة من منشقين يونانيين، وحثوا داتيش على الانضمام إلى انتفاضة خطّط لها المعارضون لحكم أثينا الديمقراطي. ولكن مع الأخبار التي تفيد بأن النصر قد تحقق، فإن التمرد لم ينطلق أبداً، خاصة عندما علم المتآمرون أن جيشاً أسبرطياً قوياً كان في طريقه لحماية المدينة. كان من الممكن أن يتسببوا في ذبح للمتمردين بلا رحمة. وكان أمراً جيداً أيضاً أن لا أحد اكتشف من أرسل الإشارات. فقد كان يمكن أن يؤدي ذلك إلى اندلاع حرب أهلية.

في الليلة نفسها، خرجت فرقة قوية من جيش أسبرطة إلى ميدان المعركة في سهل ماراثون، لتجده مليئاً بالجثث، والطيور المفترسة تتغذى على بقايا الجيش الفارسي. لم يكن هناك أحد حياً؛ فالفرس قد ماتوا، وهرع أبناء أثينا للدفاع عن مدينتهم، بعد أن قاموا بمراسم دفن لائقة لرفاقهم الذين سقطوا ودفنوهم في قبر مشترك. لم يهدر ملتيادس ورفاقه من أبناء أثينا وقتاً في تهنئة أنفسهم - وهذا سيأتي لاحقاً. فستنشد لهم أجيال من أبناء وطنهم وتتغنى بتلك اللحظة الرائعة[11].

كان جيش داريوش قد نزل إلى الشاطئ ليقوم بتدمير اليونانيين، ولكن بدلاً من ذلك صدّه اليونانيون وألحقوا به هزيمة منكرة. من خلال طوق مزدوج، من المحتمل أن تكون عملية فكي الكماشة هذه قد حدثت عن طريق الصدفة من خلال ديناميكيات المعركة، ولكن سيتم اعتبارها خطة تكتيكية باهرة، لأنها جعلت الجيش الفارسي الجرار يتعرض للهزيمة على البر رغم أنه كان بارعاً في القتال فيه.

11- استناداً على هذه الروايات، التي ظهرت بعد سنوات عديدة من المعركة، وضع المؤرخون المعاصرون تحليلاتهم.

كانت معركة ماراثون مقدمة رائعة لدراما كبيرة[12] في عصر مؤسسي علم التاريخ، هيرودوتس وثوسيديديس، تمثل معركة ماراثون علامة فارقة في التاريخ العسكري. وللمرة الأولى، أفسحت الأساطير وقصص التوراة عن الماضي الطريق أمام الحقائق التاريخية الجادة. ومع ذلك، كان من المحتمل أن تصبح معركة ماراثون مجرد معركة أخرى في سلسلة من المعارك المنسية لو لم يكن ذلك الإنجاز المذهل الذي حققه رجل واحد بمفرده، فقد ركض المقاتل النبيل فيديبيديس وهو لا يزال يرتدي بذلته القتالية الملطخة بالدماء مسافة 42.5 كيلومتراً من ماراثون إلى أثينا[13] ليصرخ صائحاً !Nenikikamen لقد انتصرنا!

وبعدها سقط ميتاً بسبب فقدانه لدمه وما عاناه من إرهاق.

كان هذا هو دور التاريخ في تخليد معركة ماراثون. .

تقدم معركة ماراثون لغزاً تاريخياً. هل كانت عملية الطوق المزدوج أو (فكي الكماشة)، هي التي أدّت إلى إبادة الجيش الفارسي، وهل حدثت عن سابق تصميم أم عن طريق الصدفة؟ أصبحت هذه النقطة موضع جدل بين المؤرخين.

لا يمكن أن يكون هناك شك في أن ملتيادس كان يمتلك صفات القائد العظيم. فبفضل ثباته الأخلاقي ومرونته، تكيّف مع الموقف المحدد. كانت سماته الأخلاقية بمثابة نموذج يُحتذى به وأجبر مقاتليه على الحفاظ على المجهود البدني المطلوب. لقد أوقف الفرس عند بوابات غرب أوروبا ولم يسمح لهم بالتقدم.

كانت معركة ماراثون صرخة ولادة أوروبا.

12- عن: The Cambridge Ancient History and J.F.C. Fuller, Battles of the Western World.

13- في وقتنا الحاضر يتدرب أبطال سباق الماراثون، لعدة سنوات باستخدام معدات خفيفة وينهون السباق في ساعتين و10 دقائق، لكنه في ذلك الحين كان يستغرق ربما خمس أو ست ساعات.

الفصل الرابع

بوابات الجحيم
ثيرموبيلاي
9 آب 480 ق.م

«أيها الغريب اذهب إلى أهل أسبرطة وأخبرهم، أننا مدفونون هنا، وقد أطعنا الأوامر».

- *كلمات الشاعر سيمونيدس المنقوشة على نصب معركة ثيرموبيلاي، القرن الخامس ق.م*

«مرة أخرى، في سردنا للشخصيات اليونانية، نقدم مشهداً فريداً من الجرأة والتبصر، ارتفع كل منهما إلى أعلى درجاته، وكلاهما اتحدا في الشخص ذاته...»[1] إذا كان مثل هذا الشخص موجوداً، فهو ليس غير ليونيداس، ملك أسبرطة. لم يتطلب الأمر فقط الشجاعة الجسدية لمواجهة عدو قوي، ولكن الشجاعة الأخلاقية لتحمل المسؤولية عن حياة - أو موت - رجاله. وكان بمجرد أن يتخذ قراره، يتمسك به، مهما كان الثمن. يظل صمود أبناء أسبرطة الثلاثمائة على بوابات ثيرموبيلاي قصة ملحمية تسرد ما يفعله المدافعون عن أوطانهم في كل العصور، وهو مثال بارز للشجاعة الجسدية والمثابرة.

1- راجع: Thucydides in his History of the Peloponnesian War, translated by Richard Crawley in 1874.

بعد وفاة الملك داريوش الأول، استولى ابنه أحشويرش، أو كما كان معروفاً باسم، خشايارشا (485-465 ق.م)، على السلطة من خلال القضاء على جميع إخوته الذين ادعوا بحقهم في عرش بلاد فارس. بعد أن تسلق سلم العرش الدامي، تابع مخططه الرئيس: تدمير اليونان والسيطرة بلا منازع على طرق التجارة في بحر إيجه والبحر الأبيض المتوسط. «تم دفع الملك الفارسي من قبل الآلهة لارتكاب خطأ فادح وهو الدخول في حرب ثانية مع الميديين»[2]. سواء كانت الآلهة من دفعته أم لا، فإن خشايارشا أرسل مبعوثين إلى دول المدن اليونانية (باستثناء أسبرطة وأثينا)، مطالباً إياهم بوعاء من الطين وجرة ماء كعلامة على ولائهم. عندما رفضوا ذلك، دعا خشايارشا حكام مقاطعاته لتزويده بالرجال والأسلحة. وفقاً لـ «أبي التاريخ»، هيرودوتس، تجاوز تعداد جيش خشايارشا مليوني شخص؛ أما التقديرات الأخيرة فتقول إن العدد يقرب من 200 ألف، ومع ذلك فقد كان ذلك حشد هائل من المحاربين في ذلك الوقت. كانت قواته البحرية مثيرة للإعجاب بالقدر نفسه؛ فهي تتكون من 3000 سفينة نقل و1207 سفينة قتالية. استدعت خطة خشايارشا غزو اليونان عبور الشاطئ الأوروبي عن طريق مضيق هيليسبونت[3]. وأمر ببناء جسرين عملاقين من القوارب، الأول مؤلف من 314 سفينة، والثاني من 360 سفينة، مثبتين بواسطة ستة حبال كتان بسمك الذراع تغطيهما ألواح خشبية للسماح بمرور العديد من الآلاف من المركبات الحربية وجنود الخيالة. في شتاء عام 481 ق.م، نقل خشايارشا بلاطه إلى مدينة ثيرمي (سالونيكا). كانت آلة الحرب الضخمة الخاصة به جاهزة للعمل.

نزلت الأخبار كالصاعقة دون سابق إنذار: قام جيش فارسي جرّار بعبور مضيق هيليسبونت، بعد أن كان قد تجاوز بالفعل منطقتي تراقيا

2- راجع كتاب هيرودوتس.
3- الدردنيل. المترجم.

ومقدونيا وبات يقترب بسرعة من حدود هيلاس[4]. وفي موقف نموذجي لما يشبه المثل القائل «أنا ومن بعدي الطوفان»، غيّر ثيساليا من ولاءاته وانضم إلى صفوف الغزاة. كان رد فعل الإغريق -الذين كانوا منشغلين بنزاعاتهم الداخلية المعتادة وفي اختلافات آرائهم حول من يجب أن يقاتل ومن يجب أن يقود- خجولاً عن طريق إرسال قوة جُمعت على عجل مؤلفة من عشرة آلاف مقاتل إلى حدودهم الشمالية لوقف زحف الجيش الفارسي عند مدينة تيمبي. عندما بدا أن جزءاً من قوات خشايارشا ستتجاوزهم، استدار الإغريق وفروا مذعورين. «يا له من عمل مشين»، هكذا صرخ أبناء الجيل الأقدم من المقاتلين الذين وقفوا ببسالة في وجه جحافل الفرس في معركة ماراثون. كان من الأفضل المجازفة بالهزيمة وعدم ارتكاب مثل هذا العمل الجبان، والهرب من أمام وجه العدو! أما الزوجات، اللواتي ودَّعن أزواجهن المحاربين بأكاليل الغار والدعوات والأمنيات ومشاعر حب جارفة من أجل حماية منازلهن وأسرّة أطفالهن، أصبحن الآن يبصقن في وجوههم ويرفضن معاشرتهم. ما وحّد اليونانيون لم يكن الخطر الذي بات يحدق بهم جراء الهزيمة العسكرية في تيمبي، على الرغم من أنها كانت أمراً مشيناً، ولكن رد فعل زوجاتهم وأمهاتهم على سلوكهم. لقد كانوا يستمعون من اللاجئين قصص الفظائع التي ارتكبها الفرس. فكانت النساء تتحدث عن اغتصابهن، وكيف تمّ تجميع بناتهن المراهقات ليتمّ بيعهن في بيوت الدعارة التي يرتادها الجنود، وكيف يتمّ تحويل أبنائهن إلى مخصيين. كانت نساء اليونان قد حسمن أمرهن؛ ما دام رجالهن يفتقرون إلى الشجاعة للدفاع عنهن ضد هذا العار، فسوف يقمن بتشكيل كتائب الأمازون. واجه وفد منهن القائد العسكري للبلاد (polemarch) وهذا ما كان.. شعر رجال هيلاس بالعار. كان شرفهم ومعه شرف اليونان على المحك.

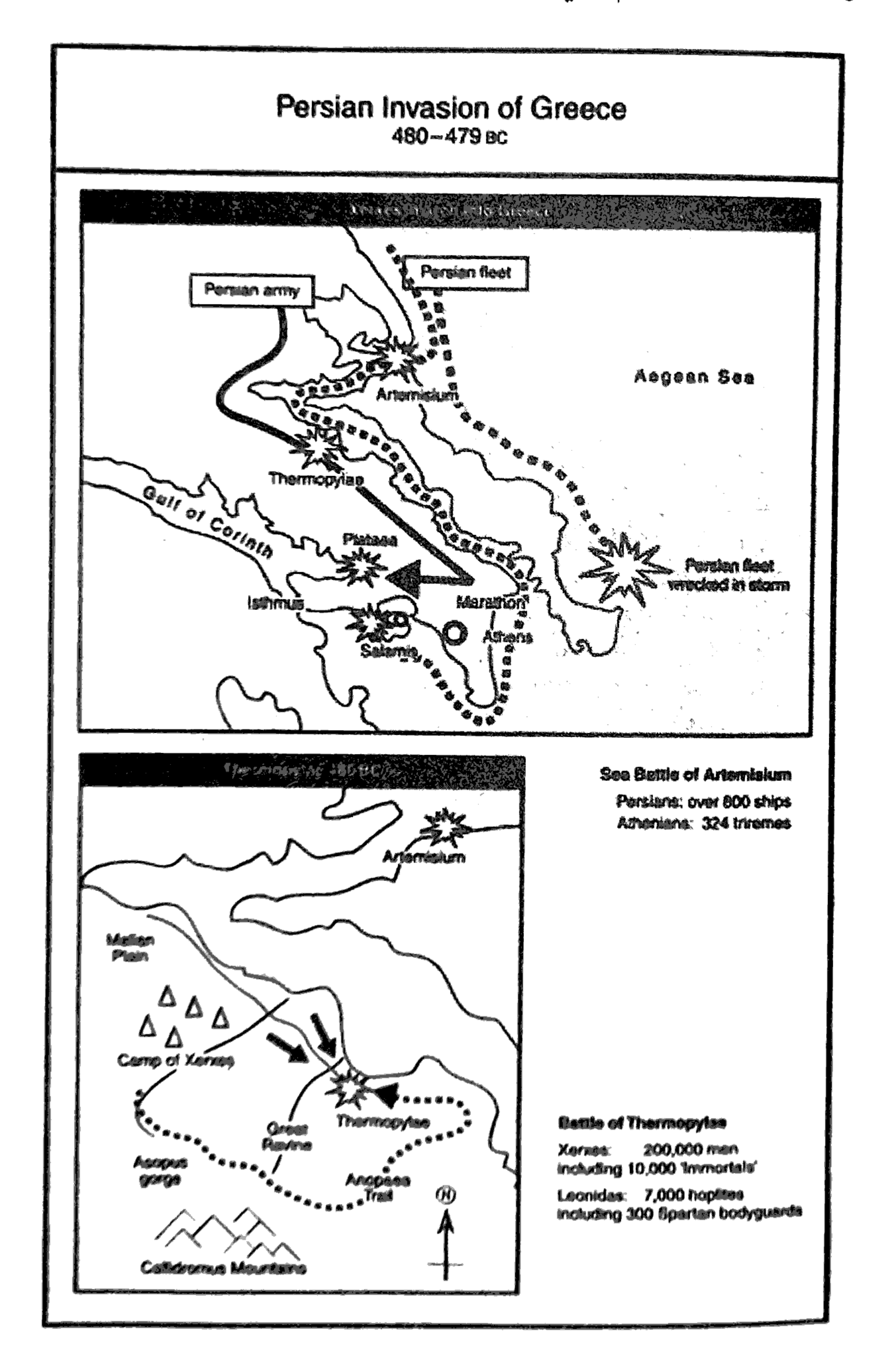
توجه المبعوثون إلى دول المدن بدعوة لعقد اجتماع للقبائل، تمكنت

4- الاسم القديم لليونان. المترجم.

خلاله النساء من الحصول على وعد من مختلف ممثلي الدول بجمع خمسة من (الموراي) على الفور - وهذا يعني خمسة آلاف من جنود الهوبليت بالإضافة إلى حملة الدروع. لم يكن ذاك بالجيش الكبير الذي يستطيع أن يواجه مئات الآلاف من مقاتلي بلاد فارس - لكن كان عليهم القيام به ريثما يتمّ تجميع المزيد من القوات وتسليحها. طلب مجلس الحكماء المشورة من كاهنة دلفي: «اصمدوا حتى نهاية الأرض». وبالنسبة لأي يوناني، كانت «نهاية الأرض» هي الأرض التي تتجاوز القمم العالية. بعد الاستماع إلى الحكماء والمحاربين الذين ابيّض شعرهم، استقر رأي الحكماء على مكان واحد حيث يمكن أن تتاح فرصة عادلة لقوة صغيرة نسبياً وقف، أو على الأقل إبطاء، تقدم جيش متفوق عليهم إلى حدّ كبير: وهو البوابات الثلاث لثيرموبيلاي. سيتعين على خشايارشا أن يسلك الطريق الساحلي الوحيد المؤدي إلى أثينا، وكانت فرصتهم لتأخير تقدمه في الممر الضيق بين الجبل والبحر، ممر ثيرموبيلاي، الذي سمي على اسم ينبوع مياه كبريتية حارة يفترض أن تحتوي على سرٍّ شفاء الجروح. تمّ إيكال مهمة إيقاف زحف الفرس إلى أعظم محارب في ذلك العصر، ليونيداس ملك إسبرطة.

وُضِعَت خطة شاملة للدفاع. ودُعِيت جميع القوى المتاحة كي تكون على أهبة الاستعداد. كان الأسطول الحربي المشترك بين الأثينيين والأسبرطيين يتكون من 324 سفينة ثلاثية المجاذيف لإغلاق مضيق أرتيميسيوم وأندروس لمنع الأسطول الفارسي من شنّ هجوم من الأجنحة على القوات التي تسيطر على ثيرموبيلاي. مقارنة بالقوات الفارسية، كانت القوات البرية اليونانية صغيرة بشكل يُرثى له. أسفر مؤتمر القوى الهيلينية عن تشكيل سبعة أفواج (موراي)، وهي قوة مختلطة من أبناء ثيسبيا وفوشيا وأسبرطة، كوّنوا بمجموعهم ما بين سبعة إلى ثمانية آلاف من جنود الهوبليت. وفي ما كان ليصبح ملحمة أبدية من الشجاعة، يتقدمهم ثلاثمائة من مقاتلي أسبرطة (المتماثلين في الشكل) من

المحاربين المواطنين المخلصين لشعارهم «ننتصر أو نموت!»، صدرت الأوامر إلى هؤلاء الرجال لوقف تقدم مئتي ألف من جنود المشاة، وسلاح الفرسان وقوات الدعم التي يقودها الإمبراطور خشايارشا.



كان ممر ثيرموبيلاي في الواقع عبارة عن سلسلة من ثلاثة ممرات ضيقة، أطلقت عليها تسمية بوابة الغرب والوسط والشرق. لم يكن العدو قادراً على بسط تفوقه العددي، لأن المنحدرات كانت تطوقه عند الحدود. قام ليونيداس بتجميع قواته المتحالفة في مكان لا يرتفع إلّا قليلاً على وادٍ يقع أمام ما يعرف بجدار (الفوكيانيين) في البوابة الوسطى؛ فقبل سنوات، أقام الفوشيان (أو الفوكيانيون) جداراً حجرياً، كان الهدف منه جمع الضرائب على الطرق أكثر منه جداراً دفاعياً. كان ارتفاع هذا الحاجز البدائي يصل إلى صدر الإنسان فقط، ولكن دافع عنه الرجال المستعدونِ للموت من أجله، مما جعل الحاجز منيعاً بالفعل. لكن كل قلعة لها ضعفها الكامن فيها، وهو المفتاح الذي يفتح البوابة. لم يكن الأمر مختلفاً في ثيرموبيلاي: لقد كان يجتازها درب جبلي يسمى درب أنوباي؛ ويتسلل إلى أعلى النهر على طول مضيق نهر أسوبوس عن طريق الالتفاف على قلعتي تراخيس وأويتا، ثم يلتوي عبر المنحدرات الشمالية المليئة بالصخور لجبلي أويتا وكاليدروموس، قبل أن ينحدر متراجعاً نحو البحر، حيث يرتبط بالطريق الساحلي الواقع بين بوابة الشرق والبوابة الوسطى. لم يكن ملك أسبرطة يعلم بوجوده. لكن عدداً قليلاً من الرعاة المحليين كانوا يستخدمونه في فصل الربيع لرعي قطعانهم.

لضمان حماية المنطقة المحيطة بالبوابة الوسطى، نشر ليونيداس وحدة تضم ألفاً من الهيلوتس[5] الفوشيان يحملون أسلحة خفيفة بالقرب من قلعة تراخيس. كانت هناك فرصة ضئيلة لشنِّ هجوم من هذا المربع، وكانت مهمة تواجدهم هناك هو رصد كشافة العدو وصدّ الغزوات البسيطة، ولكن لم يكن القصد منها منع قوة كبيرة من اختراقهم.

دخل خشايارشا إلى سهول ماليا (المعروفة أيضاً باسم سهول تراخيس)، وهي مراعٍ خضراء تنتشر فيها قطعان الأغنام. وكان الطريق

5. طبقة العبيد. المترجم.

يصعد من هناك، نحو مرتفعات ثيرموبيلاي، حيث كان الإغريق يعترضون تقدمه. أقام مخيمات لجيشه على مرأى من اليونانيين، على أمل أن مجرد مشاهدة هذا الجيش الهائل من شأنه أن يثير الذعر داخلهم كما فعل في مسيرته نحو مدينة تيمبي. ولكن الأمر لم ينجح هذه المرة.

بات الناظر إلى السهل من مرتفعات ثيرموبيلاي، يراه مغطى من البداية إلى النهاية بالخيام ودخان نيران من يقيم فيها، كان معسكراً ضخماً، مقسم إلى قطاعات، كل منها مخصص لمجموعة عرقية: الآشوريون، والبابليون، والميدانيون، والكاريانيون، والأرمن، والشوشانيون، والكبادوكيون، والعرب، والإيليريون، الليديون، والبختاريون، والمصريون - «هل بقيت دولة واحدة في آسيا لم يجلبها خشايارشا معه لتقاتل ضد اليونان؟»[6] كان ليونيداس مندهشاً، حتى الجبابرة[7] لم يكن بإمكانهم تجهيز جيش بحجم وضخامة قاطرة الحرب الفارسية. كان الفرس على الأرض يشبهون الألعاب الميكانيكية، لكن من نوع الألعاب التي خرجت مباشرة من جوف الأرض وحررها هيدز[8]. كانت كل قبيلة، وكل فيلق حاكم مدينة، وكل فرقة ترتدي لونها المميز؛ تقدم الجنود في صفوف بألوان الأحمر والأزرق والأصفر والأرجواني. كان ضباطهم متميزين بسبب دروعهم اللامعة المصقولة. لم يرتدِ المقاتلون أي دروع واقية غير دراعات مصنوعة من الجلد. والاستثناء كان عشرة آلاف من المشهورين من فيلق النخبة الخاص بالملك كانوا يرتدون دروعاً متلألئة تُشبه حراشف السمك.

يرى الناظرمن فوق سهل ماليان، المسار المضيء بشكل رائع والذي

6- راجع كتاب هيرودوتس.

7- أو عرق التيتان وبحسب أساطير الإغريق، هم عرق من الآلهة الأقوياء الذين حكموا الأرض قديماً. المترجم.

8- هو ملك العالم السفلي عالم الموتى وسمي هيدز أي «مانح الثروة» كناية عما تحمله باطن الأرض من كنوز والتي هي جزء من مملكته، واشتهر بخوذته التي تخفيه عن الأنظار.

يقود إلى خيمة فخمة. وينتصب خارج الخيمة عرش مثير للإعجاب، يعود لجلالة الملك خشايارشا، ابن داريوش، ملك الملوك وسيد كل الأراضي. كانت فخامة العرش نتاج سنوات من نهب بلدان آسيا. والآن جاء دور اليونان.

كان ليونيداس يعلم جيداً أن الفرق الرئيس بين القوات لم يكن الأسلحة بل الروح المعنوية. فما كان يميّز جنوده الهوبليتس اليونانيون، هو أنهم يقفون بثبات، متسلحين بدروع ثقيلة تحمي كل أجسادهم من الدروع الواقية للبدن وصولاً إلى تلك الدروع المصنوعة من البرونز المصهور التي تغطي أرجلهم[1] كانت تروسهم (ويشار لها بمصطلح أسبس) مصنوعة من خشب البلوط الصلب ومزينة بمعدن مصقول. كان سلاحهم الرئيس رمحاً يبلغ طوله 13 قدماً، وهو الساريسا، الذي كان قد أثبت بالفعل قيمته في معركة ماراثون. كان كل مواطن محارب يرافقه حامل درع خاص به من طبقة العبيد (الهيلوتس)؛ الأمر الذي يعفي النبلاء (كان يطلق عليهم الهوموي) من عمليات الذبح أو الطعن. وكانت هناك حاجة لأحد العبيد يعتني بجروح سيده، وبعد تحقيق النصر، يأخذ هراوته ويقتل جرحى العدو. خلف هذا الجدار الهائل من حاملي الدروع، كان يأتي الرماة، حاملي العشرات من عصي الخيزران ذات الرؤوس البرونزية ومثبتة في الأرض ليسهل الوصول إليها، وخلفهم تنتظر قوات المشاة الاحتياطية لسدّ الثغرات.

كانت مواجهة سبعة آلاف من جنود ملك أسبرطة لمئات الآلاف من جنود الفرس تبدو قضية خاسرة. لكن الأمر لم يكن كذلك. كانت الطريق المؤدية إلى الممر تشبه القِمع إلى حدّ كبير، واسعة عند المدخل وضيقة عند الممر الحرج. لم تكن المساحة تكفي سوى لوضع أكثر من عشرة محاربين في تشكيل الهجوم الأمامي؛ وبالتأكيد لم يكن هناك مجال لدفع عشرات الآلاف في الوقت نفسه. تمنى ليونيداس لو كان

---

[1] تشبه إلى حدٍّ ما واقيات قصبة الساق التي يستخدمها لاعبو كرة القدم حالياً.

لديه بضعة آلاف أخرى من الجنود. من المؤكد أنه لو حصل على قوة إضافية مكونة من خمسة آلاف جندي (هوبليت) فقط، كما وعده البعض، لما استطاع الفرس اجتياز ثيرموبيلاي أبداً، لأنهم لم يكونوا يستطيعون مواجهة الهوبليت اليونانيين وجهاً لوجه. قرّر ليونيداس استخدام مقاتلي مدن ثيساليا وأركادينيا في استيعاب موجة الهجوم الأول، مع إبقاء مقاتلي أسبرطة قوة مساندة تقوم بسدِّ الثغرات. ونشر قواته الاحتياطية من مدن موكناي وفولوس أبعد إلى الوراء.

عسكرت كلا القوتين المتقاتلتين لمدة ثلاثة أيام وباتت تراقب كل منهما الأخرى. لم يكن هناك سوى القليل من الحديث بين المدافعين. كانت عيون المحاربين تنظر بعيداً لا تركز على ما حولها، وعقولهم منشغلة بترقب القتال الواثقين من أنه لا بد قادم. في اليوم الرابع، أرسل شاخايارشا مبعوثاً يحمل أمراً إلى الملك ليونيداس بأن يلقي سلاحه. «تعال وخذه إن استطعت»، كان ذلك هو الرد الفظ من ملك أسبرطة، الذي أغضب جلالة الملك الفارسي لدرجة أنه أمر بشنّ هجوم فوري. تجمعت حشود الفرس وجيوش مقاطعاتهم عبر قطاع من الأراضي المحرمة، في انتظار إشارة من إمبراطورهم. حيث انطلقت بوضوح من أحد الأبواق.

سمع الرجال الموجودون عند الممر صوت بوق بعيد، تلاه دويّ هزّ الأرض. قبل أن تبلغ حشود الفرس ذروة صعودها، قام ليونيداس بعمل طقس السباغيا (spaghia)، وهو ذبح القربان المعتاد للإلهة أرتميس، عن طريق إعمال نصله في عنزة كان يحصرها بين ركبتيه. انتشر الدم المنبعث من عنق الحيوان على رداء الملك. كانت هذه أول نقطة دم تسيل في المعركة من أجل ممر ثيرموبيلاي. كان الجميع يدرك أن هناك المزيد من الدماء القادمة.

سار الجيش الفارسي، الذي كان يبلغ عرض رتله ألف جندي بعمق عشرة جنود، على المنحدر الطويل. وكان كلما تضيق المنحدرات، يتمّ ضغط صفوف الرتل الأمامية، مما أدى إلى تكوّن كتلة كبيرة غير متناسقة

من الرجال المتزاحمين والمتدافعين دون وجود أي فرصة للحركة الجانبية. انطلق الاشتباك الأول من قبل الرماة الميديين وهم يتقدمون أمام الحشود المزدحمة ويمطرون بالسهام جدار الدرع اليوناني؛ ومع وجود شقوق فقط لعيونهم في الخوذ التي تحمل خصلاً من شعور الخيل ينظرون بها إلى الدروع الحمراء والبرونزية، فإن تلك السهام لم تلحق أي أضرار بالإغريق. كان «مقاتلو جدار الصد اليوناني ذوو الدروع المجدولة والمصنوعة من البرونز» يشكلون متراساً صلباً؛ أما الصف الثاني من المقاتلين فقد وضعوا دروعاً فوق رؤوسهم كانت تميل إلى الأمام، مثل السقف، لتدرأ عنهم عيدان الخيزران التي كانت تتكسر بتأثير البرونز. ظهر الثيسبيون، برماحهم الطويلة المثبتة بقوة في الأرض، وكأنهم غابة من أشجار ذات رؤوس حديدية قوية وهم يندفعون إلى الأمام. في مواجهة هذا الجدار من الدروع والأجساد المدرعة لجنود الهوبليت من ثيسبيان، الذي كان بعرض ثمانية عشر درعاً، تكوّم الآلاف من المهاجمين، وهم يتدافعون ويزاحم بعضهم البعض في الحدود الضيقة. وكانوا يصيحون «النصر لخشارياشا!» وكان يُرَدُّ عليهم على الفور بصرخة واحدة تحمل التحدي «زيوس منقذنا!»

حصل الاحتكاك الأول في حادث تصادم كبير رددت صداه جدران المنحدر، حينما اصطدمت دروع الميديين الصغيرة المغطاة بالجلد بدروع مقاتلي ثيسبيان الصلبة المصنوعة من خشب البلوط والبرونز. ثم غطت سحابة من الغبار كل شيء، ولم يعد يُرى سوى وميض الرماح وهو يرتفع فوقها. أما الميديون الذين كانت وظيفتهم الرئيسة هي توجيه ضربات خاطفة تحت حماية من طوفان من السهام، كانت غايتها الضرب الخاطف وليس من أجل إحداث تأثير. فقد جاؤوا في كتلة كبيرة وقاموا بتوجيه رماح رمي قصيرة من مسافة خمس عشرة إلى عشرين ياردة كانت عادة كافية لدفع أي عدو إلى الهروب. هذه المرة لم يكن لديهم أي أمل؛ فقد ماتوا، بعد أن اخترقتهم رماح مقاتلي ثيسبيان. تمّ إرسال المزيد من

الفرس للدخول في المعركة، فقدموا وكان عرض صفوفهم ما بين مئة ومائتي جندي وبعمق أربعين جندياً. كان الضغط من الصفوف الخلفية قوياً للغاية إلى حدّ أنه دفع الجنود في خط المواجهة ليحتكوا بأطراف رماح مقاتلي ثيسبيان وأركاديا. بدأت جبال من الموتى تتراكم أمام جدار الدروع. كانت الجثث ذات البطون الممزقة والأطراف المخترقة في كل مكان. أولئك الذين حاولوا التراجع تعرضوا للذبح بواسطة بلطات مراقبي العبيد الذين «يتخلصون من الجبناء» لمنع الآخرين من الهرب. عندما يتم صدّ أي هجوم، لم تكن تُبذل أي محاولة لمساعدة الجرحى أو تنظيف الميدان من الجثث استعداداً لموجة الهجوم التالية.

أدى التدريب والانضباط الذي يتميز به اليونانيون إلى تمكينهم من أن يقلبوا الوضع لصالحهم. وبشجاعة وتضحيات كبيرة، صمدوا عند الجدار وتصدوا لكل هجوم جديد. كان جنود الهوبليت يسحبون جرحاهم خلف ملجأ التشكيلات، بينما يأخذ محاربون جدد مكانهم لتعزيز الصفوف وجعل الدروع متصلة مع بعضها. على هذا الجدار البرونزي تحطمت أمواج الهجمات الفارسية المتتالية ليتمّ مواجهتها من خلال عمليات كرّ وفرّ بالرماح والسيوف. كانت كل محاولة تتحول إلى مسلخ للذبح. ارتفع أمام (البرومشوي) الإغريق (خط القتال الأول) جدار جديد؛ تكومت فيه جذوع أعدائهم. كان على الأمواج التالية من المهاجمين أن تتسلق جثث مئات القتلى لتقترب من العدو. تملكت الإغريق وهم صامدون عند بوابة الجحيم، روح شيطانية؛ تحولت كراهيتهم للدخلاء إلى أعمال وحشية وبربرية لا يمكن تصورها من قبل. في هذا القتال القريب، أصبحت الأجساد نفسها هي السلاح. كانت قوة الضغط ووزن الجسم هي التي تحسم الأمور في كثير من الأحيان. حتى الأصابع أصبحت مخالب فتاكة. أصبحت الممرات الضيقة مسرحاً لأحداث دراما يونانية، حيث كانت المسرحية هي «الموت» وكان الارتباك هو السائد فقط. بعد كل مذبحة جديدة، كان جنود الهوبليت اليونانيون يتقدمون وسط مئات الجرحى

الذين كانوا يصرخون طلباً للمساعدة أو الشفقة. لم يكن شيء مضمون سوى الموت. استمر انهيار المزيد من الفرس عند حائط الصدّ البرونزي للجنود اليونانيين حاملي الدروع الثقيلة (أسبس). أما وحدات الميديين التي تعرضت للإبادة فقد قفلت راجعة، لتتداخل بشكل لا ينفصم مع أمواج المهاجمين القادمة. اصطف الرماة اليونانيون في مأوى الجدار الحجري في فوتشيان؛ وسهامهم ذات الريش تسير بشكل مقوّس فوق جبهة القتال لتحطم بسرعة مميتة الحشود المتقدمة. بسبب الضغط الهائل من الخلف كانت الموجة تلو الأخرى تتلقى السهام وتسقط صريعة. وإذا تمكنت إحدى الوحدات من تحقيق انفراجة، كانت مجموعات من الميسينيين تقفز فوق حائط الفوشيان وتلتقط رؤوس الأعداء، وتسدّد ضربات لها تخترق الخوذ والعظام. خلال فترات الراحة القصيرة في القتال، كان يسارع الأولاد بقراب مصنوعة من جلد الماعز لحمل النبيذ أو الماء الذي جلبوه من نبع سيليان الواقع خلف الجدار الحجري، بينما يهرع جنود الهوبليت لجمع السهام من بين من سقط من الجنود. عندما يصبح المحاربون المسؤولون عن جدار الدرع متعبين للغاية أو يعانون من الكثير من الإصابات، يتمّ الاستعاضة عنهم بقوات كانت قد أخذت فترات راحة؛ ثم يُمنَح المحاربون المنهكون بضع لحظات من الراحة لهم ولسلاحهم. في اللحظات المناسبة، تتقدم كتيبة من الأسبرطيين بثقة، في خطوة مثالية متناسقة مع صوت الفلوت، وهي تحمل رماحاً من الفولاذ الحاد. يتدفق مزيد من الدم من الجروح. وتتحول الأرض الجافة في ثيرموبيلاي إلى وحل أحمر.

شُنَّ اثنا عشر هجوماً منفصلاً في ذلك اليوم، وحتى حلول الليل، كان جزء من قوات خشايارشا الهجومية مفقوداً.

> *أخيراً، اكتشف الفرس، أن كل جهودهم للمرور لم تعد مجدية، وأنهم، سواء هاجموا بالفرق أو بأي طريقة أخرى، لن يحققوا غرضهم، فانسحبوا إلى أماكنهم الخاصة. خلال هذا*

الهجوم، قيل إن خشارياشا، الذي كان يشاهد المعركة، قفز ثلاث مرات متتالية من عرشه ليبث الرعب في جيشه.

وفي اليوم التالي قام باستئناف القتال دون تحقيق نجاح يذكر. كان الإغريق قليلين لدرجة أن الفرس كانوا يأملون في العثور عليهم معاقين، بسبب جروحهم. لكن اليونانيين وقفوا بقوة، وتوزعوا كل في مفرزة وفقاً لمدينته، وتحملوا العبء الأكبر في المنعطفات. رش الدم أذرعهم وصدورهم، وسقطت قطرات منه على دروعهم، وأصبحت شفراتها اللامعة معتمة بسببه. عندما لم يجد الفرس فرقاً بين ذلك اليوم واليوم السابق، انسحبوا مرة أخرى إلى مواضعهم[10].

على الرغم من التفوق العددي الذي يصل أحياناً إلى نسبة ثلاثين وأربعين، وأحياناً خمسين إلى واحد، والشجاعة العمياء التي أبدتها بعض أفواج الميديين، توقف الهجوم الفارسي عند ميدان القتال أمام الجدار الحجري القديم، ولم ير الكثير من القادة الفرس أي بديل سوى سحب فصائلهم من خط القتال. وهكذا وعلى مدار يومين حاول جيش خاشايارشا الضخم اختراق خطوط اليونانيين، وقد تمّ تفادي الخطر لمدة يومين، وعانى من خسائر كبيرة. وعانى الإغريق أيضاً من خسائر كبيرة. ضحّى ليونيداس بأحسن رجال هيلاس[11]، لكن كان عليه أن يكسب بعض الوقت لحشد بقية مقاتلي اليونان، وقد فعل ذلك.

في الوقت نفسه الذي جرت فيه هذه المعركة التي غيّرت مجرى التاريخ على الأرض، كانت هناك أحداث معركة أخرى تجري في البحر قبالة رأس أرتيميسيوم بين أسطول خاشايارشا والأسطول الإغريقي. حاولت السفن الحربية الفارسية فتح ممر لتمكين ناقلات الجنود من أجل الالتفاف على جناح قوات ليونيداس، وفعل البحارة اليونانيون كل

10- عن هيرودوتس.

11- اليونان. المترجم.

ما في وسعهم لمنع حدوث ذلك. كان لدى الفرس عدد كبير جداً من السفن تجعل النتيجة النهائية للمعركة محل شك، وابتسم الحظ للإغريق الذين تعرضوا لضغوط شديدة. فقد هبّت عاصفة شديدة عطلّت حدوث الاشتباك. نجح الأسطول الهيليني في الفرار على طول قناة وابية وإلى خليج اليوسيس، ووصل إلى المرسى الواقع على جانب جزيرة سلاميس.

اعتبرت المعركة البحرية في أرتيميسيوم نصراً للفرس، لكنها علّمت أحد القباطنة درساً أكثر قيمة: بالنسبة إلى الأدميرال الأثيني القائد ثيموستوكليس، فقد كشفت له مدى هشاشة التكتيكات البحرية لخصمه. دخل الفرس في المعركة دون أن تكون لديهم استراتيجية شاملة، واعتمدوا كلياً على دفعة منسقة من قبل آلاف المجاذيف التي دفعت مئات السفن الحربية إلى الأمام. إذا كان من الممكن تحويل مثل هذا الهجوم إلى الخصر الضيق بين إحدى جزر بحر إيجه العديدة، حيث كانت القدرة على المناورة هي كل شيء وأعداد المتحاربين لا تؤثر إلّا بشكل قليل، فإن الإغريق لديهم فرصة جيدة لإيقاف تقدم العدو، بل وحتى دحره.

عند ثيرموبيلاي، بدأ اليوم التالي بقسوة على المدافعين على البوابة الوسطى. في هذا اليوم، كان جدار الصدّ يتكون من مقاتلي أسبرطة. في البداية، قاموا بصدّ هجوم قام به سلاح الفرسان الباختيري. ركع الصف الأول من مقاتلي الهوبليت الأسبرطيون وثبتوا أعقاب رماحهم الطويلة (الساريسا) في الأرض، وجعلوها موجهة نحو عيون الخيول. رفع مقاتلو الصفوف الثلاثة التالية رماحهم عالياً، وهي تتوجه إلى الخارج فوق رؤوس المقاتلين الراكعين في الصف الأول. لقد أقاموا جداراً من الفولاذ المدبب، ولن تستطيع خيول الباختريين اجتيازه. تمكن عدد قليل من الاقتراب وذبح عدد من المقاتلين في الصف الأول من خطوط قتال اليونانيين، لكن الصف الثاني تمكن من الصمود وهاجم الفرسان وأوقعهم عن ظهر خيولهم. صرخ الإغريق احتفالاً بانتصارهم، وتعالت الهتافات في صفوفهم. تبع الباختريون قوات المشاة التابعة للملك خشايارشا. وقع

الكثير من القتال في اشتباك واحد. جاء اثنان من الميديين مسرعين من جانب ليونيداس المظلم، رافعين الفؤوس. لكن الرماة الأسبرطيين كانوا مستعدين. مات واحد من حاملي الفؤوس في الحال. تمكن الآخر من الاختباء ومزق السهم كتفه. ثم تعثر، حتى ثقب سهم آخر درعه الذي يشبه حراشف السمك وكان كما لو كان مصنوعاً من القماش بدلاً من المعدن. قام الميديون في ذلك اليوم بشنِّ هجمات متعددة، وسقطوا على الدروع والرماح مثل الأمواج التي تتكسرعلى شاطئ صخري.

كان شاخايارشا غاضباً من نكسات جنرالاته المهينة. لم تحقق الهجمات المتتالية سوى نتائج ضئيلة أو معدومة. ما بدأ، في اليوم الأول، هجوماً غاضباً تحول إلى الهيجان؛ وهذا أدى إلى انخفاض في الروح المعنوية. فقد عدد من الجنرالات رؤوسهم على يد جلاد الملك، وشمل ذلك جميع من اعتبرهم جلالة الملك لا يستحقون مناصبهم أو لم يقاتلوا بالشجاعة اللازمة.

بينما كان خاشايارشا يفكر في ما يجب عمله بعد ذلك، ظهر أمام مجلسه المهيب شخص ذو مظهر خشن. ادعى أن اسمه إيفياليتس من ماليا، وهي القرية التي أعطت اسمها لسهل ماليا. لا يعرف الكثير عن هذا الرجل. تجنب المؤرخون اليونانيون المعاصرون اسمه بسبب ما جلبه من عار، فقط لتجاوز حقيقة أن هذا الشخص ارتكب فعلاً من الخيانة لا يمكن وصف وضاعته: من أجل حقيبة صغيرة من الذهب، عرض أن يكشف لفرقة من الجيش الفارسي عن مسار سري، يجعلهم يلتفون حول المدافعين اليونانيين. لم يكن لدى شاخايارشا ما يخسره. وأمر مقاتليه الأشداء تحت إمرة القائدين أورونتس وهيدارنس بالقيام بمسيرة عبر الجبال ويفاجئوا ليونيداس من مواضعه الخلفيه غير المحمية. بسبب هذه المسيرة التاريخية، أصبح مسار أنوبية هو طريق الخالدين. انطلق عدة آلاف من الرجال المدججين بالسلاح بعد حلول الظلام، لا يرشدهم سوى ضوء القمر الفضي. تضخمت أصغر الأصوات. كانوا يتلمسون

طريقهم باتباع صوت خطى أولئك الذين يسيرون في الأمـام؛ تعثر الكثيرون بجذور النباتات البارزة، وصبوا اللعنات ليكسروا صمتهم الذي فرضوه على أنفسهم، والذي أصبح بعد ذلك ضرورياً لأن ذلك اليوناني أخبرهم بوجود قوة من الفوشيان تمنع المرور وتوجد عند أعلى المضيق. لقد عبروا نهر أسوبس دون حوادث. قبل شروق الشمس شاهدوا مفرزة من الفوشيان، تقوم بمنع الدخول إلى الفجوة الضيقة التي هي وراءهم. بعد اشتباك قصير، قتل فيه عدد قليل من الفوشيين، هرب الباقون في حالة من الذعر الأعمى؛ وكان هناك اثنان يمتلكان ما يكفي من سرعة البديهة ليتوجهان نحو ليونيداس.

كان درب الماعز الذي يمر بوادي أسوبوس يقود بشكل حاد إلى المنحدرات الوعرة لجبل كاليدروموس، عبر الوديان والمضائق، وصولاً إلى مقسم المياه وأسفل الجانب الآخر. بعد أخذهم فترة راحة قصيرة بسبب حرارة ذلك اليوم، وصل المقاتلون إلى أعلى قمة. وفي الأسفل، كان يمكنهم رؤية الطريق الساحلي المؤدي من الشرق إلى البوابة الوسطى. تهلّل وجه إيفاليتس الجشع وطالب بحقيبته من الذهب. كان القائد أورونتس، الذي جاء من صلب الشجرة النبيلة نفسها التي جاء منها الأبطال اليونانيون، غاضباً جداً من هذا الفعل الغادر، حيث قام بقطع رأس الخائن من على كتفيه بومضة براقة لسيف فولاذي. تدحرج رأس الرجل الجشع المفصول عن جسده والذي باع ملكه بكيس من الذهب مثل كرة ثقيلة وسط الغبار.

في المساء، سمع المقاتلون صوت الرعد من اتجاه الممر، مع ومضات من البرق تشق السماء. إنه نذير بشيء ما؛ لكن هل يكون أمراً حسناً؟ في الواقع، ضرب البرق جدار الفوشيان في اللحظة التي وصلت فيها طلائع مقاتلي الفرس إلى الجدار الأخير وبدأت في هدمه. لقد قال زيوس كلمته!

منذ بداية ذلك اليوم، لم يتوقف صوت المعركة أبداً. في البحر،

اندفعت البحرية الفارسية أخيراً عبر مضيق أرتميسيوم، حيث ترك الإغريق قوة لتعطيلهم مؤلفة من عشرين قارباً ثلاثية المجاذيف. كان البحر مغطى بحطام أخشاب السفن التي تحطمت. على ارتفاعات ثيرموبيلاي، كانت المذبحة أكثر فظاعة من أي وقت مضى. تكبد الجانبان خسائر، رغم أن الفرس عانوا أكثر من الأسبرطيين الأبطال وحلفائهم. كان خشايارشا قد ألقى بكل شخص بلا تخطيط في أتون المعركة لكسر شوكة مقاومة الأسبرطيون: الخيالة البختاريين والرماة المصريين وقوات المشاة من الأرمن والكيشيين والكبادوكيين والعرب. امتدت حشود المهاجمين على طول المنحدر الطويل وإلى المعسكر الفارسي. وجدت كل موجة مقاتلين متتالية أنه من الصعب عليها التوقف عن التراجع عند الأرض المليئة بالدم. كان الآلاف من الفرس الشاحبي الوجوه والموتى متناثرين أمام الجدار. لم تعد هناك رحمة أو شفقة. وسرعان ما بدأ اليونانيون يهتفون لبعضهم البعض. لقد ذبحوا وطعنوا بالرماح وأطلقوا سهامهم وماتوا. عندما كان يوناني يتلقى إصابة قاتلة، كان يتراجع ويقفز آخر لسد الثغرة ويربط درعه بدرع جاره. وإذا لم يكن هناك الكثير من (الهوميوي) وهم الطبقة العليا من المحاربين، يتخذ حاملو دروعهم مكانهم ويقاتلوا حتى الموت. كان هناك الكثير من الفرس القتلى حتى إن الملك ليونيداس أصبح لديه جدار آخر مشيد من جثثهم. خلال فترة توقف القتال، عمل المحاربون الذين تعبوا من القتال بهمة على تكديس المئات من القتلى في جدار يرتفع إلى ما يوازي صدر الإنسان العادي. وقد أثبت أنه كاف لوقف موجات الهجوم الثلاث التي جاءت فيما بعد، ولكن لم يتمكن من صدّ الموجة الرابعة. جاء خمسة آلاف من الميديين المدججين بالسلاح عبر الأرض المزدحمة، ودفعوا أمامهم قطيعاً من العبيد لحمايتهم من السهام حتى وصلوا إلى جدار الجثث. بأيديها العارية، سحبت حشود العبيد الجثث مقطوعة الرأس قبل أن يجتاح الجنود الفارسيون الثغرات. كان الفرس يشعرون بالحيوية فيما كان الإغريق منهكين. عادوا إلى القتال

من جديد. ولأول مرة، كان الفرس على وشك عبور جدار فوشيان عندما حدث ما هو غير متوقع. ضرب البرق الجدار ربما على الأرجح بسبب امتزاج الهواء عالي الحرارة وكتل المعادن على مرتفعات الممر. بالنسبة لليونانيين كانت تلك علامة من السماء، وبمعونة «زيوس المنقذ» الجبار، قاموا بصدّ المهاجمين. ثم حوّلت الأمطار التي سقطت مدراراً الأرض الملطخة بالدم إلى وحل يصل ارتفاعه إلى الكاحل.

من أمام جدار فوشيان، كانت المذبحة مستمرة حينها لمدة ثلاثة أيام. إذا تمكن ليونيداس من الصمود لفترة أطول، فسوف يجبر خاشيارشا على التخلي عن الطريق البري والبحث عن حل عن طريق البحر، حيث كان لدى اليونانيين فرصة لاقتناصهم. لكي يحدث هذا، كانوا بحاجة إلى وقت للتحضير، وكان عليه هذه المرة أن يكسب الوقت بتأخيره. كان هناك حدّ للمعاناة التي يمكن أن يتحملها. على الرغم من أن الفرس تعرضوا لخسائر فادحة -نظراً لأعدادهم الكبيرة التي تمكنوا من زجّها في المعركة- فقد وصل حلفاء الإغريق إلى نهاية قدرتهم على التحمل؛ لقد تمّ القضاء على فصائل قواتهم، ولم تعد أجسادهم قادرة على القتال، وتبلّدت أدمغتهم بسبب الجهد والضوضاء ورائحة اللحم المتعفن. واجه العديد من قادتهم ليونيداس بطلب الانسحاب والعودة إلى ديارهم والاستعداد للدفاع عن مدنهم. «احفظ لنا رجالنا، يا رب، لأنهم أثبتوا شجاعتهم»، وجادلوا بأن هؤلاء ليسوا جبناء. المحاربون الذين ما زالوا صامدين هم زهرة هيلاس، وهم على استعداد للقتال في يوم آخر. لكن ليس هنا وليس الآن.

لا يوجد شيء قاتل أبداً مثل الشعور بالوحدة الذي ينتاب الرجل الذي يجب عليه اتخاذ قرارات بشأن الحياة والموت فيما يتعلق برجاله. كان ليونيداس يتوقع طلبهم؛ كان يعلم أنهم لا يستطيعون الصمود لفترة أطول. لقد أدوا حصتهم من القتال. بدلاً من إهدارهم لوقتهم بلا هدف، فقد رضخ لمطلبهم بقيامه بذلك، قبل الملك ليونيداس، ملك أسبرطة، بالتضحية المطلقة: وقرر أن يقوم مع حراسه الشخصيين، الذين كانوا مجرد ثلاثمائة

رجل، بأعمال قتال في المؤخرة لصدّ تدفق الفرس ليوم واحد على الأقل. وهذا من شأنه أن يعطي حلفاءه فرصة ليكون هروبهم على أكمل وجه. لقد أدرك، مثلما أدرك رجاله، أن من المؤكد أنه ما إن تشرق شمس الصباح، حتى يهاجم الفرس مقاتليه الأسبرطيين. كان كل شيء في أيدي الآلهة، وقد أطلق ليونيداس في أيديهم روحه. طلب منها المساعدة، لأنه فقط مع تعاطفها يمكن أن يتغلب خط قتاله القليل العدد على الاختبار التالي. وصل المحاربون إلى ضفاف نهر ستيكس؛ وعلى الشاطئ الآخر كان ينتظرهم الموت. تحت جنح الظلام، استعد اليونانيون والمتحالفون معهم للتراجع من الكورينثيانيين، والفليسيين، والميوكيانيين والأركاديين، وقد غطاهم التراب والدم من أثر معارك الأيام الثلاثة الماضية. بالنسبة لهم، انتهى القتال، ونظروا إلى ما أصبحوا عليه - أصابهم الكثير من التعب والإرهاق من المعارك، وخوذاتهم تمّ إبعادها إلى الوراء عن وجوههم القاتمة، وعيونهم فاترة الهمة، وأكتافهم مترهلة. بالكاد كان هناك شخص ما لا ينزف من جرح ما. في حين تقدموا خلف الأسبرطيين، سلّموا سيوفهم لأولئك الذين تكسرت سيوفهم في المعركة ورماحهم لأولئك الذين علقت رماحهم في أجساد بعض الفرس. لم يخجلوا. كانت هيلاس فخورة بهم، لقد قاتلوا بأقصى درجات الشجاعة، لكن معركتهم انتهت الآن. كانت هناك معركة أخرى تنتظرهم، أمام جدران أركاديا أو كورنيثوس. وكان مما يحسب من مجد اليونان العظيم أن جميع وحدات دول المدن لم تستسلم إلى خشايارشا ما عدا وحدات مدينة ثيفا.

كان الأسبرطيون لوحدهم. فبعد أن انسحب معظم حلفائه، خلع ليونيداس خوذته ومسح بيده على وجهه المتعرق. هزّ كتفيه، ورفع يده ذات القبضة الحديدية، مشيراً إلى العدو، وكان على استعداد لضربة مرة تلو الأخرى، ثم قال وقد أمسك بيده الأخرى خوذته المنبعجة: «يجب أن نصمد». صَكَّ الرجال الذين من حوله أسنانهم وقرروا عدم اتخاذ قرار يمكنهم أن يتنبؤوا بعواقبه، حتى بدون وجود عرّاف.

أثناء الليل، تلقى ليونيداس أخباراً عن الكارثة التي حلت بقوته من الفوشيان التي تدافع عن وادي أسوبوس. إذا كانت الآلهة قد اختارت تقديم المساعدة لقضيتهم خلال الأيام الثلاثة الأولى، فلا بد أنها قررت إنهاء دعمها. لقد فعل الشيء الوحيد المتبقي له؛ أرسل الحلفاء الذين أرجؤوا الانسحاب للاستيلاء على مخرج ممر الوادي قبل أن يكون لدى الفرس الوقت ليتسللوا منه. هذه القوة، التي ربما يصل حجمها إلى أربعة آلاف فرد، بما في ذلك عدد من الهوبليت، والتي كان يمكن أن تمنع المقاتلين، لولا أنها وصلت متأخرة أو تغلب عليها الذعر عندما رأت حجم الوحدة الفارسية. أياً كان السبب، فقد وصل عدد كبير من الجنود اليونانيين وهم مرهقون إلى أسفل الساحل في إيلاتيا، وهم يتحدثون عن «حشود الفرس القادمة من الجبل».

صلى الملك ليونيداس للآلهة زيوس من أجل جميع الفرسان الشجعان الذين سيموتون في هذا اليوم، وللأطفال والزوجات الذين سيحزنون عليهم. نظر إلى السماء ودعا الآلهة أن تحمي أطفاله أثناء دفاعه عن هيلاس. وعندما انقضى فجر اليوم الرابع، وأرسل خاشايارشا رجاله، وجدوا ثلاثمائة مقاتل واقفين أمام الجدار وليونيداس فوق رؤوسهم. قام هولاء الثلاثمائة مقاتل بتثبيت دروعهم، وخفضوا رؤوس رماحهم ووقفوا صامدين. أرسل خاشايارشا لعشرات المرات رماحه وسهامه التي كانت تتساقط مثل المطر، لكن الأسبرطيين رفعوا دروعهم فوق رؤوسهم إلى أن مرّت العاصفة.

وفي الوقت نفسه، تسلم خشايارشا رسالة من أورونتس يسرد فيها تفاصيل المراوغة الناجحة التي قام بها للسيطرة على البوابة الوسطى. أمر الإمبراطور بشن هجوم أمامي واسع من أجل تحويل انتباه الأسبرطيين، بينما جاءهم المقاتلون من الاتجاه المعاكس. وكان على جندي مؤخرة الأسبرطيين أن يكون أول من يموت. تلقى السهم في صدره وهو يهبط أسفل المنحدر. قبل أن يعرف بقية الأسبرطيين ما الذي أصابهم، حطمت رشقة من السهام الجزء الخلفي غير المحمي من جدار الدرع. أسقط

جندي من الهوبليت رمحه ودار به بقدم واحدة ببطء قبل أن ينهار، وكانت رجلاه ترفسان بشكل متشنج. عندما استدار الأسبرطيون، رأوا حشداً من المقاتلين يتسابقون للنزول من الأرض المرتفعة. بعض الأسبرطيين، المسلحين فقط بسيوفهم القصيرة، انغمسوا في الصفوف المتقدمة، وضربوها واخترقوها. ولكن لا شيء من شأنه أن يوقف الآلاف من المقاتلين. ونظراً لأن الأسبرطيين قد حوّلوا انتباههم الكامل إلى الهجوم من خلفهم، فإن الوحدات العسكرية الفارسية اندفعت أخيراً بالآلاف نحو حائط الفوشيان، الذي كان يصطادهم ويقتلهم مثل كلاب الصيد. كان الأسبرطيون يقتلون بكفاءة شرسة. كان العدو يسقط في جميع أنحاء سلسلة التلال، ورغم تفوقه العددي فإن كثيرين من محاربي الملك ليونيداس يمتازون بالوزن الضخم وقوة العضلات. كان الأسبرطيون يرمون الفرس جانباً كما لو كانوا يرمون نبات الفطر. وسرعان ما أصبح طوق الميديين القتلى حول التل عالياً. وهم جاهلون بالخطر، وغير مهتمين على ما يبدو بالخسائر، صعد الكثيرون على الحائط واندفعوا نحو المنحدر الطويل. على الرغم من مقتل العديد من الأسبرطيين، كان هناك دائماً مزيدٌ ممن يتقدمون فوق الجدار، وهم يغمرون الهضبة مثل النمل ويمهدون الطريق عبر الأرض التي كانوا يجتاحونها.

قبل أن يُمنح الكبادوكيون أو البختاريون أو المصريون فرصة المطالبة بتقليدهم أكاليل النصر، انقضّ محاربو النخبة من حرس ملك الفرس على الأسبرطيين، لأنهم كانوا محاربين شرفاء ويحترمون الشجاعة في الآخرين. اصطدمت الدروع الفولاذية مع بعضها، ثم حدث قتال بالأيدي، وكل سيف كان يقابل سيفاً آخر، وكل قبضة تواجه قبضة أخرى. ارتفعت ومضات من الدروع المصقولة، وحلقت شعاعات من رؤوس سهام معتمة في الجو، ممزوجة بريشات تتموج على خوذات المحاربين. وبقي أولئك الذين انزلقوا، وداستهم الأقدام. كانت هناك جثث مكدسة منتشرة مثل أكوام مهجورة من الخرق المليئة بالدم. لم يسيطر الثلاثمائة مقاتل ولا (حرس

الملك) على شبر واحد. قاتلوا وتمسك بعضهم ببعض حتى الموت، اخترقتهم سيوف بعضهم البعض، لتوحدهم في رحلتهم الأخيرة. ثقبت الرماح الأجساد وجعلت الدروع البرونزية تلتحم مع التروس المصقولة التي تشبه حراشف السمك. تساءل خاشايارشا، الذي كان يراقب المعركة من ارتفاع قريب، لأول مرة عن تكلفة النصر على اليونان.

تساقط الأسبرطيون واحداً تلو الآخر. تعثر الباقون في مسيرهم نحو الهضبة استعداداً لموقفهم الأخير. أولئك الهيلينيون الذين كانوا لا يزالون قادرين على القتال استمروا في القتال على الرغم من جراحهم الرهيبة، حتى تمّت إبادتهم عن بكرة أبيهم من قبل عدد هائل من حاملي الفؤوس. «خذوا أسرى فقط من النبلاء»، كان ذلك أمر إمبراطورهم. لكن مساعديه من الفرس كانوا مهووسين بالدم وحمى القتل. في حمام الدم النهائي هذا، أهلك الفرس واليونانيون بعضهم البعض بأكثر الطرق وحشية. بدا المنحدر المحيط بالرابية وكأنه قبو لحفظ رفات الموتى. قام رجل يوناني ضخم الجسم بتشديد قبضته حول عنق أحد الباختريين، وقام بخنق الرجل بينما تمزق ظهره بالرماح. سقط كلا الرجلين ميتين على الأرض. كانت تلك هي اللحظة التي أصبح فيها كل أسبرطي بطلاً مثل هكتور أمير طروادة.

تقلص عدد المقاتلين الثلاثمائة إلى بضع عشرات. ومع عدم وجود حماية سوى الدروع الواقية للبدن، شكلوا جداراً بشرياً حول ملكهم، وهم يقاتلون المئات من المهاجمين. تولى أورونتيس المسؤولية وأمر قوات حكام المقاطعات المهتاجة المسعورة بالانسحاب. أراد أن تكون المعركة النهائية حكراً على مقاتليه (حرس الملك). ثم لاحظ هيئة ليونيداس، المحاط بأشعة الشمس مثل أبولو، وهو يرفع رمحه بذراع ملطخة بالدماء في لفتة أخيرة من التحدي. كانت أوامر خاشايارشا المحددة هي القبض على الملك حياً.أراده أن يكون عبرة للأسبرطيين. ولكنه كان رجلاً شجاعاً، فخوراً بالهزيمة، ولم يكن أورونتس يسمح برؤية هذا الملك النبيل وهو مقيد بالسلاسل. لقد وضع سهماً في قوسه، وحدد هدفه بدقة وترك أداة الموت المجنحة تطير. وجه ضربة

إلى ليونيداس فوق درعه الواقي. عبر رأس السهم البرونزي حلقه وخرج من الرقبة. وأصيب الملك النبيل، بضربة قاتلة، وتخلى عن رمحه وجرجر نفسه إلى مأوى مدعم بكومة من الجثث، في محاولة لوقف الدم الغامق الذي يصب من الجرح المروع. وسط صراخ من الألم، سقط حامل الدرع على ركبتيه ليمسك ملكه بذراعيه. «يا إلهي العظيم، أنزل سطوتك على جميع الفرس الذين في ميدان المعركة هذا... ولتجعل الانتقام الإنساني يمضي قدماً لتبرر هزيمتنا... فأنت الآن من سيجعل في رقابهم أنشوطة الموت...». هكذا همس الملك، قبل أن ينسكب الدم من فمه ويغيب صوته. غامت عيناه، ثم صعدت روحه إلى جبل الأوليمبوس حيث يرقد جميع الأبطال الهيلانيين العظماء. قاتل العشرات من الأسبرطيين، الذين ما زالوا قادرين على الصمود، مثل الأسود المحاصرة. في هجمة أخيرة، شدوا من قبضتهم على سيوفهم ثم اندفعوا ليشتبكوا مع الفرس بنوع من اليأس المتهور. كان مقدراً له أن يكون آخر هجوم باسل. كانت تتقدم الصفوف تلك الهيئة العملاقة للمحارب الذي يحمل بيديه سيفاً تسقط منه الدماء. ويشق طريقه وسط صفوف الفرس، ويرفع بذراعه سيفاً ليسدد ضربة قاتلة، ثم يترك سيفه، لينغرز في أجساد الآخرين، قام بذلك عدة مرات، قبل أن يحطم أحد الفؤوس جمجمته ليسقط على الأرض. رقد آخر فرد من الثلاثمائة الأبطال في نومة أبدية ووجهه على الأرض التي كانت غارقة بالدم. كان قد أسلم روحه.

عندما تجدون جبل المعركة

أرسلوا أحدكم ليتسلقه، وانظروا إلى أسفل قمته،

ستجدونه مسجى هناك

ووجهه مرفوعاً إلى السماء، في ذلك النصب الأحمر

الذي حفره بسيفه العظيم...[12].

كان هناك ناجٍ واحدٌ. قبل بدء المعركة بفترة وجيزة، أرسل الملك

12- وردت هذه الأبيات في قصيدة رثاء الفارس الشهم للشاعر درايدن.

ليونيداس شخصاً يدعى أريستودموس[13]، مع صديقه يوريتوس، إلى بلدة ألبيني القريبة لتلقي العلاج من التهاب في العين. ما إن وصلوا إلى المكان حتى وصل جندي هوبليت ليخبرهم أن الفرس هاجموهم، وأن المقاتلين الثلاثمائة دخلوا في قتال حياة أو موت وأن هناك حاجة لكل فرد. عاد يوريتوس الشجاع ومات مع البقية. كتب هيرودوتس عن هذه الحادثة يقول: «وحينها لو شارك أريستودموس فقط، أو إذا كان قد عاد مريضاً إلى أسبرطة، أو إذا عاد كلاهما، فلا أعتقد أن الأسبرطيين كانوا سيغضبون. لكن أحدهم تمّ قتله واستغل الآخر العذر الذي كان يشملهما كليهما للإفلات بجلده، وكان من الصعب عليهم أن لا يشعرا بغضب شديد تجاهه.. لم يقتلوه، لكنهم عاملوه مثلما نصّت قوانين أفلاطون على كيفية معاملة الجبان، المتشبث بالحياة بشكل حقير حتى يتسنى له تحمل عاره لأطول فترة ممكنة»[14]. تمّ نبذ أريستوديموس. أما نساء أسبرطة فكن يشرن إليه بأصابعهن واصفاته بـ (الرعديد) علاوة على ذلك، ذُكر أن أريستوديموس نفسه حاول أن يعيد الاعتبار إلى نفسه خلال معركة بلاتايا، حيث «حارب بشكل رائع لاستعادة شرفه المفقود».

لقد ظهرت الشجاعة بأبهى صورها حين تحمل ثلاثمائة مقاتل أسبرطي معاناة كبيرة دون شكوى. لا صرخة، ولا صلاة توسل - ماتوا جميعاً وفقاً لمبدأ «النصر أو الموت»! ذهب أشجع الشجعان في أسبرطة إلى نهايتهم مثل أبطال هوميروس، وقرروا التضحية بحياتهم في سبيل قضية نبيلة. قبل فترة طويلة من انتهاء الحرب البيلوبونيسية، أنشد الشعراء قصائد المديح لأولئك الثلاثمائة شخص وموقفهم البطولي في ثيرموبيلاي. لقد وفرت تضحياتهم لليونان الأسابيع الثمينة اللازمة للتحضير للمعركة الوحيدة التي كانت ستقرر مستقبل الغرب. كان ذلك فقط كل ما خلفه الثلاثمائة مقاتل من أسبرطة من ميراث.

13- تظهر قصة أريستودموس بشكل بارز في كتاب هيرودوتس.

14- راجع Herodotus, The Histories, transl. A de Selincourt, London, 1972.

بدا الفصل الأخير للمأساة اليونانية وشيكاً. مع سقوط ممر تيرموبيلاي، تمّ فتح الطريق المؤدي إلى أثينا. لكن بالنسبة لليونان كانت ثيرموبيلاي أكثر من نصر أخلاقي. لقد وحدت أخيراً بلدان مدنها خلف مثال شخصية ليونيداس الشهيرة، حيث رقد في جبل الأوليمبوس بجانب أخيل وهيكتور. بتأخيرهم جيش خاشايارشا، حقق المقاتلون الثلاثمائة البواسل الغاية من تضحيتهم البطولية. لقد أثبتوا أنه حتى أقوى الجيوش كانت عرضة للخطر بمجرد أن تُسرق منها ورقتها الرابحة - القدرة على تفعيل قدراتها الكلية. هذا الدرس لم يفوته رجل على وشك أن يصبح منقذ اليونان والغرب.

أثبت ما حدث في ثيرموبيلاي مرة واحدة وإلى الأبد أن هناك تضاريس جغرافية معينة تحدّ من حجم الجيش. يمثل الموقف الملحمي للأسبرطيين عند بوابات الجحيم قمة الجرأة والتضحية. نجحت الخيانة في تحقيق ما بذلت من أجله الشجاعة جهوداً كبيرة دون جدوى.

سجل التاريخ ملحمة الصمود الأخير هذه من خلال تذكره اسمين: خاشايارشا المعتدي وليونيداس البطل. ويميل إلى التغاضي عن اللاعب الثالث في هذه الدراما الملحمية - إيفيالتيس من ماليا، الخائن. قبل خمسمائة عام من قيام يهوذا ببيع المسيح مقابل ثلاثين شيكلاً، ارتكب وغد آخر مثل هذا الفعل الشائن. كان المنتصرون على وشك أن يكتشفوا: أن ثمن الحرية لا يقاس بالذهب، بل بالسلاح.

وكما يحدث في الدراما اليونانية، Deus ex machina[15] حين تظهر الآلهة على خشبة المسرح في نهاية المسرحية لتحسم نتيجتها، ستحسم الآلهة نتيجة هذا الصراع بين الغرب والشرق.

لم تكن معركة ثيرموبيلاي هي النهاية، لقد كانت البداية فقط.

15- من محاورة أفلاطون مع كراتيلوس. ومعنى العبارة حرفياً «تدخل الإله في المسرح»، أي التحكم بأحداث المسرحية من خلف الكواليس ويقال له المدد الغيبي.

الفصل الخامس

الجدار الخشبي لأثينا
معركة سالاميس
29 أيلول 480 ق.م

«حافظوا على الجدار الخشبي ليحميكم أنتم وأطفالكم».

- ***من أقوال كاهنة دلفي، 480 ق.م***

«يا سالاميس المقدس، أنت تدمر ذرية النساء، عندما ينثر الرجال البذور، أو حين يجمعون الحصاد..».

- ***من أقوال كاهنة دلفي، ومذكورة في كتاب هيرودوتس***

يظهر الرجال العظماء في لحظات الحاجة الماسة لهم. وهكذا كان الحال مع ثيميستوكليس الرجل النبيل من أثينا... «فقد أظهر أكثر علامات العبقرية التي لا يمكن أن يختلف عليها اثنان. في هذا السياق، فهو يستحق إعجابنا به بشكل استثنائي تماماً وغير مسبوق»، هكذا كتب ثيوسيديديس من أثينا. لقدرته الفطرية، التي لم تصقلها الدراسة ولم تدعمها على حدّ سواء، كان أفضل حاكم في تلك الأزمات المفاجئة التي تسمح بالقليل من التروي أو لا تسمح به إطلاقاً، وأفضل من يتنبأ بالمستقبل، بما في

ذلك احتمالاته البعيدة للغاية... هذا الرجل الاستثنائي، يجب السماح له بتجاوز كل الآخرين في مقدرته بشكل حدسي على مواجهة كل حالة طارئة[1]، وها هي تحدث الآن؛ كانوا يشاركون في معركة للحفاظ على حرية هيلاس من نير الغزاة.

بمجرد فتح أبواب ثيرموبيلاي بالقوة، لم تعد هناك عقبة أخرى أمام خشايارشا وجحافله للنهب. فبدؤوا يجوبون منطقة أتيكا[2]، يدمرون ما يجدونه في طريقهم من معابد الآلهة الهيلينية، وينهبون كنوز اليونان ويحرقون مدنها. أصبحت أثينا مهجورة، وفرّ مواطنوها؛ وتمّ اقتحام الأكروبوليس وذبح المدافعون عنه بالسيوف. واصل الفرس هياجهم، وحوّلوا اليونان إلى مقبرة.

في حين كان الجيش الفارسي البري يتقدم دون مقاومة، أين كان أسطولهم البحري القوي الذي اعتمد عليه خاشايارشا في استراتيجيته؟ منذ البداية، كان الأسطول الفارسي يعاني من فأل شرير. قام الإمبراطور بتقسيم أسطوله الكبير إلى قسمين؛ كان على الأول الدخول إلى خليج ماليا، والاشتباك مع الأسطول اليوناني أثناء انتظاره قبالة الرأس البري أرتيميسيوم، ثم الإبحار جنوباً على طول قناة وابية لدعم عملياته البرية في ثيرموبيلاي؛ فيما أمر الأسطول الثاني بالإبحار على طول ساحل بحر إيجه والدخول إلى القناة نفسها من الجنوب لحجز ما تبقّى من الأسطول اليوناني. في تخطيطه لهذا الأمر، لم يأخذ الإمبراطور الفارسي في الاعتبار ما يمكن أن يفعله إله الطقس.

كانت القوات المخصصة لبحر إيجه قد انسابت على طول شبه جزيرة ماغنيسيا على مسار جنوبي، وكانت على وشك الاقتراب من الطرف الجنوبي لجزيرة وابية عندما تغير الطقس بشكل مفاجئ نحو الأسوأ؛

1- راجع: Thucydides, The History of the Peloponnesian War, transl.. Crawley, London, 1874

2- التي تضم أثينا والمدن اليونانية الأخرى. المترجم.

بدأت الغيوم تتجمع عبر السماء، متجهة نحو اليابسة في الجنوب الشرقي، عند مضيق الدردنيل؛ وكان البحارة اليونانيون يخشون العاصفة أكثر من أي شيء آخر. أطلقت العاصفة غضبها. تسابقت الأمواج الوحشية نحو الأسطول الفارسي. بأمر من الأدميرال، أريامنيس النبيل، كان على السفن أن تبحر مجتمعة لتقدم الدعم المتبادل في حالة وقوع هجوم يوناني، وأن تكون قريبة جداً من الشاطئ حتى تتمكن من المناورة كلما أرادت، كانت السفن (وتسمى بيتيكوتوروس باليونانية) في اليابسة الأقرب قد حاصرتها الأمواج المرتدة من الشاطئ الصخري. كان سطح السفينة مائلاً وقد انزلق طاقمها باتجاه الكسارات التي غطاها الزبد والتي طوّقت السفينة المنكوبة وقذفتها رغوة البحر باتجاه المنحدرات. ضربت الأمواج العديد من السفن وجعلتها ترسو جانباً، قذفتها عالياً في الهواء لتتحطم بعيداً في قعر المحيط. كانت السفن تقذف جانباً نحو البحار المتدحرجة، ترتفع صعوداً وتتمايل من البداية إلى النهاية، وترمي بطاقمها الذي ليس لديه حول له ولا قوة إلى البحر وسط فوضى من المجاذيف والدمار الخانق. أما السفن التي لم تنقلب فقد تابعت مسيرها فوق قمة الأمواج العملاقة ليتم تحطيمها على المنحدرات أو تتهشم عند الشعاب المرجانية. على أثر تلك المحنة، تحطمت مائتا سفينة حربية على الأقل[3]. لم يكن هناك ناجون على استعداد لتقديم الأخبار إلى ملكهم؛ أولئك الذين فروا بأعجوبة كانوا خائفين للغاية من مواجهة غضب ملكهم. في غضون ساعات قليلة، اختفى نصف أسطول خاشايارشا. تجرأ الفرس على الإساءة إلى بوسيدون، سيد البحار، وكان غضبه شديداً لدرجة أنه أطلق عليهم ساحراته من أعماق البحار. وأدى غضبه إلى أن يودي بالرجل وسفنه إلى هاويتهم.

«حافظوا على الجدار الخشبي ليحميكم أنتم وأطفالكم...»[4]. كان

3- راجع كتاب هيرودوتس.

4- راجع كتاب هيرودوتس.

هذا ما وعد به كاهن دلفي الأثينيين - وكان يعني «بالجدار الخشبي» سفنهم، تلك السفن الحربية القوية والسريعة مع أطقمها الشجاعة والمدربة جيداً. عندما أراد مجلس الحكماء الأثيني، قبل خمس سنوات، تقسيم ثروات المنجم الفضي بينهم، كانت بلاغة ثيميستوكليس هي التي أقنعتهم باستثمارها في بناء مائة سفينة ثلاثية المجاذيف، وكانت ذات تصميم جديد بشكل جذري.

في حوالي عام 650 ق.م، صنع أمينوكليس صانع السفن من مدينة كورنيثيوس سفينة حرب ثورية جديدة. كان كل شيء في ذلك التصميم الضيق والأنيق، موجهاً من أجل زيادة السرعة. كان يتم دفع تلك السفينة ثلاثية المجاذيف من قبل ثلاثة صفوف من المجاذيف (ومن هنا جاء الاسم)، يحركها 150 مجذفاً. استُبدِلت مقدمة السفينة التقليدية المستديرة بأخرى بوضعية القرفصاء (agalma)، وفوقها عنبر البحارة العالي يحوي مسند مدفع بارتفاع صدر الإنسان العادي لحماية القوات المهاجمة من الأسهم أثناء مرحلة التصادم الأولية. كان السلاح الرئيس للسفينة عبارة عن قطعة من البرونز طولها 10 أقدام تسمى مهماز أو (eperon)، بارزة من المقدمة تحت مستوى الماء. أثبت هذا المهماز، أن تأثيره مدمر عندما يصطدم بسرعة في أحد جوانب سفن العدو، يقطع ظهر السفينة، ويقسمها إلى قسمين. هناك طريقة أخرى لجعل العدو بلا حول ولا قوة تكمن في قابلية المناورة لتلك السفن ثلاثية المجاذيف: الوصول السريع، ثم تنحرف في اللحظة الأخيرة، ثم تنقل المجاذيف أثناء استخدامها الشفرة البرونزية عند مقدمتها المربعة (stolon) لقص مجاذيف العدو، التي أصبحت هدفاً سهلاً للبحارة من مقاتلي الهوبليت. وعلى الرغم من أنها كانت صغيرة العدد نسبياً مقارنة بأسطول خاشايارشا الضخم، إلّا أن الفرس لم يستطعوا أبداً أن يجاروا سرعة السفن ثلاثية المجاذيف، وقدرتها على الإفلات والخروج من أي موقف، كما لم يكن البحارة الفرس

بمهارة البحارة اليونانيين. لم يدرك أهل كورنثيس فوائد هذه السفينة؛ ومع ذلك، قام الأثينيون، بناءً على طلب ثيرميستوكليس، بإعادة تشكيل أسطولهم على غرار التصميم الذي ابتكره أمينوكليس[5]، ومع ذلك، كان في تلك السفن عيب واحد: بحكم شكلها النحيف كانت عرضة لتأثير الرياح الشديدة، وبالتالي فإن الأسطول اليوناني كان في الأساس أسطولاً يرسو عند الشواطئ، مصمماً لحماية الوطن وليس للهجوم في عرض المحيط. هذه الحقيقة كان يجب أن تكون واضحة للقادة الفرس؛ كان ينبغي أن تكون خطتهم هي إغراء الأسطول اليوناني لمغادرة أرخبيله البحري ليكون في العراء، حيث سيكون عرضة للخطر. لكن الفرس كانوا واثقين من أنفسهم. كانت استراتيجيتهم بأكملها مبنية على تفوقهم العددي. وقد اعتبروا بحر إيجه بحيرة فارسيّة، وقد أصدر إمبراطورهم الأوامر للاحتفاظ بها ملكاً فارسياً. لم يأخذوا بالاعتبار ولا لمرة واحدة ما كان يتمتع به الإغريق من إصرار وعناد.

«سنهزم الميديين المتعجرفين». كان قائد الأسطول اليوناني الذي قال هذه الكلمات الفخمة النارية ذا بنية ممتلئة، ورأس مستدير ولحية رمادية منسدلة. لقد تعلم القادة تجنبه في حال حدوث مشكلة، لأنه أثبت دائماً أنه أكثر فطنة في المجادلة ولم يكن محارباً بطبيعته. لقد كان يعتبر نفسه فيلسوفاً، وفي أفضل الأحوال ملاحاً، وكان يذهب إلى أبعد الحدود لتجنب خوض معركة بحرية. ومع ذلك، كان خطابه هو الذي جعل زملاءه الأثينيين يتغلبون على الخوف الذي اعتراهم في مواجهة بحر غريب عليهم. أقنعهم برفع أبراجهم المحصنة المتكونة من الصخور الجبلية ورميها في الماء لتصبح لهم مثل قلاع في المحيط.

5- يمكن مقارنة أهمية اختراعه باختراع «المدرعة البحرية»، حيث كانت أيضاً تصميماً جديداً ثورياً، باحتوائها على عشرة مدافع من طراز اثني عشر بوصة مثبتة على خمسة أبراج دوّارة. والتي تمّ إطلاقها من قبل البحرية البريطانية في عام 1905.

لقد أدرك ثيميستوكليس، أكثر من أي شخص آخر قبله، أن البحر، بفضل قوته العازلة الهائلة، قد وفّر لهم خط الدفاع الأكثر أماناً.

الأخبار الواردة من منطقة أتيكا سيئة... «لا أحد يعرف ما هو السيئ فعلاً. يجب أن نوقف خشايارشا. يجب ألا نسمح لجحافله بالتجول في بلادنا». وكرر قوله: «يجب أن نوقفهم».

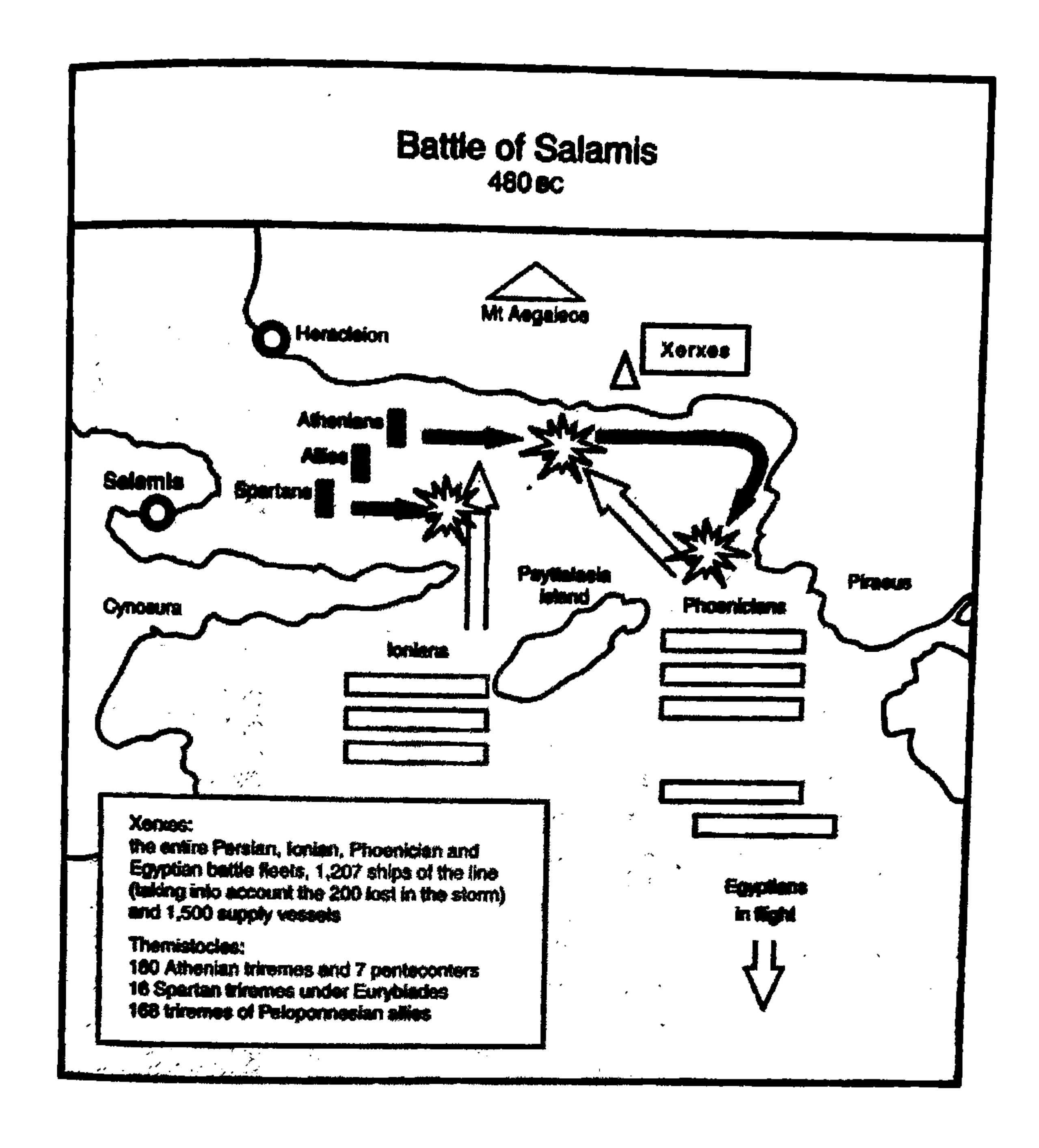
و«لكن يا ثيمستوكليس، هذا مستحيل».

«لا شيء مستحيل».

مع حدوث حالة طوارئ ووجود جيش فارسي ضخم متجه إلى أثينا، بنى ثيمستوكليس استراتيجيته على عاملين: أن القوات البرية الفارسية تعتمد بالكامل على قواتها البحرية القوية للحصول على الإمدادات، وبالتالي فإن تدمير القوات البحرية الفارسية يعني تدمير قواتها البرية؛ وأن السفن اليونانية كانت أسرع ويمكن لها أن تتفوق على الفرس في بحر مغلق، حيث ستجد مجموعات سفنهم نفسها محشورة بالكامل. تضمنت استراتيجية ثيمستوكليس إغراء الأسطول الفارسي بين اثنتين من الجزر اليونانية العديدة. وكان قد اختار بالفعل موقع المواجهة: مضيق سلاميس، الواقع قبالة الشاطئ الجنوبي لمدينة إليوسيس. كانت تقود إلى هذا المضيق، قناتان، ولم يكن لدى ثيمستوكليس الوسائل لغلقهما. كان لديه ما يكفي من السفن لغلق واحدة فقط، واختار الممر الواقع بين نتوءي سينوسورا وبيرايوس، والذي انقسم مرة أخرى بواسطة جزيرة سيتالايا الصغيرة إلى قناتين ضيقتين يبلغ عرضهما من نصف إلى ثلاثة أرباع الميل. كان لا يمكن حتى مجرد التفكير بالفشل؛ كان مفتاح النجاح هو البرزخ الموجود بتياراته الخطرة وصخوره المغمورة في المياه. حينما يتوجه العدو نحو بيرايوس أو سلاميس، وكلتا هاتين المدينتين كانتا واقعتين داخل الخليج، سيجد أن طريق الوصول يبدو سهلاً، لأنه وراء الممر الضيق ينتظره خليج واسع من المياه الهادئة. لكن هذا الطريق المغري كان خادعاً، لأن

المداخل كانت ضحلة، بوجود الشعاب المرجانية ذات الرؤوس الشائكة المغمورة بالمياه بالقرب من الشاطئ. إذا نجح أريامنيس بعزيمته على تجاوز هذه العقبات الأولية، فسوف يجد أن ميزته العددية قد تقلصت فجأة، بالنظر إلى ضيق الممر. جادل ثيمستوكليس بقوة أن هذا الموقع سوف يوفر للأسطول اليوناني ميزة الحسم. لكن القضية تحوّلت إلى مسألة سياسية. فقد كانت مصالح كورنيث وأسبرطة على المحك، منذ أن تسببب خطته الجريئة في منع دفاعاتهم من الوصول إلى برزخ كورنث. وكما كان متوقعاً، اندلعت أزمة مع حلفائه قبل عدة أيام من المعركة الحاسمة. ولجعل الأمور تسير في صالحه، وجعل الفرس يسقطون في فخه، فكر في القيام بخدعة.

كانت السرعة ضرورية. عندما وصل خبر سقوط أثينا، أرعب الكثير من القباطنة في البحر، الذين كانوا متمددين على متن سفنهم داخل خليج سلاميس. كانوا يخشون أن يقطع الأسطول الفارسي عليهم طريق العودة إلى برزخ كورنثيان؛ أبحرت العديد من الرافعات، وكانت على استعداد للذهاب إلى البحر المفتوح. في لحظة الأزمة هذه، كان يمكن أن تأتي الإغاثة لثيميستوكليس من الأدميرال الأسبرطي يوريبيادس؛ إذا كان بإمكانه إقناع حليفه الأسبرطي، والذي كان شكلياً القائد العام بسبب منصبه في الرابطة الهيلينية، بالصمود والقتال في سالاميس، فإن ذلك يمثل فرصة جيدة. إذا لم يتمكن من ذلك، فقد ضاعت اليونان. فقال له ثيميستوكليس: «عليك يعتمد الأمر، يا يوريبيادس، لإنقاذ اليونان». اسمعني الآن وأحكم على المسارين. في برزخ كورنثوس ستقاتل في بحر مفتوح، الأمر الذي لا يصبّ في صالحنا تماماً. هناك ستتقدم الجيوش البرية والقوات البحرية للفرس سويةً؛ ولكن هنا سنقاتل في بحر ضيق مع بضع سفن ضد سفن كثيرة، وإذا اتبع القتال مساراً مشتركاً، فسنحقق نصراً كبيراً. لأن القتال في مساحة ضيقة يناسبنا، أما القتال في بحر مفتوح، فهو مناسب لهم.



تردد يوريبيادس. صوّت أديمانتوس من كورنثيان ضد اقتراح ثيميستوكليس، ولأجل إنقاذ بلده الحبيب، كان على ثيميستوكليس حثّ زملائه من القادة للدخول في المعركة، ولتحقيق غايته، لم يكن الأثيني يكره استخدام الابتزاز. لقد بذل قصارى جهده لثني حلفائه عن التخلي عن القتال من خلال نظرات الغضب والعبوس كما لو كان يُطلب منه الإبحار إلى حافة العالم والسفر مع الشيطان وأخيه. لقد كان لديه خطته في شكل تهديد بسحب أسطوله: «... إذا كنت تريد أن تتصرف كرجل شجاع، فكل شيء سيكون على ما يرام، إن لم يكن الأمر كذلك،

فسنأخذ عائلاتنا على متن السفينة ونذهب إلى إيطاليا، وهو بلدنا من قديم الزمان وستكون قد خسرتنا كحلفاء». لقد اعتمد على حقيقة أنه بدون دعم الأسطول الأثيني القوي الذي يحتوي على السفن الثلاثية المجاذيف، سوف يفقد دعم الأسبرطيين والكورنثيانيين. وهكذا جعل ثيميستوكليس الحليفان يغيّران رأيهما ويقرران القتال في مضيق سلاميس[6]. لا تزال هناك مشكلة القباطنة الآخرين في بحر بيلوبونيز، الذين أرادوا التخلي عن مواضعهم. عُقد مجلس للحرب وكانت نتيجة التصويت ضده. هزّ ثيميستوكليس رأسه وظهرت على وجهه علامات الازدراء وغادر خيمة المجلس.

وقعت حينها حادثة أظهرت مدى دهـاء القائد الأثيني. قال ثيميستوكليس: «سأتبنى أي حيلة لتدمير الميديين». عند عودته إلى سفينته، أصدر تعليماته إلى أحد رجاله، وكان يدعى مايلون، وهو شخص ماكر يبلغ من العمر اثنين وعشرين عاماً من جزيرة رودس، لنقل رسالة سرية. تخفى مايلون على هيئة تاجر ذي شخصية منفتحة من جزيرة صقلية أمره ثيميستوكليس بما ينبغي أن يقوله، وأرسله على متن سفينة تجارية إلى أسطول الميديين (الفرس) للتحدث إلى الأدميرال. «لقد أرسلني القائد الأثيني إليكم على انفراد، دون علم القادة الإغريق الآخرين. إنه يتمنى النجاح لقضية ملكك ويفضل أن تحرز النجاح أكثر من مواطنيه؛ لذلك أمرني أن أخبرك بأن الخوف قد استولى على الإغريق وأنهم يفكرون في القيام بعملية هروب سريعة. لذلك أصبح متاحاً لك الآن، أن تقوم بأفضل عمل لك على الإطلاق، ليس عليك سوى أن تتمكن من أن تعيق هروبهم...». اعترض الفرس سبيل التاجر الصقلي ومع ذلك استطاع مايلون ابن جزيرة رودس إيصال رسالة ثيميستوكليس، والتي تمّ نقلها فوراً إلى خاشايارشا. للوهلة الأولى، لم يتمكن الإمبراطور الماكر من اكتشاف الفخ، خاصة بعد أن أبلغه جواسيسه عن حدوث نزاعات علنية

6- عن هيرودوتس.

بين قباطنة البحر اليونانيين. كانت الفرصة تبدو ممتازة ولا ينبغي تفويتها. قرر التوجه فوراً نحو الأسطول اليوناني المحاصر. كانت السرعة التي تطورت بها هذه الأحداث مذهلة. فقد استغرق الوقت من تلقي رسالة مايلون إلى اندلاع المعركة يوماً واحداً فقط. وبينما كان خاشايارشا في بداية تحركه وكان لا يزال القباطنة اليونانيون يتجادلون، وصل أريستيدس النبيل -وهو قبطان أثيني- وأنفاسه متقطعة إلى خيمة المجلس. أخذ ثيميستوكليس جانباً ليخبره، «مهما كانت رغبة الكورنثيين والأسبرطيين قوية، فلا يمكنهم التراجع الآن؛ وذلك لأننا جميعاً محاطون بالعدو من كل جانب». لقد نجحت حيلة ثيميستوكليس تمّت محاصرة البيلوبونيزيين ولم يعد هناك من خيار آخر سوى الاستعداد للمعركة[7]. هذه الأحداث وقعت عند حلول ظلام يوم 22 أيلول سنة 480 ق.م.

كان الفرس قد أبحروا في بحر إيجه بصحبة 1207 سفينة حربية من أنواع مختلفة. في مواجهة هذا الأسطول الضخم، استطاع ثيميستوكليس تجهيز 366 من سفنه ثلاثية المجاذيف السريعة مثل البرق وسبع سفن من نوع آخر كانت أبطأ ولكن أكثر ضخامة. يكمن تفوق أثينا بضباطها وقباطنة سفنها الذين قادوها والرجال الذين خاضوا المعركة. كانت مجموعة القباطنة اليونانيين مثيرة للإعجاب؛ وجميعهم كانوا بحارة محترفين. وكان نصفهم من التجار، والنصف الآخر من القراصنة. وعلى الرغم من صغر سنهم نسبياً، فقد كان لديهم قدر كبير من التجارب في الملاحة البحرية. لقد جاؤوا للدفاع عن بلادهم من كل مناطق ساحل البحر المتوسط. وكان من بينهم أريستوس البالغ من العمر ثلاثين عاماً من مدينة بيرايوس، الذي كان يبحر في مياه بلاده؛ وكان هناك كيلينوس وهو في العمر نفسه تقريباً من جزيرة رودس. وأوثيمينوس من ماساليا (مرسيليا) وكان في منتصف الثلاثينيات من عمره. وكاروس من مدينة هيراكليا ذو الثمانية والعشرين عاماً، لكنه كان يمخر عباب البحر منذ أن كان في سن الثانية

7- نفس المصدر السابق.

عشرة؛ وكان هناك أيضاً كيبريانوس من مدين مليلة (في جزيرة كورسيكا) وأديمانتيس من كورنيثيا. ثم برز بعد ذلك موضوع تحفيز الطاقم وروحه المعنوية: بينما كانت بلاد فارس تعتمد على قوات من البلدان التابعة لها والعبيد الذين يقومون بالتجذيف لخوض معاركها في أرض أجنبية، كان المواطنون الأحرار في اليونان يدافعون عن عائلاتهم ومنازلهم. في الليلة التي سبقت المعركة، استقل الرجال السفن؛ كانت رائحة البعض مفعمة بالعطر، والبعض الآخر كانت رائحتهم مليئة برائحة النبيذ. لم يتخلف أحدٌ منهم. كان كل واحد يعرف إلى أين هو ذاهب. تمّ استدعاء القباطنة بأسمائهم وخصصت لهم مواقعهم.

قال القبطان كاروس وهو يضحك: «تناول رجالي بعض النبيذ المصفى. كان لدي ثلاثة أمفورات[8] من النبيذ الحلو على متنها؛ طلب مني هذا المحتال في ماساليا خمسة عشر دراخما لكل واحدة، ليس من الحكمة تركها تفلت منا»، من دون إضافة عبارة «في حالة غرقنا»، لأن ذلك لم يكن في وارد الاحتمال. كانوا يونانيين، وكانوا هم الأفضل! ولا يمكن أن يغرقوا!

ردّ عليه ثيميستوكليس مبتسماً: «أنا مسرور برجالك، يا كاروس. بهذه الطريقة سوف يجذفون بقوة أكبر». كان مسروراً؛ وكان طاقمه يتمتع بروح إيجابية.

في صباح يوم 23 أيلول 480 ق.م، كانت الأساطيل الفارسية والفينيقية مجتمعة، مع الوحدات التي يقودها حكام المقاطعات (الساتراب) من الأيونيين والمصريين قد بدأت بالتوجه إلى المواقع الخلفية، ورست في ثلاثة صفوف أمام خليج إليوسيس. كانت تلوح في الأفق جزيرة صخرية صغيرة (بسيتالايا)، حيث كان جرفها ينحدر بشدة في البحر. على يسارها كان يكمن الشاطئ الصخري لجزيرة سالاميس، إلى جانب الصخرة الشاطئية (سينوسورا) وهي تمد أصابعها الشريرة في الممر

8- جرّة يونانية قديمة بمقبضين. المترجم.

الضيق. تحدثت الأساطير القديمة عن التنانين البحرية التي كانت تحوم حول هذه الجزر، والوحوش التي كان يقودها بوسيدون إله البحر عند الإغريق،. تساءل عدد لا بأس به من الفينيقيين، وهم يخشون غضب الآلهة اليونانية، والذين شاهدوا سرباً من الطيور السوداء وهي تعبر سفنهم بشكل منخفض، عما إذا كانوا وسط مظاهر أسطورية للشر. لم يكن لدى قائدهم الأدميرال، أريامين، متّسع من الوقت للتفكير في التنانين بينما كان يستمع إلى الدوي الممل لصوت تلاطم الأمواج على كلا جانبي السفينة؛ ما زال الأمر الأكثر إثارة للقلق هو تيارات المد الشريرة حول النتوءات الصخرية التي بانتظارهم. بالنسبة له، كان هذا الاحتمال مخيفاً أكثر من أي حديث عن الأساطير. الخطر يكمن هنا، في هذه الممرات الضيقة. سيتقدم قباطنته في تشكيل حربي مزدحم نحو ممر ضحل وغادر، مما سيؤدي إلى تقييد حرية المناورة إلى حدّ كبير. كان لا يزال غير مدرك أن الأسطول اليوناني كان يكمن منتظراً عند الصخرة الشاطئية.

أصبح وقت البدء بالمعركة قريباً؛ جلس خاشايارشا على المنحدرات العالية لمراقبة وقائع انتصاره الكبير. أرسل إشارة البدء إلى الأدميرال أريامنيس، قائد جيوشه، الذي رفع راية المعركة. رفعت ألف سفينة أشرعتها وأبحر الأسطول نحو الفخ. اجتمعت ثلاثة أشياء وأدّت إلى حدوث الهزيمة débâcle[9]: الازدحام الناتج عن تواجد عدد كبير من السفن الذي أغلق الممر الغادر؛ وسوء الملاحة وعدم كفاءة الطاقم؛ وأخيراً، تلاطم أمواج البحار التي سبّبتها التيارات المائية العاصفة والشعاب المرجانية المغمورة التي تسببت في خلق ظروف توجيه غير مستقرة للسفن. ربما يكون الفرس قادرين على حل هذه المشاكل واحدة تلو الأخرى، ولكن لا يستطيعون حلها مجتمعة. قام أريامنيس بتقسيم صفوف سفنه الثلاثية من أجل الدخول إلى الخليج بواسطة قناتين تقودان إليه من حول جزيرة بسيتالايا، وهي القناة الغربية التي يبلغ عرضها نصف ميل والشرقية التي

9- بالفرنسية في الأصل. المترجم.

يبلغ عرضها ميل واحد. تألفت تشكيلته الهجومية من الجناح الأيسر من الأسطول الأيوني، ومن الجناح الأيمن من أسطول الفينيقيين، مع وجود مائتي سفينة من الأسطول المصري محتجزة لوقوعها في الكمين، مما استوجب على الإغريق الخروج نحو البحر المفتوح.

لم يكن هناك شيء بعيد عن تفكير الإغريق؛ فبمجرد أن اضطروا إلى خوض المعركة، قرروا خوضها بالطريقة التي يرغبونها. تضمنت خطة ثيميستوكليس أن يقوم سرب المقاتلين الكورنثيين بقيادة أديمانتوس بالسيطرة على القناة الغربية قبالة ميناء بيرايوس والاختباء في جزيرة بسيتالايا حتى يتمّ إعطاء الإشارة لشنّ هجوم شامل. أما أسطول أسبرطة المكوّن من ست عشرة سفينة ثلاثية المجاذيف وتحت قيادة الأدميرال يوريبياديس فقد كمن متربصاً خلف شبه جزيرة سينوسورا حيث يمكنه من هناك مهاجمة الأيونيين عند دخولهم عبر المضيق الشرقي. أما البيلوبونيزيون، الذين كانوا مترددين في البداية وأصبحوا الآن متحمسين لملاقاة العدو، فقد سيطروا على الوسط. أما ثيميستوكليس، مع مقاتليه من أثينا وأجانيطس، الذين تمكنوا من زيادة تعزيزات أسطول الإغريق، فقد سيطر على الجناح الأيسر. وكما حكم القدر، تموضع ثيميستوكليس على طول شاطئ البر الرئيس لمدينة هرقليون، أسفل منحدرات جبل إيغالوس مباشرةً، حيث شغل الإمبراطور خاشايارشا مقعده في المدرج لمشاهدة «عملية غرق الأسطول اليوناني». كان الشاطئ من حوله أسود لاكتظاظه برجال وخيول قوات خاشايارشا البرية، كانوا مهتاجين مثل النمل المتحمس وهم يختطفون نظرة من أسطولهم مبعث فخرهم وهو يقترب.

كان قد تمّ إجراء الاستعدادات النهائية للمعركة على متن السفن اليونانية، وتمّ توزيع سهام ملفوفة بالقماش المنقوع بالزيت على الرماة، بالإضافة إلى المجامر لإشعالها. قام العبيد (الهيلوتس) بشغل أماكنهم في مقدمة السفن، وقد تسلحوا بخطافات القتال، مدعومين بثمانية عشر فرداً من جنود الهوبليت على متن كل سفينة ثلاثية المجاذيف، وكانوا على

استعداد للقفز فوق سطح سفن العدو وارتكاب المجازر. للمرة العاشرة، تمشى ثيميستوكليس إلى الأمام إلى مقدمة سفينته ثلاثية المجاذيف،وهو يتطلع إلى البحر. عندما اكتشف أن الريح القادمة من اليابسة تهبّ مباشرة في وجه العدو، شعر بالغبطة. لقد نجح في إغراء الفرس بالوقوع في الفخ، والآن أصبحت الريح ضدهم، وكان من الصعب عليه أن يصدق كم هو سعيد الحظ. فقد وقفت الآلهة بجانب الإغريق.

في غضون دقائق دخل الأسطول الفارسي إلى المضيق. في البداية كانت الظروف قد خدمتهم بشكل جيد، ولكن بعد ذلك خانتهم الرياح المتقلبة. اعتمد قباطنتهم على التغلب على تلك الصعوبة باستخدام خمسين مجذافاً لكل سفينة وأطقم من الرجال المسلحين الأقوياء لتجذيفها. كانت المشكلة تكمن في تمايلها - فبعض السفن كانت لها عوارض ثقيلة وواسعة مغروسة في عنابر هائلة وأشرعة ضخمة، الأمر الذي جعلها عاجزة عن عبور التيارات القوية.

كان ثيميستوكليس، واقفاً في مقدمة السفينة عند التمثال البرونزي الرائع (agalma) الذي يمثل رأس الإلهة أرتميس، حين جثا على ركبتيه؛ ليصلي الصلاة الأخيرة: يدعو فيها الإله زيوس أن ينقذ، بحلول هذا المساء، هيلاس (اليونان) من الخطر الفارسي. أو يرتاح هو ورجاله الشجعان إلى الأبد في قبر وسط المياه. صار دوي الطبل المتناغم وحفيف المجاذيف أقرب الآن؛ ثم ناداه أحد المساعدين وهو يشير إلى ما يجري بجانبهم. استدار ثيميستوكليس، شاحب الوجه وهو يلعن. كان الأسبرطيون بقيادة يوريبيادس، متلهفين لتسوية حساباتهم الشخصية مع الفرس بسبب موت ليونيداس وحرسه الثلاثمائة الشجعان، فشرعوا بالعمل وبدؤوا يجذفون بكل ما لديهم من قوة. تقدموا إلى الأمام، واخترقوا القناة المفتوحة -وأصبحوا أمام الأيونيين القريبين تماماً- واصطدموا بهم على الفور من الجانب. ترنح الأسبرطيون في ارتباك لوهلة. توجه البعض منهم مباشرة إلى القاع وتراجع البعض الآخر. بالنسبة لثيميستوكليس، يبدو أن

عنصر المفاجأة قد تلاشى. لسبب غير مفهوم تماماً، لم يلاحظ الأسطول الفينيقي، الذي يشكِّل الجزء الأكبر من قوة دعم خاشايارشا الفعالة، هذا الاشتباك القصير ولكن الشرس. كان يمكن رؤيته من جزيرة بسيتالايا، واستمروا متوجهين مباشرة إلى الفخ الذي نصبه الكورنثيون.

تمّ تقديم الشكر للإلهة زيوس، فخطوة الأسبرطيين المتعجلة لم تفشِ سر مفاجأة ثيميستوكليس الأخرى. وكونه بحاراً من ذوي الخبرة، عرف أنه لا يوجد شيء فظيع مثل إطلاق النار في البحر. وهكذا سوف يطلق العنان لقوته، ولهذا أمر بالقيام باستعدادات محددة. أولاً، أنزلت جميع سفنه الأشرعة الكبيرة والأمامية فسوف يهاجمون بدون أشرعة ويفعلون بالضبط ما لم يتوقعه العدو من قبل؛ المضي قدماً باستخدام المجاذيف فقط. وذلك من شأنه أن يجعل تحركاتهم سهلة السيطرة. قام بتجريد العديد من سفن الدعم الخاصة به من صواريها واستبدلها بمقاليع لإطلاق سلال منسوجة ومحشوة بالراتنج والقار. كانت «طواقمه النارية» قد ملأت الجرار الطينية أيضاً بزيت الزيتون التي كانت مهيئة للتحطم عند الاصطدام والاشتعال مثل قنابل النابالم. وأخيراً، جلس العشرات من الرماة القرفصاء خلف مساند إطلاق النار في السفينة، استعداداً لإطلاق وابل من السهام المشتعلة. وكان ذلك كافياً لاشتعال الجحيم.

في سرب ثيميستوكليس القتالي، كان جنود الهوبليت والبحارة والرماة يحدقون بالمنظر الذي أمامهم. كان الماء يتناثر بشكل متململ من حول أسفل هيكل السفينة. فجأة، من وراء منحنى شبه جزيرة سينوسورا، ظهرت مقدمات الصف الأول من سفن الأسطول الفارسي. ثم خرجت المزيد من السفن. وأبحرت مئات من سفن الأسطول الفينيقي بقدر ما يمكن أن ترى العين.

أمر ثيميستوكليس وهو على متن قمرة قيادة السفينة (هيفيستوس) رئيس المجذفين أن يُجذِّفوا بأقصى سرعة إلى الأمام. بدأت المئات من الأكتاف والأذرع المشدودة تمسك بالمجاذيف، كانت أجسادهم

تتحرك في انسجام غريب، وكانت ألواح التجذيف تغطس في الماء وتخرج بإيقاع واحد. كانت المقدمات الأنيقة للسفن ثلاثية المجاذيف تخترق قمم الأمواج، وكان من الصعب رؤية مهمازها القاتل. بدأ المجذفون يلهثون بسبب ما بذلوه من جهد والعرق يغمر عيونهم ويسيل فوق أذرعهم العارية؛ كانوا يعلمون أن مصير اليونان متوقف على جهودهم. تشبث الجنود على سطح السفينة بمساند إطلاق النيران، كانت أجسادهم متوترة، في انتظار لحظة التصادم. توجه ثيميستوكليس والأثينيون الذين معه إلى الجناح الذي يتمركز فيه الفينيقيون، من أجل دفعهم للتوجه نحو الأيونيين وخلق حالة من الارتباك. كانت سفنهم ثلاثية المجاذيف الأنيقة والسريعة مناسبة بشكل لا حدّ له للاستجابة للتغيرات المفاجئة في الاتجاهات، وبالتالي اختار ثيميستوكليس المضيق كموقع للمواجهة الحاسمة حيث إن المناورة هنا ستكون هي الحاسمة وليس التفوق العددي.

كان الأدميرال الفارسي لا يزال عاجزاً عن رؤية الفخ. وقد حجبت جزيرة بسيتالايا زاوية نظره جزئياً، وقد فاته خطر اقتراب عدو كان سريع الحركة من الجناحين. لم ير سوى أسطولٍ كبيرٍ من الفينيقيين والأيونيين والمصريين وهم في صفوفهم المرتبة، يمتد إلى الأفق المائي. ثم اشتعلت فيه النيران. طار عدد كبير من الطيور المرتجفة ذات اللون الأصفر الفاتح من السفن اليونانية المختبئة وراء الجزيرة، تدحرجت كرات كبيرة من القار المحترق، فوق المياه المفتوحة، مخلفةً لهباً ودخاناً. أطفأ الماء بعض الكرات المنجنيقية، لكن عدداً كبيراً منها سقط على سطح السفن الموجودة في خط القتال الأول، مما أدى إلى اشتعال النيران عندما انفجرت. بدأ الدخان في الارتفاع، ثم كانت هناك وجبة ثانية من القذائف في طريقها إلى السفن.

عند رأس الجزيرة ظهر جسم ضخم مصنوع من البرونز. بالنسبة للأدميرال أريامنيس، بدا وكأنه صولجان. كانت سفينة أشرعتها ممزقة

وقد مالت بحدّة كما لو أنها على وشك الاصطدام برأس الجزيرة. فسح ذلك الجسم البرونزي الطريق إلى هيكل خشبي أسود كان يخرق المياه في دفقات مع كل غطسة للمجاذيف في الماء. تكومت غابة من الرماح على سطح السفينة. من الجزء العلوي من الصاري رفرفت راية كبيرة من الحرير، كانت علامة مؤكدة على قيادة الأدميرال الأيوني. توجهت مباشرة إلى المكان الذي كانت تنتظر فيه الكثير من السفن اليونانية. تفجر صوت ارتطام مكتوم، بدا وكأنه صوت قذيفة واحدة ولكنه في الواقع كان صوت عدة قذائف صادرة من عدة مقاليع، اخترق وابل من الكرات المتوهجة فجوة المياه المفتوحة. سقط البعض منها في البحر وهو يصدر أزيزاً، ولكن غالبيتها ضربت السفينة. تمزقت أشرعة سفن الفرس مع حدوث انفجار برتقالي اللون، أحرق بسرعة الصواري بأكملها. غمرت الدموع عيون اليونانيين حينما ضاقت المسافة بين الأساطيل بسبب تطاير الدخان المتعفن عبر المياه. من أسفل سطح السفينة الأيونية الكبيرة، تصاعدت سحابة سوداء من دخان الزيت المحترق، ثم اختفت السفينة. كل ما تبقى منها هو قطع من الأشرعة المشتعلة تطفو على الماء ومجموعة من الحطام المتهشم.

انتظر الرماة اليونانيون وهم متحصنون في عنابر البحارة. وبينما كان يعلق المزيد من الفرس في الخليج، كانوا يغمرون سهامهم المغطاة بالقماش المنقوع بالنفط في المحارق، ويجعلون السهام الملتهبة تتطاير عبر المياه؛ حيث كانت رؤوسها المتصلبة تنغرز في خشب السفن الفارسية. ضربت نصف دزينة من السهام السريعة أسطول العدو. نظراً للعدد الكبير من السهام المشتعلة والمتطايرة التي تمطرهم بلا توقف، لم يتمكن الفرس من إبعاد العديد من الأسهم قبل أن تشتعل النيران في سفنهم.

على الرغم من حدوث هذا الاشتباك على مسافة بعيدة، بدأ الأسطولان يتسابقان نحو بعضهما البعض بسرعة هائلة. استخدم ثيميستوكليس أثقل سفنه، وهي الثلاثية المجاذيف، مثل المدكات لتحطيم بوابة القلعة.

صُنعت ألواح سفنه الضخمة بشكل مباشر من أجل الأسطولين الفينيقي والأيوني، المحشورة في المضيق. وتكمن الميزة في السفن الحربية اليونانية أنها أثقل، وشُيِّدت بطريقة أكثر صلابة. قام الرجال الذين يديرون دفة السفن اليونانية بتغيير اتجاهها وصدموا برماحهم البرونزية سفن العدو، وقاموا بتقطيع الأخشاب في وسط السفينة مثلما تقطع السكين الزبدة. أصاب الذهول الكثيرين وغرقوا بسرعة دون أن يتركوا أثراً. فيما قذف آخرون بأنفسهم جانباً، وغمرهم الماء قبل أن يبدؤوا في الاستقرار تحت الأمواج. وقع مئات الجنود الفرس في البحر بسبب التأثير الأولي للضربة؛ وتشبثوا بالأخشاب المحطمة، لكنهم غاصوا في القعر وسط دوامة سفنهم الغارقة.

تعالى فوق أصوات الخشب المنفلق الدوي المستمر لإطلاق النار بالمنجنيق. ارتفعت الحجارة وكرات كبيرة من النار في الهواء. نشر البعض منها بقعاً كبيرة من المياه عند سقوطها، لكن لم تسقط جميعها في البحر؛ تحطم عدد كبير منها فوق الألواح الخشبية وسحقت الرجال الموجودين. ساد الموضع الذي يمثل مركز المعركة هرجٌ ومرجٌ شديدان، حيث كانت السفن اليونانية ثلاثية المجاذيف تحوم حوله. استخدم اليونانيون أقواسهم المعقوفة لتقطيع مجاذيف الفرس وجعل سفن العدو غير قابلة للتوجيه، ثم انحرفوا لدكّ السفن التي كانت تنجرف بلا حول ولا قوة. كان على أولئك الذين كانوا ما زالوا يطفون على الماء أن يكافحوا النيران ويتصدوا للمهاجمين أيضاً. حاولت طواقم السفن الفارسية إبعاد اليونانيين بواسطة أعمدة طويلة، بينما قفزت قوات الهجوم اليونانية على متنها، مسلحة بالسيوف والهراوات وفؤوس المعركة. في جميع أنحاء خليج سالاميس كانت الصورة السائدة هي لرجال مسلحين يقفزون من سطح سفينة إلى سطح أخرى. ثم يسارعون مثل النمل وهم يقومون بالتجمع حول الجثث المتحللة. وقعت مائة معركة برية مصغرة، معظمها على سطح السفن الفارسية. سقط الرجال في البحر. غطى العرق والدم

المقاتلين. لم يستطع البحارة الفرس مجاراة الجنود الهوبليت اليونانيين المدججين بالسلاح والذين أخذ قتالهم مظهراً طقوسياً، مثل قتل قطيع من الأغنام البائسة. كان صوت القتال يسمع في كل سطح سفينة، مع أصوات الارتطامات الثقيلة واحتكاك معادن الأسلحة والدروع، وكان يتداخل مع صراخ الجرحى واستغاثات الغرقى.

كان ذلك أسوأ دمار يمكن أن تتسبب به النيران. وإذا كانت هناك حاجة على الإطلاق لإثبات أن أكبر خطر على البحر تمثله النار، فقد قدمت معركة سالاميس الدليل على ذلك. من أعلى طوابق السفن اليونانية استمرت الطواقم في رمي القذائف المحترقة، وصبّ الفحم المتوهج وإطلاق النيران من السفن اليونانية على سفن الفرس التعساء. اشتعلت النيران في السفن. أثارت حرارة النار ريحاً شديدة، وسرعان ما اشتعلت النيران على طول الأخشاب القاتمة والمليئة بالملح فيما كان يتمّ إحراق المزيد من السفن. وتصاعدت من هياكل السفن دوامات دخان زيتية كثيفة.

كانت هناك سفينة يونانية ثلاثية المجاذيف تتحرك بالقرب من سفينة فارسية محترقة. سرعان ما انفجرت وتشظت إلى أشلاء محدثة رذاذاً من الشرر ثم تكومت وسط الرماد والأخشاب المحترقة قبل أن تختفي وهي تصدر أزيزاً من تحت المياه الزرقاء. لكن مقابل كل سفينة يونانية فقد سقط عشرات الفرس. سرعان ما انغمر قلب الأسطول الفارسي في دوامة من لهيب مستعر. كانت الرائحة النتنة التي نتجت عن الجحيم شديدة وتبعث على الغثيان. أسفل سطح السفينة، تمّ شوي العبيد الذين كانوا مقيدين بالسلاسل إلى المجاذيف وهم أحياء. كانت السفن تختفي بمعدل ينذر بالخطر في أعماق المياه البشعة. تشبث الأفراد الناجون وما تبقى من أشياء سليمة بحطام السفن الذي ملأ البحر. كان الأسطول الفارسي العظيم في وضع مخزٍ.

لم يشهد خاشايارشا من المنحدر الذي كان يجلس عنده بشائر نصره النهائي بل نهاية التفوق البحري لبلاد فارس الذي امتد على مدار القرن

الماضي، وتمّ تحقيق ذلك الأمر من خلال عمل رائع قام به اليونانيون أصحاب الخبرة في الملاحة البحرية، حيث تمكن الأثينيون بقيادة ثيموستوكليس وبأسرع وقت من تحويل مسار الأسطول الفينيقي البطيء الحركة وتوجيهه ليحترق مع زميله الأسطول الأيوني. لم يبق أمام قباطنته سوى خيار الابتعاد عن السفن المحترقة. كانت الكثير من السفن تناور وتنحرف من حول الأيونيين المنسحبين الذين أصبحوا مشتبكين وهم بلا حول ولا قوة مع بقية الأسطول الحربي الفارسي. وحينما اقترب قباطنة السفن المصرية من الخلف من المشهد الرهيب، أصابهم الذعر. لم يطيعوا شيئاً سوى غريزتهم المحمومة للفرار. ظلوا يصرخون في المجذّفين لإعادة سفنهم إلى البحر المفتوح. في النهاية وصلوا إلى بر الأمان، لكن أفكارهم أزعجها اليقين من أن حياتهم قد أصبحت تحت رحمة غضب خاشايارشا.

لم يكن كيلينوس ابن جزيرة رودس سوى قرصانٍ ولا يعرف عمل أي شيء آخر؛ يفكر مثل القراصنة ويتصرف مثل واحد منهم. عندما رصد سفينة كبيرة، مزينة بشكل رائع ويرفرف عليها علم الأدميرال، ومجاذيفها ترتفع وتنزل على الجانبين بشكل متناسق، قرر أن تكون من نصيبه. لم تنزل السفينة الفارسية أشرعتها أبداً، وكان ذلك سبب مصيبتها. بينما كان كيلينوس ورجاله على وشك الصعود إلى سفينة العدو، تحطمت حمولة من الكبريت المشتعل عند أشرعتها. عانى الجنود الذين كانوا على سطح السفينة من إصابات، لكن المجذفين لم يصابوا بأذى حيث كانوا يجلسون في أسفل منتصف سطح السفينة، وكانوا محميين من المقذوفات وكرات اللهب. في الأعلى عند سطح السفينة حيث نشب القتال، أصبح الوضع حرجاً؛ انتشرت النيران بسرعة حيث سقطت المزيد من أواني الزفت حول السفينة. كان الدخان يتصاعد بشكل كبير لدرجة أن الأدميرال أريامنيس، الذي كان هو قائد السفينة، لم يعد بإمكانه تحديد الاتجاه الذي يجب أن يتجهوا إليه. كان الرجال من حوله يحترقون وهم أحياء، ويتدحرجون

على سطح السفينة ويصرخون من آلام احتضارهم. حينما يتوقف كان الدخان يصبح أكثر كثافة وتقل كثافته عندما يسير ببطء، لكن السير فوق جثث متفحمة كان أمراً شنيعاً. وسط الدخان والموت الذي في كل مكان من حوله، تمكن من القفز إلى سفينة أخرى. لم يشاهد حتى سفينته وهي تنجرف وسط بحر من النار. لكنه لم يبتعد كثيراً. بعد أن طاردته سفينة ثلاثية المجاذيف يقودها أميناس ابن مدينة ديسيليا وسوسيكليس من جزيرة بيديان، استعد أريامنيس للإبحار والهروب بسرعة نحو البحر المفتوح. وبالنظر إلى هبوب نسيم منعش، كان يمكن أن تهرب سفينة قيادة الأدميرال الجديدة بكل سهولة، لولا أن حادثاً حصل. في خضم هذه الفوضى، ومشاهدة الرجال وهم يحترقون ويموتون، كان الجنود المكلفون بحراسة العبيد الذين يقومون بالتجذيف قد تركوا مواقعهم. قام المجذّفون بتقطيع المجاذيف، وكسروا السلاسل واندفعوا من الطابق الأسفل الذي يحوي مجاذيفهم للاستفادة من هذه الفرصة الفريدة لاستعادة حريتهم... أصبح الفرس بين نارين، الطعن بالرماح أو السيوف من الأمام، أو يتعرضون للضرب بالمجاذيف المكسورة، أو تلتف على رقابهم السلاسل في الخلف. أما أولئك الذين نجوا من الهجوم فقد جثوا على ركبهم، وتجمعوا حول صاري السفينة، يتوسلون الرأفة بهم. فقد قُتلوا جميعاً، بمن فيهم أريامنيس.

مع الضربات المتوالية والمتناسقة شقّت السفن التي يقودها ثيميستوكليس وأميناس وسوسيكليس وكيلينوس ويوربيدوس وكبريانوس وكاروس، وسائر المنتصرين الآخرين، طريقها وسط السفن الغارقة، مروراً بالصواري المحطمة، والأجساد المتفحمة والأشرعة الممزقة. تحول خليج سلاميس إلى فم للجحيم. عند حلول المساء كان هناك ضباب يرتفع ببطء فوق الماء، يغطي بردائه بقايا أسطول كان يُعدّ قبل ساعة مفخرة بحرية. لم يكن بالإمكان سوى سماع صيحات النوارس التي ترفرف والأصوات المكتومة للأمواج التي تصطدم بالشاطئ الصخري. لقد فقد الإغريق

أربعين من سفنهم، وفقد الفرس أكثر من خمسمائة. كانت هزيمتهم كاملة. انجرف حطام الأسطول الإمبراطوري الفارسي إلى شواطئ البلاد التي جاؤوا لغزوها. ولم يعد هناك سوى الصمت.

في أعقاب النصر، اقترح ثيميستوكليس الإبحار شمالاً وتدمير الجسرين المقامين عبر مضيق الدردنيل (يسمى قديماً هلسبونت)، ولكن تمّ إيقافه بواسطة يوريبيادس، الذي كان يخشى بحق أن تمنع مثل هذه الخطوة الجيش البري الفارسي من الانسحاب إلى آسيا الصغرى ويتسبب بدلاً من ذلك في دمار أكبر لليونان. «التدمير ليس من مصلحتنا، بل ربما تشييد جسر آخر يجعل هروبهم يتمّ بسرعة أكبر».

في غضون عام واحد، لقي مشروع الإمبراطور خاشايارشا لاحتلال اليونان حتفه على الأرض في معركة بلاتيا (479 ق.م). عندما قرر خاشايارشا العودة إلى آسيا، أثبت تطوران آخران أن الفأل السيئ يلاحق جيشه. لقد ترك وراءه حملة غير منسقة ومخزوناً من عدم الثقة. قرر باوسانياس ملك أسبرطة، الذي انتقم لموت ليونيداس كما وعد، مطاردة الجيش الفارسي. كان خاشايارشا قلقاً حول تأمين تراجعه الآمن عبر مضيق هيلسبونت (الدردنيل) أكثر من قلقه حول نتيجة المعركة، وترك لجنراله، ماردونيوس، مهمة خوض معركة في المواقع الخلفية على طول نهر أسوبوس. عندما أصبح الجناح الأيمن الذي كان يشغله الأسبرطيون منفصلاً خلال الليل عن الجناح الأيسر الذي كان يشغله الأثينيون، شنّ ماردونيوس هجوماً مفاجئاً بواسطة سلاح الفرسان. عندما اقتربت طلائع قواته من تشكيلات الخيالة اليونانية، انحرفت خيولهم بعيداً لتتجنب الضربات المتواصلة، متجهة إلى اليمين حتى تجمعت أمام الرماة والقاذفات اليونانية. عندما تمّ القضاء على فرسانه برشقة من الحجارة والسهام، أمر ماردونيوس مساعديه الأيونيين ليهبوا لنجدته، لكنهم تركوه؛ فقد تلقوا خلال الليل، رسالة من اليونانيين إخوتهم في الدم، مكتوبة على ألواح طينية. كانت تكراراً للرسالة التي نُشرت في معركة ثيرموبيلاي: «إلى، معاوني خاشايارشا، إذا كان

يجبركم على قتالنا، نحن إخوتكم، فقاتلوا بشكل سيئ». وقد فعلوا ذلك. أما الجنرال ماردونيوس، وهو بالتأكيد قائد عسكري أفضل من الملك بوسانياس، فقد لقي مصرعه وهو يقود هجوماً لسلاح فرسانه. حسم موته نتيجة المعركة. خسر الفرس 50 ألف قتيل، وخسر الإغريق 1360 فرداً[10] لم يتحقق النصر اليوناني عن طريق القيادة المتفوقة؛ لم يكن بوسانياس ملك أسبرطة يشبه ليونيداس؛ لم يشارك حتى في هذا العمل. كان نجاحهم يرجع إلى الانضباط الفردي والتدريب، بالإضافة إلى تفوقهم التقني الواضح وهذا يحدث للمرة الأولى.

لم يسمح ثيميستوكليس، المخطط الاستراتيجي للنصر والقوة المحركة لتحقيقه، أن يظهر عليه الخوف؛ كما أنه لم يظهر أبداً ارتياحه لحقيقة أن العدو، الذي كان يبدو أن لا أحد قادر على قهره، بات يذوق مرارة الهزيمة أخيراً. لقد خاطر بكل شيء في لحظة خطر كبير، ليس بنفسه فقط، ولكن بكل من يمثلهم. كان ثيميستوكليس بطلاً وأسطورة يونانية. لا يمكن أن يكون هناك تعريف آخر له؛ صفاته القيادية كانت مطابقة مع بلاغته الخطابية. ومع ذلك، فقد اتهمه معاصروه بالقيام بمقامرة طائشة في معركة سالاميس. ولكن بعد ذلك، كان عليه أن يكون مقامراً ليواجه قوة خاشايارشا. رغم كل ما قيل وما حصل، كان إنجاز ثيميستوكليس هائلاً، والامتنان الذي حصل عليه من اليونان، وكذلك العالم الغربي، لم يكن أقل من عظمة الإنجاز الذي حقّقه. كان مصير اليونان معلقاً على معركة واحدة. وانبثقت منها وازدهرت جمهورية جديدة ضمنت حق مواطنيها في العيش بحرية والتعبير عن أفكارهم بحرية في مجتمع مفتوح. كانت حضارة الغرب بأكملها على المحك.

لم ينل ثيميستوكليس ما يستحقه. فقد كافأه مواطنو أثينا بتوجيه اتهامات شريرة له تركته ملطخاً بالعار. تمّ نفيه لرفضه التعاون مع باوسانياس ملك أسبرطة، حيث كان يخشى أن يغتصب هذا الملك السلطة المطلقة. قام

10- أرقام الخسائر هذه ذكرها المؤرخ فلوطرخس.

بعض الأثينيين البارزين، الذين يشعرون بالغيرة من شعبيته، بالحكم عليه بالإعدام بتهمة سخيفة تتمثل في إيواء «متعاطفين مع المؤيدين للفرس». وبمساعدة عدد من الأصدقاء، تمكن من الفرار إلى آسيا الصغرى، حيث استقبله خاشيارشا في واحدة من كبرى المفارقات التي شهدها التاريخ، بترحاب كبير، وقام بإغداق الهدايا عليه ومنحه قصراً رائعاً في منطقة ماغنيسيا. بعد أن ابتعد عن البلاد التي أحبها. قضى ثيميستوكليس السنوات الأخيرة من حياته في مرارة. لم يُسمح له مرة أخرى بالعودة إلى المدينة التي أنقذها من دمار محقق بحكمته وشجاعته وعبقريته[11]. عندما طلب منه ملك بلاد فارس قيادة جيش ضد الأثينيين، رفض ثيميستوكليس ذلك بكل إباء على الرغم مما سبّبه له مواطنوه من عار، فقد كان يخاف أن تتلطخ إنجازاته السابقة. في ذلك المساء، قدم قرباناً للآلهة، وبرفقة أصدقائه، تجرع السم. ومثل سقراط، الذي ذهب إلى حتفه بسبب اعتقاده الراسخ بخلود الروح، أصبح ثيميستوكليس بطلاً لإحدى تراجيديات سوفوكليس. لقد تعرض للتشهير واتهم بالعمالة، في حين أن كل ما حاول القيام به هو استعادة النظام بعد حرب شرسة. كانت تلك هي مأساة هذا الرجل العظيم.

بعد ألفي وخمسمائة عام، قال نابليون بونابرت، الذي كان يحب أن يقارن نفسه بثيميستوكليس: «لا يوجد سوى قوتين في العالم؛ هما السيف والروح. وكان السيف هو الذي يهزم الروح في النهاية».

في معركة سالاميس، كان التفوق العددي هو السبب المباشر للكارثة. وكانت هناك عوامل أخرى مثل اكتظاظ الأسطول البحري بشكل غير عملي في المساحة المتاحة له، والتطور التقني في صناعة السفن البحرية، واستخدام «القوة النارية الجماعية». ومع ذلك، لم يكن بالإمكان إنجاز أي شيء بدون شجاعة قائد عظيم وحماس طاقمه.

دمرت معركة سالاميس معنويات الفرس كدولة بحرية. فقد كانت

11- راجع: Plutarch, Lives.

انتصاراً استراتيجياً تجاوز القوى الفعلية للأطراف المشاركة فيها؛ شجعت الشعوب التي استعبدتها بلاد فارس على السعي لنيل استقلالها. من الناحية التكتيكية، لم تكن معركة سالاميس في فئة المعارك البحرية نفسها مثل ليبانت أو الطرف الأغر، ولكنها كانت من الناحية الاستراتيجية أكثر أهمية كونها أوقفت الغزو الآسيوي لأوروبا. وعلى مدى ألف عام، وحتى وصول أقوام الهون، حافظت معركة سلاميس على انتشار الثقافة الغربية في القارة الأوروبية.

مع الانتصار في معركة سالاميس، وُلد العصر الذهبي للفلاسفة اليونانيين.

الجزء الثالث

العمالقة

336–202 ق.م

من الإسكندر إلى سكيبيو الإفريقي
(«الغضب والحماسة سلاحنا».)
فيرجيل، الإنيادة (70 ق.م)

الفصل السادس

«لن أسرق النصر!»
معركة غوغميلا
1 تشرين الأول سنة 331 ق.م

«من تحبه الآلهة يموت وهو في سن الشباب».

• من مسرحية الشقيقتين باشيدس

للكاتب بلاوتوس (184-254 ق.م)

في إحدى الأماسي الصيفية من شهر حزيران سنة 336 ق.م ذهب فيليب ملك مقدونيا ليحضر عرضاً مسرحياً في أحد مسارح منطقة إيجه، كان برفقة ابنه الإسكندر والذي اختاره ليكون وريثه على العرش. كان نبلاء المملكة وسفراء الدول المتحالفة ضمن الرابطة الكورنثية التي ساعد في تأسيسها قد ملؤوا المسرح منذ ساعات. لكن فيليب ملك مقدونيا لم يكن ينوي إقامة إمبراطورية كبيرة؛ ففكرة تأسيس حكم ثيوقراطي كانت غريبة عليه تماماً [1]. كان همه ببساطة أن يرعى أمته، وكان محبوباً للغاية من قِبل شعبه. وبسبب مواهبه العسكرية البارزة، اختارته الرابطة الكورنثية زعيماً لها. الآن وبعد أن أصبح الهدوء يسود

1- من المحتمل أن يكون الأمر ينطبق كذلك على الإسكندر، فهو لم يقصد أبداً إنشاء إمبراطورية الإسكندر الأكبر. لكنها نشأت نتيجة فتوحاته.

المنطقة في نهاية المطاف، أصبح بإمكانه الاسترخاء والتمتع بمشاهدة مسرحية لأحد الشعراء اليونانيين.

توقف الموكب الملكي لفترة وجيزة أمام تمثال أحد الآلهة للسماح لملكهم -الذي كان مرتدياً عباءة بيضاء- بالتقدم بمفرده إلى منصة المسرح لتحية شعبه. في هذه اللحظة، قفز غلام كان يحظى برعاية الملك إلى الأمام وزرع خنجراً في قلبه. تعثر الملك فيليب على بعد خطوات قليلة بينما تناثر الدم على ردائه الطويل، ثم وقع منهاراً. حاول القاتل الفرار، ولكن تمّ القبض عليه وتقطيعه إرباً حتى الموت على أيدي حراس الملك الشخصيين. كان ما حدث مأساة يونانية خالصة. ما جعل من المشهد يصل إلى ذروة الإثارة هي الخاتمة. بينما كان يتمّ حمل جثة الملك المقتول من المسرح، تمّ الإعلان عن اسم الملك الجديد: الإسكندر، ملك مقدونيا.

كان الانتقام من ذلك الفعل الشائن فورياً ورهيباً؛ تمّ صلب جثة القاتل، ثم أُحرقت. كل من اشتُبِهَ بضلوعه في المؤامرة تمّ تعذيبه بوحشية حتى الموت. ومن بينهم أمينتاس شقيق الملك فيليب، الذي كان من المحتمل أن يتولى العرش؛ وقد تمّ إعدامه كإجراء احترازي خوفاً من تشكيله تهديداً لخلافة الإسكندر. كان على الإسكندر، البالغ من العمر 20 عاماً، أولاً وقبل كل شيء أن يؤكد سلطته في مواجهة التحدي الكبير الذي تمثله دول المدن التابعة للرابطة الكورنثية. وقد تصرف بسرعة. فقد استولى على إقليم ثيساليا وألحق الهزيمة بجيشها، ثم تصرف بلطف مع الأسرى لضمان مساعدتهم له في خططه المستقبلية. في الواقع، تسببت هذه الخطوة ذات الآثار النفسية في انضمام ثيساليا إليه كحليف، وقد أثبت سلاح الفرسان فيها أن له دوراً حاسماً في معاركه. كانت خطوة الإسكندر التالية هي استعادة لقب زعيم قوات الرابطة اليونانية. في البداية، لم يأخذ حلفاء والده السابقون الأمر على محمل الجد؛ لقد كانوا يعتبرونه شاباً مغروراً و«متهوراً»[2]. لم يحسبوا حساباً لحماس وإرادة هذا الملك

2- من أقوال ديموستيني وكان رجل دولة إغريقياً وخطيباً بارزاً.

الشاب. رغم أنه كان قد قاد هجوم سلاح الفرسان المقدوني في معركة خيرونيا، ضد مدينتي أثينا وطيبة وطرد مشاة العدو من أرض المعركة.

تمّ تشويه الصفات الإنسانية لرجل عظيم بسبب حدث مؤسف جرى في مدينة طيبة (335 ق.م). قام الإسكندر على رأس اتحاد كونفدرالي جمع المقدونيين، والفينيقيين، وسكان قرية بالاتايا ومقاطعة بيوتيان، بالتوجه لمهاجمة مدينة طيبة. قبل أن يصل سور المدينة، هاجمه أبناء طيبة وقتلوا عدداً كبيراً من رماته من أبناء جزيرة كريت، بمن فيهم قائدهم، يوريبوتاس. منحهم نجاحهم المبدئي هذا انطباعاً بأنهم ربحوا المعركة؛ اندفعوا إلى الأمام، ولكنهم وقعوا بعد ذلك في كمين نصبه لهم الإسكندر، مما عكس مجريات الأمور وجعله يقتحم المدينة. «وسط سخونة الحدث، قام عدد ليس بالقليل من المقدونيين باعتبارهم حلفاءه بذبح أبناء طيبة عندما لم يتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم بطريقة منظمة[3]. خلال مذبحة طيبة، أظهر الإسكندر لأول مرة القدرة على تطبيق طرق وحشية بدم بارد كلما دعا الأمر إلى ذلك واستمر في فعل ذلك طوال غزواته العسكرية، على الرغم من أن ما حدث في طيبة كان هو المرة الوحيدة التي استخدم فيها هذه القسوة بحق أناس من عرقه نفسه وموطنه نفسه.

مع سقوط طيبة، خضعت أثينا له وانتخبه الكورنثيون القائد العام عليهم. بمجرد قبول دول المدن الكبرى لحكمه، واجه مهمة إدارة البلاد. كان يساعده إلى حدّ كبير كل من بارمينيو وأنتيباتر. وكلاهما كانا أكبر سناً منه بكثير وقد اكتسبا خبرة كبيرة في فنون الحرب والدبلوماسية كخادمين مخلصين لوالده فيليب. عهد إلى أنتيباتر مسؤولية حكم مقدونيا، ورعى بارمينيو ممتلكاته في آسيا الصغرى.

لقد ترك فيليب والد الإسكندر لابنه آلة عسكرية ضخمة من المقاتلين المحترفين والمواطنين ذوي المشاعر الوطنية، وجيشاً قوياً لدرجة أنه كان بإمكانه أن يقف بوجه أية قوة إلى أن تمّ اختراع البارود، بعد حوالي ثمانية

3- عن المؤرخين أريانوس وبطليموس.

عشر قرناً. قام الملك فيليب بتحويل مجموعة من المواطنين والفلاحين من القادرين على حمل السلاح إلى أفراد قوات مسلحة تسليحاً جيداً ومدربة تدريباً عالياً عرفت بتشكيلات البيزيتايروي، pezhetairoi، والتي قامت على أسس إنشاء التشكيلات اليونانية نفسها. كان البيزيتايروي يمثلون المرتبة الأولى من جنود الهوبليت وكانوا يحملون درعاً مستديراً لغرض حمايتهم، أما للأغراض الهجومية فقد كانوا يتسلحون بما يعرف بساريسا وهو رمح يبلغ طوله 13 قدماً. أما من كانوا يعرفون بمقاتلي الهايياسبستس hypaspists وهم النخبة من جنود الهوبليت، فقد كانوا يحملون رماحاً أقصر قليلاً من ساريسا ليتمكنوا من القيام بالمزيد من حركات المناورة. كانت أجنحتهم مؤمنة بمقاتلين من سلاح الفرسان من أبناء ثيساليا، وكانوا نشيطي الحركة وبسرعة البرق. بين سلاح الفرسان والتشكيلات الثابتة بطيئة الحركة، أدخل الملك فيليب كتائب من مقاتلي الهايياسبستس hypaspists، كانت ذات تسليح خفيف أكثر وبالتالي قادرة على التحرك بشكل أسرع بكثير، كان ذلك «جناحه المرن»، القادر على التكيف مع سرعة الحركة الجانبية لمقاتلي سلاح الفرسان. وسيصبح هذا الوضع هو السمة البارزة للمعارك المستقبلية، التي تسمح للقائد اليوناني بتغيير تشكيلاته الهجوميه حسب الرغبة والضرب من الأجنحة دون أن يفقد التماسك العام لصفوف قواته. أنشأ الإسكندر أول وحدة مدفعية ميدانية متنقلة تتكون من المقاليع الخفيفة، والتي يمكن حملها على ظهور البغال؛ حدث تحسن كبير من خلال وحدة القيادة الجديدة، والسرعة التي يمكن بها إرسال أوامره. وسمح له استخدام فرسان ممتازين على ظهور الخيول السريعة كسعاة شخصيين له بشنّ عدة هجمات في وقت واحد أو استغلال خطأ العدو على الفور. كان الساعي الملكي يرتدي زياً مميزاً وكان يجب إطاعته طاعة عمياء كما لو كان «الملك شخصياً».

كانت القوة الضاربة الأساسية للإسكندر لشنّ هجماته القاتلة هو

سلاح الفرسان المقدوني. ورغم أنه كان يستخدم تشكيلات المشاة لاختراق صفوف العدو، ولكن سلاح الفرسان كان وسيلته لتحقيق النصر. ولكونه فارساً خبيراً، فقد كان يعرف كل شيء عن هجمات الفرسان. في سن الثانية عشرة، عُرِض عليه حصان لا يستطيع أحد ترويضه، وهو بوسيفالوس. فقام بتوجيه رأس الحصان نحو الشمس بحيث لا يجعله يجفل من ظله، ثم قفز بسرعة على ظهره، وأصبح الحصان طوع أمره[4]. وكانت أغيما (agema) من أشهر وحدات سلاح الفرسان التابعة له وتعني كلمة (agema) فصيل مرافقي الملك، وقد أطلقت عليه هذه التسمية لأنه كان يسير برفقة الملك دائماً أثناء سير المعركة. كان يتم اختيار أفراد الفصيل جميعاً بعناية وكانوا على استعداد لأن يفدوا سيدهم بحياتهم. كانت عناصر وحدة الفرسان المرافقين هذه محصورة بالنبلاء اليونانيين من فئة الخيّالة. وكان من الشرف لأي شاب وعائلته أن يتمّ اختياره فارساً hetairoi في تلك الوحدة. وكان يميزهم دروعهم الفولاذية التي تشبه حراشف السمك، وقد توفرت حماية مماثلة لخيولهم. كانت هذه الوحدة هي طليعة ابتكارات الإسكندر المتطورة، والاحتياطي القوي للملك ليستخدمه في الوقت المناسب لتحقيق نتيجة حاسمة. كانوا جميعاً بأعمار صغيرة وذوي عقل نبيل، غارقين في تعاليم الفلاسفة العظماء. كان هيفاستيون في العشرين من عمره، ويوتيفرون وأغاثيوكليس وكليتوتون وأرتيميدوروس وبروتيس فكانوا بالكاد قد أنهوا سن المراهقة. كان عليهم من البداية إثبات بسالتهم. في يوم الاقتراع الحاسم في المجلس الحاكم للرابطة الكورنثية حول مسألة الخلافة، وقفوا إلى جانبه في الاجتماع، فلم تعد هناك حاجة لتذكير حلفائه اليونانيين بأنهم أقسموا على الإخلاص لفيليب وذريته. وبهذه الحجة، المدعومة من فرسان وحدته الذين كانوا ينتظرون خارج أسوار المدينة، تمّ التصويت له باعتباره القائد العام.

كانت طموحات الإسكندر لا حدود لها، ولهذا كان يحتاج إلى دعم

4- عن المؤرخ فلوطرخس.

الجميع. كانت مشكلته التالية هي إيجاد عامل مشترك يمكّنه من دمج قوات مختلف دول المدن في أداة حربية واحدة. لم يقدم له المبدأ الذي كان يلتزم به اليونانيون «كل يعمل من أجل نفسه» أي وحدة سياسية ولا روح يونانية وطنية لكي يستطيع البناء عليها. ولتحقيق ذلك، يجب إيجاد عدو يستطيع الجميع التركيز على كراهيته. تمكن الإسكندر من تحقيق ذلك بشكل ممتاز بمجرد الترويج لفكرة القيام بحملة صليبية ضد العدو الدائم لليونان، وهو بلاد فارس. كان اليونانيون يدركون تماماً أن خطر تلك البلاد لم يتضاءل منذ أيام خاشايارشا. لقد حدثت توغلات فارسية عدة على مدار المائة وخمسين عاماً الماضية، فقد قامت القوات الفارسية بعبور البحر والقيام بعدة هجمات، وذبحت الفلاحين اليونانيين ورَمت بنسائهم في أحضان العبودية. عندما تردد شركاؤه في الرابطة في دعمه، قام بابتزازهم بالتهديد بسحب قوات مقدونيا القوية وجعلها تتخلى عن مهام الدفاع عن الأمة. مع هذه الحجة أقنع شركاءه اليونانيين بالانضمام إليه. وللتأكد من ولائهم، جعلهم يؤدون القسم «... باسم زيوس والأرض والشمس وبوسيدون وأثينا وآريز، سألتزم باتفاقي مع الإسكندر المقدوني ولن أتراجع عنه...».

نادراً ما كان هناك رجل كتب عنه الكثير مثل الإسكندر.

كان الإسكندر يمتلك كثيراً من الدهاء وكان الأكثر شجاعة وحماسة للدفاع عن الشرف ودرء الأخطار والأكثر حرصاً على الدين. والأكثر براعة في انتهاج المسار الصحيح للعمل، حتى عندما كان كل شيء غامضاً؛ وحين يكون كل شيء واضحاً، كان سعيداً جداً بتحقق حدسه عن احتمال النجاح في بعض الأمور، كان بارعاً في تنظيم الجيش وتسليحه وتجهيزه وفي رفع الروح المعنوية للجنود وشحن قلوبهم بالآمال العظيمة، وقدرته على أن يزيل عنهم أي خشية من الأخطار، ويتحمل لوحده رزايا الشعور بالخوف؛ وفي هذا كله كان من أنبل الأشخاص. وكل ما كان

يجب فعله في حالة من عدم اليقين كان يفعله بأقصى مدى من الجرأة؛ كان الأكثر مهارة في الترقب السريع للأحداث واصطياد عدوه قبل أن يكون لديه الوقت للتحسب للأمر[5].

كانت تفصل مقدونيا عن بلاد فارس ثلاثة مسطحات مائية واسعة: البحر الأسود وبحر مرمرة وبحر إيجه. كان من الواضح أن السلام الهش الذي حققه النصران اليونانيان في معركتي سالاميس (480 ق.م) وبلاتايا (479 ق.م) لن يستمر إلى الأبد. حافظت بلاد فارس لبعض الوقت على السلام، تمزق بلاطها الملكي بسبب نزاع دموي أعقب وفاة الملك أرتحششتا دون أن يترك وريثاً له. ظهر المنتصر بعد أحداث سفكت فيها دماء كثيرة وكان شخصاً من نسل الأخمينيين، يدعوه اليونانيون كودامانس، والذي حمل لقب جده اللامع، داريوش. لكن دارا الثالث الذي يحمل هذا الاسم المقدّس لم يكن سوى نسخة باهتة من داريوش العظيم، الذي جعل السماء ذات مرة تمرّ من بين يديه. وهكذا اعتبر دارا الثالث نفسه قائداً عظيماً. لم تجارِ مهاراته مهارات خصمه المقدوني، ولم يكن جيشه، رغم تفوقه الكبير في عدده، يمتلك أي شيء يواجه به الأدوات العلمية التي يمتلكها الإسكندر. كان من الممكن أن يصبح دارا الثالث ملكاً فاعلاً بدرجة معقولة، يعزز ازدهار مملكته الشاسعة، لو أنه لم يرتكب عملاً عدائياً وقحاً عندما أرسل عملاء يحرضون على إثارة الاضطرابات وخلق فتنة داخلية بين مختلف دول المدن اليونانية. تمّ القبض على المحرضين وأجبروا على الاعتراف.

في عام 334 ق.م، قام الإسكندر بتجميع أسطول مكون من 182 سفينة ثلاثية المجاذيف في نهر سترومن، وعبر به من مدينة بيلا نحو مدينة

5- ورد هذا الوصف في كتاب المؤرخ آريانوس انباسة «الإسكندر» (الجزء السابع) كما أورده المؤرخ ج. سي ف فولر. واستخدم كتاب آريانوس انباسة «الإسكندر» كمصدر رئيس لسجل أعمال الإسكندر العسكرية وأعمال قائده العسكري بطليموس الذي حكم مصر فيما بعد.

سيستوس الواقعة على الشاطئ الآسيوي. واصطحب معه قوات عسكرية مؤلفة من 37 ألف فرد: 32 ألفاً من المشاة وخمسة آلاف من سلاح الفرسان. كانت قوات المشاة تتكون من جنود القوات المقدونية التابعة له، والقوات اليونانية المتحالفة معها، ووحدة مرتزقة بسيطة من الرماة وقاذفي المنجنيق من البلقان. وكان سلاح الفرسان يمتلك قوة مسلحة هائلة: 1800 من فرسان وحدة حماية الإسكندر، و1800 من الخيالة من أبناء ثيساليا، بالإضافة إلى 1500 فرد من الفرسان العاديين. وكان هناك 60 ألف فرد مساعد للمقاتلين يقومون برعاية شؤون رتل الإمدادات. وكانت هذه في حدّ ذاتها مهمة كبيرة. ومع ترك الإنجازات العسكرية جانباً، ربما كان مستوى تنظيم حملة الإسكندر أكثر السمات المذهلة لها (لا تزال تدرّس كنموذج في الأكاديميات العسكرية). فالطريقة التي تمكن فيها من الإبقاء على رتل الإمدادات الخاص به بجانبه دون الحاجة إلى الاعتماد على البحث عن الطعام من الريف، والطريقة التي خطط بها لكل شيء حتى أدق التفاصيل، كانت شيئاً يقترب من المعجزة. لم يستطع حتى نابليون، رغم وجود وسائل نقل أكثر حداثة وطرق أفضل لديه، أن يضاهي المواهب التنظيمية للإسكندر.

خلال عملية العبور، أوقف الملك الشاب أسطوله في منتصف المحيط لتقديم القرابين إلى الإله بوسيدون. عندما وصلت السفن إلى الساحل الآسيوي، بالقرب من المكان الذي كانت فيه طروادة من قبل، كان أول من قفز إلى الشاطئ، وألقى برمحه على الأرض قائلاً: «لقد منحتني الآلهة آسيا، وسأفوز بها بهذا الرمح»[6]. وشرع ليصبح ملك آسيا. وعلى الرغم من أن آسيا تشمل بلاد فارس، إلَّا أن الإسكندر لم يطالب أبداً بتاج بلاد فارس.

فشل دارا الثالث في إيقاف هجمة الإسكندر الأولية؛ وأخذ بنصيحة

6- عن المؤرخ ديودورس الصقلي (الجزء 17 من كتابه تاريخ العالم) وملاحظاته عن بطليموس.

جنرالاته بسحب الإغريق إلى أقصى المناطق الداخلية، حيث كان بإمكانه إيقاعهم في الفخ وتوجيه ضربة حاسمة لهم... كان داريوش قد أمر أحد أعوانه، وهو ممنون ملك جزيرة رودس، بتركيز قواته حول البوابات الآسيوية بالقرب من ديميتوكا، على طول نهر غرانيكوس (كوكباس كاي). كان ميثريداتيس هو قائد جيش ممنون، وهو من أقوام البارثيان ومن أصول ملكية، قد قام بوضع أفراد سلاح الفرسان البالغ عددهم 20 ألفاً عند سد ترابي مرتفع وأوقف 30 ألفاً من جنود المشاة خلفهم، عند مرتفع يقود إلى ضفة النهر الشرقية[7]. كانت وحدات المرتزقة اليونانية هي من أفضل قوات المشاة في الجيوش الفارسية، وقد تمّ إغراء أفرادها للقتال ضد أبناء بلدهم بوعود حصولهم على الذهب. عرف الإسكندر جيداً أن الخطر الرئيس الذي يواجهه يكمن في هؤلاء المرتزقة اليونانيين.

لم يكن الإسكندر شخصاً يترك المعارك للصدفة، فقام بمهمة استكشافية شخصية واكتشف مجرى نهر جاف، يقود بعيداً إلى نهر غرانيكوس. لقد كان بعيداً عن أنظار جيش ممنون وينحني مباشرة إلى الخلف منه. نظراً لأن الوقت كان في منتصف شهر حزيران، أصبح نهر غرانيكوس ضحلاً بدرجة كافية يجعل قوات المشاة تتمكن من العبور عليه. وبينما كان الجيشان يخيّمان بالقرب من بعضهما البعض عبر مجرى عرضه ثلاثون متراً، اندلع الجدل في خيمة الإسكندر بين الملك وبارمينيو قائد قوات المشاة في جيشه[8]:

«أيها الملك، لا يمكننا عبور النهر مع جنودنا المشاة في مجرى ممتد دون التعرض للهجوم، وعلى الأرجح سيجبرنا سلاح فرسان العدو على التراجع. ولن نستطيع تكوين تشكيلات المشاة السلامية (الفلانكس)،

7- كان الفرس بالتأكيد لديهم أكثر من 40 ألف مقاتل كان 20 ألفاً منهم ممن يمسكون بقلب الجيش الفارسي من المرتزقة اليونانيين استأجرهم ممنون وداريوش.

8- هذه التفاصيل منقولة عن المؤرخ آريان وربما يكون نقلها عن المؤرخين فلوطرخس وكليتارخوس.

حينها ستضطر وحداتنا إلى العبور إلى الضفة المعاكسة بطريقة غير منظمة». لكن الإسكندر ظل مصمماً، معتمداً على عنصر المفاجأة. على ضوء الفجر، اصطف 13 ألفاً من المشاة المقدونيين في تشكيل سلامي على طول ألفي ياردة. على الجانب الآخر، كان ينتظر مقاتلو سلاح فرسان الجيش الفارسي ووحدات المشاة الخفيفة المختلفة وهي تملأ حافة ضفة النهر. كانت القوات المشتركة من مقاتلي جزيرة رودس وبلاد فارس تتمتع بتفوق عددي كبير لكنه تسبّب فعلياً في إعاقة حركتها.

«عند الصباح كان الإسكندر في حالة مزاجية ممتازة جعلته يجرؤ على القيام بعبور النهر مع جيشه، وكان السباق في تنظيم صفوف قواته في مجموعات استعداداً للمنازلة»[9]. كانت هيئة الإسكندر لافتة للنظر بدرعه المذهب وخوذته البيضاء اللون، وقاد جواده باتجاه قلب قواته. تابع الفرس كل خطوة من خطواته وجمّعوا سلاح الفرسان في الجهة المقابلة له. وبالتالي فشلوا في ملاحظة نشره سلاح الفرسان الثيسالي الذي تمّ تجميعه في قاع النهر الجاف. استهل الإسكندر المقدوني تحركه إلى قلب قواته بقيامه بخدعة؛ قامت إحدى الوحدات، تحت القيادة الملهمة للجنرال سقراط، بالتحرك مثيرة الكثير من الضوضاء عبر النهر العميق. وبينما كان هذا العمل مستمراً، تداعى سلاح الفرسان الفارسي لإيقاف الهجوم، أمر الإسكندر الجنرال بارمينيو سحب الجزء الأكبر من الجيش اليوناني من خط القتال. سار بارمينيو معهم نحو الجناح الأيمن، وعبروا المياه حيث بدأ النهر يضيق ويمكن عبوره. على الرغم من أن قواته واجهت تياراً مائياً سريعاً إلى حدّ ما، إلّا أنها تحركت بشكل منحرف عبر المياه، وبذلك حافظت على تشكيلاتها السلامية المثالية وقد فاجأ ذلك الأمر الفرس إلى حدّ كبير لدرجة أنهم فشلوا في الرد على الفور. لقد صرف انتباههم بالتأكيد ضجيج الهجوم الأولي الذي جرى أسفل خط القتال. في لحظة

9- هذه التفاصيل منقولة عن المؤرخ آريان وربما يكون نقلها عن المؤرخين فلوطرخس وكليتارخوس.

عبور بارمينيو، ضيّع الفرس فرصتهم الفريدة للنصر، بمنعهم رجاله من الاندفاع سريعاً نحو الشاطئ ونشر خط صدّ على طول ضفة النهر[10].

حاولت قوات كبيرة من سلاح الفرسان الفارسي شنّ هجوم غير منظم على قوات المشاة الثقيلة المقدونية، لكن من دون تلقي الدعم من حشود جنود المشاة الفارسية الذين وقفوا جانباً يراقبون القتال الذي يجري أمامهم، اخترقت موجات من مقاتلي سلاح الفرسان الفارسي الطوق الهائل المؤلف من رماح الساريسا التي يبلغ طول الواحدة منها ثلاث عشرة قدماً. بعد هذا الهجوم القصير على سلاح الفرسان، وقف كلا صفي المشاة في مواجهة بعضهما البعض وحدقا ببعضهما دون أن يتحركا. بدا ميثريداتيس في حيرة من أمره، وهو يشاهد الهزيمة وهي تحلّ بجزء من سلاح فرسانه، في حين كان اليونانيون المنضبطون في انتظار الأوامر للدخول في المعركة. كان هناك رجل واحد فقط يمكن أن يصدرها: الإسكندر، ملكهم وقائدهم العام.

بينما أوقف بارمينيو سلاح الفرسان الفارسي، كانت المعركة لا تزال مشتعلة في وسط الميدان، وقد تحولت إلى موقف بطولي من جانب المقدونيين الذين كان يقودهم القائد سقراط فيما أصبح يشبه مهمة انتحارية مماثلة لتلك التي حدثت في ثيرموبيلاي. مع بقاء رجال سقراط في الماء، وتحشّد جموع الفرس على ضفة النهر المنحدرة، سرعان ما استفاد الفرس من هذه الميزة. فقاموا برمي الرماح والصخور على أولئك الذين يحاولون تسلق الحاجز الترابي الذي يصل طوله إلى 15 قدماً وأوقعوا بهم خسائر فادحة. تدحرج الجرحى نحو أسفل المنحدر الشديد الانحدار فكان النهر يجرفهم ويغرقون. أما الناجون فقد دخلوا في قتال بالأيدي لتقييد حركة أكبر عدد ممكن من أفراد العدو، من أجل تحويل انتباههم عن قسم آخر من ساحة المعركة.

10- لم يقدم المؤرخون اليونانيون أي تفسير لكيفية عبور قوة بهذا الحجم الصغير للغاية النهر دون التعرض لهجوم، أو لماذا لم يتدخل عشرة آلاف جندي في المعركة ولم يذكروا سوى بطولات الإسكندر وفرسانه.

مع سيطرته على الوضع الحرج، قاد الإسكندر هجوماً بسلاح الفرسان المرافق له عبر الميدان المنبسط. وعبروا نهر غرانيكوس وهجموا وهم يرعدون على الفرس عند جناحهم الضعيف. قضت سحابة الغبار التي تصاعدت من حركة عدة آلاف من الخيول على عنصر المفاجأة وأصبح لدى الفرس وقت للرد. اصطدم هجوم فرسان الإسكندر وجهاً لوجه بحشد ضخم من الخيالة، حيث خرج الجنرال ميثريداتيس في المقدمة ممتطياً صهوة حصانه السريع. توجّه رجلان مباشرة نحو بعضهما البعض، عازمين على القتال، وهما ملك مقدوني وأمير من قبائل بارثيان، وكان كلاهما يدركان تمام الإدراك أن صدامهما سيحدد نتيجة القتال، كما في معظم المعارك عندما يفقد الجيش قائده. وعلى عكس ميثريداتيس الذي كان يستخدم ببراعة سيفاً معقوفاً حاداً بشكل مؤذٍ، كان الإسكندر مسلحاً برمح سلاح الفرسان المقدونيين؛ ولكونه يمتلك ميزة التفوق في الوصول، قام برمي رمح نحو ميثريداتيس اخترق درعه الشبيه بحراشف السمك وجعله يترنح عن صهوة حصانه. فحمله حصانه بسرعة ووجد نفسه محاطاً بعدد كبير من الخيالة الفرس. كان من بينهم رويساسيس، الرجل الثاني في قيادة البارثيين، المصمم على الانتقام لمقتل أميره. وحثّ جواده على أن يقترب من الإسكندر، وعندما وثب الحصان هوى بسيفه ليقوم بالطعنة القاتلة. تسببت الضربة القوية لسيف بارثيان المعقوف بنزع ريشة خوذة الملك اليوناني وجزء من حافتها المعدنية.

بينما كان الإسكندر منخرطاً في القتال للحفاظ على حياته، جاءه من الخلف قائد وحدة فارسية آخر، وهو سبيثريداتيس، ليسدّد له ضربة خاطفة لكنه أصيب بجروح قاتلة عندما قام كليتوس، أحد حراس الملك الشخصيين، بقطع مقبض سيف ذلك البارثي. وبينما كانت عيون الفرس تركز على الاشتباك بالأيدي الذي يدور من حول ملك العدو، تمكن سلاح الفرسان من أبناء ثيساليا التابع للإسكندر من الاندفاع دون أن يثير الانتباه إلى مجرى النهر الجاف. في هذه الأثناء، اندفع مرافقو الملك

نحو الإسكندر وأنقذوا ملكهم من مأزقه الخطير. بسبب تركيز انتباههم على القتال حول الملك اليوناني، وصدمتهم بالهجوم المفاجئ الذي قام به سلاح الفرسان الثيسالي من الخلف، فشل الفرس في ملاحظة تقدم بارمينيو مع قواته ذات التشكيلات السلامية واختراقهم عمق الجيش الفارسي. وفتحت قوات المشاة اليونانية، التي كانت تتقدم بخطى متزامنة نموذجية، وكانت رماحها ظاهرة بوضوح، ثغرات كبيرة يمكن من خلالها لسلاح الفرسان المقدونيين دفع الفرس وقوات المرتزقة اليونانيين المتحالفة معهم إلى التراجع. جاءت النهاية سريعة وقوية. قاتل المرتزقة اليونانيون بقيادة ممنون، وهم يعلمون أنهم لا يتوقعون أن يرأف بهم أحد، حتى الموت. تحققت هذه الرغبة بالنسبة لمعظمهم. بعد انتصاره في المعركة، قام الإسكندر بتجميع الناجين من الفرس، ووضع الأغلال في أيديهم وأرسلهم إلى مقدونيا لينهوا حياتهم كعبيد في مناجم الفضة. قُتِلَ جميع الفرس الذين تمّ أسرهم. ودُفن القتلى اليونانيون مع دروعهم بجانب أسلحتهم. وكوفئت عوائلهم بمنحها الأراضي الزراعية الخصبة. دُفِنَ الخمسة والعشرين بطلاً للهجوم الأولي الذي قام به مقاتلو القائد سقراط في مقبرة جماعية مشتركة، وصدرت الأوامر إلى ليسيبوس النحات الأكثر شهرة في اليونان، بنحت خمسة وعشرين تمثالاً برونزياً لهم.

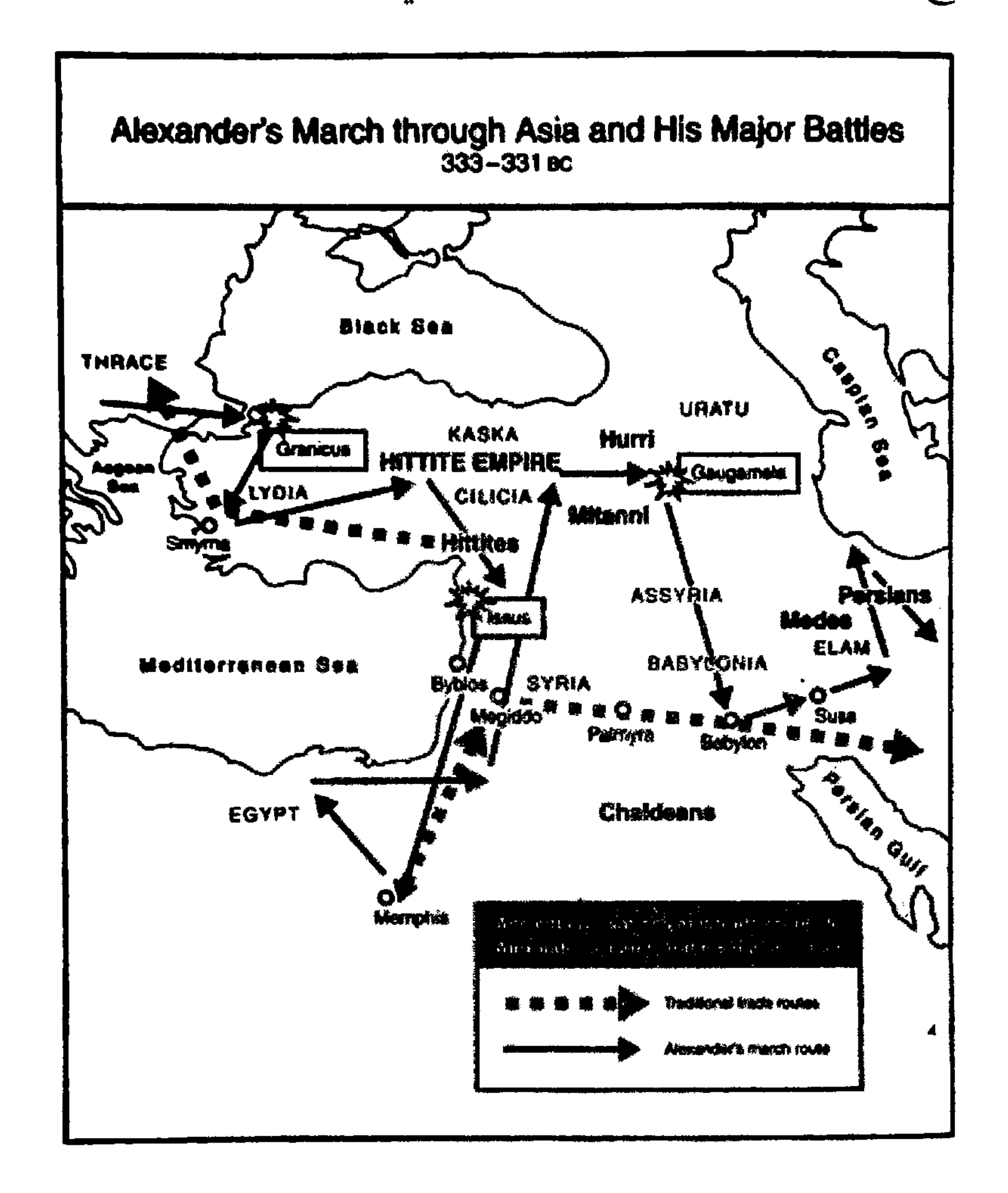
شارفت حياة الإسكندر العسكرية الرائعة على نهايتها تقريباً عند ضفة نهر في آسيا الصغرى. كم كان يمكن أن يتغير وجه التاريخ، لو أن الحصان لم يقفز، أو كان الحارس الشجاع كليتوس لم يتصدَّ للضربة التي كان من شأنها أن تنهي حياة ملكه. خلقت نجاته بأعجوبة أسطورة، أحاطت بشخصه منذ تلك اللحظة؛ ومن المحتمل أنه هو نفسه بدأ يؤمن بخلوده.

كانت نتيجة انتصار الإسكندر في معركة غرانيكوس تحرير المدن الساحلية التي تسكنها أغلبية من اليونان من نير الاحتلال الفارسي. لكن ذلك الانتصار لم يحلّ مشكلة أخرى: فالبحرية الفارسية لا زالت تسيطر

على الطرق البحرية، وطالما كان هذا التهديد موجوداً، كان على اليونانيين لتأمين احتياجاتهم الاعتماد على الطريق البري الطويل والصعب الذي يمر عبر مضيق الدردنيل (الهيليسبونت). كان على الإسكندر أن يضمن السيطرة على موانئ بلاد فارس على البحر المتوسط، متجاهلاً إمكانيات الأسطول البحري الفارسي القوي. في عام (333 ق.م) قرر غزو منطقة قليقيا والاستيلاء على موانئها الساحلية. ولتحقيق هذا الهدف، كان هناك طريقان مفتوحان أمامه، أحدهما يؤدي داخل البلاد، عبر سوريا، والآخر على طول الساحل. اختار ذاك الذي على طول الشريط الضيق من السهل الساحلي بين الجبال العالية والشواطئ الرملية. وهذا الأمر يمنحه مزايا متعددة - فقد كان المسير فيه أسهل من ذلك الذي يمر موازياً له عبر الجبال، ويبتعد كثيراً عن معاقل القوات الفارسية في سوريا، حيث توقع أن يقوم داريوش بتجميع قوات جيشه الرئيسة. أرسل القائد بارمينيو ليتحرك إلى الأمام لفتح الطريق مع الخيالة الثيسالنيين. لم تُعِرْ هذه القوة أهمية لتواجد قوة معرقلة من الجيش الفارسي وأقاموا معسكراً لحماية الممر الحيوي عبر ممر يونس[11]. ومن هناك، يلتف الطريق أبعد نحو الجنوب، إلى ميناء ميرياندروس (بالقرب من الإسكندرونة) على خليج إسوس؛ في ذلك المكان أقام الإسكندر معسكراً لمنح جيشه فترة من الراحة. كان الرجال متعبين، حيث كانوا يسيرون بمعدل 20 ميلاً في اليوم، لكن مزاجهم كان لا يزال رائقاً بسبب النصر الذي حققوه. استغل الإسكندر ذلك الوقت لاستقبال السفراء من البلدات المجاورة، وهم يعلنون ولاءهم له ويقدمون الهدايا. وأرسل فرق استطلاع في اتجاه الجنوب لاستكشاف موقع الجيش الفارسي، الذي كان يتوقع أن يجده أمامه، حيث تفسح الجبال مجالاً لسهل ساحلي واسع. بناءً على أوامره، أرسل بارمينيو وحدة صغيرة شمالاً، باتجاه خليج إسوس، للتحقق من

11- سرد الأحداث التالية مأخوذ من كاليسثينيس مؤرخ بلاط الإسكندر؛ وتمت إعادة كتابتها لاحقاً بواسطة المؤرخ بوليبيوس.

وصول رتل الإمدادات الذي كان ينتظره الإسكندر بفارغ الصبر، وكان يحتاج إلى قوات جديدة ليعوض خسائره في معركة غرانيكوس.



بينما كان الإسكندر يتحرك بثبات جنوباً، قام داريوش بتجميع جيشه الذي كان متمركزاً في سوشوي، وهي قلعة تمتد على طول الطريق الذي يخترق جبال الأمانوس. والتقارير التي كانت تصل إلى الملك الفارسي من حكام المقاطعات أبقته على علم بتحركات عدوه. وهكذا علم أن الإسكندر لم يسلك الطريق الجبلي المركزي إلى سوشوي ولكنه كان يتقدم على طول الطريق الساحلي. لقد حان الوقت للوقوع في الفخ. سار داريوش

بقوته شمالاً من سوشوي، وهي خطوة كانت مراقبة من جنود استطلاع الإسكندر المتمركزين في سلسلة الجبال. بمجرد وصول الجيش الفارسي إلى الطرف الشمالي للجبال، توجه إلى أقصى الغرب، لغرض استخدام الطريق الساحلي لقطع خطوط اتصال الإسكندر بالقرب من مدينة إسوس.

كان جنود الاستطلاع الذين أرسلهم بارمينيو لتحديد موقع تموضع الإمـدادات والتجهيزات العسكرية يجولون بخيولهم سهل إسوس المفتوح عندما لاحظوا سحابة كبيرة من الغبار، صرخوا قائلين «الإمدادات»، ولوحوا بغضب نحو النقاط السوداء التي جاءت تندفع تجاههم بينما ظهر صف من سلاح الفرسان من وسط السحابة. «إنهم الفرس!». استداروا بجيادهم وتسابقوا مع الريح لتحذير ملكهم. كان الخبر صدمة. لم يكن الجيش الفارسي أمامهم بل كان خلفهم، وكان معزولاً عن اليونان وإمداداته الحيوية. قام الإسكندربجمع قادة قواته، سوبوليس وغلاوشياس وأرسطو وهيراكليديس وديمتريوس، وبارمينيو بطل معركة غرانيكوس، الذي كسر الصمت قائلاً:

«أيها القائد العام، ما هو قرارك؟».

«أن نتقدم، يا أصدقائي، أن نتقدم! هذه هي فرصتنا الوحيدة».

«بعيداً إلى الجنوب؟».

«كلا! بل مباشرة باتجاه الجيش الفارسي! يجب أن نهاجمهم ونضربهم، لأنه ليس أمامنا غير ذلك»!

كان عليه أن يصل إلى ممر يونس قبل أن يخترق الفرس دفاعاته، كما فعلوا قبل 150 عاماً في ثيرموبيلاي. ومع ذلك، فإن داريوش الثالث لم يكن مثل داريوش الأول؛ كان متردداً، وغير حاسم، ومتبلد العقل. وبدلاً من الدفع بحزم نحو الإغريق والإجهاز عليهم وهم في وضع غير موات، أوقف جيشه على طول نهر بيناروس (إما عند بياس أو ديليتشاس)، وهو موقع غير مناسب لحجم جيشه، فهو ضيق للغاية بالنسبة له ليكون قادراً على استخدام كامل قوته.

توجه الإسكندر مع مجموعة صغيرة من الخيالة لاستطلاع طبيعة الأرض. التي كانت تتألف في الغالب من أرض مستوية، تحتوي على أعشاب طويلة ولم تكن فيها نباتات شجرية قصيرة. كان نهر بيناروس يقسم السهل، وعلى الشاطئ الآخر كان يكمن داريوش مع جيشه الجرار. عثرت مجموعة الإسكندر على مخاضة نهر تبعد مسافة ثلاثة أميال إلى الشمال تسمح لهم بالعبور منها. كان خوفهم، أن داريوش قد توصل إلى الاستنتاج نفسه وحصّن الموضع، لا أساس له من الصحة. بل بالعكس، فقد أوقع داريوش نفسه في الفخ، حيث الجبال من جهة والمحيط من جهة أخرى. ورغم ضيق هذه التضاريس، كان المقاتلون المقدونيون واليونانيون المصاحبون للإسكندر أكثر تكيفاً معها.

وضع داريوش مرتزقته اليونانيين البالغ عددهم 30 ألفاً أمام نهر بيناروس، ثم استخدم 30 ألفاً آخرين من الاحتياطي؛ كما وضع وحدات على سفوح التلال، حيث كانت تشرف بشكل خطير على جناح جيش الإسكندر. لقد أقام القائد الفارسي لنفسه نقطة انطلاق قوية، لكنه بعد ذلك غيّر رأيه. فقام باستدعاء مقاتلي سلاح الفرسان وجمعهم بالقرب من الشاطئ، على قطعة الأرض المسطحة الوحيدة. وكان من الواضح أنه يعتزم أن يطلق هجومه من هناك. قام بسحب مرتزقته اليونانيين إلى الوسط واستبدلهم بقوات مشاة احتياطية. وبهذه الخطوة أضعف موضعه الراسخ في مواجهة الجبال. هذه الحركة الكبيرة للقوات، التي نُفِّذت قبل المعركة بفترة وجيزة، نتج عنها ارتباك تام. تمّ تجميع الوحدات معاً مما أغلق ممرات الوصول لسلاح الفرسان بواسطة وحدات بطيئة الحركة. سرعان ما فقد داريوش ميزة تفوقه العددي. بدلاً من تقديم خط أمامي بعمق ستة عشر رجلاً، أصبح لدى داريوش الآن ما بين خمسين إلى ستين رجلاً متكدسين خلف بعضهم البعض ولن يتمكنوا من مساعدة أحدهم الآخر ولن يستطيعوا التحرك إلّا في أعقاب بعضهم البعض.

تقدمت قوات الإسكندر، البالغ عمقها ستة عشر فرداً، بوتيرة سريعة

نحو النهر. كان بارمينيو يقود الفرسان اليونانيين على يسار قوات المشاة، بينما قاد الإسكندر حرسه والفرسان الثيساليين على الجهة اليمنى. حدثت أولى المناوشات بين الأقرانيين وقوة تغطية فارسية في التلال. دخلت قوات المشاة إلى منخفض ضحل جعلها بعيدة عن أنظار داريوش، وهي خطوة صممها الإسكندر ببراعة للسماح لمشاته بالتمدد طولاً بينما يتقلصون في العمق إلى ثمانية رجال. فيما تحرك مقاتلو سلاح الفرسان الثيسالي خلف قوات المشاة المتقدمة ليكون متاحاً لهم المناورة على أي من الجناحين. انتقلت قوات من سلاح الفرسان المرافق له إلى أقصى اليمين. تلقى قادة سلاح الفرسان تعليمات لقيادة خيالتهم من خلف المشاة حتى لا يتمكن العدو من مراقبة تحركاتهم. عندما انتشرت قوات المشاة المقدونية فوق الجزء العلوي من سلسلة التلال المنخفضة المواجهة للنهر، تمّ عكس تشكيلة الصفوف بأكملها. لقد فات الأوان على داريوش للقيام بأي تحركات أخرى. على بعد ثمانين ياردة من النهر، توقف الإغريق لفترة وجيزة بينما كان الإسكندر يتقدم على حصانه، بشكل ملحوظ وبشكل مثير للريبة من قبل الأصدقاء والعدو، على طول خط القتال الأمامي بأكمله. عندما أصبح الجيشان قريبين بالفعل من بعضهما البعض، كان الإسكندر يسير بجواده على طول خط القتال، داعياً رجاله إلى التحلي بالشجاعة وينادي بألقاب الشرف القادة والمساعدين والمرتزقة الذين كانوا معروفين على نطاق واسع بسمعتهم أو قيامهم ببعض أفعال الشجاعة. وكانت تأتيه الصيحات من كل جانب: «لا تؤجل الأمر بل هاجم العدو الآن!». كان هذا الإيقاف المؤقت لقوات المشاة اليونانية فرصة عظيمة لداريوش كي تشن قواته الضخمة من سلاح الفرسان هجوماً مفاجئاً عبر النهر. لكن داريوش لم يكن مثل الإسكندر. كان واقفاً متجمداً في عربته كأنه أرنب يتربص به ثعبان.

على إيقاع المئات من الدفوف والمزامير، تقدم رجال الإسكندر البالغ عددهم 31 ألف رجل بثبات وهم يرفعون عالياً رماحهم الطويلة

(الساريسا)، كما هي عادتهم عند بدء أي هجوم. كانوا على بعد عشرين ياردة من النهر الضحل عندما ارتفعت أصوات الأبواق وظهر مقاتلو الصف الأيمن من قوات الإسكندر وهم يسيرون بخطى مضاعفة ثلاث مرات، بقيادة الملك نفسه، وقد سبقوا النخبة من أفراد حرس المشاة الملكي. تعالى الصراخ من الحشود عبر المياه الضحلة لنهر بيناروس، وقد أنزلوا رماحهم الطويلة (الساريسا) حينها، ورؤوسها الفولاذية المميتة متوجهة إلى الأمام مباشرة. وقبل إعطاء مشاة مرتزقة الفرس الأجانب (كارديس) فرصة للرد، قام المقدونيون، بقيادة هيفاستيون، نقيب الحرس الملكي، بتسلق ضفة النهر وقد غرزوا رؤوس رماحهم الطويلة في أجساد مشاة الكارديس. كان التأثير عنيفاً وكاملاً لدرجة أن جناح جيش داريوش الأيسر غرق في الفوضى؛ تمّ كسر شوكة وحدات الخطوط الأمامية التي حاولت الفرار ولكن تمّ إيقافها بواسطة صفوف القوات المتكدسة خلفها. كان باستطاعة هؤلاء الرجال سماع الصراخ، لكنهم واصلوا التقدم، دون اهتمام بالمذبحة التي كانت تحدث أمامهم. أما قوات الفرسان المصاحبة للاسكندر، والتي كانت تختبئ وراء قوات المشاة، فقد شقّت طريقها عبر النهر وهاجمت الصفوف الخلفية للمشاة (الكارديس). كان هجومهم مفاجئاً وغير متوقع لدرجة أن الجناح الأيسر للجيش الفارسي بأكمله قد ترنح متراجعاً. توجهت الوحدات اليونانية نحو مكان تواجد داريوش، الذي كان مُحاطاً بحرس الفرسان الملكي.

بينما كان هذا الجزء من المعركة يسير كما كان الإسكندر يرغب، واجه جناحه الأيسر انتكاسة لأن سلاح الفرسان الفارسي وضع ثقله الكامل البالغ 30 ألف فارس لشنّ هجوم عبر النهر. تعرض الثلاثة آلاف فارس ثيسالي بقيادة بارمينيو إلى ضغوط شديدة، ولكن حينها حدث ما غيّر كل شيء. قام الإسكندر، الذي كان منخرطاً بشدة في القتال في جناحه الأيمن، بحركة مفاجئة باتجاه موضع داريوش. فقام أحد قادة الفرسان الفارسيين أو عدد منهم، ممن كانوا منخرطين في القتال ضد بارمينيو، بالاستدارة بخيولهم

وتسابقوا لمساعدة ملكهم، تبعهم عدد كبير من الرجال الذين اعتقدوا أنه من واجبهم البقاء مع ضباطهم. فتح هذا التحول ثغرة في هجوم الفرسان الفارسيين، سرعان ما قام الفرسان الثيساليين باستغلالها. وباستخدام مرونتهم الكبيرة في الحركة ووضعهم المحمي بشكل أفضل، تمكنوا من قتل الجنود الفرس وطاردوا الباقي عبر النهر وتحطيم الجناح الأيمن للجيش الفارسي. كل ما بقي صامداً هو قلب الجيش. وعندها تمكن مرتزقة داريوش اليونانيين من صدّ كل محاولات المقدونيين لاختراقهم. احتدم القتال بشراسة على طول ضفة النهر، حيث كان اليوناني يقاتل أخاه اليوناني. لم يكن هناك من يحمل أي شفقة في قلبه ولم يكن هناك من يطلبها. استمرت الجثث تتراكم ودفع المرتزقة ثمناً باهظاً. (ستلعب خسارة مرتزقة داريوش اليونانيين دوراً حاسماً في معركة غوغاميلا). دُفِعَ الجنود الفارسيين لملء الفجوات، ولكن لا شيء يمكن أن يوقف الأمر المحتوم. بعد أن تبخر جنود المشاة في الجناح الأيسر للجيش الفارسي بسبب هجوم الإسكندر الجريء، وهزيمة سلاح الفرسان التابع له بسبب الخطوة التي قام بها عدد قليل من الضباط المتحمسين لمحاولة إنقاذ ملكهم، والمذبحة التي تعرض لها المرتزقة اليونانيون في الوسط، فرّ داريوش منْ ميدان المعركة، وتبعه مقاتلو سلاح الفرسان، الذين كان يلاحقهم بحماس فرسان الإسكندر. اختنقت ضفة النهر والممرات الضيقة المؤدية من النهر مخترقة الجبال بالجثث والخيول، ومعظمها كانت لأفراد من الجيش الفارسي. وحدثت أسوأ مذبحة عندما اشتبك مرتزقة داريوش اليونانيون مع حراس الإسكندر. وكانت الأهرامات التي صعدت من جثث القتلى تشهد على ضراوة القتال. ما إن حلّ الليل حتى تحقق نصر عظيم. لكن داريوش لم ينته بعد؛ سيتطلب الأمر معركة أخرى. فقد حدثت معركة إسوس كما توقع الإسكندر[12].

12- هذه العبارة مأخوذة من المؤرخ أريانوس. لكن معظم أحداث معركة إسوس مأخوذة من كتاب التاريخ العامّ للجمهورية الرومانية للمؤرخ بوليبيوس الذي كانت مصادره هي روايات شهود العيان التي ذكرها المؤرخ كاليسثينيس.

عندما دخل الإسكندر، مع هيفاستيون، الخيمة الملكية التي يقيم فيها الملك داريوش بعد الاستيلاء عليها، وجد زوجة الملك، ستاتيرا، وأطفالها وهم مفجوعون بموت الزوج والأب. لم تر ستاتيرا من فتحة الخيمة سوى ظلّ رجلين، وكان كلاهما يرتدي عباءة طويلة وخوذة، ويحملان رمحاً ودرعاً، ويبدوان جادين للغاية. جمعت المرأة الأطفال من حولها وانحنت احتراماً لهيفاستيون، الذي كان أطول الاثنين، واعتقدت أنه الملك حتى قيل لها العكس. كان رد فعل الإسكندر على خطئها شجاعاً ومبرهناً عن تقديره لصديقه: «ليس هناك خطأ، أيتها السيدة النبيلة، لأن هيفاستيون هو أيضاً زعيم عظيم». ثم تابع الإسكندر حديثه ليطمئنها إلى أن زوجها داريوش على قيد الحياة وأصدر أوامر بأن لا تعامل الأسرة ذات النسب الرفيع مثل الأسرى بل كضيوف ملكيين[13]. عندما اكتشف داريوش مصير زوجته، فوجئ بأن الإسكندر لم يغتصبها، كما كانت العادة الشائعة عند المنتصرين كإعلان لنصرهم وليجلبوا العار للمهزوم.

استمرت مسيرة الإسكندر نحو النصر دون توقف. كان هدفه الرئيس التالي هو مكان المرسى الرئيس لأسطول بلاد فارس في البحر المتوسط في مدينة تاير (صور). كانت المدينة تقع على جزيرة، وكانت منيعة تماماً، ومحصنة من جميع الجوانب بأسوار يبلغ ارتفاعها 50 متراً. كان الطريق الوحيد للوصول اليها هو عن طريق البحر. وبما أن الإسكندر لم يسبق له أن قاد أسطولاً من قبل، فقد اعتقد المدافعون عن صور أنهم بمنجى عن الخطر. وفي عملية نموذجية للقيام بفرض حصار على المدينة، تغلب الإسكندر بها على القوات العسكرية الموجودة في المدينة حين أقام معبراً خشبياً عبر بحيرة ساحلية. تمّ إحراق رصيف الميناء والعديد من الأضبار[14] بواسطة نيران مقاتلي صور، رفض الإسكندر الاستسلام، وبنى

13- عن المؤرخ ديودوروس.

14- أحد أقدم آلات الحرب وهي تشبه الدبابة حيث يحتمي المقاتلون وراءها مع التقدم نحو الحصون لثقبها ومهاجمة الأعداء المتحصنين بالحصون. المترجم.

رصيفاً ثانياً، ثم ثالثاً. ومن الموانئ الفينيقية التي تمّ احتلالها، قام بتجميع أي نوع من السفن وقع تحت يديه وحشر أسطول أهل صور داخل مرفئها. أما بالنسبة للأسوار العالية، فقد تمّ بناؤها لمقاومة الزلازل ومنجنيقات المحاصرين، ولكن ليس السفن الثقيلة المجهزة بكبشات[15] برونزية. سقطت الأسوار ودخل رجال الإسكندر إلى المدينة. لقد استغرق الأمر سبعة أشهر. تمّ تدمير مدينة صور بالكامل وأرسل سكانها للعمل في مناجم الفضة. أثبتت استراتيجيته الشاملة، بحرمان الفرس من موانئهم البحرية، أنها كانت حكيمة. انعزل داريوش عن أسطوله، وبات الطريق إلى مصر مفتوحاً أمام الإسكندر. وقبل أن ينطلق، تمّ إدخال مبعوث من داريوش إلى المعسكر اليوناني. وخاطبه قائلاً: «أيها الملك العظيم، إمبراطوري يتمنى لك السلام. ويقدم لك 10 آلاف طالنط[16] ذهبي [حوالي 400 مليون دولار] وجميع الأراضي الواقعة غرب الفرات. و- توقف مؤقتاً- ثم قال «الإمبراطور يعرض عليك يد ابنته للزواج وليتم إبرام معاهدة صلح».

أوضح الإسكندر نواياه عندما أجاب بسخرية: «أخبر إمبراطورك، أنا لا أريد أمواله ولا أريد جزءاً من بلاد فارس فأنا أعتزم الاستيلاء عليها كلها. أما بالنسبة لابنته، فأخبره إذا كنت أرغب فسأتمكن من الحصول عليها وأتزوجها دون موافقته. لقد كان الإسكندر خارجاً لمسح بلاد فارس من الخريطة. في شهر تشرين الثاني حاصر غزة ثم دخلها، وفي آذار من عام 331 ق.م غزا مصر. في معبد زيوس عمون في الصحراء الليبية غرب ممفيس، رحَّب به الكاهن باعتباره «ابن زيوس». مع سقوط الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط، لم يعد لدى الفرس موانئ أخرى لترسو بها سفنهم. فإذا كان داريوش يخطط لمواجهة، فبات من الحتمي أن تكون في البر.

ظل الإسكندر مطمئناً لمدة عام فسمح لقواته بأخذ فترة من الراحة

15- الكبش هي آلة معدنية استخدمها القدماء لدكّ أسوار المدن المحاصرة. المترجم.

16- وحدة قياس قديمة للوزن تساوي وزن الماء اللازم لملء أمفورة. كان الطالنط الأطيقي أو اليوناني يعادل 26 كغ. المترجم.

في حين كان يخطط لبناء ميناء جديد وهو ميناء الإسكندرية. لكن تركيزه تحول عندما تلقى تقريراً يفيد بأن داريوش كان يجمع جيشاً ضخماً في بلاد ما بين النهرين. تصرف الإسكندر فوراً وهرع إلى هناك لينال من خصمه. ستختبر المعركة القادمة قدرته على التكيف. بالنسبة إلى الإسكندر، كان ذلك يعني سباقاً مروّعاً مع الزمن، وكانت الاحتمالات غير مواتية.

كانت الشكوك تكتنف داريوش بقدرته على التغلب على الإسكندر. في كل مرة التقيا بها، كان اليوناني يتقدم خطوة كبيرة إلى الأمام. الوسيلة الوحيدة لوقف ذلك المقدوني هو أن يجمع قوة هائلة بحيث تسحق الجيش اليوناني بأقدامها، بغض النظر عن عبقرية ملكهم التكتيكية. في السنتين اللتين انقضتا منذ الكارثة التي تعرض لها في معركة إسوس، أنفق داريوش ثروة إمبراطوريته لإعادة التسلح. لقد كان مستعداً لمواجهة خصمه، حيث جمع نصف مليون من الجنود ومقاتلي سلاح الفرسان والعربات ووحدات الدعم والنقل. كان جيشه يشبه مدينة عظيمة وهي تتحرك.

«لكن المعركة العظيمة التي خاضها داريوش لم تكن، كما يخبرنا معظم الكتّاب، في أربيلا، ولكن في غوغاميلا، والتي تعني بلغتهم منزل الإبل، لأن أحد ملوكهم القدامى فرّ من المطاردة من أعدائه على جمل سريع، وتعبيراً عن امتنانه لذلك الحيوان، أطلق اسمه على هذا المكان[17].

ما تلا ذلك كان حرب أعصاب. كانت الاشتباكات الممهدة لمعركة غوغاميلا، التي جرت على رقعة الشطرنج العملاقة في شمال بلاد ما بين النهرين، بأهمية المعركة نفسها[18]. لم يأخذ داريوش في الاعتبار المشاكل التي ينطوي عليها تحريك مثل هذا الجيش الضخم. تحرك هذا الجيش

17- عن المؤرخ فلوطرخس.

18- كتب عن حملة غوغاميلا، أربعة مؤرخين مهمين: ديـودوروس وكورتيوس وفلوطرخس وآريانوس. في حين كان الثلاثة الأوائل يعارضون الإسكندر بشكل أساس كان أريانوس مؤيداً، واعتمد على روايات شهود العيان التي ذكرها بطليموس وأريستوبولوس.

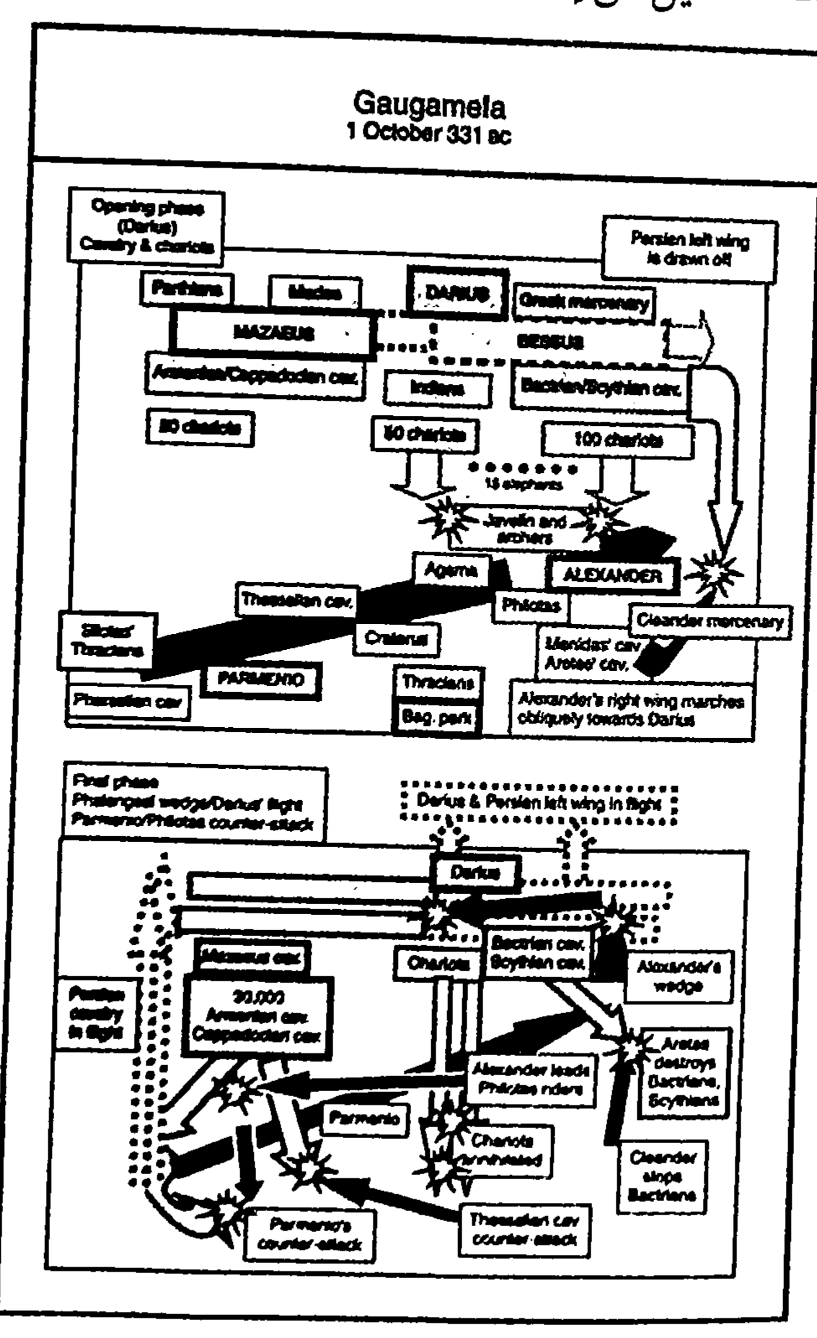
الكبير وهو يصطحب معه زوجات المقاتلين والطهاة والخادمات والأطفال والكناسون والعاهرات. أينما كان داريوش يقيم معسكراً، يكون كبيراً جداً بحيث لا يمكن إخفاؤه، وصاخباً جداً لا يمكن تهدئته، ويفتقر تماماً إلى الانضباط. عرف داريوش أنه سيكون من المستحيل اللحاق بالإسكندر عند التلال، حيث يتسلل المقدونيون من بين جنباته. كانت تحركات جيشه بطيئة - كانت هناك وحدات تضلّ طريقها، وأخرى تتركه من أجل السرقة. وبينما كان باستطاعة الإسكندر وأربعين ألفاً من مقاتليه التحرك بسرعة وتغيير اتجاههم في أي لحظة، كان داريوش عالقاً مع نصف مليون رجل في أرتال متداخلة مع بعضها إلى ما لا نهاية. لذلك اضطر إلى التمسك بالسير في منطقة سهلة. انتقل من بابل إلى مدينة أربيلا[19]، «مدينة الآلهة الأربعة». ناقش داريوش هذا الأمر مع مازايوس أفضل جنرالاته. كان تقييم الجنرال، الذي كان حريصاً على الاحتفاظ به لنفسه، هو أنه لم يكن هناك شيء صحيح في الجيش؛ كان مشروع داريوش الطموح محكوماً عليه بالفشل بسبب الغطرسة التي هيمنت عليه. ومع ذلك، فقد نصح حاكمه بأن أفضل فرصة لهم هي أن يكمنوا للإسكندر عند أحد الأنهر العظيمة.

قاد مازايوس طليعة من ستة آلاف مقاتل من سلاح الفرسان لضبط الكمين. «أمسكوا النهر»، كانت تلك أوامره المرتبكة. كان هناك نهران، هما دجلة والفرات. خطط مازايوس لكل شيء بناء على المعلومات الاستخباراتية التي تلقاها من جنود استطلاع سلاح فرسانه الذين قاموا بتضليل جيش الإسكندر. وقد كانوا مخطئين، وكذلك كان تخطيطه. لقد كان جنرالاً جيداً، لكنه ارتكب خطأً حاسماً: لقد فشل في إيقاف الإسكندر أثناء عبوره نهر الفرات عند مدينة ثابساكوس.

في 13 أيلول سنة 331 ق.م، ألقى سلاح الفرسان التابع للإسكندر القبض على دورية كشافة فارسية واكتشف خطط عدوه. بعد مسيرة قسرية وصل الإسكندر نهر دجلة في 18 أيلول. ارتكب مازايوس، الذي كان

19- أربيل. المترجم.

مستلقياً في حالة انتظار، خطأً مماثلاً لما فعله عند نهر الفرات. لقد كان يعتقد أن نهر دجلة يتعذر اجتيازه – مع أنه كان سالكاً– ولن يسمح لجيش ذلك المقدوني بالعبور. لكن الإسكندر المحظوظ دائماً هو الذي فاز[20]، ووصلت إليه كامل وحدات جيشه قبل مواجهة فرسان مازايوس، الذين انسحبوا في مواجهة جيش الإسكندر الرئيس. ألقت الروايات اللاحقة باللوم على عدم فعالية مازايوس في التسبب بالكارثة التي حلّت بالجيش الفارسي، فقط للتقليل من إنجازات الإسكندر.



20- من كتاب أناباسيس للمؤرخ كسينوفون.

عبر الإسكندر نهر دجلة في ليلة خسوف للقمر (20 أيلول)، وذبح القرابين لآلهة سيلين وغايا وهيليوس (آلهة القمر والأرض والشمس). من هناك، اندفع مع جيشه بالكامل جنوباً جاعلاً نهر دجلة كمصدّ حماية لجناحه الغربي. لقد ترك رتل التجهيزات الخاصة به يخيّم على النهر وواصل مسيره وليس معه سوى حيوانات الحمولات واتجه جنوباً على طول وادي دجلة، حيث يوجد الكثير من العشب لبغاله في السهل الخصب أسفل جبال جوردينيان. في 25 أيلول واجه قوات من ألف من الفرسان الفارسيين، وهزمهم وأخذ بعض الأسرى؛ الذين أكدوا له الوجهة التالية لداريوش، وهو سهل معشوشب جنوب أربيل، لقد تعلم الإسكندر الدرس منذ زمن معركة إسوس، عندما فوجئ بتحرك عدوه من حول جناحه. ولعدم رغبته في الوقوع في الخطأ نفسه مرة أخرى، جعل نفسه هذه المرة على علم دائم بحركات عدوه. عندما طلب منه جنرالاته منحهم يوم راحة، رفض طلبهم. وقال لهم: «سنضطر إلى المغادرة على الفور». كان جيش داريوش كبيراً وغير فعّال. من ناحية أخرى، يجب علينا أن نتخلى عن كل ما لا لزوم له لتحقيق مكاسب من خلال السرعة. من أجل السرعة، تخلى عن كل شيء؛ لقد ترك وراءه جميع الحيوانات باستثناء حيواناته الحربية التي كان عليها أن تحمل حصص الشعير التي تكفيها عدة أيام وانطلق من المخيم في 29 أيلول. واندفع من ضفاف نهر دجلة، إلى الأمام مع مفرزة صغيرة من سلاح الفرسان المرافق له، وترك الأمر لبارمينيو ليلتحق به مع الجزء الأكبر من جيشه.

كان الإسكندر يبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً فقط، ولكنه كان بالفعل في ذروة قوته. كان أعظم رصيد له هو أعصابه – لم يكن يزعجه شيء؛ وكان يحتفظ بها باردة في أي أزمة تواجهه. لم يؤثر به ذلك الجيش الجرار الذي وضعه داريوش في ميدان المعركة. إن المبدأ القائل بأن «القوة العظمى لا يمكن مواجهتها إلّا بقوة مساوية لها» لم يكن له معنى بالنسبة لذلك القائد المقدوني. حسب تفكيره، كانت الطريقة لهزيمة القوة

الجبارة هي تدمير تماسكها، وبمجرد تجزئتها، يتمّ التعامل بشكل منفصل مع أجزائها.

كان الملك الفارسي يتقدم مثقلاً بقوته الضخمة من الخيول والرجال وأرتال العربات الحربية نحو المواجهة. كان داريوش متعباً، وكذلك كان حال رجاله، وأمر ببضعة أيام من الراحة قبل أن ينتقل من أربيلا، التي تشكل مفترق الطرق بين بابل وباقي أجزاء إمبراطوريته، إلى نهر ليكوس (الزاب الكبير)، والذي يستغرق منه خمسة أيام أخرى لكي يعبر. في 25 أيلول، وهو اليوم الذي أسر فيه الإسكندر الكشافة الفرس، وصل داريوش أخيراً إلى سهل شاسع بالقرب من قرية غوغاميلا على نهر بوميلوس (الخازر)[21]. وعد هذا السهل الشاسع بتوفير ميدان معركة مناسب لفرسانه بأعدادهم الهائلة ومئات من عرباته؛ هتف له جنرالاته وهم يؤكدون له أنه لا يوجد شيء يمكن أن يفعله المقدوني الملعون لإيقاف الهجوم الذي ستشنّه العربات الحربية المميتة.

كانت خطة داريوس بأكملها تعتمد على تفوق قوته البشرية. وبذلك، كان يرتب لتنظيم خط قتالي طويل ومركز للغاية لدرجة أنه سوف يصل إلى أبعد مدى حتى إلى أقل الخطوط كثافة التي يمكن لليونانيين مواجهتها. كان يمكن لمركباته الحربية أن تخترق ببساطة قلب قوات العدو، وحشوده الضخمة من الفرسان تهجم من حول أجنحة القوات اليونانية. كانت تلك خطة مثالية. وللتأكد من أن لا شيء على الإطلاق يمكن أن يوقف المركبات ذات العجلات الثقيلة، فقد أمر الآلاف من العبيد بملء الحفر وتسوية الخنادق لتحويل الحقل الوعر إلى ميدان سباق ناعم مثل طاولات البلياردو لأجل مرور مركباته الحربية.

عند وصوله إلى السهل، سارع الملك اليوناني إلى استكشاف الأرض وسرعان ما اكتشف الموضع المحتمل لتواجد قوات داريوش. وفي

21- تقع غوغاميلا على بعد عشرين ميلاً شمال شرق الموصل في العراق، هذه التفاصيل مأخوذة من المؤرخين ديودور الصقلي وكورتيوس.

حين أن مجموعات من سلاح الفرسان التابع له شكلت ستاراً لإخفاء مكان وجود جيشه عن نظر العدو، سمح لقواته ببضعة أيام من الراحة، قبل أن يجتاز الأميال القليلة المتبقية، ويخيم في الليلة الأخيرة ليبتعد فقط ثلاثة أميال عن الفرس. كان الإسكندر قد تحرك سريعاً في الآونة الأخيرة لدرجة أنه لحق داريوش بشكل مفاجئ تماماً، وكان غير مستعد تماماً عندما ظهر الجيش اليوناني فجأة على المرتفعات البعيدة فوق سهل غوغاميلا. في الليلة التي سبقت المعركة، اقترح بارمينيو شنّ هجوم مفاجئ. وهذا من شأنه أن يقضي على خطر هجوم تقوم به حشود خيالة الجيش الفارسي، لكن الإسكندر لم يكن يعتقد أنه يمكنه أن يوجه ضربة حاسمة في الليل. لذلك أجاب باقتضاب بعبارة اقتبسها منه الكثيرون: «أنا لن أسرق النصر!». في الليلة نفسها، توجه الإسكندر وقادته إلى قمة مرتفع. ومن هناك شاهدوا عرضاً رائعاً للقوة. أنارت آلاف المشاعل النارية عرضاً عسكرياً. ومرّ موكب لا نهاية له من سلاح الفرسان وقوات المشاة من أمام عرش الملك داريوش.

«بحق زيوس – تمتم أغاثو من سلاح الفرسان لمملكة أودريسيا– لدى الفرس خيول أكثر من عدد رجالنا».

أجاب الإسكندر: «نعم، لكن كل رجل من رجالنا يستحق عشرة من خيولهم». لم يؤثر به العرض. بالنسبة له، ما كان يجري في جميع أنحاء الميدان مجرد استعراض للقوة، ولم ينتج عنه سوى تعب الجيش. كان هناك شيء قد تعلمه كمتمرس في العمليات الحربية. إذا كان عليك أن تنظر على طول عمود السهم من النهاية الخاطئة، فإنك ستقع تماماً تحت رحمة الرجل الذي يحمله. سيتوقع أن يرى الخوف في عينيك لأنه من يمتلك السطوة. سوف يتفاخر وهو يراقبك وأنت تتلوى، وسيؤجل لحظة القتل حتى يكون قد فات الأوان. في الواقع، كان داريوش يملك هذا السهم مجازاً بحكم قوته البشرية الساحقة، لكنه لم يكن الرجل المؤهل لأن يطلقه، أو يتخذ قراراً صعباً.

كان الإسكندر يحتاج إلى نصر حاسم. لم يكن داريوش يفتقر إلى القوة البشرية، ولم يتخل عن شنّ الحرب؛ حتى بعد الخسارة التي تعرض لها في معركة إسوس كان قد أعاد تجميع جيش ضخم من سكان الأراضي الشاسعة التي يسيطر عليها. الشيء الوحيد الذي سينهي هذا الملك الفارسي هو فقدانه كل ما يحمل من شجاعة وأمل بعد أن يتعرض لهزيمة منكرة. زار الإسكندر الكاهن وقدم القرابين المعتادة. لقد استشار عرافه أريستاندر من أجل أن يخبره بنبؤته. ربما كان يؤمن بالكاهن، وربما لم يكن كذلك؛ كان قد علم منذ فترة طويلة أن القدر لا يحترم جحيم المعركة. ثم عقد اجتماعاً أخيراً. عندما غادر جنرالاته وبقي هيفاستيون فقط، خرج الإسكندر من الخيمة، ثم التفت إلى صديقه. «يجب أن نعرف في غضون ساعات ما الذي سيجري. يجب أن ننتصر لأن آلهتنا حية».

المكان هو غوغاميلا (أربيلا)، والزمان هو الأول من تشرين الأول سنة 331 ق.م[22]. بينما كان الجيشان يقيمان تشكيلاتهما، حلق طائر أسود كبير فوق ميدان المعركة. نظر الرجال إلى أعلى وبدؤوا يتحدثون عن الفأل الذي يحمله معه، بينما كانت أجنحة الطائر ترفرف عند الخيوط الأولى من الفجر البرتقالي مثل شبح جائع، كما لو أنها جاءت من السماء بأوامر من الإلهة أثينا. أيقن الملك اليوناني «أن الآلهة معنا...» ثم نام هو وأفراد جيشه لفترة قصيرة، في حين أن داريوش أبقى أفراد جيشه متأهبين طوال الليل وعندما أشرقت الشمس، كانوا متعبين. في حين أن اليونانيين لم يكونوا كذلك.

بدأ اليوم مع قيام الإسكندر بعمل غير متوقع؛ جعل تشكيلاته الحربية تنحرف بمقدار عدة درجات. تمّ تجميع الجيش الفارسي في صف هجومي ثلاثي، انتشر إلى أبعد ما يمكن أن تراه العين، بعيداً عن متناول الصف الوحيد لليونانيين الذين كان يواجههم عن بُعد. كان وميض

22- حسب التاريخ الذي حدّده المؤرخ فلوطرخس: فإن شهر بويدروميون الإغريقي، يحل بعد أحد عشر يوماً من خسوف القمر ويصادف 1 تشرين الأول سنة 331 ق.م.

المعادن يبرق في كل مكان - حيث أشرقت شمس الفجر على الفولاذ المصقول وإطارات الدروع البرونزية. جلس الإسكندر على جواده، وقد ابتعد قليلاً عن قواته. شعر بالمصير الذي ينتظره. لن يصبح ملكاً للعالم دون الإصغاء لحدسه بدلاً من الاستماع إلى حكم أصدقائه ومستشاريه، حتى لو كانوا جميعاً من الأبطال الذين حاربوا وانتصروا في العديد من المعارك. كل شيء كان جديداً وكل معركة كانت تحدياً جديداً، يختلف عن سابقه. كان يعوّل على رجاله. فقد كانوا يتبعونه حتى النهاية.

لم يكن لدى الإسكندر سوى سبعة آلاف مقاتل من سلاح الفرسان وأربعين ألفاً من المشاة، لا أكثر. انتظر اللحظة الأخيرة تماماً حتى يعلن عن خطته التكتيكية للهجوم. لقد كانت خطة عبقرية خالصة. أعطى لبارمينيو مهمة قيادة الجناح الأيسر وأصدر تعليمات له بأن يحافظ على موقعه والدفاع عنه ضد أي هجوم من الجناحين يقوم به الخيالة الفرس المحتشدون في ذلك القاطع. كان الإسكندر يسير مع جناحه الأيمن بزاوية منحرفة نحو خط العدو، على أمل أن هذا النهج غير التقليدي سوف يجذب الفرس إلى ما بعد ساحة المعركة المحددة ويجعل تشكيل العدو الثابت يدخل في حالة من التشتت. لم تتم تجربة هذه الطريقة من قبل أبداً[23]، ولكن إذا أدى الجميع واجبهم بشكل صحيح، فستنجح. قام بترتيب وحداته بحيث تتمكن من أن تستدير وتلتف وتقاتل في جميع الاتجاهات. لقد اعتمد على تردد داريوش المعروف وحقيقة أنه لن يكون قادراً على تعديل مناورته المعدة مسبقاً، حتى لو اضطر إلى ذلك. لقد خدع الإسكندر عدوه.

كان الإسكندر يخشى بمجرد اندلاع المعركة أن يفقد بسرعة سيطرته العامة على الأوضاع. لذلك قام بإبلاغ أوامره المحددة شخصياً لكل واحد من قادته الرئيسيين. كان عليهم أن يتصرفوا وفقاً لخطته الرئيسة،

23- على الرغم من أن هناك شيئاً مشابهاً وصفه المؤرخ كسينوفون في كتابه كيروبيديا يشير فيه إلى أن الملك كورش سبق وأن استخدمه.

لكن سُمح لهم باستغلال ما يُتاح لهم من الفرص. كان يسير متقدماً قليلاً أمام صف قواته الأمامي. كانت قواته تعرض مشهداً رائعاً، أربعون ألف محارب يصطفون في تشكيل محكم، كان كل رامي سهم، وقاذف منجنيق، وحامل درع وجندي هوبليت في مكانه المحدد. كان الفرسان يتواجدون وراء الخط الأمامي، بعيداً عن أنظار العدو ليجعلوا داريوش يخوض في التخمينات. كان سلاح الفرسان بقيادة مينيداس هو قوته الاحتياطية سريعة الحركة للقيام بحركات الهجوم المضاد للأجنحة ضد نظيرها لدى العدو. أمام خطه الأول كان يتواجد رماة الأسهم والرماح، الذين يشكلون حاجز الصدّ الأول أمام العربات الحربية المخيفة. أُصدِرَت الأوامر لهم باستهداف الخيول فقط، ورشها بوابل من السهام قبل أن يتراجعوا بسرعة خلف التشكيلات الثابتة لجنود الهوبليت حاملي الرماح. كان الإسكندر يعلم أن الرماة الحاملين سلاحاً خفيفاً سوف يركضون على أية حال، فكان من الأفضل أن يخبرهم أن يفعلوا ذلك وأن يحافظوا على شجاعتهم؛ ولكن فقط بعد أن يطلق كل واحد منهم ثلاثة أسهم على الأقل. إذا كان عليهم التراجع بناءً على أوامر الملك، فإنهم سيقفون ويطلقون النار ثم يركضون، ولكن ليس بسبب الذعر. بهذه الطريقة سيتمكن من السيطرة على ما لا يمكن السيطرة عليه. كان حراسه من المقاتلين النخبة وجنود الهوبليت يشكلان خط قتاله الرئيس.

كانوا من مستويات مختلفة من الشجاعة والهمة، مما جعل الهجوم الأولي يستند على رماحهم المثبتة في الأرض. ولغرض إنجاح هذا الهجوم الرئيس بواسطة «جناحه الأيمن المتنقل»، قام المقدونيون، وعدد من مقاتلي قبائل الأقرانيين بقيادة أتالوس، وسلاح الفرسان الخفيف لمقاتلي الأريتيس، والبليونيزيين تحت قيادة أريوستو، وسلاح الفرسان اليونانيين. بقيادة مينيداس، بتشكيل قوة هائلة، ولكنهم كانوا لا يشكلون شيئاً بالمقارنة مع ما كان يواجههم: أربعون ألفاً من مقاتلي سلاح الفرسان الفرس المزودين بالأسلحة الثقيلة، كما كان هناك العديد من الفرسان في قوات الإسكندر،

من أقوام البختاريين، والداهانس، والسكثيون، بالإضافة إلى مائتي عربة حرب مع الرماة - ومليون فرد[24]. بعد أن أخذ الإسكندر كل احتمال في الحسبان توجه إلى قادته قائلاً: «في حال وفاتي، سيتولى فيلوتاس قيادة جناحي، وإذا وقع بارمينيو، يمكن استبداله بكراتيروس». ثم قام بالتحقق من تشكيلاته الحربية. تحقق أولاً من جناحه الأيمن، وكان بجانب مرافقيه عدد من الأفواج الملكية بقيادة كليتوس، وغلاوسيوس، وأريستو، وسوبوليس، وهيراكليدس، وديميتريوس، وميليغير وهيغيلوشوس. ثم يجيء بعده جنود النخبة وحملة السيوف بقيادة نيكانور. تولى فيلوتاس ابن بارمينيو قيادة سلاح الفرسان في الجناح الأيمن. كان لدى بارمينيو، المسؤول عن الجناح الأيسر، سلاح الفرسان الثيسالي تحت قيادة فيليب، والفرسان الفارساليون، والأودريسيون بقيادة أغاثو، والتراقيون بقيادة سيتاكليس، وحلفاء اليونانيين بقيادة كورانوس، والمرتزقة اليونانيون بقيادة أندروماتشوس. كان هناك عنصر آخر، مُجهَز للعب دور مهم في المعركة؛ جزء من مشاة تراقيا كانوا يقومون بحراسة الأمتعة. لم يكن من المفترض أن يشاركوا في المعركة، لكنهم سيفعلون ذلك.

عندما اطمئن الملك أن كل شيء في مكانه، بدأ يتنقل من قطاع إلى آخر، ولكن ليس على صهوة جواده العظيم بوسيفالوس، الذي بات عجوزاً الآن. كان يرتدي معطفاً مصنوعاً في صقلية، ويرتدي حزاماً حوله، وكان يلبس فوقه صدارة من الكتان المبطن بكثافة، والتي تمّ الاستيلاء عليها من بين غنائم أخرى في معركة إسوس. كانت الخوذة، التي صنعها ثيوفيلوس، على الرغم من أنها مصنوعة من الحديد، ومصقولة بشكل ممتاز لدرجة أنها كانت تلمع مثل الفضة التي تمّ جليها بشكل جيد. وتمّ

24- تبدو أعداد جنود المشاة الفرس مبالغاً فيها للغاية. المصادر المعاصرة الأخرى تشير إلى أربعمائة ألف فرد يذكر كل من المؤرخين ديودوروس وبلوطرقس أن عدد الجيشين معاً كان مليون فرد. الحقيقة هي أن القوة الكلية لسلاح الفرسان التابع للملك داريوش لوحده تساوي القوة الكلية الفعالة لسلاح الفرسان والمشاة في جيش الإسكندر مجتمعين.

تركيب وشاح من المعدن نفسه، مرصع بأحجار كريمة. سيفه، وهو أكثر سلاح استخدمه في المعارك، كان قد أعطاه له ملك سيتينيا وكان صلباً بشكل يثير الإعجاب ويمتاز بالخفة. كان حزامه، الذي كان يرتديه أيضاً في جميع الاشتباكات، أكثر فخامة في صنعته من بقية دروعه. كان من عمل قدامى الهليكون، وقد قدمه له الروديانيون، كدليل على احترامهم له[25]. كان يتوقف بشكل متكرر للحديث مع جنود الهوبليت والعبيد وجنود المشاة ومرافقيه من أفراد حرسه، وكان يشجع الجميع، وأحياناً كان يضحك وهو يستخف بالجندي الجبان طالباً منه أن يكون شجاعاً. وكان يتحدث مع قادته عن الأوامر، للتأكد من أن تعليماته مفهومة وسيتم تنفيذها رهن إشارة منه، والأهم من ذلك كله، أنه تأكد أنه لن يكون هناك أي تحرك للأمام قبل استلام الأمر المحدد منه، إلّا في حالة ابتكار خطة معينة لاستدراج العدو خارج خط قتاله المحدد مسبقاً.

أشار أريستاندر، عرّاف الملك، الذي كان يلف جسمه بعباءة بيضاء مع تاج من الذهب على شعره الأبيض، إلى نسر يحلق عالياً فوق الإسكندر ويتجه مباشرة إلى العدو.حينها ارتفعت هتافات الإغريق بصوت عال. كانوا يعلمون أن الآلهة ستسانده، فهو الابن الحقيقي لزيوس.

كانت تمتد أمامهم مساحة واسعة من الأراضي العشبية، ترتفع بلطف إلى الأعلى وتعلوها قمة منخفضة تبعد حوالي نصف ميل. وهذا من شأنه أن يسمح للإسكندر باستخدام طريق جيد ليبتعد عن خط رؤية داريوش. بناءً على إشارة منه، بدأ التشكيل اليوناني يتقدم نحو اليمين، مقترباً من العدو بزاوية منحرفة. بمجرد أن اكتشف الفرس ذلك، اضطروا إلى تغيير اتجاههم وفقاً لذلك واستداروا لتجميع قواتهم بعيداً إلى يسارهم. كان ما يمكن تحقيقه مع وجود جيش يتحرك أصبح شبه مستحيل بوجود قوة في موقع ثابت، وخاصة قوة ضخمة مثل الجيش الفارسي. أصبحت الوحدات مشوشة، بعضها تحرك بشكل أسرع من الآخرين،

25- عن المؤرخ بلوطرقس.

والبعض الآخر لم يتحرك على الإطلاق لأن ضباطها فشلوا في تلقي أو إعطاء أوامر لمتابعة الاتجاه العام نحو اليسار. هذه الحركة الجانبية غير المنسقة تركت الخط الأمامي للجيش الفارسي غير متناسق ومكتظاً. رأى بيسوس الجنرال المسؤول عن الجناح الأيسر للجيش الفارسي، وهو حاكم بختاريا أيضاً، أن عدم استقرار تشكيلاته يزداد بسرعة وأن جناح الإسكندر المتقدم سيجتاز قريباً «مضمار سباق الخيول»، الذي تمّ تسويته خصيصاً ليكون مناسباً لهجوم العربات. وبدأ عامل آخر يفعل فعله. كان الرجال والخيول مستيقظين طوال الليل؛ وكانوا متعبين من الحر. قرر بيسوس أنه يجب أن يهاجم ما دامت الخيول لا تزال نشطة نسبياً. لم يكن هناك شيء يمكن كسبه عن طريق الانتظار. تمّ إصدار أوامره إلى سلاح الفرسان الباختياري والسكتياني المحمي بشدة بالدروع بمهاجمة تشكيل الإسكندر المتحرك ووقف حركته نحو الجهة اليمنى.

ارتفعت أصوات النداء لشنّ الهجوم. تردد صوت البوق واندفع الفرسان الذين يقودهم بيسوس بدروعهم الثقيلة إلى الأمام، مثل جدار عملاق، كان هناك عشرة آلاف منهم. جاء هجومهم سريعاً وشديداً وعانت الوحدات اليونانية المتقدمة بشدة. قام مينيداس، فوراً باتباع خطوات خطته التي كان قد أعدّها مسبقاً، فقام بإحضار سلاح الفرسان المرافق له على الفور وجعله يتقدم لمواجهة الهجوم ومنع إبادة جناح جيشه. كان بالإمكان سماع أصوات الاشتباك بين الخيالة، وقيامهم بتحطيم بعضهم البعض وهم يشتبكون وجهاً لوجه، عبر ميدان المعركة بأكمله. أُلقِي العديد من الفرسان اليونانيين عن ظهور خيولهم واستمروا في قتالهم سيراً على الأقدام، وقد رفعوا دروعهم عالياً لحماية أجسادهم بينما شقّوا برماحهم بطون جياد الجيش الفارسي. تمكن السيكيثيون والبختاريون من إلحاق خسائر فادحة في سلاح الفرسان المرافق للملك. لكن الاشتباك بين تشكيلي الفرسان، والذي تحوّل إلى قتال جنوني، فشل في تحقيق نتيجة حاسمة، خاصة بعد انضمام قدامى المحاربين في سلاح

الفرسان من المرتزقة اليونانيين إلى القتال وتمكنهم من صدّ البختاريين. صمدت صفوف قوات الإسكندر التي تعرضت لضربات قوية في وجه الهجوم الفارسي الأولي. الهجوم الثاني من سلاح الفرسان الفارسي لم يكن أفضل حالاً، على الرغم من أن قوات المشاة اليونانية تأثرت بشكل خطير جرّاء هجومهم الأول. وهذا أعطى انطباعاً خاطئاً. صرخ أحدهم: «اليونانيون يفرّون!» وارتفعت الهتافات على طول خط قتال الجيش الفارسي بأكمله. وأطلق داريوش -اعتقاداً منه أنه تمّ كسر شوكة القوات اليونانية- مركباته ذات الحافات المنجلية. فهزت مجموعة ضخمة من المركبات الثقيلة ذات العجلات البرونزية الأرض في ممر العبور.

كان رجال الإسكندر مستعدين لهجوم المركبات الحربية. قام رماتهم، وهم في مواضعهم المتقدمة، بشدّ أقواس السهام وتوتيرها، وأخرجوا السهام من جعبها، ودفعوها بعضلاتهم الفولاذية نحو الأقواس، ممسكين السهم المسحوب بثبات بأيديهم المشدودة، رافعين إبهامهم إلى فكهم أثناء تصويبهم على الهدف، قبل أن يتركوا السهم ينساب من قبضتهم. كانت السهام تتجه إلى الأمام من القوس المرتخي لتجهز على المقاتلين فوراً، في غضون لحظات، كانت تتناثر في السهل أجساد الرجال والحيوانات المتساقطة، ولكن اندفعت نحوهم من الوسط والأعلى موجة أخرى من العربات. تحركت بعض الوحدات الموجودة في قوات مشاة الإسكندر الثابتة إلى الجانب للسماح للعربات التي تهاجم بجنون بالمرور دون عوائق. وبينما كانت العربات تجتاز الممرات التي تمّ تطهيرها، قابلتهم موجة ثانية من السهام والرماح، وغارت عميقاً في أجساد الجياد. تعثرت الخيول التي تجرّ العربات وتعالى صراخها بينما كانت السهام تخترق أجنحتها غير المحمية، كانت جروحها المفتوحة تتعمق مع استمرار الحركة المسعورة، فيما كانت أطقم المنجنيق تطلق قذائفها فوق رؤوسهم. نجح عدد قليل من الطواقم في الفرار، ولكن سرعان ما تمّ تقطيعهم إرباً. ومن دون أن يحدثا أي أضرار ولو بسيطة بالعدو، فشل

هجومان قامت بهما العربات ذات المنجل الدوار. وفي الوقت نفسه، قام أفراد سلاح الفرسان الخفيف الأرتيسي بمهاجمة مقاتلي سلاح الفرسان البختاري والسكيثي، وقد كان العديد منهم قد فقد بالفعل في الصدام الأولي. ومن على ظهور خيولهم النحيفة والأسرع في الحركة، وصلوا مثل سرب من الدبابير الغاضبة ليقوموا بضرباتهم، ثم تراجعوا بسرعة، فقط للهجوم من جانب مختلف. أدى هذا الهجوم المفاجئ إلى تقسيم الجيش الفارسي إلى مجموعات أصغر. طعنت رماحهم فرسان الجيش الفارسي، واخترقت سيوفهم الدروع الجلدية والمعدنية، وغرزوا سكاكينهم في اللحم الحي.

كانت الكارثة على وشك أن تحل بالبختاريين والسكيثيين. وبعث بيسوس حاكم بختاريا، نداء عاجلاً إلى داريوش طلباً للمساعدة. لم يلق التماسه للحصول على المساعدة إلّا آذاناً صماء، نظراً لأن انتباه داريوش تحول الآن من جناحه الأيسر المضطرب إلى جناحه الأيمن، حيث دفع قائد جناحه، مازايوس، بكل أفراد احتياطي سلاح الفرسان في هجوم ضخم ضد الجناح الأيسر للإسكندر: تقدم ثلاثون ألف فارس، بدعم من سبعين ألف مقاتل من المشاة، إلى الأمام على صوت الطبول والأبواق. ولمنع هذا الحشد الضخم من سحق جناحه وتعريض جيش الإسكندر للإبادة، قام القائد بارمينيو بنشر عشرة آلاف فرد من جنود الهوبليت وألفي مقاتل من سلاح الفرسان. أسفرت المرحلة الأولى من الهجوم الفارسي عن هرج اختلطت فيه صرخات المقاتلين مع أصوات أبواق الحرب وعويل الخيول.

بينما حاول بارمينيو صدّ الحشود التي هاجمته، كان كل ما يجري في جناح الإسكندر يسير وفقاً للخطة المرسومة. شاهد الملك من نقطة مراقبته ذات الموقع المتميز، عناصر الجيش الفارسي التي في المقدمة تتبع تقدمه بشكل متزامن؛ وهذا جعل رجال بيسوس يكونون خلف قطعة الأرض التي أُعدت خصيصاً لهجوم العربات. كان ذلك مفترق طرق

حرج في المعركة. أصبح جناحا جيش الإسكندر نظراً لحركتهما الجانبية التي تشبه حركة السلطعون معرضين بشكل خطير لهجوم من سلاح الفرسان. أصبح بإمكان داريوش أن يطلق قوى الجحيم، وكان الإسكندر يعرف ذلك. فحبس أنفاسه، ودرس عن كثب وضع ذلك الحشد الضخم من الخيالة وهو يتحرك في جميع أنحاء ميدان القتال، وكان على استعداد لضرب جناحيه. لكن داريوش فشل في التحرك. حينها ضاعت فرصته.

لم يكن الإسكندر قائداً عظيماً فحسب، بل كان أيضاً دارساً متعمقاً لأساليب القتال. في معركة ليوكترا التي جرت في عام 371 ق.م، استخدم أبامينونداس وهو قائد إغريقي من طيبة تكتيكاً ثورياً لكتائب المشاة لاختراق جيش أسبرطة. واتبع تعاليم زينوفون: «القائد الحكيم يهاجم عندما يكون العدو في أضعف حالاته»، قام إبامينونداس بتنظيم جنوده المشاة على شكل كتائب متدرجة في العمق واستخدمها كقوة ضاربة مثلثة الشكل. ومن خلال تثبيت أحد أجنحته والتقدم نحو جيش أسبرطة بزاوية منحرفة، تمكن من سحق الجناح الأيمن لعدوه. وبهذا سارت الأحداث في معركة غوغاميلا مشابهة لمعركة ليوكترا ولكن على نطاق واسع لا حدود له.

كان هذا المقدوني البالغ من العمر 25 عاماً يمتلك نظرة عسكرية ثاقبة لم يمتلكها قائد عسكري حتى مجيء نابليون وخوضه معركة أوستريليتز (1805). وبامتلاكه نظرة ثاقبة وحدس عجيب في معرفة التوقيت المناسب، اكتشف الإسكندر نقطة ضعف عدوه. كانت لحظة توجيهه ضربة حاسمة قريبة. وسط ثقة الإسكندر بقوته التي لا تقهر، اندفع مع تشكيلاته المتقدمة؛ لقد عرّض نفسه لوابل من السهام القاتلة التي أطلقها الرماة البختاريون، لكنه تمكن من تحويل انتباه بيسوس. قام بتجميع كل من هو متواجد من جنود الهوبليت من الوحدات الأربع المتقدمة من السبيرايس (وحدة عسكرية يونانية يصطف فيها ستة عشر رجلاً في الأمام بشكل أفقي وبالعدد نفسه عمودياً) وشكّل منهم كتيبة مشاة تملك ثلاثة

أضعاف قوتها الطبيعية. في غضون دقائق، تمّ تحويل صف القوات إلى إسفين مثلث الشكل. للحصول على طاقة إضافية، تمّ تعزيز هذا الإسفين بوحدات تمّ سحبها من مرتزقة كلياندر، والتي كانت معروفة بضراوتها في القتال. صدر أمر إلى القائد فيلوتاس لاستخدام سلاح الفرسان المرافق له لكي يحجب الإسفين عن أي هجوم يُشَنُّ من الجناح. تمّ تحديد كل شيء. ألقى الملك اليوناني نظرة أخيرة على مركز قوات داريوش. كانت لا تزال ثابتة في موقعها الأصلي لأنها فشلت في متابعة الحركة الجانبية لجناحها الأيسر. وقد فتح التحول الجانبي غير المنسق ثغرة خطيرة في الجناح الأيسر لداريوش، دافعت عنها كتيبة صغيرة من القوات الاحتياطية للجيش الفارسي.

أصدر الإسكندر أوامره بصوت عال، لكن لم يكن هناك أي داعٍ للصراخ فقد بدأت الأرض نفسها تعوي والأبـواق تدوي والرجالُ يصرخون. توجب عليه استخدام إشارات اليد لجعل قوته الضاربة تتحرك إلى الأمام، سيراً على الأقدام في البداية، ثم تهرول بعدها. توجه الإسكندر مباشرة نحو الثغرة. لم يستطع أن يفهم السبب في أن داريوش لم يقم حتى الآن بتحريك سلاح الفرسان القوي لسدّها. لم يكن يعلم أن الفرسان الفرس انخرطوا بشكل كامل في القتال ضد جناح بارمينيو. سرى صوت على طول كتائب المشاة حينما حمل أفرادها رماحهم الطويلة بطريقة صحيحة، وأصبح صوت الأبواق غاضباً أكثر من أي وقت مضى. تحولت الهرولة إلى ركض كلما اندفع الهجوم إلى الأمام. تتوجت المناورة الجريئة للإسكندر، النابعة من شجاعته الشخصية، بالنجاح الفوري. حدث هجوم بواسطة يطلق عليها اسم الكبش[26] لا يمكن صدّه بسبب قذائفها ذات الرؤوس الفولاذية ورجال يرفعون أصواتهم بصرختهم المخيفة «Alalai, alalai هولا هولا» وتم اختراق خط قتال الجيش الفارسي وتكبد خسائر فظيعة. كانت كل ضربة تقابلها ضربة ويتمّ

26- آلة حربية كان يستخدمها القدماء لدكّ أسوار المدن المحاصرة. المترجم.

الرد على كل طعنة بطعنة مماثلة، سار الإسفين المثلث الشكل بخطى متناسقة على سجادة من الجثث. لقد أمسكوا بخناق الفرس من الأمام ومن الجانبين.

لم يكن هناك شيء في الشخص الذي يقف منتصباً في عربته يشير إلى أنه ملك. تجمد داريوش عاجزاً عن فعل شيء، حيث كان الرجال يصرخون ويهربون من أمام جنود المشاة الهوبليت اليونانيين. ولحق بذلك التشكيل الإسفيني الرهيب عدد كبير من أفراد الحرس الملكي اليوناني وهم يجمعون أفراد الوحدات الفارسية الفارين ويتوجهون بهم نحو الوسط، مما جعلهم يرتبكون بشكل مثير للشفقة، بينما كان يقوم سلاح الفرسان المقدوني بتوجيه ضربات بسرعة خطيرة نحو جناحه المتفكك. شقّت الرماح المقدونية طريقها عبر الجيش الفارسي، وقسمته إلى قسمين منفصلين. فجأة، تحركت الكتائب اليونانية لتتوجه مباشرة إلى موقع داريوش، والذي أمكن التعرف عليه بوضوح من خلال رايته الحريرية. اقتحم أحد الكلياندارين الأبطال، وكان رجلاً عملاقاً، الطوق الذي أقامه المحاربون من الحرس الملكي الفارسي لحماية شخص الإمبراطور. وبضربة قوية من سيفه، قام بشق رأس محارب كان يكسوه الفولاذ قبل أن يجلس على صدر الرجل الميت، والذي كان يتنفس بصعوبة. عندما رفع عينيه، التقتا بداريوش. كان خد المرتزق اليوناني مفتوحاً حتى العظم واختلط دمه بدماء عدوّه الميت. بالنسبة لداريوش فإن هذا المشهد لعملية ذبح خالصة، حدثت مباشرة أمام مركبته، كان أسوأ بكثير من المعركة نفسها، وجعله يدرك فجأة الهزيمة المحتملة، وهو أمر لم يكن يتوقعه أبداً. ومع ذلك، كان لا يزال يملك قوات يبلغ تعدادها عشرة أضعاف عدد قوات خصمه، وهو ما يكفي لعكس الوضع لصالحه.

ولأن الأمور لم تكن تسير على ما يرام بالنسبة لبارمينيو الذي كان على الجناح الأيسر لليونانيين. فقد كان أول مؤشر له على خطورة الوضع عندما بدأت الأرض تهتز. ثم تبعها صوت وقع حوافر الخيل، كان هناك

طوفان من الفرسان على مدّ البصر، خرجوا من أجل نيل شرف القتال، جاؤوا جميعاً بشكل مباشر نحو صفوف قواتهم الصغيرة لينتصروا في ذلك اليوم! في الليلة السابقة كان الإسكندر قد أخذ كل شيء في الاعتبار، لكنه لم يعتقد أن مازايوس سيركز كامل احتياطي سلاح الفرسان للقيام بضربة واحدة. كان تحت تصرف بارمينيو بضعة أسراب من سلاح الفرسان اليوناني الحليف تحت قيادة كويرانوس، وعند زاوية الجناح كان هناك جدار صدّ صلب من المرتزقة تحت قيادة أندروماخوس.

صدر الأمر إلى مازايوس قائد الجناح الأيمن في الجيش الفارسي بالبقاء في مواضعه حتى صدور الأمر الإمبراطوري بالتقدم. وقد سبق له أن علم بالكارثة التي حلّت بالجناح الأيسر. رأى الفرصة مواتية للقيام بضربة ساحقة في اللحظة التي فصل فيها الإسكندر جناحه الأيمن المتحرك عن الأيسر. وقد أدى ذلك إلى حدوث ثغرة في قلب الجيش اليوناني، وقرر مازيوس، سواء جاءه الأمر الإمبراطوري أم لا، القيام بضربته. ووجه حشد فرسانه الضخم بالتوجه مباشرة نحو الثغرة. وسط الصراخ، ركض ثلاثون ألف مقاتل من البارثيين والميديانيين والكابادوكيين والأرمن بسرعة للوصول إلى الفسحة التي تفصل سلاح الفرسان الثيسالي وحماة الجناح اليوناني. بدت الموجة الهائلة من الفرسان وكأنها سحابة من الأوراق الغامقة دفعها نسيم قوي عبر أحد الحقول. لم يجيئوا في صفوف مرتبة بشكل جيد، ولكن مع رماحهم التي كانت تميل نحو أي اتجاه بشكل عشوائي. صدّت مجموعة من الرماح والسهام الموجة الأولى من الغوغاء الذين كانوا يصرخون. وللحظة من الزمن، جعلت الصفوف الأمامية تدخل في ارتباك مذهل، في حين أن مقاتلي الصفوف الخلفية -الذين كانوا مأخوذين بقوة اندفاع خيولهم التي لا يمكن السيطرة عليها- قد قفزوا فوق الجنود المتساقطين وقتلوا أولئك الذين توقفوا. تعثرت الخيول، وانكسرت رقابها ورقاب من كان يمتطيها. اندفعت الخيول التي لم تعد تحمل أحداً على ظهرها عبر الأمواج القادمة؛ وقع المزيد من الفرسان

وداستهم الخيول على الفور حتى الموت. حدث كل هذا قبل وصول أول ألف مقاتل إلى الكتائب اليونانية. كانت الصدمة فورية، إذ لم يكن بالإمكان تصور تلك المذبحة؛ تمّ ذبح الرماة من جزيرة كريت إلى آخر رجل، ثم تلاشت ببساطة حماية الجناح المكونة من المقاتلين التراقيين.

لقد خسر بارمينيو أفضل مقاتليه، بل وجهت له الاتهامات بأنه كان بطيء الحركة وغير متماسك في هذه المعركة. وسواء أضعف العمر شجاعته أو كان يكره ويحسد خفية عظمة الإسكندر المتنامية، فقد أمر بالانسحاب[27]. ووسط تعرض جناحه لخطر الانهيار الوشيك، أرسل بارمينيو فارساً مبعوثاً منه إلى الإسكندر، طالباً إرسال تعزيزات له. في هذه الأثناء كان يحافظ على ما تبقى له من مقاتلين. لم يكن يتمكن سوى من الصلاة؛ إذا منحه الإله زيوس الوقت للقيام بذلك. تمّ الطلب من الخدم والطهاة أن يلتقطوا رماح المقاتلين الذين سقطوا في أرض المعركة وأن يملؤوا الثغرات في جدار الصدّ. كان مقاتلوه يتعرضون للضرب والدوس تحت حوافر خيول مقاتلي سلاح الفرسان الفارسي. أما قواتهم من المشاة فكانت على بعد ثمانمائة ياردة وكانت تأتي بسرعة، كان هناك الآلاف من المقاتلين الفرس الذين يهجمون وهم يصرخون وسرعان ما ازداد عددهم كثيراً.

بينما كان جناح الإسكندر الأيمن يتعرض للضرب عند الجانب الأيسر من جيش داريوش، كان جناح بارمينيو يقاتل من أجل البقاء. بالنسبة لليونانيين، كان الوضع حرجاً، إن لم يكن ميؤوساً منه. لم يعد بالإمكان إيقاف حشود الأعداد الطاغية من الفرس. هجمة أخرى وستكون الكارثة كاملة. ما تحتاجه حشود الفرس الآن هو أن يأخذ إمبراطورهم زمام المبادرة، ويكون لهم نموذجاً مميزاً ويقود قواته الاحتياطية من الجبهة إلى أرض المعركة. لكن داريوش لم يكن الإسكندر. لقد بقي في عربته ولم يفعل شيئاً!

27- عن المؤرخ كاليسثينيس.

وقريباً سيواجه رجال بارمينيو هجوماً جبهوياً[28] من موجات قوات المشاة المتقدمة. لذلك توجب عليهم منع تدفق الخيالة والانتشار وراء جناح الإسكندر وبالتالي إبادة الجيش اليوناني. اتخذ بارمينيو قراراً سريعاً، والذي أثبت أنه القرار الصحيح. فبدلاً من مواجهة هجوم المشاة، قام بتحشيد المقاتلين التراقيين بقيادة سيتاكليس، وطلب منهم القيام بالتفاف بمقدار 180 درجة وشنّ هجوم مضاد على سلاح الفرسان الفارسي. ودعا حراس الأمتعة من التراقيين إلى الانضمام إلى هذا الهجوم. هذه المناورة غير التقليدية فاجأت فرسان الجيش الفارسي تماماً. فقد رأوا أنفسهم يتعرضون للهجوم من كلا الجانبين بشكل مفاجئ، مقاتلون تراقيون أمامهم وخلفهم. جعل بارمينيو صفه القتالي الجديد يتموضع في معسكر أمتعة الجيش، والذي بسبب أكوام المعدات والقش التي يحتويها يمنع أي ممرّ للخيول، تمكن من تثبيت جدار صدّ صلب من الحراب، التي تشبه الأشواك في حيوان النيص. انضم حصانه الفارسالي[29] إلى مشاة تراقيا وحارب ببسالة لصدّ موجات الهجمات الفارسية «... أما قادة القوات اليونانية التي تشكل الاحتياطي لكتيبة المشاة الأولى، فقد علموا بما حدث، فاستداروا بصورة منظمة نحو الاتجاه المعاكس، وفقاً للأوامر السابقة، وهكذا ظهروا في مؤخرة سلاح الفرسان الفارسي وقتلوا أعداداً كبيرة منهم...»[30]. تمّ إيقاف حركة الخيالة على الجناحين مؤقتاً، ولكن كانت لا تزال هناك أزمة وشيكة، كانت هناك حشود ضخمة من المشاة الفرس تقترب بسرعة.

في ذروة المعركة، ومع تدفق قوات المشاة الاحتياطية لدعم الجناح

28- هو نوع من التكتيكات العسكرية التي تعتمد على مهاجمة مقدمة قوات العدو بطريقة مباشرة. ونظراً لأن القوات المهاجمة في وضع الهجوم الجبهوي ستواجه أقصى مقاومة دفاعية للعدو فإن الهجمات الجبهوية عادة ما تكون آخر الخيارات التكتيكية التي يتخذها القادة في المعارك. المترجم.

29- نسبة إلى بلدة فارسالا اليونانية. المترجم.

30- عن المؤرخ ديودور الصقلي.

الذي يقوده بارمينيو وجعل النصر في قبضته، أصيب داريوش بالذعر. ربما تمّ دفعه إلى هناك بسبب حادثة بسيطة جرت في حينها. اقترب إسفين كتائب مشاة الإسكندر من موقعه بشكل خطير، وأرسل الرماة، الذين يسير المئات منهم في أعقاب جنود الهوبليت، رشقات من السهام سقطت في الدائرة المحيطة بالحرس الملكي المكلف بحماية داريوش. حدق الإمبراطور وهو غير مصدق في بطن واحد من أفراد الحرس وقد ملأتها فجأة السهام المكسوة بالريش، ومزقت أنسجة بطنه ودفعت أمعاءه إلى الخارج. أما سائق عربته الملكية، وكان يدعى بانوتيس، وهو من قبائل السكوثيين، فقد وضع نفسه أمام إمبراطوره مباشرة لحمايته. فجأة سقطت سهام عديدة عليه، وفصلت نصف وجهه. تدفق الدم من جرح آخر في عنقه ولوث رداء داريوش النظيف. وبينما كان الإمبراطور في وسط معاناته من صدمة ما شاهده للتو، ودون تفكير لثانية واحدة في العواقب، تصرف بشكل متهور، وأنهى بذلك قرنين من الهيمنة الفارسية. فقد أبعد بانوتيس المحتضر عن العربة، وأمسك باللجام وجلد الخيول بالسوط لتتحرك مذعورة، لكنه اكتشف أن عجلات عربته لا تستطيع الحركة فهي متشابكة مع جثث الموتى. قفز على فرس قريب منه وانطلق. كان كل فرد في جيشه يعرف ملكه بمجرد النظر إليه وارتفعت صرخة على طول خط القتال، حتى تحولت إلى هدير ضخم. «داريوش يهرب!»

ألم يكن يدرك وهو يهرب بشخصه المهيب من ميدان المعركة أن نصف جيشه سيحاول إنقاذ نفسه بأي طريقة ممكنة؟ عندما رأى الفرس ممن كانوا على جانبه من الميدان عدد رفاقهم الذين قطعت أوصالهم أو تعرضوا للطعن أو الضرب حتى الموت من أجل إمبراطور تخلى عنهم بطريقة جبانة ليواجهوا مصيرهم بأنفسهم، تخلّوا عن إرادتهم في مواصلة القتال. فقاموا بإلقاء أسلحتهم وابتعدوا عنه. وهكذا، انهار الجناح الأيسر للجيش الفارسي بأكمله. ارتفعت سحابة غبار كثيفة أثارتها الكتلة الهائلة من الهاربين، بحيث لم يعد يمكن تمييز أي شيء بوضوح، وبالتالي فقد

المقدونيون أثر داريوش. وبات ضجيج الصراخ وقرقعة السياط هو من يرشد المتعقبين[31].

لقد أصبح مقاتلو الجناح الأيسر لجيش داريوش عبارة عن رعاع مبتذل يركض للنجاة بجلده بينما قام الفرسان المينيداس بتقطيع أوصال الهاربين التعساء. دخل جناح كامل من الجيش الفارسي في حالة من الفوضى التامة، لكن الإسكندر كان يعوّل على الدعم من بارمينيو لإطلاق حملة المطاردة. لم يكن يعرف أين مكان جنراله في ذلك الوقت؛ ولم يكن لديه أي أخبار عن جناحه الأيسر، ولا إلى أين تتجه قوة المرتزقة التي يقودها أندروماخوس.

في الوقت الذي كانت فيه هذه المعركة في أوجّها، وصلت رسالة عاجلة من بارمينيو إلى الإسكندر. لم يكن لديه وقت ليخسره. في حالة انهيار خط قتال بارمينيو، ستكون هذه هي النهاية. أظهرت اللحظات القليلة التالية برودة أعصاب الإسكندر في اتخاذ القرارات. قام بشد لجام حصانه، وفي خضم رغبته تحقيق انفراجٍ حاسمٍ أصدر أوامره إلى القائد فيلوتاس وسلاح الفرسان المرافق لَه، بالإضافة إلى سلاح الفرسان الثيسالي بالقيام بانسحاب منظم، وقادهم شخصياً لمهاجمة حشود فرسان مازايوس. كان سلاح الفرسان الذي يقوده الإسكندر يضمّ خيرة المقاتلين، والأكثر انضباطاً في ميدان المعركة. كانت أداة تواصل الإسكندر هي إشارات اليد، وبفضل الممر السلس، الذي تمّ شقه بناء على أوامر داريوش ولكنه لم يقصد أبداً منه مهاجمة سلاح الفرسان اليوناني، تمكنت وحدات الإسكندر من النخبة أن تتقدم نحو ميدان القتال، حيث اصطدمت مع جناح الجيش الفارسي. هكذا جرت وقائع أقوى معركة في سلاح الفرسان في التاريخ القديم، وربما في كل العصور[32]. ما إن

31- عن المؤرخ ديودور الصقلي.

32- يمكن مقارنتها فقط مع معركة سهول كتالونيا بين الملكين ثيودوريك وأتيلا (451)، والصراع بين سلاحي الفرسان بقيادة المارشال نيي وأيرل أوكسبريدج في معركة واترلو (1815)، والمواجهة بين النمساويين والبروسيين في معركة كونيغريتس في عام 1866.

مرت اللحظات القليلة الأولى، حتى تمّ إنزال الآلاف من الفرسان عن خيولهم ليتلقوا الطعنات بالرماح ولتدوسهم حوافر الخيول. كان الفرس يقاتلون بشراسة على الرغم من خسائرهم الرهيبة. تمسك بارمينيو بمن تبقى من المقاتلين التراقيين مرة أخرى؛ ورغم أن أعدادهم لم تعد كبيرة ولكن لم يكن هناك شيء يمكن أن يقلل من روحهم القتالية. انسحب الجرحى من فرسان الإسكندر عبر الممرات التي تركها لهم مفتوحة المرتزقة الإغريقيون المتقدمون بقيادة كويرانوس، في حين تحركت الكتيبة الثانية تحت قيادة سيمياس إلى الأمام لسدّ الثغرات. وفي هجمة نفذت ببراعة، فإن كلا الحركتين حشرت الفرسان الفرس جانباً. انتهت المعركة في غضون دقائق، وانتشر الذعر في كل اتجاه بسبب حركة الخيول الهاربة التي كانت تعدو لوحدها بدون فرسانها. مع التهديد الذي كان يشكّله سلاح الفرسان الثيسالي من خلفه، لم يكن أمام مازايوس خيار سوى التراجع، أو مواجهة الإبادة. وكان أول الهاربين هم الكبادوكيين. لم ينتظروا حتى الأمر بالانسحاب؛ فقاموا ببساطة بالاستدارة والانطلاق هاربين. حطمت رماح حملة الدروع من مقاتلي الهيباسبيستاس ما تبقى من سلاح الفرسان الفارسي وحوّلته إلى مجموعات مبعثرة، وسرعان ما بدأت موجة متماسكة من الرجال المدرعين وهم على خيولهم -وقد بدت على شكل حشد غير منظم- بالفرار إلى السهل العظيم الذي وراءها. لم يكن هناك شيء يبدو حقيقياً. لا تزال حشود قوات المشاة الفارسية تتقدم على جناح بارمينيو عندما توقفت فجأة في ارتباك تام. ارتفع صوت يشبه أنين العملاق في جميع أنحاء الميدان. ردد أحد الجنود وهو غير مصدق الصرخة التي علت في الجناح الأيسر. «داريوش يهرب!»

لقد هرب الملك.

بعد أن تخلى إمبراطورهم عنهم، وتحطم سلاح الفرسان في جيشهم، أُصيب جنود المشاة الفرس بنوع من الهستيريا. لقد انهار الجناح الأيمن للجيش الفارسي مثل قلعة من الرمال. وبسرعة مذهلة. تعرضت صفوفه

الأمامية للطعن بالرماح في حين تحطمت الصفوف الخلفية وانسحبت. ظهرت ثغرات كبيرة، امتلأت على الفور بالإغريق الذين كانوا يصرخون وهم يذبحون ويقطعون الأعداء إرباً. انهالت السيوف والهراوات والعصي على مجموعات من الفرس كانت تقوم ببعض أعمال المقاومة الأخيرة. ثم أصبح جيش الإمبراطور حشداً هارباً، يطارده الإغريق بحماسة وسط شهوة الحصول على المجد. في ميدان ملأته وجرفته آلاف العجلات والصنادل تناثرت عشرات الآلاف من الدروع والخوذات والجثث، والكثير منها ارتمت على وجهها وقد مزقتها جروح عميقة من الخلف، ورجال تمّ تقطيع أوصالهم على يد مقاتلي سلاح الفرسان اليونانيين بينما كانوا يحاولون الفرار. لقد قبض عليهم الموت بطرق عديدة، فمنهم من واجه العدو ببطولة ومنهم من فرّ بشكل مخزٍ. كان من المستحيل حتى تخمين الخسائر التي تكبدها الفرس.

وحينها انتهى كل شيء. وانتصر الإسكندر الذي ترجل من حصانه. تحول الشدّ في عضلاته إلى خدر. رأى بارمينيو، وهو يشق طريقه عبر الميدان من الموضع الذي تجمع فيه الفرسان المتحالفون مع الإغريق بقيادة كويرانوس. بدؤوا بتقييم وضعهم. كانت هيئة بارمينيو في حالة من الفوضى، فقد مال درعه وانبعجت خوذته. ولم يكن وجهه يعد بأي أخبار مبهجة. «لقد فقدنا أغاثو وسيتاكليس، لقد رحلا كلاهما». رحل اثنان من أفضل الضباط الفرسان لديه؛ ويا ترى كم رحل من رجالهم؟

أصدر الإسكندر أمرين آخرين: مطاردة الفرس الفارين إلى أربيلا وإلحاق ضرر كبير بالطريق، حتى لا يتمكنوا من العودة؛ وقتل نابشي البشر الذين كانوا يتنقلون في ميدان الموت لتجريد الذين سقطوا من ملابسهم وأشيائهم، وهو ما كانوا يفعلوه بعد كل معركة، بغضّ النظر عن نتائجها. وكانت وصيته «دعوا الموتى بسلام!» انطلق أفراد سلاح الفرسان اليوناني إلى الأمام وفعلوا ما أمرهم الإسكندر به.

جلس الإسكندر على ربوة بجانب صديقه هيفاستيون، كانا شخصيتين

معزولتين عن ميدان الذبح. وقال هيفاستيون «انظر هناك»، مشيراً إلى سلسلة من الأفراد وهم يتعثرون عبر الأرض المليئة بالجثث. تحركت تلك الأشكال الآدمية حول الوحدات التي لم يعد من الممكن تمييز أفواجها من ألوان راياتها. كان هناك لون واحد فقط – اللون الأحمر لون الدم[33]. بدأ الإسكندر يحدق بصمت. في ميدان القتل المليء بالدماء الممتد أمامه، وفي الدروع المصقولة للرجال الذين سقطوا في أرض المعركة وهي تتلألأ وسط أشعة الشمس الغاربة، وفي مئات العربات، التي تمّ الاستيلاء عليها بمساعدة أثينا. كان الحاضر الفوري أكثر واقعية من أي ذكريات يحملها عن اليونان البعيدة وما حققه نصره لبلاده. لم يكن بإمكانه أن يتخيل أن نصراً واحداً يمكن أن تنتج عنه عواقب بعيدة المدى على الرجل الذي أحرزه.

أصبح الإسكندر المقدوني حينها حاكماً للعالم.

قام داريوش بجلد خيوله بالسوط طوال الليل للوصول إلى معسكره في أربيلا، الذي يقع على بعد خمسة وسبعين ميلاً، وعندما لم تعد خيوله تستطيع الحركة، أجبر حراسه الشخصيين على وضع خيولهم أمام عربته. كان الإسكندر ومجموعة من خمسمائة مقاتل من سلاح الفرسان المرافق له يطاردونه. لقد اندفعوا مضحين بأنفسهم وخيولهم إلى أن سقط الكثير منهم موتى، الخيول من الإرهاق والرجال من الجروح التي تلقوها خلال المعركة نفسها، بعض منهم نزف حتى الموت وهو على سرج حصانه. لم يسمح الإسكندر ورجاله لملك الفرس أن يرتاح هنيهة. كادوا يمسكون به في مدينة إكباتانا (همدان)، حين وجدوا أن الرماد ما زال يتوهج في نار مخيمه. كان عدد أفراد مجموعة الإسكندر يصل إلى ستين رجلاً. وقد

33– كما هو الحال مع الأرقام التي ذكرت عن عدد الأفراد المشاركين، فإن أرقام الضحايا لم تكن مؤكدة. فالمؤرخ أريانوس يذكر أن عدد قتلى الفرس كان ثلاثمائة ألف، فيما يشير كورتيوس إلى أربعين ألفاً والمؤرخ ديودور الصقلي إلى تسعين ألفاً. وبالمقابل، فإن خسائر جيش الإسكندر كانت تتراوح بين مائة إلى خمسمائة.

عرضهم لخطر جسيم حيث قادتهم المطاردة إلى عمق أراضي العدو. استمرت هذه المطاردة أحد عشر يوماً.

أخيراً، وصل الإسكندر ولكن بعد فوات الأوان. كان هناك شخص آخر قد أمسك بالملك المفزوع وهو بيسوس حاكم بختاريا. اندلع جدال حام بينهما اتهم فيها حاكم بختاريا الملك الجبان بأنه أرسل أبناء بلده بلا داع إلى حتفهم، ثم تخلى عنهم ليواجهوا مصيرهم بأنفسهم. وهكذا، عندما دخل الإسكندر خيمة الإمبراطور داريوش الثالث، وجد آخر الحكام الفرس ميتاً على الأرض، وقد انفصل رأسه عن جسده بضربة من سيف حاكم بختاريا[34].

قام الملك الإسكندر، الذي قهر داريوش في ميدان المعركة وأصبح ملكاً على آسيا، بتقديم القرابين في معبد أثينا في مدينة ليندوس لأن نبوءة العراف قد تحققت[35].

وحدث بعد ذلك أن الإسكندر المقدوني، ابن فيليب الذي خرج من أرض كتيم [اليونان]، وقتل داريوش ملك الفرس والميديين، وحدث بعد أن هزمه، أنه أصبح يحكم بدلاً منه، وبعد أن كان يحكم في الماضي اليونان. خاض معارك كثيرة، وسيطر على العديد من المواقع (من كتاب سفر المكابيين الأول)[36].

كانت العبقرية العسكرية للإسكندر ذات شقين: فقد تطابقت مواهبه التنظيمية مع براعته العسكرية. وكان يقول: «إن جنود الهيلوتس (العبيد) المسلحين تسليحاً خفيفاً يمثلون أذرع الجيش، وسلاح الفرسان يمثل

34- عندما عثر الإسكندر على بيسوس أمر بإعدامه.

35- هناك تمثال منقوش عليه رأس ثور، وهو الذي وضعه الإسكندر بنفسه في معبد رودس تكريماً للإلهة أثينا المصدر: F. Jacoby, Die Fragmente der griechischen Historiker, Berlin, 1923.

36- سفر المكابيين يصف مآثر الإخوة المكابيين الثلاثة: يهوذا ويوناثان وشمعون. ويُعتبر هذا السفر مع كتابات يوسيفوس أهم مصادر تاريخ هذه الفترة المملوءة بالأحداث من التاريخ اليهودي. المترجم.

أرجله، وجنود الهوبليت يمثلون الصدر والدروع، والقائد هو الرأس»[37]. ولا يمكن مقارنته بأحد من ناحية موهبته التنظيمية. ولكونه شخصاً بارعاً في أمور الإدارة كان يحتفظ دائماً باحتياطي كافٍ من القوات لتحقيق النصر. كان يبتكر الخطط القتالية بشكل غير معقول ولم يكن بالإمكان التنبؤ بها. وكقائد استراتيجي فقد حقق النصر من خلال عدم تكراره لأية مناورة تكتيكية قام بها. وأثناء غزواته كان يتحرك بسرعة تحير العقل. (في عام 1991، وباستخدام آلاف الطائرات، استغرق الأمر من قوات التحالف الذي ترعاه الولايات المتحدة ثمانية أشهر لبدء عملية عاصفة الصحراء من أجل تحقيق النصر على بلد واحد فقط). إن ما حققه الإسكندر لا يصدقه العقل حقاً فقد استطاع في غضون فترة قصيرة لم تتجاوز عشر سنوات من غزو العالم، وأنجز ذلك في قتال على الأرض فقط.

وكرجل سعى إلى المجد من خلال الفتوحات، أمر ببناء المدن وأسكن فيها التجار والفنانين[38]. وكان مثل هؤلاء الأشخاص ينقلون من آسيا إلى أوروبا، والعكس بالعكس. وبالتالي، كان ينوي أن تجتمع شعوب عالمه وتندمج بسلام. من بين أعظم مشاريعه، وكان أكبرها بلا شك هو مكتبة الإسكندرية، المصدر العالمي لكل صنوف الحكمة. لم يكن الإسكندر شخصاً مثالياً – فقد تحدث رفاقه المقربون بصراحة عن جلسات تناوله الخمر الخاصة[39].وكانوا يقولون عنه «يا الله، إنه أفضل رجل يصاحبه المرء على مائدة الشراب». وكانت تقام مسابقات لشرب الكحول حيث يتوفى الفائز أحياناً بسبب تناوله الكثير من الكحول. كان هناك شك أيضاً في أنه هو نفسه توفي بعد أن شرب كثيراً مع رفاقه. «تمت دعوته بإلحاح للذهاب إلى أحد الأصدقاء، وهو ميدوس ابن مدينة لاريسا، من أجل وليمة، وهناك، بعد أن ملأ بطنه بالكثير من النبيذ، صرخ فجأةً بصوت عالٍ

37- من كلمات الإسكندر وذكرها القائد العسكري أفوقراطس.

38- عن المؤرخ ديودور الصقلي من ملاحظات المؤرخ هيرونيموس الكاردي.

39- عن المؤرخ فلوطرخس من كتابه الأخلاق نقلاً عن الملك أريستوبولس.

وظل يتأوه ويتأوه، ثم أمسك به أصدقاؤه وحملوه بأيديهم ووضعوه في الفراش»[40].

من المألوف، عند دراسة الدوافع التي تحرك عمالقة التاريخ هولاء، الإيحاء بأنهم كانوا يميلون إلى الشذوذ الجنسي، إلى حدّ أن أفعالهم جميعاً يتمّ تفسيرها استناداً إلى المشاعر التي ولدتها هذه الميول. قبل وقت قصير من وفاة الإسكندر، تمّ العثور على هيفاستيون، صديقه الأقرب، ميتاً في خيمة الإسكندر بعد أمسية احتفالية تمّ فيها تناول الكثير من المشروبات (تشرين الأول سنة 324 ق.م). في ليلة وفاة هيفاستيون، كان الإسكندر يعاني من كابوس. وظهر له شبح ملفوفٌ بملاءة وتوجه نحوه، كان يشبه أولئك المجذومين الذين كانوا يصطفون على طول طريق جيشه ويتوسلون أن يعطيهم الصدقات، أو يصبون اللعنات على المارة متوعدينهم بسوء الحظ. أفاق الإسكندر من سكرته، وعندما رأى كيف كان هيفاستيون ممدداً هناك، تبدد شحوبه. لم يستطع تحمل فكرة موت أفضل صديق له. شيء ما انكسر في قلبه. بعد مرور عدة قرون، زعمت ألسنة شريرة أن الإسكندر قد قتل صديقه في لحظة غيرة مجنونة. لا يوجد أي أساس لهذا الاعتقاد. ربما يكون منغمساً في العلاقات الجنسية المثلية، كما كانت العادة على مرّ العصور في أجواء المشاعر الرجولية الطاغية حيث يكون الرجال مستعدين للقتال وعلى استعداد للموت، لكن الإسكندر كان يصطحب معه أيضاً موكباً متنقلاً من الحريم فيه العديد من الفتيات الجميلات. وثم كانت هناك زوجته، روكسانا الأميرة البختارية، والتي تزوجته عن حب وليس لأسباب سياسية. ومهما كانت ميوله الجنسية، فلم يكن لها تأثير على معاركه أو سياساته.

أصبح الإسكندر ملك الملوك أول موحِّد حقيقي للعديد من الأمم من أعراق عديدة. في عام 324 ق.م أقام مأدبة فخمة في مدينة شوشان الفارسية، شرب خلالها المقدونيون والفرس من الكأس نفسه، وتزوج

40- عن المؤرخ ديودور الصقلي.

عشرة آلاف من رجاله من نساء فارسيات. وأمام حشد من الضيوف المدعوين، الذين تجمعوا من كل ركن من أركان إمبراطوريته، قام الملك بالصلاة من أجل السلام العالمي، «وأن يكون جميع مواطنيها شركاء متساوين في اتحاد عظيم فلنعِش معاً في وئام في ظل وحدة القلب والعقل». لم يكن بالإمكان تحقيق هذا الحلم ولو بشكل مؤقت لولا أنه كان يمتلك رغبة عارمة لتوحيد تلك الشعوب.

كان للإسكندر دور فعال في إزالة الحواجز بين الشرق والغرب. أصبحت إمبراطوريته مكان التقاء العالم. امتدت الثقافة اليونانية إلى روما وأثـرّت على مستقبل أوروبـا إلى حدّ بعيد أكثر من أي وقت مضى. استمر إرثه على يد أربعة من جنرالاته - بطليموس، وسلوقس، وأنتيغونوس وليسماتشوس، والمعروفين باسم الديادوتشي (الخلفاء)، وقد أسسوا جميعاً ممالك لهم: بطليموس في مصر، والسلوقيين في آسيا، وأنتيغونيديس في مقدونيا ومملكة أسوكا في الهند[41]. على الرغم من وفاته المبكرة وظهور قوة عالمية أخرى، هي روما، فقد استمر إرث الإسكندر حياً. وبجّله الإمبراطور أوغسطس واعتبره الملك الإله؛ وحمل رسماً لذلك المقدوني على ختمه الإمبراطوري وأمر بأن يُطلق على الإسكندر المقدوني لقب الإسكندر (ماغنوس) أي الكبير.

كان الإسكندر بالفعل إلهاً حياً[42]. بحلول عام 333 ق.م، كرّمته المدن الأيونية بإقامة الأضرحة وذبح القرابين، ومنحته الشرف الإلهي كمحرّر لها من نير الفرس. في ربيع عام 323 ق.م، أرسلت مجموعة من الدول اليونانية سفراءها في مهمة مقدسة إلى بابل. ركعوا أمام الملك الشاب وقدموا له التاج الذهبي باعتباره ملكاً على اليونان ومقدونيا.

كان الإسكندر يتذكر طوال حياته، قصة رواها له المعلم الكبير

41- كان أسوكا (293-236 ق.م) آخر حكام الإمبراطورية الماورية وقد اشترك أيضاً في تأسيس مملكة أسوكا.

42- عن المؤرخ هيسبيريدس.

أفلاطون، عندما سأل الفيلسوف: «من هو أسعد رجل في العالم؟»، وكان يتوقع أن يسمعه يقول: «أنت أيها الأمير الشاب». لكن الرجل أجابه: «إنه تيلوس من أثينا. كان يعيش في مدينة مزدهرة، وكان له أبناء شجعان، وعاصر جميع أطفالهم وقد عاشوا متنعمين وأصحاء. في إحدى المعارك، أجبر عدونا على التراجع ومات ميتة الأبطال. دفنته أثينا ومازالت تكرمه كثيراً. لذلك، كما ترى يا أميري، كان رجلاً سعيداً». ثم أضاف أفلاطون: «لا يمكنك أبداً معرفة ما إذا كنت سعيداً إلّا عند موتك. أن يحوز رجل واحد على كل شيء، مما يؤدي إلى السعادة القصوى، لهو أمر مستحيل. الشيء نفسه ينطبق على البلد، والأمة. في كل عمل تقوم به يجب أن تراه دائماً حتى النهاية». كانت رمزية قصة هذا الأسعد من الرجال تتناسب مع عالم الإسكندر. كان يمكن أن يكون حالماً، لم يتوقف أبداً، على سبيل المثال، في سعيه للعثور على أعمدة هرقل الغامضة[43]. لقد كان يؤمن بالمعجزات والنبوءات، والعجائب والطوالع، ولذلك كان يعتقد أن الآلهة كشفت عن نفسها للإنسان الزائل بطرق كثيرة وفيرة. عندما كان يحتضر، ردّد الإسكندر على شفتيه عبارة خالدة للملك أوديب: «في جميع الإشارات التي أرسلتها الآلهة لي، فإنها لم تخدعني أبداً».

في 13 حزيران سنة 323 ق.م، توفي الإسكندر المقدوني الذي فتح العالم وهو في الثالثة والثلاثين من العمر، كان أعظم محارب في التاريخ، لم يهزم أبداً في معركة، وقع ضحية لعدو غير مرئي. فقد نقلت لدغة بعوض إلى جسمه طفيلي يعتاش على الدم تسبب في إصابته بحمى غير قابلة للشفاء سماها الرومان ملاريا (وتعني هواء فاسد). دفن الملك في المدينة التي لا تزال تحمل اسمه، الإسكندرية.

مات ذلك الإنسان، لكن إيمانه الأبدي بعقيدة تجمع جميع البشر لم يمت أبداً. ولا تزال هذه العقيدة هي الحلم المستحيل للبشرية.

43- هو الاسم الذي أطلقه الرومان على مضيق جبل طارق. المترجم.

«الرب هو الأب المشترك للجميع، لكنه يصنع أفضل الأشياء بطريقة خاصة به»[44].

من الناحية التكتيكية، كانت معركة غوغاميلا مغامرة رائعة ناجحة. فمهاجمة قوة متفوقة كثيراً في العدة والعدد بالانقضاض المائل عليها كان يتطلب العبقرية والجرأة.

ولا يقلل بأي حال من الأحوال الخطة الرائعة لذلك المقدوني كون مفتاح انتصاره الضخم كان يكمن في اللحظة التي أصيب فيها الإمبراطور الفارسي بالذعر وفرّ من الميدان. كان داريوش الثالث يفتقر إلى الشجاعة الجسدية؛ كان رجلاً مهووساً بسلامته الشخصية وأساء استخدام قيادته. في معركة إسوس كان قد هرب مفضّلاً القتال في يوم آخر. وفي معركة غوغاميلا لم يفعل سوى الفرار.

جعل النصر في معركة غوغاميلا من مقدونيا أقوى مملكة على الأرض، وبلاد فارس الأضعف. مع موت داريوش ونهاية الإمبراطورية الفارسية، هتف الجنود اليونانيون لمحبوبهم الإسكندر الذي أصبح «بقوة السيف» ملك الملوك.

لقد غيّرت معركة غوغاميلا خريطة العالم.

44- عن المؤرخ فلوطرخس.

الفصل السابع

هنيبعل عند الأبواب!
معركة كاناي
2 آب عام 216 ق.م

هنيبعل عند الأبواب!
صرخة من أحد الرومان، عام 216 ق.م
«إذا عصينا الآلهة، فسوف تعم الفوضى»
• *فيرجيل، الإنيادة (الكتاب السابع، 312)*

«لا تنسَ أبداً من هم أعداؤنا يا بني». بهذه الكلمات تحدث حملقار برقا[1] -اسم برقا مشتق من كلمة البرق- وهو يرتدي الوشاح الأرجواني للقائد الميداني الكبير، يحيط بذراعه ابنه الصغير.

«ومن هم أعداؤنا يا أبي؟»

«الرومان!»

أحكم الأب قبضة يده على كتف الولد الصغير. «أقسم لي عند هذا المذبح بكل ما هو مقدس عندنا، أنك ستواصل عملي حتى لو لم أعد إلى جانبك لأرشدك، - وأنك ستكره وتحارب الرومان حتى الموت».

كانا يقفان أمام مذبح تقديم القرابين للإله العظيم بعل. تقدم الولد

1- قائد وسياسي قرطاجي. المترجم.

ووضع يده على حجر المذبح البارد؛ لم يستطع إخفاء دموع تأثره في هذه اللحظات المقدسة. «يا أبي، أقسم لك بكل ما هو مقدس لدينا»[2]. طوال حياته لم ينسَ قَسَمه أبداً. كان عليه أن يقضي الخمس والثلاثين سنة القادمة بعيداً عن موطنه الأصلي، وقد قاد جيوشه نحو العظمة. كانت عبقريته العسكرية لا حدود لها، وكانت تكتيكاته متقدمة على زمانها بحيث لا تزال تطبق في المعارك الحديثة. في مواجهة عدو كان يمتلك التفوق العددي، كان عليه أن يكون ذكياً. واعتبر الأمر قتالاً بين نمر (قرطاجة) وفيل (روما). إذا بقي النمر ساكناً، فإن أنياب الفيل ستمزقه بالتأكيد. لكن النمر لن يقف ساكناً، وبعد فترة، سيسقط الفيل ميتاً من الإرهاق. لقد كان شديد الإعجاب بالعبقرية العسكرية للإسكندر المقدوني، تماماً كما حازت مواهبه على إعجاب يوليوس قيصر والذي قام بتقليده. كان محبوباً من قبل قواته، يهابه أعداؤه، وفي النهاية خذله شعبه.

إنه هنيبعل القائد القرطاجي.

مع زوال إمبراطورية الإسكندر الهلنستية، التي نتجت عن وفاته المفاجئة، ظهرت قوتان، وكانت كلتاهما تتنافسان على السيادة على حوض البحر الأبيض المتوسط. كانت إحداهما قوة حديثة النعمة هي روما، والأخرى دولة راسخة لتجار الملاحة البحرية تمتلك من الثروة ما لا يمكن تخيله. عند حوالي سنة 1200 ق.م؛ قبل خمسمائة عام أي قبل أن يستقر اللاجئون من حروب بحر إيجه (حروب طروادة) في مستنقع مليء بالبعوض يمتد على طول نهر التيبر ويقيمون قرية لصيد الأسماك والتي سينطلقون منها لغزو بقية بلدان العالم؛ أنشأ التجار الفينيقيون مركزاً تجارياً على الساحل الشمالي من أفريقيا. أطلقوا عليه اسم المدينة الجديدة، أو قرت-حداشت، أو قرطاج. قام القرطاجيون بحماية طرقهم التجارية من خلال أسطول بحري ضخم. ازدهرت تجارة قرطاج على طول موانئ البحر المتوسط، وكان يتمّ تبادل السلع والأفكار بحرية،

2- روى هنيبعل قصة قسمه هذا في مدينة أفسس في عام 193 ق.م.

وكان كل شيء على ما يرام - حتى بدأت روما في سعيها لتحقيق الهيمنة العالمية. ولأجل هذه الغاية، ركزت روما مجهوداتها بأكملها على بناء جيش يقوم بالفتوحات. خطا قادة روما الخطوة الأولى عند تمكنهم من هزيمة قوة مشتركة من أقوام الأتروسكيين والسامانيين والغال في معركة سنتينوم (295 ق.م) تلك المعركة التي ستحسم مستقبل إيطاليا للألفي سنة القادمة. بعد قيامهم بغزو الشمال، وضع الرومان عينهم على صقلية. مما عرض للخطر الإغريق الموجودين في مدينتي سرقوسة وتارينتوم، فطلبوا المساعدة من أعظم جنرال في عصره، بيروس، ملك إبيروس، وتلميذ الإسكندر. استخدم بيروس الفيلة كقوة صدام متحركة. وقد أرهبت هذه الحيوانات الرومان للغاية لدرجة أنه حقق سلسلة من الانتصارات. ومع ذلك، فقد أثبتت كل معركة تلت ذلك أن تكلفتها عالية، حتى إنه بعد أن سحق الرومان في معركة أسكولوم (276 ق.م)، صرخ قائلاً: «انتصار آخر مشابه لهذا سيتسبب في انهياري». ومن جديد، خسر عدداً أكبر من الرجال فاق الذين خسرهم العدو المهزوم. وأصبحت نجاحاته تعرف باسم النصر البيروسي[3]. وجاءت الضربة القاصمة في معركة بينيفنتوم (275 ق.م). سيطر جيشان رومانيان على الميدان الذي يقع قبالته وكان عليه منعهما من الاندماج. كانت مواجهته الأولى مع جحافل القنصل الروماني مانيوس كونيوس. كان يعلم أن الرومان لم يسبق لهم أن قاتلوا في الليل أبداً، فخطط للقيام بمسيرة ليلية اضطرارية لمفاجأة الجحافل النائمة. بعد وقت قصير من إصدار أمره، رأى في الحلم أن فمه امتلأ بالدم وأن أسنانه تتساقط، وحاول إلغاء الهجوم الليلي. ولكن في ذلك الوقت كان جيشه قد تقدم بالفعل، فقام بتسلق غابة صنوبر كثيفة ليحتل منها موقعه القيادي. لسوء الحظ، فإن الابيروسيين قد أساؤوا تقدير المسافة فانطفأت مشاعلهم. وبينما كانوا يتنقلون في الظلام، سمعهم حارس روماني وأيقظ جنود

3- لا تزال العبارة شائعة الاستخدام لوصف تحقيق الانتصار مع تكبد تكاليف مدمرة.

معسكره استغل مانيوس كونيوس وكتيبته الرومانية موقعهم المتميز في المرتفعات، وانتهت معركة بينيفتوم بهزيمة بيروس.

اندلعت الحرب البونية الأولى بين روما وقرطاجة بسبب حادث بسيط. في عام 264 ق.م، اندلع نزاع في جزيرة صقلية بين مدينتي سرقوسة ومسينا، وسرعان ما تدخلت كلتا القوتين العظميين في البحر المتوسط في النزاع. ونظراً لأن روما لم تكن أبداً قوة بحرية، فلم يكن بإمكانها فعل الكثير لمنع التعزيزات القرطاجية من الوصول بانتظام إلى جزيرة صقلية. دفع هذا الأمر روما إلى بناء أسطول بحري، والذي تمّ إغراقه على الفور بسبب المهارة الملاحية للقرطاجيين في خليج مسينا. ابتكر الرومان بعد ذلك أسلوباً للاستيلاء على سفن العدو عن طريق إنزال جسر متحرك من سطح أعلى؛ أعطى هذا ميزة حاسمة للقوات البرية الرومانية الأكثر تفوقاً، والتي شرعت بعد ذلك بالتوجه نحو سفنهم. وبذلك، حوّل الرومان قتالاً في البحر إلى معركة برية خاضوها فوق سطح الماء. وقعت المواجهة التالية قبالة بلدة ميلاتسو. فقد القرطاجيون خمسين سفينة؛ وأصبحت روما قوة بحرية وطردت القرطاجيين من جزيرتي كورسيكا وسردينيا. جعلهم غزوهم ذاك يمتلكون موطئ قدم على الساحل الشمالي لأفريقيا.

في معركتهم التالية في البحر، التقى أسطول الرومان المكوّن من 330 سفينة مع أسطول قرطاجي أكبر بكثير قبالة سواحل هيراكليا، حيث أثبت جيش روما الذي كان يستخدم الجسر المتحرك مرة أخرى أن الانتصار حليفه. ومقابل فقدانه أربعاً وعشرين من سفنه، أغرق تسعين سفينة. ولكن بعد ذلك توجه الأسطول الروماني ببعض من الحماقة نحو أفريقيا. على الشاطئ، قابلهم سلاح الفرسان القرطاجي تحت قيادة المرتزق الأسبرطي، زانثيبوس، الذي ألحق بهم هزيمة ساحقة. نجحوا بالهروب إلى صقلية (255 ق.م)، لكن واجهتهم عاصفة. ما فشل القرطاجيون بتحقيقه قام إله الطقس بإنجازه لهم. كانت الكارثة التي حلّت بالرومان كاملة بكل المقاييس، نزلت 284 سفينة من أصل 364 إلى قاع البحر. ومن

خلال إحدى نزوات الطبيعة، استعادت قرطاجة مرة أخرى السيطرة على البحر الأبيض المتوسط. لم يثبط هذا الأمر عزيمة الرومان، الذين بنوا أسطولاً آخر وباتوا مستعدين للهجوم في الوقت الذي شرعوا فيه في تنفيذ مناورة أخيرة لتحسين تكتيكاتهم. توجهوا إلى البحر بصعوبة فحاصرهم نبتون إله البحر مرة أخرى وغرق أسطولهم بالكامل (249 ق.م). لقد خسرت روما كل شيء وابتعدت عن البحار. في عام (241 ق.م)، وبعد المزيد من المناوشات غير الحاسمة على الأرض، أصبح كلا المتحاربين مرهقين لدرجة أنهما وقّعا معاهدة لوضع حدّ للحرب البونية الأولى. لقد كشف هذا الصراع عن نقطة الضعف الرئيسة عند كلا الخصمين. لم تتمكن روما من التحرك ضد قرطاجة بدون أسطول حربي، ولم تتمكن قرطاجة من هزيمة جيوش روما البرية. وشرع كلاهما في التفكير في الوسائل التي تؤدي إلى تلافي عيوبهما.

انتقلت جحافل روما شمالاً وفتحت الطريق على طول غرب البحر الأبيض المتوسط. واشتبكت في طريقها مع قوة من قبائل الغال في معركة أسفرت عن مقتل أربعين ألفاً من أعدائهم في الميدان. كانت قرطاجة تراقب الطموحات التوسعية الرومانية بقلق متزايد. سرعان ما أصبح من الواضح أن الجحافل الرومانية كانت متجهة إلى شبه الجزيرة الأيبيرية. كان إحباط مثل هذه الخطوة يستدعي اللجوء إلى قوة برية قوية. قامت قرطاجة بنقل قوة كبيرة عبر مضيق جبل طارق[4] إلى إسبانيا. احتل الجنرال القرطاجي حملقار برقا معظم شبه الجزيرة الأيبيرية وأسس مدينة ساحلية جديدة، هي أليكانتي[5]. وكان آخر من بقي يقاوم قرطاجة هم الأوريسيون سكان جبال سييرا مورينا.

في عام 229 ق.م، تلقى حملقار رسالة من ملك أمة الأوريسيين العدوة

4- تم ابتكار اسم جبل طارق بعد ألف سنة على يد المغاربة.

5- وفقاً للمؤرخ ديودور الصقلي كانت تسمى أكرا – ليوكا وفقط العرب هم من سماها في القرن السابع باسم أليكانتي.

تدعوه لعقد لقاء معه ومناقشة إجراء تسوية إقليمية. عبر حملقار نهر إيبرو يرافقه عدد محدود من الأشخاص كان من بينهم ابنه هنيبعل[6] وصهره صدربعل، لمقابلة الملك الأوريتاني. كان الملك بانتظاره بالفعل - مع كمين تمّ نصبه بعناية. وبينما كانت مجموعتهم الصغيرة تمرّ عبر ممر ضيق، بدأت تتساقط الصخور والحجارة عليهم وأغلق المحاربون الأوريتانيون الطريق عليهم. تمكن القرطاجيون من شقّ طريقهم نحو النهر. تمكن جميعهم من عبوره - باستثناء حملقار برقا، الذي جرفه حصانه وأغرقه. كان هنيبعل (247-183 ق.م) لا يزال صغيراً للغاية، وبالتالي تمّ التصويت لصهر حملقار ليتولى قيادة الجيش. ومع جيش مكون من 60 ألف جندي مشاة و8000 من سلاح الفرسان و200 من أفيال الحرب، قام صدربعل بعملية انتقام رهيبة من الأوريسيين الغادرين. أُعدِم أي شخص تمّ القبض عليه، ولم يضع القرطاجيون أي اعتبار لعمر من يُلقى القبض عليه أو جنسه. لأغراض هذه العملية، قام جيش صدربعل بالتخييم في أحد الحقول الذي سرعان ما أصبح مدينة أطلق عليها اسم قرطاج الجديدة، أو قرطاجنة[7]. وكانت نتيجة الحرب الأوريتانية أن أصبح جيش صدربعل يحتل معظم إسبانيا، وضع ذلك روما أمام الأمر الواقع. تمّ توقيع معاهدة حددت نهر إبرو باعتباره الخط الفاصل بين القوتين الكبريين. كان صدربعل يرغب في تكوين تفاهم أفضل مع روما؛ لكنه أثبت أنه شديد الثقة بالآخرين. في عشاء رسمي تعرض للطعن على يد خادم من أقوام الغال مأجور من قبل روما (221 ق.م). لم يكن هناك شك في هوية الطرف المذنب، ولا في هوية الشخص الذي ينبغي أن يقود جيش قرطاجة من الآن فصاعداً: إنه هنيبعل البالغ من العمر 25 عاماً.

كان هنيبعل برقا، نحيل الجسد ولكنه ذو وجه يكشف عن إرادته

6- أبناء حملقار الآخرين هم ماغو وآذربعل وأيبيسيدس وصدر بعل(على اسم صهر حملقار المتزوج من ابنته سلامبو).

7- عن المؤرخ ديودور الصقلي.

الحديدية[8]، كانت لديه طاقة غير مكبوتة وقوة مقاومة جسدية. وكان يمزج بشكل غريب بين الخرافات والسذاجة والشك. لقد آمن بالنجوم؛ فبالنسبة إليه فإن النجوم هي الوحيدة التي لا تكذب. الأهم من ذلك كله أنه كان يؤمن بالأقدار. لقد أظهر ذكاء عالياً وصلابة عقلية، وهو المكون الرئيس لنجاحاته، ومرونة غير عادية للتكيف على الفور مع أصعب الموقف. وقد تقاطع مع تقاليد الجيش البوني، حين جنّد مساعديه من مملكة نوميديا (الجزائر)، وبلاد الغال (فرنسا) وجزر البليار، واخترع قوة جديدة تماماً، وهي «الكوماندوز»، وهي وحدة صغيرة في عددها ولكنها مرنة ومدربة تدريباً عالياً، للقيام بضربات مرعبة خلف خطوط العدو. قام رجاله بمبايعته باعتباره إلههم الحي، وظل طوال حياته المهنية مرتبطاً بهم بروابط روحية ألهمتهم للقيام بالأعمال البطولية. (أسس نابليون علاقته الحميمة مع أفراد الحرس الإمبراطوري على طراز ما فعل هنيبعل). أملت الضرورة إنشاء هذه الرابطة. وكان يؤكد على مخاطر الهزيمة وجعل جنوده يقاتلون بشجاعة مستميتة. لقد كان قائداً بارزاً للرجال ورجل أفكار خلاقة. لقد فهم - قبل مائتي عام من ظهور الإمبراطور أغسطس وفترة «باكس رومانا»[9]- أن العالم القديم لا يمكن أن يعمل إلّا كوحدة واحدة. وكتب عنه الكاتب الروماني تيتوس ليفيوس «بسبب شجاعته الجريئة في مواجهة الأخطار، كان يتمكن من توحيد الجميع في مواجهة المصائب». ثم أضاف تعليقه الخاص، في مثال نموذجي عن الكيفية التي يمكن أن يصف بها كاتب روماني أكبر عدو لأمته: «لم يكن لديه أي اعتبار للحقيقة، ولا للقداسة، ولا خوف من الآلهة، ولا التزام بقسم، ولم يكن مهووساً بالدين»[10]. لم تكن قسوته بالتأكيد شيئاً غير طبيعي في العصر الذي عاش فيه، ولم يكن غدره أكبر من غدر عدوه.

8- في عام 1944، تمّ العثور على تمثال نصفي رائع من البرونز لهنيبعل خلال عمليات تنقيب جرت في مدينة وليلي المغربية.

9- كانت فترة طويلة من السلام والاستقرار النسبيين حدثت في الإمبراطورية الرومانية. المترجم.

10 عن الكاتب تيتوس ليفيوس.

بدأت سحب الحرب تتجمع. وقد استعدت روما وقرطاجة لهذا اليوم. عندما اكتشف سكان مدينة ساغونتو في إسبانيا أن أراضيهم غنية برواسب من الفضة، تحركت روما وأقامت تحالفاً معهم «لضمان حمايتهم» من أي اعتداء، لم يكن وجود مدينة ساغونتو على الجانب القرطاجي من خط المعاهدة التي وقّعها الرومان بالأمر الذي يهمهم، وبذلك فقد انتهت معاهدة نهر إبرو. قرر هنيبعل أن يتصرف. في عام 219 ق.م، هاجم مدينة ساغونتو واستولى عليها بشكل مفاجئ. كان رد فعل روما على «العدوان غير المبرر على حليفهم» هو إرسال وفد رفيع المستوى من أعضاء مجلس الشيوخ إلى قرطاجة. لم يطلب الرومان شيئاً أقل من رأس هنيبعل. وقف زعيم وفدهم، كوينتوس فابيوس ماكسيموس، الغاضب من رفض الإنذار النهائي لروما، بطريقة مسرحية أمام أعضاء مجلس الشيوخ القرطاجيين، وقام برفع طيّة ردائه التوجة[11] الفضفاض وألقاها على ذراعه الممدودة:!... «أعرض عليكم الحرب أو السلام – ولكم أن تختاروا ما تشاؤون»:

تعرض مجلس شيوخ قرطاجنة للإهانة؛ ارتفع الصراخ والشتائم من أعضائه. كيف يجرؤ هذا المغرور الروماني على استفزازهم داخل قاعاتهم المقدسة! ردوا عليه «اختر بنفسك»، لقد تحدوا القائد الروماني. ومن دون أن يفكر ملياً في العواقب، وفي لفتة ميلودرامية، ترك فابيوس ماكسيموس طيّة ردائه تسقط على الأرض.

إنها الحرب إذاً! Bellum[12] هذا كان ردّه، وهكذا أصبحت الحرب البونية الثانية في طريقها للاشتعال. استمرت سبعة عشر عاماً وحصدت أرواح مئات الآلاف. كان هنيبعل هو الرجل الذي يديرها لصالح قرطاجة. كان تقديره المتأني للأمور بأعصاب باردة وخبرته ورؤيته الواضحة هي من جعلته أحد قادة التاريخ البارزين. لقد أدرك أن الطريقة الوحيدة لتركيع

11- زي كان يرتديه المواطنون في الإمبراطورية الرومانية. المترجم.
12- باللاتينية في الأصل. المترجم.

روما هي تحديها داخل الأراضي الإيطالية. لقد أعدّ خطة جريئة: قرر أن ينتقل من قرطاجنة، من فوق جبال البرانس، عبر نهر الرون الشاسع وجبال الألب العالية المغطاة بالثلوج لغزو إيطاليا بأكملها وإسقاط الإمبراطورية الشريرة. وإذا أخذنا بالاعتبار الفترة الزمنية، وحجم جيشه، كانت الشكوك تحيط بنجاح هذا المشروع. إذا أرادت قوة صغيرة نسبياً أن تغزو أرض قوة عظمى يجب أن تتمكن من الاعتماد على رجال وإمدادات غير محدودة. دافع هنيبعل عن مخططه. «إذا كان الإسكندر قد استطاع أن يفعل ذلك، فيمكنني أنا أيضاً فعله». لقد كان أفضل خيار له ليلتزم بقسمه أمام الإله بعل، لأنه بعد كل التضحيات والجهود لتحقيق ذلك، كانت في انتظاره مكافأة أكبر بكثير: هيمنة قرطاجة على العالم وكان على استعداد للتغلب على كل عقبة يمكن أن يضعها البشر والطبيعة في طريقه. ترك هنيبعل شقيقه صدر بعل[13] مع جيشه في قرطاجنة لإخضاع قبائل هسبانيا وحماية طريق التراجع المحتمل. أصبح شقيقه الآخر ماجو، الذي كان شخصاً مبدعاً ولكن طائشاً، نائب القائد العام وقائد الفرسان.

في ربيع عام 218 ق.م، انطلق هنيبعل مع جيشه في المسيرة الأسطورية التي ستستغرق منه ست عشرة سنة. قطع الطريق المار عبر جبال البرانس دون صعوبة كبيرة. ثم استدار إلى الشمال الشرقي لتفادي الطريق الساحلي، الذي تسيطر عليه الجحافل التي يقودها القنصل الروماني غنايوس سكيبيو في مرسيليا، واجتاز نهر الرون عند المنطقة التي تقع بين بلدتي أفينيون وأورانج[14]. وبمجرد عبوره عقبة المياه الرئيسة، توجه إلى أعالي جبال الألب (في منطقة غرونوبل). يشير أحد جنود الاستطلاع النوميديين، وهو واحد من الكثيرين الذين كانوا يسيرون بخيولهم من حول الجيش بينما كان الذباب يتطاير حول حصانه المتعب، إلى «الجدار الأبيض». «كنا نظن أنها سحابة، حيث دخلنا الأراضي التي كان يعيش

13- لا ينبغي الخلط بينه وبين صهر هنيبعل الذي يحمل الاسم نفسه، والذي تمّ اغتياله.
14- عن الكاتب تيتوس ليفيوس.

فيها الناس في السماء. لكن الغيوم كانت لا تتحرك وكانت ثابتة هناك». كان الرجل خائفاً. الآلهة ستحمينا. الشبح الأبيض سيقتلنا جميعاً.

استدعى هنيبعل القائد ماجيلوس، قائد وحدة الغاليين. «ما هو هذا الجدار الأبيض الذي يرتفع فوق ذلك السهل؟»

«إنه الجبل والجليد الذي يغطيه، سيدي».

«الجليد؟ وضح لي ذلك».

«عندما تهطل الأمطار في الأشهر الباردة، تتجمد قطراته وتبقى على الأرض. يكون الجليد بارداً جداً وزلقاً للغاية، سيدي».

عرف هنيبعل، الذي أقسم يميناً مقدسة بالعمل على تدمير صرح الدولة الرومانية بأكمله، أنه ليس لديه خيار سوى عبور هذا الحاجز من الصخور والجليد. وخاطب قادته: «يجب أن نواصل مسيرتنا العظيمة وفاءً لوعدنا. لا شيء يمنعنا. ثقوا بي». ولقد فعلوا. لم يكن بإمكان أي شخص فعل ذلك، لكنه نجح في جعل رجاله يقرّرون اجتياز الجدار الأبيض؛ ولكن ماذا عن الأفيال الستة والثلاثين التي نجت من الخمسين فيلاً الأصلية؟ كيف سيكون ردّ فعل هذه الكائنات التي تعوّدت العيش في المناخ الدافئ إذا ما سارت في الثلج؟ لم يكونوا يستطيعون الاستغناء عنها. كانت تلك الحيوانات عاملاً حيوياً في استراتيجية هنيبعل[15].

بدأ الجنود والخيول والفيلة بالصعود أعلى فأعلى. كانت غابات الصنوبر الخضراء تؤدي إلى المنحدرات الجرداء، في حين كانت الرياح الباردة تصفر وهي تدور من حول حافات ومنحدرات حادة، وبدأت درجة الحرارة تنخفض بسرعة. في المناطق المرتفعة لم يلتقوا بأي شبح جبل شرير من شأنه أن يعيق تقدمهم، بل كتلة بيضاء حبيبية مثل الرمال الصحراوية ولكنها أكثر برودة. دفعت الرياح الألبية بلورات من الجليد

15- هناك مدافع آخر عن فكرة قوة الصدمة المتنقلة، وهو الجنرال فون مانشتاين، الذي شارك في الحرب العالمية الثانية، وهو العقل الذي ابتكر فكرة الحرب الخاطفة الألمانية في عام 1940 حيث قام بكتابة بحث دراسي عن هنيبعل.

نحو وجوههم. سقط العديد منهم ضحية لدمار قضمة الصقيع وأمراض المرتفعات العالية. لم تجعل المسارات شديدة الانحدار المغطاة بالجليد التقدم أمراً خطيراً فحسب ولكن قاتلاً تماماً. في كل خطوة كان يتجدد الألم؛ كانوا ينزلقون ثم يقعون لاهثين على الجليد البلوري. يا له من أمر مثير للشفقة، بعد كل المعارك التي خاضوها، يسقطون أمام عدو لم يتمكنوا من رؤيته، بل يشعرون به فقط. أصبح مزاج القرطاجيين وحلفائهم قاتماً مع مرور الأيام. واجه ماجو شقيقه هنيبعل، الذي كان يلف نفسه في عباءة ثقيلة من جلد الغنم. بالقول: «لا يمكننا الاستمرار. سنصل إلى إيطاليا ولن يتبقى منا في أحسن الأحوال سوى عشرة آلاف رجل».

«حتى لو بقينا أنا وأنت فقط، فيجب علينا المضي قدماً». وبالفعل قاموا بذلك. في اليوم التاسع[16] وصلوا إلى قمة السلسلة الجبلية وإلى الأسفل كانت سهول الحوض الواسع لنهر بو في منطقة سيسالبين غال قد أصبحت بعيدة عنهم. لم يشعروا بالكثير من البهجة حيث وجدوا النزول أكثر خطورة من التسلق. انزلق العديد منهم من المنحدرات الجليدية واختفى في الشقوق الجليدية أو فوق حافة الجروف الصخرية ليسقط في الهاوية السوداء. الأسوأ كانت مسألة الأفيال، فأقدامها المسطحة لا

16- قام الكاتب تيتوس ليفيوس بهذا السرد الزمني للأحداث، ليس من المحتمل أن يقوم جيش يصطحب معه عدداً من الجمال والأفيال أن يتحرك بهذه السرعة عند قمة جليدية بارتفاع 3000 متر، فقد تحدث المؤرخ بوليبوس عن فترة شهرين، وهذه تبدو فترة طويلة جداً، ما لم يكن قد أخذ في الحسبان مسيرة الوصول عبر التلال الواقعة عند سفوح الجبال. قبل عدة سنوات اجتزت هذا الطريق سيراً على الأقدام، وكنت لا أحمل سوى حقيبة ظهر، واستغرق الأمرمني تقريباً أقل من أسبوع واحد، وأنا أتابع السير في طريق ممر هنيبعل الجبلي، ليس هناك أدلة تاريخية محددة عن المكان الذي عبر منه هنيبعل جبال الألب، فيعتقد البعض أنه عبر من منطقة غرونوبل - برانسون في جبال الألب في فرنسا (التي تسمى كول دي ترافيرسيه أو كول دي كليبير) اصطحبني أحد الرعاة المحليين إلى ممر جبلي مرتفع معروف في الأساطير الشعبية باسم ممر هنيبعل وهناك يوجد منحدر يقودك مباشرة نحو مدينتي تورينو وميلان، أشار الكاتب تيتوس ليفيوس إلى أن أولى القبائل غير العدائية التي قابلها هنيبعل كانت قبيلة السالاسيانس التي كانت تسكن في تلك المنطقة.

يمكن أن تمنع كتلة الجسم الضخمة من الانزلاق على الجليد. كانت تتناثر في الجزء السفلي من بعض المنحدرات جثث أفيال وسط برك من الدم نصف المجمد. وأخيراً وصلت معاناتهم إلى نهايتها. عبر أفراد فرقة هنيبعل الاستكشافية من الأنهار الجليدية إلى الأرض الصلبة. لكنهم ما زالوا في دائرة الخطر؛ بدأت القبائل التي تسكن الجبل بإحداث انهيارات للصخور، ليس لوقف تقدم الجيش ولكن لنهب رتل مؤوناته. وإجمالاً، كانت الخسائر على الجبال في الرجال، وحيوانات الحمولات والأفيال الحربية الثمينة مذهلة. عبر هنيبعل جبال البرانس بـصحبة 59000 مقاتل، وعندما وصل إلى السهل الإيطالي العلوي، كان لديه 34000 فرد إفريقي و8000 من الأيبريين، و6000 من الفرسان النيميديين[17] والفينيقيين واذا لم نأخذ بالاعتبار خسائره في المعركة السابقة، فقد كلفه عبور جبال الألب خسارة 13000 رجل و30 فيلاً[18].

في تلك الأثناء، كانت عمليات الاستكشاف السرية لصالح روما تعمل بكفاءتها المعتادة، وأعدَّ القنصل الروماني بوبيلوس كورنيلوس سكيبيو استقبالاً للقرطاجيين المنهكين. واختار لهذا الأمر ضفاف نهر تيسينو، لكن على الرغم من أن الرومان كانوا متفوقين إلى حدّ كبير عددياً وقاتلوا على أرض معروفة لهم، إلَّا أن هنيبعل تمكن من هزيمتهم. فقد سحب فرقة سكيبيو العسكرية إلى الفخ وانقضّ عليها مع سلاح الفرسان النوميديين. أصيب القائد بوبليوس سكيبيو بسهم وتمّ نقله جريحاً من ميدان المعركة، فيما هرب جيشه.

عندما أطلق هنيبعل سراح جميع الأسرى غير الرومان، تحدث قائلاً: «أنا لم آت للقتال ضد الإيطاليين، لكنني سأحارب بالنيابة عنكم جميعاً ضد روما». كرمه هذا، والذي كان أمراً غير معتاد في الزمن الذي كان

17- نيميديا مملكة قديمة وتعرف اليوم باسم الجزائر.

18- ذكر المؤرخ بوليبيوس أنه رأى هذا الرقم منقوشاً على لوحة برونزية في معبد جونو لوسينا.

فيه احتمال ذبح الأسرى أكبر من احتمال الإفراج عنهم، جعل العديد من القبائل تقف إلى جانبه. جرت المواجهة التالية في كانون الأول عام 218 ق.م عند نهر تريبيا، أحد روافد نهر بو. أبحر الجيش القنصلي من البحر الأدرياتيكي ليهرع لإنقاذ سكيبيو وجعله يسترد عافيته. كانت المشكلة تكمن في قائد قوة الإغاثة، القنصل سيمبرونيوس لونغوس، وهو رجل مغرور ليس لديه خبرة عسكرية وكان يكرهه مساعدوه الغاليون كثيراً. بناءً على نصيحة سكيبيو، أقام سيمبرونيوس موضع صدّ منيع أمام النهر. لسبب غير واضح، غيّر رأيه، وعبر النهر وهاجم معسكر هنيبعل. قبل فترة وجيزة من المعركة، أخفى ماجو شقيق هنيبعل مفرزة من سلاح الفرسان في وادٍ ضيق، ومع وصول القتال إلى ذروته هاجم الوحدات الخلفية لـسيمبرونيوس وقادها إلى قبالة ضفة النهر. في خضم المعركة، تغيّر موقف مقاتلي بلاد الغال الذين كانوا يقاتلون إلى جانب سيمبرونيوس وأحضروا معهم رأس قائدهم الروماني. حسمت المعركة لصالح هنيبعل؛ خسر الرومان 30 ألفاً، وخسر هنيبعل خمسة آلاف.

وفي حين أثبت هنيبعل أنه لم يهزم في إيطاليا، تعرض القائد القرطاجي حانون للهزيمة أمام اثنين من جحافل غنايوس شقيق بوبليوس سكيبيو، الذي كان يسير من ماساليا (مرسيليا) إلى أمبوريا (أمبورياس). في إسبانيا، بالنسبة إلى هنيبعل، كانت هذه صدمة شديدة، حيث إنها قطعت عليه الطريق الوحيد الذي يمكن أن ينسحب منه، إذا ساءت الأمور في حملته الإيطالية.

مع حلول صيف عام 217 ق.م، كان الوضع مشوشاً، وهذا أقل ما يمكن قوله: بينما كان الرومان يسيطرون على أجزاء كبيرة من إسبانيا ويهددون قرطاجنة، كان هنيبعل يتقدم في شبه الجزيرة الإيطالية نحو روما. تمّ استدعاء جيشين رومانيين تمّ تشكيلهما حديثاً على عجل وأرسلا لمواجهته، الأول مؤلف من 40 ألف رجل تحت قيادة القنصل غنايوس غيمينوس لمنع الطريق أمام القرطاجيين في مدينة أريتسو

عند سلسلة جبال الأبنايين، والآخر مؤلف من 20 ألف فرد تحت قيادة مساعد القنصل، غايوس فلامينيوس نيبوس، توجه إلى مدينة ريميني على ساحل البحر الأدرياتيكي. ومن جديد فعل هنيبعل ما هو غير متوقع. عبر المستنقعات «التي كان من المستحيل اجتيازها» ليظهر فجأة في المواقع الخلفية لجيش فلامينيوس نيبوس عند بحيرة تراسيمين، حيث وقعت معركة في يوم الحادي والعشرين من حزيران سنة 217 ق.م.

اعتمد هنيبعل على افتقار خصمه للمهارة التكتيكية، ولم يخِب ظنه. ولأجل قطع الطريق أمام هنيبعل، ضحى القنصل فلامينيوس نيبوس بالمحافظة على أمان قواته من أجل الوصول بسرعة، وارتكب خطأ عندما فشل في إرسال جنود الاستطلاع لتحديد موقع عدوه. كان ذلك خياراً قاتلاً، لأن خط سير الرومان يمرّ في طريق على طول شريط من الأرض، فيه أماكن كان عرضها يبلغ بالكاد مائة قدم، يمرّ ما بين مياه عميقة وجرف شديد الانحدار. وضع هنيبعل قوة مانعة عند مخرج الممر الضيق، كان ماجو شقيقه ينتظر مع مجموعة من الخيّالة النيموديين في غابة كثيفة على الطريق. فيما وضع كارثالو وهو واحد من جنرالات هنيبعل المفضلين، عند مدخل الممر الضيق. كان عليه أن يغلق المدخل بمجرد مرور الرومان، مما يجعل تراجعهم مستحيلاً. واستوضح منه كارثالو: «هل نغلقه بعد أن تمرّ كتيبة الجيش الروماني؟»

أجابه هنيبعل «كلا»، إلى أن لا يعود بإمكانك سماع صوت آخر روماني يمرّ. إذا قمت بذلك بشكل صحيح فسوف ننتصر، ليس هناك من شك في ذلك». في الواقع، كان جنوده بحاجة إلى التشجيع. سأله أحد جنوده: «هل تعتقد أننا قادرون على سحقهم؟». «نعم، لا يوجد سبب يمنعنا من ذلك. لطالما كنت أعتقد أن روما لديها أفضل الجنود في العالم. الآن سنهزمهم، لأننا أفضل».

في صباح يوم المعركة، غطّت سحابة من الضباب البحيرة وشواطئها.

كان الضباب كثيفاً لدرجة أن الرومان لم يتمكنوا من الرؤية لأكثر من بضع ياردات. كان بإمكان كارثالو سماع إيقاع خطوات أفراد الجيش العظيم وهي تمرّ بالقرب منه؛ لم يكن بإمكانه رؤيتهم، تماماً مثلما لم يستطع الرومان رؤية جنوده القرطاجيين. كان يتبع مرورهم من خلال أصوات ضباطهم المرتفعة وقعقعة السلاح وهم يجتازون قواته المختبئة محشورين في الممر البالغ طوله خمسة كيلومترات يسيرون متلّوين على طول ساحل البحر. عندما وصلوا إلى المكان الذي بدا فيه أن الطريق قد انتهى إلى الماء، انقشع الضباب للحظات. تبين أن مقاتلي روما قد تحجروا في مكانهم وهم في حيرة من أمرهم؛ لا يتمكنون من التقدم ولا يستطيعون العودة لأن هناك المزيد من الوحدات التي سوف تشتبك معهم من الخلف. انطلق من وسط الضباب صوت عويل بوق الحرب. كانت تلك إشارة هنيبعل لبدء الهجوم، وقد صدمت المفاجأة الرومان كثيراً حتى إن الكثير منهم لم يحصلوا على فرصة ليستلّوا سيوفهم. أول ما رأوه من عدوهم كان حشداً من أشباح الفرسان الذين ظهروا من وسط الضباب – كانوا الفرسان النوميديين بقيادة نوميديانس. كانت خيولهم ترتفع من فوق جنود جحافل الرومان وتنزل حوافرها على رؤوسهم. تبعهم من الخلف مقاتلو قوات المشاة، وهم يصرخون مثل الشياطين. كانت الرماح تمزق أوصال الرومان وصفير السهام المنطلقة يخترق الهواء. لم يكونوا قادرين على رؤية من أين يأتيهم الموت، وهذا ما زاد من ارتباكهم. وسرعان ما انقسمت وحداتهم القتالية إلى مجموعات أصغر فقدت كل تماسكها وسط الضباب الرمادي الغامق. على طول الممر الضيق بين الطريق والشاطئ، انهارت الوحدات الرومانية وبدأت بالفرار. أولئك الذين حاولوا الفرار من خلال الركض على طول الطريق الضيق قوبلوا بوابل من الرماح من رجال كارثالو عند المخرج الخلفي المغلق بإحكام. كان الرومان يقاتلون يائسين. لفت القنصل فلامينيوس نيبوس النظر بسبب معطفه الأرجواني. تمّ رصده من قبل وحدة مؤلفة من مقاتلين من بلاد

الغال. قبل سنوات، قاد فلامينيوس بنفسه حملة عقابية على أراضيهم عند نهر بو. كان قد دمر أراضيهم وقتل عائلاتهم. الآن جاء دوره. مع موته، ألقى معظم الرومان الباقون أسلحتهم أو تمّ دفعهم إلى البحيرة وغرقوا هناك. عندما انقشع الضباب أخيراً، كان الشاطئ ممتلئاً بآلاف الجثث؛ مات 15 ألف روماني، وأُسِرَ 15 ألفاً آخرين.

لم تكن هذه هي النهاية. حلّت كارثة أخرى بالرومان عندما وقع القنصل سيرفيليوس، الذي كان يندفع لمساعدة القنصل فلامينيوس، في كمين نصبه الجنرال القرطاجي ماهربعل. تمّ القضاء على قوة خيالة رومانية مؤلفة من أربعة آلاف فارس. كان على قائد الحرس الإمبراطوري أن يبلغ روما المذهولة: «لقد خسرنا معركة كبيرة».

«أوقفوا هنيبعل!» تفجر غضب المواطنين بهذه الصيحة. كان يمكن لمجلس الشيوخ خلال حالة الطوارئ -وكانت مسيرة هنيبعل نحو روما هي بالتأكيد واحدة من هذه الحالات- تنفيذ الإجراء النهائي: استبدال منصب القنصل المزدوج التقليدي بمنصب ديكتاتور واحد يتمتع بسلطات غير محدودة. بعد الكثير من الجدال في مجلس الشيوخ، كان الرجل الذي اختاروه هو نفسه الذي أعلن الحرب على قرطاج: كيو فابيوس ماكسيموس. ومن أجل تهدئة معارضة الأقلية في مجلس الشيوخ، قبل الأرستقراطيون تنصيب م. مينوسيوس روفوس الرجل الثاني في القيادة ليقود سلاح الفرسان الروماني؛ كان خياراً كارثياً؛ كان الزعيمان العسكريان يكرهان بعضهما البعض. منذ بداية حملتهم، أثار مينوسيوس الرأي العام ضد قائده وكان يشير إليه بسخرية باعتباره cunctator[19] شخص متردد وجبان. اعتمد هنيبعل على حقيقة أن التنافس بينهما سيمنع رتلي الجيش الروماني من الاندماج في المعركة. وهذا سمح له بفسحة من التفكير لتشكيل تحالفات جديدة مع بلاد الغال وتزويد جيشه بالمؤن، وهو ما فعله من خلال تجريد ريف منطقة إتروريان وسط إيطاليا من كل ما يحتويه من

19- باللاتينية في الأصل.

مزروعات تصلح طعاماً للمقاتلين. أما المؤن التي لم يتمكنوا من حملها، فقد قاموا بحرقها. عاد فابيوس ماكسيموس إلى روما «لحضور مهرجان ديني مهم» وسلّم مقاليد القيادة إلى مينوسيوس، الذي وقع، بسبب فرحته، في الكمين الذي نصبه له الجيش القرطاجي وتلقى هزيمة منكرة على يد هنيبعل بالقرب من مدينة جيرونيوم. عندما سمعت روما بهذه الكارثة الجديدة، أقال مجلس الشيوخ مينوسيوس وأمر فابيوس ماكسيموس بالعودة إلى ميدان القتال. اختار القنصل فابيوس ماكسيموس الذي كان شديد الحذر مكاناً للمعركة في موضع لا يمكن مهاجمته يقع في وادي بين اثنين من الجبال شديدة الانحدار. حينها حدثت الواقعة التاريخية المعروفة «بليلة القرون المشتعلة». عندما رأى هنيبعل طريقه مسدوداً، أمر رجاله بربط حزم من الحطب بقرون قطيع حيوانات متكون من ألفي ماشية. خلال الليل، أضاء رجاله «المشاعل في القرون» وقادوا الماشية على طول سلسلة من التلال الجبلية. كان الرومان في أسفل الوادي، يراقبون المشاعل المضيئة في مسيرتها فاعتقدوا أن «الجيش القرطاجي اختار الهروب من فوق التلال»، فتخلوا عن مواضعهم المتماسكة وهرعوا إلى جانب التلال شديدة الانحدار ليكتشفوا «قطيعاً من الماشية وقرونه مضاءة». في هذه الأثناء، مرّ جيش هنيبعل من دون تهديد يُذكر عبر الوادي غير المحمي. جعل هذا الحادث الجيش الروماني وقائده موضع سخرية.

أصبح فابيوس ماكسيموس غير مرغوب به، وبدأ حكام روما البحث بيأس عن ثنائي جديد لتخليصهم من المحنة. وقع اختيارهم على البطريرك لوسيوس أميليوس بولوس وشخص من عامة الناس يدعى غايوس تيرينتوس فارو. بدأوا استعداداتهم لمواجهة القرطاجيين بتحشيد ثمانية جحافل. لم يحدث من قبل أن حشدت روما جيشاً بهذا الحجم. وتمّ تعزيزه بفرق عسكرية استُدْعِيَت من جزر كورسيكا وسردينيا وصقلية، وقد بلغ مجموع القوات 85 ألفاً من مقاتلي الفيالق بالإضافة إلى 9600 فرد من سلاح الفرسان. في مواجهة هذه الأعداد الهائلة، كانت قوة

هنيبعل البالغ قوامها 26 ألف فرد تبدو ضئيلة للغاية. لكن القرطاجيين كانوا يملكون ورقتين رابحتين. الأولى كانت سلاح الفرسان النوميديين، وهو أفضل بكثير من أي شيء يملك الرومان القتال به، والثاني جنرالاته الجريئين مثل: ماجو، وهانو، وسوسيلوس، وكارثالو، وماهربعل، الذين يمكن لتعاملهم الرائع مع الرجال أثناء القتال أن يحدث فرقاً كبيراً. علاوة على ذلك كان ماهراً في خلق عنصر المفاجأة. وقد تغلب على الرومان مراراً وتكراراً من خلال التقدم من مكان لم يكن متوقعاً، وهذه المرة تحرك بسرعة لدرجة أنه استولى على مستودع للحبوب والسلاح الروماني غير المحمي على نهر أوفيدوس (أوفانتو) بالقرب من مدينة كاناي.

وضع فارو وبولس خططاً تمّ التخلي عن بعضها أثناء النقاش الذي دار فيما بينهما: «كان القرطاجيون يتقدمون، على غير هدى بين الجبال. وسيكون مقاتلوهم الأكثر خبرة مع هنيبعل في المقدمة. من المحتمل أن يشكل المساعدون حراساً خلفيين أو ينتقلون في فرقة قريبة. معظمهم سيكونون غير مسلحين جيداً وغير مدربين. الأسلحة التي يحملونها لا تقارن بسيوفنا. سيكون رتلهم مثقلاً بالنساء والأطفال وقطعان الخراف وجميع ممتلكاتهم الدنيوية. باختصار، إنهم ضعفاء، وهم لا يعرفون أننا سننتظرهم». كان هذا قبل أن يتم إخبارهما أن مستودع المؤن قد وقع في أيدي عدوهم. اندفع أميليوس بولس وتيرينتيوس فارو مع جحافلهم للقاء هنيبعل في مدينة كاناي. كان القائد القرطاجي عالقاً في وضع ينطوي على اختيار الأقل سوءاً من سلسلة من الخيارات السيئة: مع الريف المدمر الذي تركه وراءه، والجيش العظيم الذي يتربص له في الأمام، كان عليه أن يقبل الدخول في المعركة لضمان بقاء جيشه.

كيف كان التاريخ قد تغيّر لو لم يكن هناك نظام غريب مكتوب حسب قواعد هيكلية القيادة في روما. من أجل تدعيم المبدأ الجمهوري وسلطته المزدوجة، تمّ تقسيم المسؤوليات السياسية والعسكرية بين القنصلين المنتخبين، وكان يفرض تغيير يومي للقيادة من قنصل إلى آخر. حكم

القدر أنه في الأول من آب عام 216 ق.م، كان يجب أن يتولى المسؤولية البطريرك بولس. كان قلقاً بحق من سلاح الفرسان الذي يمتلكه هنيبعل، ونصح بضبط النفس. كان عليهم أن يجدوا ساحة معركة أكثر ملاءمة، تكون مغطاة بالشجيرات وتنشطر إلى أقسام بواسطة التلال الصغيرة، الأمر الذي سيمنع هنيبعل من نشر تشكيلات خيالته المتفوقة. ومن دون الالتزام بأوامر بولس، شنّ فارو هجوماً غير مدروس لسلاح الفرسان. ما لبث أن تحول إلى مناوشة بسيطة، لكنها أجبرت حينها الرومان على الانخراط في المعركة الحقيقية في صباح اليوم التالي على أرض كانت في نهاية المطاف مواتية لسلاح الفرسان الذي يقوده هنيبعل وفيلته؛ وفي ذلك اليوم، عادت قيادة الجحافل إلى فارو.

عندما أنشأت روما آلتها الحربية، اعتمدت وحدة القتال الرئيسة الخاصة بها على «تجمع العشائر»، أو الفيلق، الذي يمتلك قوة قتالية قوامها 10 آلاف رجل. والفيلق يتألف من 5000 من جنود الهوبليت (المشاة ذوي الأسلحة الثقيلة)، و4000 من جنود الفيليتس (المشاة ذوي الأسلحة الخفيفة)، وحوالي 800 فرد من سلاح الفرسان[20]. تمّ تقسيم جنود الهوبليت إلى الجنود الهاستاتي (وهم الأصغر سناً)، وجنود البرنسيبس والترياري (قدامى المحاربين)؛ تمّ الاحتفاظ بالجنود الفيليتس كاحتياطي وراء جدار الصدّ الذي أقامه الجنود الهوبليت. كانت الوحدة الأساسية هي المانيبل maniple (وهي بمثابة سرية جنود)، وتتألف من اثنين من السنتوريا (الفصائل) مؤلفة من مئة فرد تحت قيادة ضابط يسمى سانتوريان (وتعني قائد لمئة فرد). كانت أدوات حمايتهم عبارة عن درع مربع (سكوتوم)، وخوذة من النحاس الأصفر وواقي للصدر (بيكتورال)؛ كانت أسلحتهم للهجوم هي أداة خفيفة لرمي الرمح (بيلا) أو أداة أثقل للرمي (هاستا)، وسيف الطعن (غلاديوس) وكانت النتيجة هي المزج بين الرمح الثقيل والسيف مثل ذلك المزيج الذي تمّ التوصل إليه في الحرب الحديثة باستخدام الحربة والبندقية؛ كان

20- عن المؤرخ بوليبيوس.

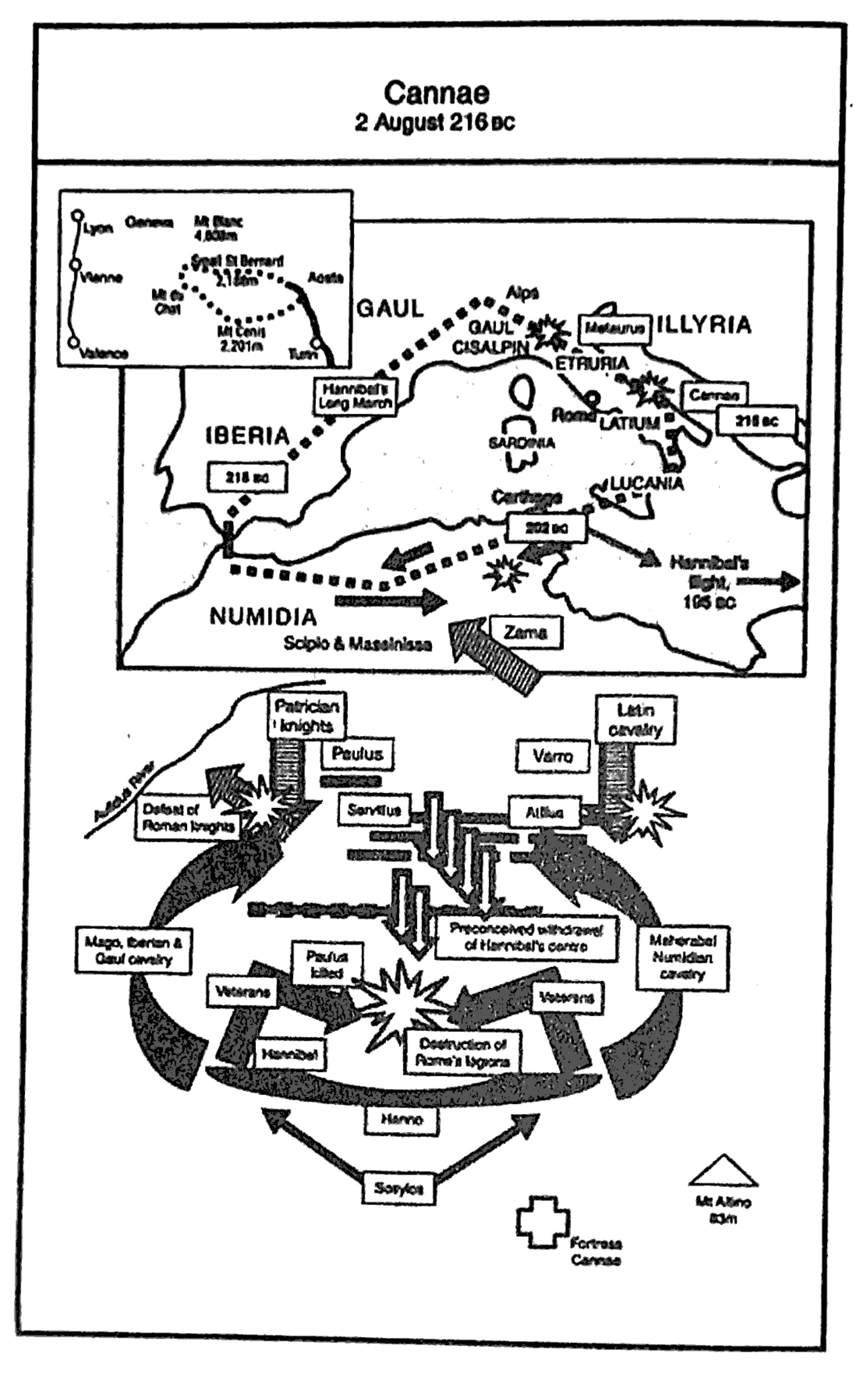
رمي الرمح يمهد الطريق للمواجهة بالسيف، مثلما يمهد إطلاق وابل من رصاص البنادق لشنٍّ هجوم بواسطة الحراب[21]. تمّ انتخاب قادة الفيلق كمسؤولين تنفيذيين أو كقناصل يتولون السلطة العسكرية والسياسية على حدّ سواء. ولأن ترقيتهم كانت مبنية على هيمنة أسرهم في مجلس الشيوخ، وليس على خبرتهم العسكرية، فقد أدى هذا في كثير من الأحيان إلى اعتماد استراتيجيات تمّ التخطيط لها بشكل سيئ وبروز قيادات ضعيفة. لذلك، تمّ تعيين كبار الضباط المحترفين، الذين يطلق عليهم التريبيون، بواقع ستة لكل فيلق، لإسداء المشورة للقناصل، وتعيين ستين ضابطاً (سانتوري) كمساعد لكل ضابط تريبيون. في معظم الأوقات، كان لدى روما ثمانية فيالق جاهزة للقتال، منها أربعة فقط يكون مقاتلوها من الرومان، والبقية من مقاتلي القبائل والدول المساندة. كان مبدأ الفيلق هو تحقيق التفوق التكتيكي من خلال التفاعل الوثيق بين الوحدات، والهجوم في خطوط متداخلة، والعمل بشكل فردي كوحدات مشاة مصغرة، والتي قدمت ميزة كبيرة لأن هذا التكنيك كان أكثر مرونة من القتال بخط مستقيم. كانت آلة الحرب في روما هائلة بالفعل؛ لكنها كانت على وشك مواجهة من هو أمهر منها.

في صباح يوم 2 آب سنة 216 ق.م، أخذ كل من المقاتلين الرومان والقرطاجيين مواقعهم. سأل القائد القرطاجي: «من الذي يتولى قيادة الرومان في هذا اليوم؟».

«إنه فارو، سيدي»، أجاب قائد سلاح الفرسان المدرع، المرتزق الأسبرطي سوسيلوس، الذي كان أطول وأضخم من قائده.

«سترفق بنا الآلهة. الكثير منا سيموتون، لكن تذكروا، نحن سيف قرطاج!» حدّق هنيبعل في ميدان المعركة وعندما عصفت الريح بالميدان رفرفت رايات الرومان. «سنضرب بقوة ونبقى بعيداً قبل أن يتمكن فرسانهم من تنظيم صفوفهم لمواجهتنا، وعندما يطاردوننا سنستدير ونضربهم مجدداً بعيداً عن رتلهم».

21- عن كتاب للمؤرخ الألماني تيودور مومسن Die Geschichte Roms, Berlin, 1895.



في ما كان يطلق عليه نابليون «تحفة إبادة كلاسيكية»، توصل هنيبعل إلى خطة عبقرية. ربما كان قد أخذ درساً من معركة ماراثون، التي جرت قبل قرنين من الزمان. هناك، تمّ تنفيذ استراتيجية الهجوم على الجناح عن طريق الصدفة. هذه المرة كانت ضربته التكتيكية محترفة. ورأى أن فارو وبولس قد تمسكوا بنمط الهجوم الذي ثبتت صحته ووضعوا وحداتهم في تشكيل متدرج ثلاثي الصفوف. كان باستطاعتها أن تتقدم بخط

مستقيم إلى الأمام، لكن تحركها بشكل أفقي كان شبه مستحيل. وهذا من شأنه أن يجعل من السهل نسبياً على أفياله اختراق صفوف العدو وتوجيه الضربات لها ونشر الدمار والارتباك. كان عدد قوات المشاة الرومانية يتراوح بين 75000 و85000، وكان لدى هنيبعل أقل من 25000[22]. كان كل شيء يعتمد على اختيار توقيت دقيق.

عند النهاية المعاكسة من ميدان العركة، شعر بولس بعدم الارتياح وحاول تحذير فارو من أن سلاح الفرسان المدرع بمقاتليه من شبه جزيرة أيبيريا وبلاد الغال الذي يقاتل مع هنيبعل متوارٍ عن الأنظار. ذهب تحذيره عبثاً. فقد قال له فارو بثقة: «لا تقلق يا بولس». «هنيبعل سيبقيهم في موقف دفاعي، ولا يمكننا أن نرغب بأكثر من هذا». هذا ما انتظرته روما لسنوات، وها قد جاءتنا هذه اللحظة. أدعو أن يقف الإله جوبيتر معنا». كان فارو بحاجة إلى أكثر من المساعدات الإلهية؛ كان بحاجة إلى خطة قتال فعّالة، ولم يكن يمتلكها. أما هنيبعل فقد كان يمتلك مثل هذه الخطة. كان يخطط لسحب وحداته المدرعة والتي كان مقاتلوها من المخضرمين ويترك فقط قوات مشاته الأيبيرية مع سلاحها الخفيف وقوات بلاد الغال المساعدة لمسك المركز، مع تواجد مقاتليه الليبيين كقوة احتياطية في الخط الثاني. كان يدرك جيداً أن مركزه سيضطر للتوقف عن القتال تحت الضغط الروماني. كانت هذه بالضبط خطته.

«أيها المحاربون يقف أمامكم جيش روما الجرار. حاربوا بشجاعة ومن يفعل ذلك ستكون له مكافأة كبيرة، ولكن ستتم معاقبة أولئك الذين يتخاذلون بشدة. هذا وعد مني أنا، هنيبعل برقا». ارتفعت هتافات الآلاف تحية لكلماته. ثم ألقى نظرة سريعة على مقاتليه ليتأكدوا أنه قد تمّ تفتيشهم. كل ما كان يحتاج إليه هو أن يدلهم على الاتجاه الصحيح.

كان الجيش الروماني في موقعه، جاهزاً وينتظر. ولأكثر من ساعة،

22- عن المؤرخ بوليبيوس؛ احتفظ كلا الجانبين ببعض القوات لحراسة معسكراتهم ومستودعات المؤن والإمدادات.

كانت الجحافل تصطف بناء على الأوامر التي يصدرها الضباط السنتوريون بأصوات عالية، والذين يمكن تمييزهم بواسطة الريشات المصنوعة من شعر الخيل على خوذاتهم. تمّ ترتيب الرجال الذين كانوا متمترسين خلف الدروع في كتائب المشاة المعتادة، وكانت أطراف رماحهم تميل إلى الأمام، وعلى استعداد للتقدم. خلف حاملي الدروع كانت ترتفع أعلام الكتائب العسكرية، ووراءها، النسر الذهبي لكل جحفل. كانت هناك ثمانية جحافل. عندما ارتفع صوت البوق، انفتح جدار الدروع قليلاً للسماح لآلاف الرماة بالمرور والتقدم إلى نقطة تكون في مدى فعالية سهامهم. ثم تشكلوا في طابور طويل امتد على طول ميدان المعركة بأكمله.

كانت شخصية هنيبعل النحيلة تظهر بشكل بارز فوق إحدى التلال الصغيرة، حيث يدرس تشكيلة العدو. كانت عيناه تدمعان. ومنذ المسيرة الشاقة التي اجتاز بها المستنقعات المليئة بالذباب، تدهور بصره بسبب التهاب أصاب عينيه جعله في النهاية يستخدم عيناً واحدة. لكن في صباح يوم معركة كاناي، كان ما رآه من خلال عينين غائمتين بالدموع قد أسعده. وقف الرومان في ثلاثة خطوط، كانت عميقة جداً لتحقيق أقصى قدر من التأثير، وكان هذا خطأً خطيراً. نظر إلى رماتهم، جاؤوا من قبائل مختلفة الأعراق؛ كان هناك إترووريون يرتدون ملابس جلدية، وكان بعضهم من بلاد الغال عراة الصدور، يرتدون الخوذ وإزارات جلدية، تشبه كثيراً تلك التي يرتديها أبناء بلاد الغال؛ وكان هناك مقاتلون من قبائل الكانتي والإيسيني وجميع مقاتلي القوات المساعدة الأخرى الذين اعتمدت روما عليهم ليقاتلوا إلى جانبها. كان هناك أمل أن يكونوا قد سئموا من خدمة دولة بوليسية لا ترحم ولن يقاتلوا بحماس. لقد كانت القبائل دائماً هي التي تتحمل أكبر عدد من الضحايا، وكانت هي التي تخلف وراءها أكواماً من جثث قتلاها. كانت مكافأتهم شرف أن يصبحوا مواطنين رومانيين وإنْ كان مشكوكاً في تحققه.

جمع القائد القرطاجي قادة قواته ورسم مخططاً لخطته القتالية على

لوح مُغطى بالشمع. «ماجو، ستتولى قيادة سلاح الفرسان المؤلف من مقاتلي بلاد الغال والإيبيريين - هنا». وأشار إلى بقعة بالقرب من ضفة النهر. «سينطلق هجوم الفرسان الرئيس من جناحنا الأيسر. سوف تقود رجالك للهجوم على سلاح الفرسان الأرستقراطيين. عليك أن تحطمهم، أما أنت يا ماهربعل فستضع نفسك تحت إمرة ماجو. على سلاح الفرسان النوميديين الخاص بك مهاجمة سلاح الفرسان اللاتيني عند جناحنا الأيمن وإخراجه من المعركة. بمجرد الانتهاء من ذلك، ستنتظر أوامري اللاحقة. وأنت يا هانو، ستتولى قيادة قوات مشاتنا الليبية والإيبيرية في الوسط. بمجرد تعرضك للهجوم، ستنسحب ببطء، لكن لا تدع جحافل الرومان تخترق صفوفك. مهمتك هي تحديد أفضل المحاربين القدامى في جحافلهم؛ تراجع ولكن حافظ على صفوفك بكل ما تملك حتى تطمئن. يجب علينا تدمير سلاح الفرسان قبل أن نتمكن من هزيمة قلب قواتهم. سوسيلوس، أنت تقود المشاة الأفارقة المدرعين والذين ستعزز بهم الأجنحة. لا تنخرط في القتال قبل أن تصلك إشارة مني». ومع أن جنرالاته كانت لديهم أسئلة حول هذه المناورة غير التقليدية، لكنهم احتفظوا بها لأنفسهم. جميعهم ما عدا هانو.

«إن إضعاف مركزنا قد يخلق بلبلة».

«سوف يفاجئهم. ما سيراه العدو في بداية المعركة هو انتشارنا المعتاد، واشتباك قدامى محاربينا مع قدامى محاربيهم في الوسط. لكننا سنعكس مسار المعركة، ونجعل محاربينا القدامى يستديرون وننقلهم بشكل غير مباشر إلى الأجنحة. وسوف يقومون بتوجيه ضربة حاسمة ضد مركز العدو بمجرد سحبه إلى جيبنا».

«هل تتوقع أن يقعوا في الفخ؟».

«فأجاب هنيبعل: نعم». وقد بدا متجهماً. كان المتحدث هذه المرة هو ماجو، وجعل شقيقه يبدو كما لو أنه لم يدرس جميع الاحتمالات. «لن يسمح العدو لقدامى محاربيه بقطع الاتصال بمركزنا، وهذا يتماشى مع

انسحابنا المحسوب والتقدم بعيداً، مما يترك قواته المساندة في الجناحين دون دعم من أي فيلق. كل هذا يتوقف على النجاح في تدمير سلاح الفرسان الروماني».

«إنها مجازفة».

«كل شيء في الحرب مجازفة. سأطلب من العرّافين أن يكشفوا لي الطالع بعد ذبح القرابين وقبل الدخول في المعركة، لكنني مقتنع بالنتيجة النهائية. عليك إطاعة أوامري وسنلتقي مرة أخرى للاحتفال بالنصر الكبير».

لم تكن خطة هنيبعل جريئة فحسب، بل كانت خروجاً جذرياً عن المعايير التكتيكية للقتال. ربما كان لدى جنرالاته شكوك حول عقلانية مناورته، لكن ولاءهم العميق لزعيمهم هو الذي انتصر. لإخفاء تحركاته عن العدو، أمر هنيبعل بوضع صف من المقاليع قبل الصف الرئيس من أجل إخفاء انسحاب مشاة المحاربين القدامى الأفارقة. قام سوسيلوس بتقسيم الوحدات المدرعات إلى وحدات حلزونية أصغر(speiras) تتألف كل واحدة منها من 256 رجلاً، وأمرهم بخفض رؤوس رماحهم حتى لا يتمّ رصد حركتهم من أي نقطة في جميع أنحاء ميدان المعركة، ثم قاموا بمسيرتهم انطلاقاً من المركز. وقام بوضعهم على كلا الجناحين، مختبئين وراء ستار من قوات المشاة ذوي الأسلحة الخفيفة. بهذه الخطوة، قام هنيبعل بتجريد قلب جيشه من الوحدات القتالية المتعددة وجعله ذا قوة قتالية صغيرة - بدلاً من الصفوف الاثني عشر المعتادة، فإن أربعة فقط ستواجه هجوم الرومان. كل شيء كان يتوقف على القوات في قلب جيشه. كان عليها أن تقوم بانسحاب بطيء ومخطط له مسبقاً ويستمر إلى أن يتولى ماجو أمر سلاح الفرسان الروماني. لقد وضع هناك أربعة آلاف مقاتل من قبيلة نوميديا تحت قيادة ماهربعل، وهي قبيلة محاربة شرسة من جبال الأطلس. ومثل قبائل الهون التي ظهرت في فترة لاحقة، ولد هؤلاء الرجال في الجبال؛ كانت مهمتهم الأولى هي هزيمة ألفي فارس لاتيني.

لكن الصدام الرئيس سيحدث عند جناحه الأيسر. هذا هو المكان الذي وضع فيه هنيبعل سلاح الفرسان المدرع الذي يضم ستة آلاف مقاتل من إيبيريا وبلاد الغال ليواجهوا أربعة آلاف من نخبة الفرسان الذين كانوا مع القائد فارو، وكانوا من أبناء عائلات روما الأرستقراطية الذين تنافسوا مع بعضهم البعض، ليس فقط من أجل نيل شرف القتال، ولكن أيضاً في من سيكون مظهره الخارجي أحسن. كان شباب روما الشقر يركبون الخيول الجميلة وكانت تزين دروعهم المنقوشة بدقة رموز الحرب الذهبية. الأفيال العشرون التي بقيت من الخمسين الأصلية ستكون محدلته الساحقة. كانت تظهر من فوق الضباب مثل القلاع المصغرة. لقد رسم هنيبعل خط سير المعركة.

كانت لدى قائد روما في ذلك اليوم، الذي كان مصمماً على أن ينتزع مجداً له من خلال تحقيق النصر، ثقة مفرطة وهذا أمر سيئ أثناء القتال. فاق عدد قدامى المحاربين في جيشه أعداد من كانوا يقاتلون مع هنيبعل بنسبة ثلاثة إلى واحد، ومع وجود النهر من خلفهم، فإن ذلك سيشعل روحهم القتالية، لأن التراجع كان مستحيلاً. ظهر فارو بمظهر رائع وهو يمتطي حصانه الأبيض. غطى المعطف الأرجواني للقنصل الروماني درعه المنقوش. ولإظهار ازدرائه المطلق، كان يجلس ويدير ظهره للعدو. «جوبيتر وروما!» هكذا صاح على أفضل مقاتلي سلاح الفرسان الأرستقراطي الروماني، الذين اصطفوا لحماية جانبيه، وأجابوا عليه بهتاف مثير: «الشرف والوطن Patria[23]!» كانوا ذوي نظرة صارمة وكانوا مقاتلين جيدين. ما لم يكن فارو يتوقعه هو أنهم تعرضوا أيضاً لنوبات مفاجئة من الذعر الجماعي. صاح أحدهم «إنهم يتحركون!» في الواقع، لقد فاجأهم هنيبعل وأطلق قواته أولاً. كانت معركة كاناي الكبرى قد بدأت.

كان هنيبعل ينظر إلى مجموعاته القتالية وهي تتقدم في المركز؛ ويرى رداء الإيبيريين الأبيض، والجذوع البرونزية العارية لأبناء بلاد

23- باللاتينية في الأصل. المترجم.

الغال، وكانوا جميعاً من قاذفي المنجنيق ورماة ذوي خبرة. أما مقاتلو سلاح فرسانه الخفيف والمدرع، فقد كانت خيولهم تنخر وترتعش، وهم يكمنون للعدو خلف الأجنحة التي تتقدم بشكل مائل. تقدم الجدار القرطاجي بخطى موزونة، كان وسطه بارز قليلاً إلى الخارج. كان الهدف من هذه الخطوة هو تحدي الرومان؛ وكانت مجازفة هنيبعل المحسوبة تعتمد على أن فارو سيهاجم بتهوره المعتاد، وينقضّ مباشرة على أي شيء يوجد في طريقه. وقد فعل فارو ذلك بالضبط، تقدم مندفعاً بلا تفكير بالعواقب نحو مركز القرطاجيين. توجهت الجحافل الرومانية تحت قيادة أتيليوس وسيرفيليوس وهما من الضباط التريبينيون نحو القرطاجيين بخطى سريعة، كان جنود الهاستاتي في المقدمة، ووحدات البرنسيبس وراءهم، ووحدات الترياري في الصف الثالث ليقوموا بتسديد الضربة القاتلة بمجرد اختراق خط العدو. ما إن وصلوا إلى مسافة مائتي ياردة حتى تسلل حشد من الرماة واجتازوا صفوف المشاة المدرعين من المقاتلين القرطاجيين والليغوريين والغاليين. كان تقدمهم مفاجئاً لدرجة أن الرومان لم يكن لديهم الوقت الكافي لرفع الدروع لتكون غطاءً واقياً لهم. مزقت السهام التي انطلقت دفعة واحدة أجساد الرومان وكان تأثيرها مدمراً. سقط المئات على وجوههم. ووقف آخرون هناك، وهم يشدون قبضاتهم على صدورهم أو أفخاذهم أو حناجرهم، وكل تلك المواضع من أجسامهم التي اخترقتها السهام، قبل أن يسقطوا ببطء على الأرض لتدوسهم أقدام الموجة التالية من المقاتلين. انطلق الرومان بأقصى سرعة، وحناجرهم تهدر بنداءات الدعوة إلى القتال إلى أن صاروا في مدى مرمى الرماح. رموا برماحهم النحيفة قبل أن يصطدموا بمركز القرطاجيين بأقصى قوة. كان الضجيج يصم الآذان، وكان القتال يجعل صفوف المقاتلين تغدو وتجيء ذهاباً وإياباً مثل السفن التي تتمايل في البحر الهائج. التحم المقاتلون فيما بينهم. صلى الرجال لآلهتهم المختلفة، ثم تابعوا العمل على تحقيق هدفهم، الذي يقضي بقتل أكبر

عدد ممكن من أفراد العدو. أسندوا كامل وزن أجسامهم على دروعهم، وجعلوا كتفهم الأيسر يتقدم إلى الأمام لتحرير ذراعهم الأيمن ليمسكوا به سيفهم. أصبح القتال قضية فردية، رجل مقابل رجل. بدأت تترنح الوحدات التي يقودها هانو المتواجدة في القلب، تحت ثقل ضربات وحدات البرينسيبس الرومانية، - وفعل بالضبط ما كان يتوقعه هنيبعل. قاوم مقاتلو كتائب المشاة الإيبيرية، ولكنهم لم يتمكنوا من الانسحاب من دون أن تستدير أجسادهم وتكون على مسافة آمنة من سيوف الرومان. وكانوا يقاتلون وهم يتراجعون خطوة بعد خطوة، وسحبوا معهم الرومان بدروعهم الفولاذية.

في تلك الأثناء، كانت خطة هنيبعل تسير بنجاح. بجعله تركيز عدوه ينصبّ على المركز، شنّ هجوماً واسع النطاق على الأجنحة الرومانية. اشتبك فرسانه النوميديون الأربعة آلاف مع ألفين من الخيالة اللاتينيين. لأول مرة، يتفوق القرطاجيون عددياً. انقض مقاتلو الجحافل التي يقودها ماهربعل القادمين من جبال الأطلس على الفرسان اللاتينيين الذين لا يحملون سوى الأسلحة الخفيفة. وسط صرخاتهم القتالية الوحشية، حطم النوميديون فعلياً تشكيل عدوهم ولم يتكبدوا سوى خسائر قليلة للغاية في صفوفهم. انتهت هذه المعركة في غضون دقائق. انكسرت شوكة الخيّالة اللاتينيين وتناثروا هنا وهناك. أولئك الذين لم يسقطوا ميتين على الأرض أو داستهم حوافر الخيول حاولوا الفرار عبر النهر. انتهى المطاف بالبعض خلف جدران بلدة فينوسا أو كانوسيوم، ولكن لم يكونوا كثيرين. نجاح النوميديين هذا أطلق يدهم للمشاركة في المرحلة التالية من خطة هنيبعل التكتيكية. الذي أرسل أحد فرسانه حاملاً أمره: «إلى ماهربعل: لا تطارد اللاتينيين، ابقَ في مكانك بانتظار أوامري اللاحقة».

في تلك اللحظة نفسها، توجه حشد من الإيبريين وأبناء بلاد الغال يقودهم ماجو مباشرة للاشتباك مع مقاتلي سلاح الفرسان الإمبراطوري الذين يرافقون القنصل بولس وتمكنوا من دفنهم تحت الأرض بسبب

ثقل الخيول الإسبانية التي كانت ضخمة للغاية؛ وأوقعوا النبلاء الرومان من سروجهم بشكل كامل. بات تشكيل القنصل بولس يتشظى إلى عدة مجموعات، تقاتل بيأس ومن دون تماسك. تمّ تقطيع أوصالهم زرافات ووحداناً. لم يكن هذا الوقت المناسب لقتال الفرسان الذي كان يحلم به أبناء النبلاء؛ ولم يكن هذا وقت البطولة، بل القتال لمجرد النجاة بالنفس. عندما يتعلق الأمر بالوحشية المطلقة، لم يكن أمام نبلاء روما أي فرصة للصمود أمام المحاربين المحترفين المتوحشين. في غضون لحظات، أُجْبِر الفرسان الرومانيون جميعاً على الفرار. حاول أحد ضباط التربيون الرومانيين، بالتلويح بسيفه في لفتة غير مجدية، لغرض تجميع الفرسان الهاربين أثناء مرورهم من أمامه متوجهين إلى النهر. ولأن الموت كان يجري في أعقابهم، أجبروا خيولهم على الخوض في الماء. مما تسبب في غرق الكثير منها. كان عدد أبناء نبلاء روما الذين ماتوا أثناء هروبهم أكثر من الذين ماتوا أثناء القتال الذي كانوا يسعون من ورائه لاكتساب الشهرة من خلال القيام بأعمال بطولية. أولئك الذين نجحوا في العبور انتهى بهم المطاف خلف جدران كانوسيوم يترنحون مذهولين من شدة الصدمة

في وسط الميدان، قاتل رجال هانو مثل الأسود. كم دامت هذه المعركة، لم يستطع أحد فيما بعد أن يحدّد ذلك بدقة، ولكنها بدت للناجين منها وكأنها استمرت لعام كامل وليس لبضع دقائق. كان الرجال الذين ينزفون متمددين أمام صف حاملي الرماح المنتصبين بحزم، يسعلون وأرواحهم تزهق على الأرض المليئة بالدماء. رفع ليبي سيفه وأنزله على رأس أحد مقاتلي الجحفل الروماني في الوقت الذي كان يطعن برمحه أحد الأيبيريين. ارتفع صوت أنين من كليهما وتوفيا في وقت واحد. سحق أحد الضباط السنتوريين، الذي كانت ذراعه التي تحمل السيف تتدلى بارتخاء إلى جانبه، رأس أحد الغاليين بدرعه الثقيل. كان القتال من أجل السيطرة على وسط الميدان يجري بضراوة شديدة، وجذب مثل المغناطيس، المزيد من الرومان إلى فخ يشبه حدوة الحصان.

كان فارو واثقاً جداً من أن النصر قريب إلى حدّ أنه أمر ما توفر لديه من وحداته الاحتياطية من مقاتلي الترياري والفيليتس للتوجه نحو إحدى المناطق المعزولة في وسط الميدان. كان قلب قوات القرطاجيين مكتظاً للغاية وكان تماسك صفوفه ضعيفاً جداً لدرجة أنه شارف على الانهيار. كانت تلك هي اللحظة التي كان ينتظرها هنيبعل على أحرّ من الجمر لوضع خطته الرئيسة موضع التنفيذ. ولمواجهة تهديد سلاح الفرسان الروماني، أطلق يد سوسيلوس قائد كتيبة قدامى المحاربين الأفارقة: «إلى سوسيلوس: تقدم بكل قوات المشاة المدرعة التي لديك واضرب من كلا الجانبين الجحافل الرومانية في الوسط!» بأمر واحد، وضع هنيبعل تكتيكه الحربي التاريخي المعروف بالتطويق المزدوج أو فكي الكماشة[24] موضع التنفيذ، وكل من أراد أن يدوّن اسمه في سجل العباقرة العظام من القادة العسكريين الذين جاؤوا بعده، من قيصر إلى نابليون وحتى يومنا هذا، قام بتطبيق (تكتيك كاناي) لقيادة جيشه إلى النصر. بعد سلسلة من إشارات البوق انطلقت المرحلة الثانية من المعركة. تحرك جنود المشاة الأفارقة المدرعون، الذين لم يواجهوا أية مقاومة تقريباً، نحو الداخل وتقدموا بسرعة نحو جناحي العدو. ومن الأمام أطلق هنيبعل العنان لتقدم قوات أخرى كان يحتفظ بها كاحتياطي للحالات الطارئة؛ لتحدث تأثيرها الكامل والمدمّر، كان هذا الوضع مثالياً: عدو مضغوط بإحكام في جبهة صغيرة نسبياً.

أول ما عرفه القادة الرومان عن الكارثة كان صوتاً مثل أبواق الجحيم. تأرجح جدار درع قرطاجنة إلى الداخل مثل فتحة بوابة واسعة وكشف عن حشود رمادية ضخمة تتحرك نحو الوحدات الرومانية. اقتحمت أفيال الحرب الإفريقية معاقل الرومان المتراصة بإحكام وداست بأقدامها على صفوف المقاتلين فقتلتهم في الحال. زاد هيجان وصخب تلك الوحوش

24- مناورة عسكرية يقوم فيها الطرف المدافع بمهاجمة جناحي الطرف المهاجم في الوقت نفسه الذي يهاجم فيه المهاجمون قلب الجيش المدافع، الذي بدوره يتراجع بانتظام حتى يتمكن جناحاه من تطويق المهاجمين. المترجم.

من حجم الذعر. وقف الرومان جامدين في حالة من الرعب، في حين كانت الأرض من حولهم تهتز تحت تأثير وقع الأقدام الثقيلة. وسرعان ما تكونت ثغرات واسعة في العديد من أماكن خط القتال الروماني، وعلى الفور ملأتها حشود من المحاربين الأيبيريين والغاليين وهم يصرخون عالياً، يطعنون ويمزقون أجساد الرومان المذهولين. كان شاغلهم الوحيد هو الابتعاد عن الأفيال الهائجة، لكن صرخة تحذير جاءتهم من سرفيليوس الضابط التريبيون جعلتهم ينظرون إلى جانبهم: كان يندفع نحوهم من الأجنحة جنود الهوبليت الأفارقة بقيادة سوسيلوس، وكانوا يتراكضون بسرعة كما لو كانوا يحاولون التفوق على بعضهم البعض في مسابقة للركض. لم يكن ذلك ميداناً رياضياً ينتظر فيه الفائز إكليلاً من الغار في خط النهاية؛ كان ميداناً لقتال ضار، حيث كانت الجائزة الوحيدة هي الموت. اشتبكت السيوف، وصرخ الرجال بأعلى أصواتهم وهم يخترقون صفوف المحاربين الذين تناثرت دماؤهم نتيجة إطلاق الرصاص القاتل عليهم، واحترقت أجسادهم وسط سعير الغضب. انهار جناح الجيش الروماني وتراجع نحو قلب وحداته، وقد أصبح محشوراً داخل نتوء مقعّر كان يضيق بسرعة من حولهم. لم يستطع الرومان المتهالكون، الذين كانوا يترنحون تحت وطأة هجوم الأفيال، أن يتصدوا للهجوم الذي شنّه الآلاف من الجنود الأفارقة المنتعشين والمتمرسين بالقتال. أطلق الرماة الرومانيون مجموعتهم الأخيرة من السهام. أصابت إحداها سوسيلوس في الكتف، ووسط صدمة الألم، دفع ركبتيه إلى جوانب حصانه لدعم جسده المترنح، قبل أن يجثو الفيل، الذي حمله بشجاعة خلال العديد من المعارك، على ركبتيه، انغرز رأس الرمح المدبب في صدره المثقوب. لكن لم يعد بإمكان أي شيء إيقاف الأفارقة.

انسحبت جحافل الرومان. وصمتت طبولهم، وكانت مجموعاتهم القتالية على وشك الانهيار. انتهى حلم القنصل فارو بنيل المجد المطلق من خلال الهجوم الشرس الذي شنّه فرسان هنيبعل. لقد كانت مجزرة

فالرماح طعنت الأجساد والسيوف قطعت الرؤوس. توجه النوميديون بخيولهم من خلال المزيد من الممرات المفتوحة في الوسط، التي تؤدي بهم إلى التشكيلات الرومانية المنكسرة أصلاً لتقتحمها بسورة من الغضب. خاض الرومان معركة يائسة، حيث بدؤوا استعداداتهم للتصدي لأي هجوم يشنّه المشاة الأفارقة على الأجنحة بينما كانوا يحاولون يائسين إقامة جدار من الرماح لصدّ سلاح الفرسان. وصل سلاح الفرسان المدرع بقيادة ماجو بعدما انتهى لتوّه من المواجهة التي انتصر بها على سلاح الفرسان الروماني، وانتشر بسرعة عبر ميدان القتال لشنّ هجوم شامل، وأحكم الطوق حول الرومان. تعرضت جحافل روما إلى مذبحة، بعد مهاجمتها من جميع الجهات من قبل النوميديين بقيادة ماهربعل والأفارقة بقيادة سوسيليوس والأيبيريين والغاليين بقيادة ماجو.

صاح سرفيليوس القائد الروماني بمقاتليه، وهو يمسك بالنسر الذهبي لفيلقه: «عبر النهر، عودوا عبر النهر!» ثم ما لبث أن قُتِل. لكن التراجع لم يعد ممكناً؛ كانت حلقة من الرماح والحراب قد أغلقت جميع السبل للفرار واصطف فرسان ماجو على طول الشاطئ وقتلوا أي شخص ينجح في عبور النهر.

جمع القائد الروماني أتيليوس رجاله. حاصرت حشود من المقاتلين القرطاجيين المسعورين مجموعته وقاتلتها بوحشية فيما كانوا هم يقاتلون بيأس من أجل إنقاذ أرواحهم. كانت السهام والسيوف توزع الموت عليهم. انقض القرطاجيون عليهم، ولم يتمكن الرومان من إيقاف تيارهم. كان أتيليوس، القائد الشجاع في قلب الميدان. أصابه سهم في وجهه ومزق آخر عنقه. تعثر بضع خطوات ثم سقط. كان رجاله يتساقطون أيضاً، وقد تمددوا وسط الرجال المقاتلين في الوحل المنقوع بالدم، وهم مطعونون أو مذبوحون.

سقط القنصل بولس عن حصانه بسبب رمح اخترق حصانه. ثم انحرف ليتخطى ضربة من رمح شخص آخر، وأمسك بمهاجمه من صدره وركله

في فخذه. وعندما انحنى المقاتل القرطاجي وهو يتلوى من الألم، قطع بولس رأسه. بعدها تجمع القرطاجيون كلهم من حوله. بعد أن وصلوا وهم يصرخون ويتصايحون وهم يلوحون بالرماح والسيوف، وحتى بالسكاكين المعقوفة، عازمين على قتل القنصل. حينها لم يعد يدرك ما يجري من حوله، ولكن عينيه بقيتا مفتوحتين؛ بدأ يترنح، بعدها جلس وهو يتنهد وبسط يديه على الدم الذي كان يتسرب من خلال درعه الذي يحمي جسده في الموضع الذي اخترقه أحد الرماح. حاول الوقوف على قدميه لكن لم تكن لديه قوة تعينه. بعدها تجاوزه التيار الهادر غير مبالٍ به.

عندما تمّت مساعدة الجنرال الجريح سوسيلوس ليقف على قدميه، لم يعد هناك وجود للجيش الروماني. لقد تمّ القضاء عليه. كان قادته قد ماتوا أو كانوا ممددين وسط الميدان. خفت ضجيج المعركة. وسرعان ما أصبح ميدان المعركة فريسة لأسراب النسور التي تحوم من فوقه وهي جوعى. وسط الدماء المسفوكة والأنين الخافت للجرحى، استلقى القرطاجيون وناموا، وهم مرهقون للغاية فلم يشيدوا خيماً لهم أو حتى يتناولوا الطعام. مع حلول الليل خيّم الصمت... صمت الموت العميق.

فقد الرومان ثمانية فيالق و2700 من الفرسان الأرستقراطيين والضباط و50 ألفاً من الجنود[25] (70 ألفاً حسب المؤرخ بوليبيوس). وكان من بين القتلى، القنصل أميليوس بولس والقنصل السابق سرفيليوس غيمينوس وقائد سلاح الفرسان مينوسيوس روفوس وثمانون من أعضاء مجلس الشيوخ الروماني الذين انضموا طواعية إلى سلاح الفرسان وتسعة وعشرون قائداً عسكرياً برتبة تريبيون. عندما أحصى هنيبعل عدد الإصابات، شعر بالحزن لأن انتصاره كلفه ثمناً باهظاً فقد كان يتمدد على أرض المعركة 5700 من مقاتليه الموتى. وفي حين أن الرومان سيكونون قادرين على تعويض الخسائر في صفوفهم من خلال تجنيد سكان الريف والفلاحين في جميع أنحاء إيطاليا، لم يستطع القرطاجيون الاعتماد على مثل هذه الميزة.

25- عن الكاتب تيتوس ليبيوس.

وهذه المفارقة جعلت هنيبعل قلقاً للغاية. ما لم يتمكن من الحصول على تعزيزات من قرطاج، وبسرعة، فإنه سيحارب قريباً في قضية خاسرة.

تلوّن مذبح قرطاج باللون الأحمر بسبب دماء أعدائه. كان النسر الروماني قد تحول إلى ديكاً هرماً. وتساقطت الأكاليل المذهبة، التي حازت عليها جحافل روما في أيام المجد، من على سارياتها القرمزية.

ارتفعت صيحة: هنيبعل عند الأبواب! Hannibal ad portas![26] وسادت روما حالة من الهيجان. اجتاح المدينة جو من الخرافات والخوف، كان مواطنوها على استعداد لتصديق أي شيء يقال لهم. كان لا بدّ من العثور على كبش فداء للهزيمة. ألقى مجلس الشيوخ باللوم على تراخي الأخلاق لتسببها بالكارثة. اتُهمت اثنتان من عذارى فستال[27]، تبئتا خطأً بتحقيق النصر، بفقدانهما قدرتهما الفطرية على التنبؤ بسبب الانغماس في أعمال العربدة. تمّ دفنهما أحياء. وتمّ رجم فيلسوف يوناني من قبل الجماهير وتمّ اقتياد مجموعة من الغاليين إلى الساحة العامة حيث لقوا حتفهم. قُتِلَ العديد من أفراد الحرس الإمبراطوري في روما خلال المعركة، وبسبب غيابهم انهار النظام. وتفشّت أعمال الاغتصاب والنهب. وتمّ نهب المتاجر، وسرقة القصور وقتل العائلات الأرستقراطية قبل أن يشكّل المواطنون وحدات أمنية أهلية أعادت الحياة إلى مظاهر النظام من خلال قتل الرعاع في الشوارع.

بدأ هنيبعل في جني ثمار نجاحه الهائل. لقد أصبحت روما وجنوب إيطاليا مفتوحتين على مصراعيهما أمامه الآن[28]. ومع ذلك، لم يقترب أبداً من تحطيم «الإمبراطورية الشريرة» مقارنةً بما حدث في 2 آب سنة 216 ق.م. كان يعتقد أن روما سوف تتوقف الآن عن القتال وقد كان

26- باللاتينية في الأصل. المترجم.

27- هن كاهنات الإلهة فستا العذراء المكلفات بالحفاظ على بقاء النار المقدسة مشتعلة بحسب الأساطير الرومانية. المترجم.

28- عن المؤرخ بوبيليوس.

مخطئاً للأسف. في خضم هزيمتهم المخزية، شعر مجلس الشيوخ الروماني بالحاجة إلى وسيلة قوية لإعادة بناء جيشه على أسس جديدة، وجلب قادة عسكريين شباب يمتلكون الحيوية إلى الواجهة. لكي يحدث هذا، ما هو الشعار الأفضل الذي يمكن أن يجدوه أكثر من التهديد بأن «هنيبعل عند الأبواب»؟ لقد حثوا مواطنيهم على الدفاع عن وطنهم ومحاربة «القرطاجيين القساة»، وقد أثبتت تلك الإرادة الحديدية، التي ترسخت على مدى قرون في مواطنيها، أنها القوة الحقيقية لروما.

أرسل هنيبعل وفداً برئاسة كاثالو للتفاوض في الحصول على فدية مقابل إطلاق سراح الأسرى الرومانيين. قرر مجلس الشيوخ المتشدد أنه من الأكثر نبلاً عدم رؤية أبنائهم مرة أخرى بدلاً من الاعتراف بالهزيمة. بناءً على رفض روما التفاوض، أراد عدد من قادة قوات هنيبعل -من بعض الحلفاء الجدد الذين عانوا تحت نير الرومان وغيروا ولاءهم- قتل كل أسير روماني لديهم. لكن هنيبعل منع حصول المذبحة.

خاطبه المتحدث باسمهم، النوميديني ماهربعل: «هذه هي اللحظة التي انتظرناها. دعنا نتوجه على الفور إلى روما».

«لا. يجب ألا ننتصر فحسب، بل نعرف أيضاً كيف نوظف انتصارنا جيداً. صحيح أننا انتصرنا في معركة كبيرة. لكن روما لم تهزم! ليس بعد!».

لكي يحدث هذا سيستغرق الأمر ستمائة سنة أخرى.

وللمرة الأولى، تراجع الرجل الذي لم يحجم من قبل عن المخاطرة. بقي هنيبعل عند بوابات روما في هذا المكان المشؤوم في 2 آب 216 ق.م، ورغم تحطيمه جيوش روما وقد أصبح الطريق سالكاً أمامه تقريباً فقد بقي عند البوابات، ولكن ليس داخل المدينة؛ كانت لديه فيلته والآلات التي يمكن أن يفرض حصاراً بها. لم يتبقَ لدى روما سوى مواطنيها المرعوبين. كان هنيبعل مصدوماً للغاية من المشهد المروع الذي شاهده في ميدان كاناي وحريصاً على التوصل إلى تسوية من شأنها إنهاء مزيد من

المعاناة؟ أما اليمين الذي أقسمه لتدمير كل ما يقف في وجهه لتدمير روما فقد كان بالكاد يتطابق مع فكرته هذه. إذاً، ما الذي أعاقه عن فتح روما؟ سيبقى ذلك واحداً من ألغاز التاريخ العظيمة.

توّج تكتيك الكماشة الذي نفذه هنيبعل في معركة كاناي عبقريته العسكرية ورفعه إلى ذروة مكانته كقائد عسكري. بفضل خطته الرائعة، حقق ذلك الشي النادر الحدوث في المعارك: التأثير الحاسم والشامل لعنصر المفاجأة. ومع ذلك، فمن الناحية التاريخية، لم يغيّر النصر الأكثر إثارة في تاريخ الحروب شيئاً. خسرت روما المعركة ولكنها لم تخسر الحرب.

ربما كان لنا أن نتأمل جيداً في كيف سيتغير مجرى التاريخ لو أن هنيبعل اقتحم البوابات ودخل روما.

الفصل الثامن

الجميع سواسية عند الموت
معركة زاما
19 نيسان سنة 202 ق.م

«من يرغب في السلام عليه الاستعداد للحرب».

• *فيجيتيوس، القرن الرابع الميلادي*

في العديد من الحروب، كان كل ما يتطلبه الانتصار في بعضها الاستيلاء على إحدى المقاطعات الرئيسية في بلد الخصم، وكان يستلزم في غيرها تدمير جيش العدو، لكن في معظم الحالات كان من الضروري الاستيلاء على العاصمة. حقق هنيبعل الهدفين الأولين ببراعة، لكنه فشل حتى الآن في تحقيق الهدف الثالث. كان يعلم أن الهدف النهائي لحربه هو وقف التحدي الذي تمثله روما والمتمثل في تفوقها العددي. لم يكن النصر يتطلب دائماً الإبادة الكاملة لجيش العدو، خاصةً إذا كان هو الأقوى. كان هنيبعل يعتبر دائماً أن الطريقة الأكثر فاعلية لتحقيق النصر هو استنزاف جيش روما؛ حيث يمكن أن يكون الاستنزاف التدريجي لإرادة عدوه هو السلاح الأكثر حسماً في ترسانته. لم تحسم هزيمة الرومان في معركة كاناي، رغم أنها قضت تقريباً على إرادة روما في المقاومة -بأي حال من الأحوال- عسكرياً.

أدرك هنيبعل أين يقع مركز القوة الجديد، ووجه جهوده السياسية ضده. ونظراً لأن عدوه لم يكن لديه قائد واحد يمكن تمييزه، فإن تركيزه انصب على روما نفسها. لقد شتّت قوتها العسكرية وهو يعمل الآن بجد من أجل تفكيك قبضتها على الاتحاد الإيطالي من خلال التحركات السياسية. حصل على بعض النجاح الأولي عندما تحالفت بلدة كابوا معه، وكذلك فعلت المدينتان اليونانيتان سيراكيوز وتارنتوم. ولكن في الوقت الذي أقام فيه تحالفات على الأرض، فشلُ الأسطول البوني في السيطرة على البحر. أراد هنيبعل أن يجعل ملك مقدونيا فيليب الخامس -الذي كان يسيطر على أفضل جيش في اليونان- يقف إلى جانبه. لكن عبثاً. لم تحقق جهود هنيبعل الدبلوماسية أي شيء. بقي جيش الملك فيليب في اليونان للاهتمام بالشؤون الداخلية، واحتفظت روما بالسيطرة على البحار، مما أدى إلى عزل هنيبعل عن قرطاج. خلال كل ذلك الوقت كانت تتم عملية إعادة بناء جيش روما ليزداد حجماً.

لقد حان الوقت لروما لاسترداد شرفها واستعادة نسور جحافلها[29]. ووجدت غايتها في الأخوين سكيبيو، وهما بوبيلوس وغنايوس وهما اثنان من الجنرالات الكفوئين اللذين ذهبا إلى إسبانيا، حيث تمكنا من حشد القبائل ضد القائد القرطاجي صدربعل جيسكو. لكن بعد ذلك عانيا من مصير مماثل لمصير هنيبعل في إيطاليا؛ لقد تخلى عنهم مجلس الشيوخ وأثناء هجوم قام به فرسان نوميديون تحت قيادة رئيسهم المحارب الشرس ماسينيسا، لقي كل من بوبليوس وغنايوس سكيبيو مصرعهما. كانت روما مرة أخرى تحت ضغط شديد. في أوقات الخطر الشديد كان يتقدم الصدارة دائماً القادة الاستثنائيون. كان الرجل الذي قُدر له إنقاذ روما قد درس جيداً عبقرية الإسكندر الاستراتيجية وبريق هنيبعل التكتيكي. كان بوبليوس كورنيليوس سكيبيو، النجل الأكبر لبوبليوس سكيبيو، متحمساً للغاية بعد مقتل والده وعمه على يد القرطاجيين.

29- النسر هو شعار الجحافل الرومانية. المترجم.

وكأصغر ضابط تريبيوني في تاريخ روما، نجا سكيبيو الشاب بأعجوبة من المذبحة التي وقعت في كاناي. خلال انهيار سلاح الفرسان، كان قد منع بعض النبلاء الرومانيين من الهرب من خلال وضع سيفه على رقابهم، وجعلهم يقسمون أنهم لن يتخلوا عن واجبهم المقدس تجاه روما مرة أخرى. بعد لحظات تعرض حصان سكيبيو إلى طعنة برمح، ووسط آلام الاحتضار ألقى بفارسه في النهر. جرفه النهر ليجد نفسه مبتلاً على الشاطئ المقابل، لكنه لم يصب بأذى. من بين آلاف القتلى في معركة كاناي، أنقذ القدر الشخص المقدر له أن ينتقم من هنيبعل. كان بوبليوس كورنيليوس سكيبيو ذا مظهر مهيب، وكان يبدو عليه أنه شخص ساحر ويتكلم بلباقة، ولكن كان يمكنه أن يعذب الآخرين أيضاً بشراسة. وكونه عسكرياً رومانياً نشأ في ظل الانضباط العسكري الصارم، كان يكره من لا يمتلك الكفاءة. لم يكن يمتلك العبقرية الطاغية لهنيبعل، لكنه بالتأكيد أخذ درساً منه، على عكس كل الرومان الآخرين الذين واجهوا القرطاجيين. أصبح هنيبعل قدوته وبطله، تماماً كما أصبح سكيبيو الروماني الوحيد الذي حظي باحترام هنيبعل على الإطلاق.

أضاء بوبليوس كورنيليوس سكيبيو الشاب أشعة ساطعة وسط ظلام روما. جاءته فرصته الأولى لإثبات نفسه في إسبانيا. لقد أظهر في جميع أعماله إتقاناً غير عادي ليس فقط لشنّ غارات مذهلة على أهداف معزولة ولكن أيضاً للعمليات الاستراتيجية بعيدة المدى. لقد أدرك أنه من أجل هزيمة قرطاج، كان عليه أن يتصرف مثلما فعل هنيبعل عندما خاض الحرب في إيطاليا. كان يتعين على روما شنّ حرب على الأراضي الإفريقية. وفّر سكيبيو القوة الدافعة لذلك، وعلى الرغم من أنه كان في الرابعة والعشرين من عمره إلّا أن مجلس الشيوخ جعله المسؤول عن جيشهم في هسبانيا[30].

في عام 210 ق.م، بدأ مسيرته العسكرية بقيامه بفعلة مُحكمة الإتقان.

30-هو الاسم الذي أطلقه الرومان على كامل شبه الجزيرة الإيبيرية. المترجم.

قام بإغراء صدربعل جيسكو (لا .نبغي الخلط بينه وبين صدربعل برقا شقيق هنيبعل) للخروج من معقله في قرطاجنة ومن ثم سار في الحصن المهجور دون قتال. قام صدربعل جيسكو، إلى جانب حشود فرسان صيفاقس ملك نوميديا، بتطويق جحافل سكيبيو في مدينة كاسترا كورنيليا. وحيث كان سكيبيو في مواجهة موقف يائس، فقد طلب التفاوض على الاستسلام. أثناء قيامه بإطالة المفاوضات عمداً، قام بتنظيم هجوم ليلي على معسكر القرطاجيين. وكانت نتائجه مدمرة وفاقت نجاحاته حدود الخيال. تسللت قوات سكيبيو جنباً إلى جنب مع قوات سلاح فرسانه بقيادة الجنرال لايليوس، واستطاعت أن تصل إلى معسكر القرطاجيين وتشعل النيران فيه. لم يكن مخططاً للأمر على هذا النحو، ولكن نظراً لأن عددهم قليل، فكان يمكنهم إشعال الخيم الخارجية فقط، مما تسبب عن غير قصد في حدوث عاصفة نار رهيبة. كانت حلقة النيران تمتص الأوكسجين بجشع من وسطها، مما جعل درجات حرارة النيران تقترب من 1000 درجة مئوية[31]. من المستحيل على الخيال أن يبالغ في وصف المشهد المروع، لذلك فقد تجاوز تماماً في رعبه كل ما عرف من حرائق حتى ذلك التاريخ[32]. هلك في أتون ذلك الجحيم الذي اجتاح المخيمات 40 ألف فرد من القرطاجيين وأبناء البلدان المساندة لهم.

في عام 207 ق.م، اشتبك سكيبيو مع صدربعل جيسكو في بلدة إليبا (تقع بالقرب من مدينة إشبيلية). قاتل سكيبيو وفق خطة تكتيكية معدة مسبقاً استقاها مباشرة من كتاب هنيبعل العظيم. وفي مواجهة 74 ألف قرطاجي و32 فيلاً، لم يكن بإمكانه حشد سوى 48 ألفاً فقط. لكن بوبليوس سكيبيو لم يكن يثبط همته التفوق العددي. كان قد درس بدقة تكتيكات صدربعل جيسكو واكتشف أن القرطاجيين يضعون قدامى

31- استخدمت هذه التقنية بعد ألفي عام خلال غارات القصف الليلي على مدينتي هامبورغ ودريسدن. في عام 1945 تجاوز عدد ضحايا عاصفة النار في دريسدن عدد ضحايا القنابل الذرية.

32- عن المؤرخ بوليبيوس.

المحاربين دائماً في الوسط وأفراد القوات المساعده على الأجنحة. ولم يتغير الأمر في إليبا ورفض لمدة ثلاثة أيام خوض المعركة لكنه واجه دائماً صدربعل مع جحافله من قدامى المحاربين في الوسط ومقاتلي القوات المساندة من الأيبيريين والغاليين الأضعف على الأجنحة. لكن سكيبيو لم يكن لديه أي نية للتضحية بجحافله الثمينة في مواجهة مع قدامى المحاربين الأفارقة من النخبة في قرطاج. وبدلاً من ذلك، خطط لمهاجمة قوات مساندة صدربعل بكتائب من جحافله. مثل هذا التبديل في اللحظة الأخيرة كان عملاً لا يتخذه إلّا شخصٌ مثل هنيبعل العظيم نفسه. وهذا ما حدث في صباح اليوم الرابع، تحركت الجحافل بخطوات سريعة ثلاثية بشكل مائل نحو الجانبين وهاجمت الوحدات الضعيفة الموجودة على الجناحين. قام قدامى المحاربين الرومان بقيادة سكيبيو بجعل القوات المساندة للقائد صدربعل من المقاتلين الإسبان تتوجه نحو المحاربين القدامى الأفارقة في الوسط؛ لم ينج في عملية الانسحاب تلك -والتي نادراً ما شهد لها التاريخ مثيلاً- من الذبح سوى 6000 فرد فقط من أصل 72000 مقاتل قرطاجي.

هذا الانتصار منح سكيبيو نقطة الانطلاق التي يتوجه منها نحو أفريقيا. في عام 206 ق.م، أبحر إلى نوميديا (الجزائر)، حيث قابل سراً الرجل الذي سيلعب دوراً حاسماً في تحقيق انتصاره الكبير. فبينما كان ماسينيسا ملك نوميديا، يقاتل دعماً لهنيبعل في إيطاليا وإسبانيا، تمّت إزاحته عن عرش نوميديا من قِبل صيفاقس، ملك ماسولة، وذلك بتواطؤ من قرطاج. أغضبت هذه الخيانة الملك ماسينيسا ولم يعد يفكر إلّا في الانتقام. بعد اجتماعه مع سكيبيو، دعا ماسينيسا قادة قواته وأبلغهم «إننا سنخوض معركة».

سألوه: «ضد الرومان؟»

«كلا، لقد وعدنا الرومان بالكثير إذا قاتلنا إلى جانبهم».

«ولكن الرومان لا يحبوننا أكثر من القرطاجيين». رغم ذلك ظلّ

ماسينيسا ثابتاً على موقفه. أقنعت مهارات سكيبيو الدبلوماسية والذهب الذي قدمته روما هذا القائد الصارم ذا الشجاعة الفائقة بفتح ممر لروما في شمال أفريقيا.

بينما كانت تتم هذه الصفقات، بعث هنيبعل -ووقتها لم يكن يعلم بالتطورات التي تجري في الداخل- برسل لا حصر لهم إلى قرطاج، طالباً المساعدة الفورية. تجاهل شيوخ قرطاج مناشداته. كانوا منقسمين إلى فصيلين عدائيين، برقا العسكري وهانوس التجاري. كان جناح برقا يضم الجنرالات. فيما ضمّ جناح هانوس التجار ذوي النفوذ، الذين كانوا يتهمون هنيبعل باستنزاف موارد بلده في سعيه لخوض حرب عديمة الفائدة. ومع رفض طلب المساعدة، استغلت روما الوقت لإعادة بناء قوتها العسكرية. كان التأثير الجوهري لغزو هنيبعل لإيطاليا هو أنه منح مجلس الشيوخ في روما قضية يجمع الناس من حولها ومكّنته من تعزيز مكانة روما كأقوى أمة في القارة الأوروبية. وقبل خطة سكيبيو الاستراتيجية لمفاجأة الشيطان في عقر داره؛ ليس لمحاربة هنيبعل في إيطاليا، ولكن للتغلب على قرطاج في شمال أفريقيا.

بعد سنوات من التجوال غير المجدي، لم يتم حسم أي شيء، وتمّ إجبار هنيبعل على التراجع مع قواته المستنزفة بشكل مطرد إلى أقصى جنوب إيطاليا. في ربيع عام 207 ق.م، وبدون الحصول على أوامر من قرطاج، قام صدربعل شقيق هنيبعل بتجميع قواته في إسبانيا وتوجه لمساعدة شقيقه مع جيش يتراوح عدده بين أربعين إلى خمسين ألف مقاتل. فجأة، باتت روما لا تواجه جيشاً واحداً بل اثنين من الجيوش القرطاجية وعندها بدأت الحروب البونيقية الثانية على الأراضي الإيطالية.

بدأ كل شيء بواحدة من تلك الحوادث البسيطة التي تحمل مع ذلك تداعيات خطيرة. أرسل صدربعل ستة رسل للإعلان عن وصوله الوشيك ولنقل خطط مسيرته إلى هنيبعل، كانوا أربعة من الغاليين واثنين من النيميديين. كان هنيبعل قد غادر معسكره بالفعل وانتقل إلى

مدينة كانوسيوم (كانوسا) لانتظار شقيقه. عبر رسل صدربعل الستة شبه الجزيرة الإيطالية دون أن يتم اكتشافهم، وكانوا على بعد مسيرة يوم واحد من معسكر هنيبعل عندما اعترضتهم دورية رومانية وعثرت على رسائل صدربعل التي تحوي على تفاصيل الخطط. اطلع القنصل كلاوديوس نيرو، الذي يتصف باندفاعه الكبير وتهوره، على خطط معركة صدربعل وأعدّ خطة رائعة لمواجهتها. سلم قيادة الجزء الأكبر من جيشه إلى كوينتيوس كاتيوس مع أوامر بمنع هنيبعل من الانتقال إلى معسكره والانضمام إلى شقيقه، في حين اختار قوة من نخبة من المحاربين القدامى مكوّنة من ستة آلاف رجل وألف فارس وقطع في سبعة أيام مسافة 250 ميلاً كانت تبعده عن اقليم أومبريا لتعزيز جحافل القنصل بورسيوس ليفيوس سالينيتور، في معسكرها على نهر ميتوريوس (ميتورو). ولأجل إخفاء تحركاته، سار في الليل فقط. عندما وصل نيرو إلى معسكر سالينيتور، أمر قواته بأن يتشاركوا الخيام الموجودة وأن يخفوا وجودهم. لكن القيام بإجراء احتفالي بمناسبة قدوم القنصل أفشى السر. لم يسمع جنود الاستطلاع القرطاجيون، الذين كانوا يتجولون بخيولهم من حول مخيم القنصل سالينيتور إشارة بوق واحـدة، بل إشارتين صغيرتين مخصصتين لشخص القنصل؛ وهذا يدل على وجود قنصلين في المعسكر الروماني. وهذا يعني تواجد جيشين. عند سماع هذا الخبر، قرر صدربعل تجنب القتال والتوجه جنوباً على طريق فلامينيا للانضمام إلى شقيقه. أمر بالانسحاب، عند الظلام للتغطية، لكن جيشه ضلّ طريقه عندما تركه مرشدوه الإيطاليون. وعند شروق الشمس وجد نفسه في وضع غير موآت. أقامت الكاهنة العليا للإله بعل مراسم ذبح القربان ولمست رأس صدربعل بأطراف أصابعها. دمدم غاضباً «إنه ليس بالفأل الحسن إنني أحتاج إلى المرور اليوم، ولكنه الطالع». وضع قوات المشاة المدرعة من المقاتلين الليغوريين في الوسط ومقاتليه الغاليين على تل على الجانب الآخر من قوات القنصل نيرو. انقسمت قواته عندما وصلت

إلى أخدود عميق (وادي سان أنجيلو)، مما حال دون الاتصال المباشر بينها. جمع نيرو قواته من النخبة وراء التل. وعند الحافة قام بجعل وحدة من القوات المساندة بالانتظام في صف واحد وكانت واضحة للعيان للغاية وأمر مقاتليها بالصراخ وإحداث ضجيج.

أخذ صدربعل قدامى المحاربين الليغوريين والإيبيريين وسار بهم إلى جزء الوادي الذي يمكن عبوره. وقام بضرب جحافل ليفيوس سالينيتور. أخذ المحاربون المخضرمون على عاتقهم البدء بالمرحلة الافتتاحية للمعركة، حيث قاتلوا بضراوة شديدة. حينها شارك الجزء الأكبر من قوات المشاة الرومانية وسلاح الفرسان في صدّ الهجوم الذي شنّته القوات الإسبانية، كان قدامى المحاربين على دراية جيدة بالأسلوب الروماني للقتال، وكان الليغوريون محاربين أشداء. ثم وصلت الفيلة إلى الجبهة نفسها، وجعلت الخطوط الأمامية تدخل في حالة من الارتباك عند شنّ هجومها الأولي وأجبرت القوات الرومانية على التراجع إلى الوراء. مع ازدياد حدة الصراع والصراخ، لم تعد الأفيال تحت السيطرة وباتت تتجول بين خطي القتال، كما لو كانت غير متأكدة من المعسكر الذي تنتمي إليه، مثل السفن التي تنجرف من دون مجاذيفها[33]. عندما رفضت الفيلة إطاعة سائسيها، اضطروا إلى قتلها.

وسط انخراطه الشديد في القتال فشل صدربعل في اكتشاف أن جيشاً آخر كان يتحرك ضد جناحه. سار القنصل نيرو الذي لم يتمكن من عبور الوادي العميق، بفيلقه متخفياً خلف عدد من التلال المنخفضة والتف حول مقاتلي صدربعل من هسبانيا. فجأة وجد الجيش القرطاجي نفسه عالقاً بين جيشين رومانيين، وبات الرجال الذين كانوا قبل لحظات يفكرون في إحراز النصر يواجهون الإبادة. اندفع رجال نيرو ليضغطوا على المقاتلين من هسبانيا. صبّ الرماة الرومان وابل مستمر من السهام على حشود المقاتلين، نفذت من خلالهم، لتستقر في أجساد الخيول. توقف القرطاجيون عن الحركة، وترنحوا

33- عن الكاتب تيتوس ليبيوس.

قليلاً ثم استداروا. وسط شعورهم بمزيج من الخوف والفخر بسبب نجاحهم المفاجئ في مواجهة جيش لم يهزم من قبل، تقدم مقاتلو جحافل الرومان إلى الأمام وبدؤوا بقذف رماحهم الخفيفة في أعقاب العدو الهارب. تهاوى المزيد والمزيد من المقاتلين القرطاجيين كالدمى المعطوبة، متدحرجين في الوادي، وكانوا يدّبون ويزحفون بعيداً ليموتوا بهدوء تحت بعض الأدغال أو بجانب أحد الصخور. بعد أن تمّ تطويقه من جميع الجهات، لم يستطع صدربعل فعل أي شيء لوقف الكارثة. إذا كان هناك من تعبير جامد، خالياً من الخوف والرهبة، وحتى الأمل، ويظهر العزم فقط، أو ربما الاستسلام، فقد كان ذلك هو التعبير الذي بدا على وجه صدربعل بينما كان يشاهد النهاية الحتمية. لم يصب بأذى، وكان يجلس فوق صهوة جواده العظيم، عندما رأى الرجال الذين من حوله فجأة الحصان وهو يميل إلى الأمام. تمتم بصراخ وحشي وحطم رأس ضابط روماني (سانتوري) بشفرة سيفه. ثم طعن أحد الخيّالة بالقوة نفسها حتى إن سيفه اندفن في جسد ضحيته. رفع قدمه وركل خصمه إلى الوراء ليخرج النصل. كان المزيد من الفرسان الرومان يتحركون من حوله. كان يدور حول نفسه ورفع سيفه لدرء القادمين لطعنه. لم يتمكن إلّا من جعل السيوف تنحرف قبل أن يدخل نصلها إلى صدره تماماً مثلما طعن صدربعل لتوّه، وسقط هو وعدوه وقد تشابك أحدهما بالآخر، على بعد ياردات من حافة الوادي. عندما حرمه القدر من كل الآمال في المستقبل، بدأ صدربعل يفكر في كيف أنه في حالة الهزيمة الكاملة، قد يواجه مصيره ويعاني من شيء لا يستحق الذكر في تاريخه كقائد عسكري... وعندما خسر المعركة، اندفع صدربعل إلى كتيبة رومانية، حيث سقط وهو يقاتل ببسالة، كما كان يليق بابن حملقار وشقيق هنيبعل»[34]. على طول شاطئ نهر ميتوروس، وفي الوادي الذي وراءه، كانت المئات من النسور تحوم وسط حرارة ما بعد الظهر، في انتظار الانقضاض على ما تحتها وتناول وجبة شهية.

أشعلت معركة ميتوروس المحرقة الجنائزية لحلم هنيبعل بالسيطرة

34- عن المؤرخ بوليبيوس.

على إيطاليا، أما قوات الإغاثة التي كان يعوّل عليها لتصل بحملته الإيطالية إلى نهاية ناجحة لم تعد موجودة. كان هنيبعل بمفرده، وهو يعلم أنه في النهاية سوف يخسر أمام القوات التي كانت تتجمع ضده. الرجل الذي كانت خطته هي جعل روما تركع على ركبتيها من خلال تطويق إيطاليا، وجد نفسه محاصراً. ومما زاد من آلامه، أن الرومان وجدوا في بوبليوس كورنيليوس سكيبيو جنرالاً يملك مهاراته نفسها.

كان الانتصار في معركة ميتوروس ذا أهمية كبيرة لأنه عكس الأدوار. من الآن فصاعداً سيتحول الرومان إلى الهجوم. في خريف عام 204 ق.م، نزل بوبليوس سكيبيو مع ثلاثين ألف جندي مدربين بشكل جيد في يوتيكا، وهو ميناء يقع على مقربة من قرطاج. هرع هانو أحد جنرالات هنيبعل، الذي قاتل ببسالة في معركة كاناي، إلى هناك بصحبة قوة صغيرة وقتل. قبل أن يتمكن سكيبيو من الاستفادة من هذا النصر، هدد جيش قرطاجي آخر خطوط اتصاله، وقرر إقامة معسكرات شتائية لمقاتليه. في الربيع التالي التقى مرة أخرى بالقائد القرطاجي صدربعل جيسكو. الجنرال الذي كان قد واجهه من قبل في مدينة إلبا الإسبانية وهزمه في معركة باغبارديس (سنة 203 ق.م). قبل ثلاثة عشر عاماً كان هنيبعل عند بوابات روما ويوشك أن يقتحمها؛ والآن أصبح سكيبيو فجأة عند بوابات قرطاج. بدأ الرومان في إتلاف الأراضي المحيطة بالمدينة المحصنة، قرر مجلس الشيوخ في قرطاج وقد تملكهم الذعر استدعاء هنيبعل. لم يكن الأمر مفاجئاً بالنسبة إلى سكيبيو، الذي بقي على اطلاع جيد بكل تحركات خصمه.

في 23 حزيران عام 203 ق.م، أمر هنيبعل بقتل جميع خيوله وأفياله. وأبحر إلى موطنه مع الخمسة عشر ألف مقاتل الذين تبقوا معه. «أخيراً وصلت مسيرته الأسطورية» إلى نهايتها، تلك المسيرة التي كانت بدأت من خلال التغلب على جبال الألب المغطاة بالثلوج وجعلت روما تركع على ركبتيها. وفي النهاية لم تحسم شيئاً ولا فازت بشيء.

لم تكن روما متأكدة من أنها ستربح حرباً طويلة على الأرض الإفريقية،

وبالتالي عرضت إجراء محادثات سلام. وأرسلت المبعوثين إلى قرطاج. بدلاً من الحوار معهم، قادت قرطاج مبعوثي روما مباشرة إلى زنزانات السجن. لم ينتظر سكيبيو الحصول على دعم من مجلس الشيوخ عندما سار في المدينة على رأس جيش روماني قوي. تعالت الصيحات «هنيبعل ينقذنا!» لم يكن يفصل قرطاج عن الكارثة سوى عبقرية هنيبعل. لكن ذلك لم يعد كافياً. بات جيشه المنتصر شيئاً من الماضي؛ لم يعد بإمكانه الاعتماد على التفوق في عدد الفرسان، سلاحه الذي كان حاسماً في معركة كاناي توجّه هنيبعل، الذي نزل بجيشه في مدينة هدرموتا (حالياً هي مدينة سوسة في تونس) وكان يعرف أن العمل الحاسم يجب القيام به في مملكة نوميديا، بمسيرة إلى عاصمتها زاما (زاورين) في محاولة يائسة لمنع ما لم يعد من الممكن تأجيله. في 19 نيسان سنة 202 ق.م، التقى الجيشان عند بوابات مدينة زاما، في الوادي الذي يقع شرق ولاية سليانة. على الرغم من أن الجيشين كانا متقاربين عددياً تقريباً، فقد ضمّ كل واحد منهم 35 ألف فرد، إلّا أنها كانت المرة الأولى التي يتولى فيها هنيبعل قيادة قوة مكونة بشكل أساس من جنود مكلفين غير مدربين، كان الكثير منهم من العبيد الذين تمّ تحريرهم لغرض شنّ المعركة. كان كل شيء يعتمد على الفيلة التي معه. وعلى الرغم من أنه كان لديه مائة منها، وهو ما يمثل أكثر عدد من الفيلة سبق له أن امتلكه على الإطلاق، إلّا أنها كانت جميعاً من الحيوانات اليافعة غير الداخلة في تجارب قتالية ومن دون تدريب مناسب. إذا تمكنت هذه الحيوانات المخيفة من إحداث الفوضى في صفوف القوات الرومانية، مع الاعتماد على قدامى المحاربين الليغوريين والغاليين البالغ عددهم 15 ألفاً، فسيوقف زحف سكيبيو إلى مسقط رأسه.

لقد انتصر هنيبعل بمواجهات صعبة من قبل، لكنها كانت ضد قادة متواضعين. لكن هذه المرة كان يواجهه أفضل جنرال في روما. كان كلا الزعيمين يدركان أن نتيجة المعركة ستعتمد على سلاح الفرسان بالكامل، والآن فقط يمكن للرومان الاعتماد على حليف هنيبعل السابق، الفارس النوميدي الذي لا نظير له، الجنرال ماسينيسا. كان قائداً بارعاً،

وكذلك هو حال فرسانه النوميديين. لذلك ابتكر هنيبعل خطة فيها بعض الأمل في النجاح. ولكونه كان يعتمد دائماً في مناوراته التكتيكية على سلاح الفرسان المدرع والخفيف، لذلك كان من غير الحكمة تماماً أن يستخدمها كقوته الضاربة. وأمر قادة سلاح الفرسان الذي يتكون مقاتلوه من النوميديين والقرطاجيين بإبداء مقاومة بشكل بسيط ثم يستديروا ويتظاهروا بالفرار. وهذا من شأنه أن يسحب سلاح الفرسان الروماني بقيادة ليليوس وماسينيسا من مسرح القتال.

خاطب هنيبعل قادته قائلاً: «سنهاجم قبل أن يكون سكيبيو قد اتخذ موضعاً له. أطلقوا جميع الأفيال والمحاربين القدامى في وقت واحد، ليس لدينا سلاح الفرسان الذي يمكن أن يلتف على جناح الرومان». لقد تراجع عن المفهوم المقدوني القديم للصدمة من خلال تكوين حشد كبير؛ كتيبة بعمق ستة عشر رجلاً، مع عدم وجود ثغرات في الصفوف وعدم التخاذل في مقابلة هجوم الفرسان وجهاً لوجه. لقد ثبت أن الرماح الكثيرة قد تكون أكثر رعباً للحصان والفارس من رعب سلاح الفرسان الذي يستخدم السيوف في مواجهة جندي المشاة المسلح بالرماح. كل هذا يتوقف الآن على سلوك فيلته. إذا خلقت ما يكفي من الفوضى في وحدات الجيش الروماني، عندها سيتمكن مع مقاتليه الليغوريين، والغاليين والأفارقة من سحق قلب الجيش الروماني ويحقق الانتصار.

كان سكيبيو متفوقاً في إعداد التشكيلات، وكانت خطته للمعركة صورة طبق الأصل من تكتيك الكماشة (أو الطوق المزدوج) الذي استخدمه هنيبعل في معركة كاناي وكان يقول: «يجب علينا تدمير جناحيه قبل أن نتمكن من مهاجمة مركزه! لكن أولاً، يجب أن نوقف الأفيال». وضع سكيبيو مقاتلي الترياري في الوسط، ولكن خلف مقاتلي الفيليتس. ثم ابتكر طريقة ذكية لجعل الهجوم المتوقع من الفيلة أقل فعالية. قام بترتيب خطوط قوات مشاته الثلاثة بشكل طوابير بدلاً من التشكيل المعتاد الذي يشبه رقعة الشطرنج المتداخلة. وهذا سيسمح بفتح ممرات يمكن أن تمر

فيها الفيلة المهاجمة. كان تحقيق المهمة الثانية أكثر صعوبة. كانت الفيلة سلاحاً ذا حدين. فهي تهاجم في خط مستقيم، ولكن إذا كان من الممكن تعريضها إلى أذى يكفي أن يجعلها تجفل، فلا يمكن التنبؤ بردود فعلها. كان الكثير يعتمد على سرعة تأثر جلد الفيل السميك والسيطرة الدقيقة على الفيل الضخم من قبل مدربه. تحقيقاً لهذه الغاية، تمّ تجهيز مقاتلي الفيليتس بعصي طويلة وسنانير خطف لإيقاع المدربين من فوق الفيلة التي يركبونها، بالإضافة إلى رماح ذات نصال متعددة لتمزيق الأجزاء الأكثر تأثراً من أجساد الفيلة، مثل الجذع والجلد الناعم تحت ردفها. تمّ وضع سلاح الفرسان اللاتيني بقيادة لايليوس والنوميدي بقيادة ماسينيسا على الأجنحة لمنع مقاتليها من الهروب بواسطة الفيلة.

«قبل حلول الظلام، سيعرفون ما إذا كانت روما أو قرطاج هي من ستفرض هيمنتها على الشعوب، ليس فقط في أفريقيا أو إيطاليا، ولكن في العالم كله وهذه ستكون مكافأة هذا النصر... غرقت الأرض في أكوام من الدماء... وكلما كان الطرفان يتخطيان العقبات، يهاجم بعضهما البعض بأشد الأساليب شراسة... استمرت المعركة لفترة طويلة دون حسم، كان الرجال بسبب شجاعهم العنيدة يسقطون ميتين في مواقعهم دون أن يتزحزحوا خطوة»[35].

ارتفعت الشمس في السماء مثل كرة حمراء متوهجة، توعد بيوم إفريقي حار. كانت الأشعة تنعكس من الدروع الفولاذية والخوذات البرونزية ورؤوس الرماح الحادة للغاية. من خلال غبار الصباح، شاهد كل من الطرفين بعضهما البعض عن كثب. انطلق فارس قرطاجي نحو سكيبيو ليبلغه: «قائدنا يطلب محادثتك،سيدي القنصل».

«حسناً»، وأشار إلى موضع في منتصف الطريق بين خطي القتال. «عند هذا التل».

التقى الجنرالان العظيمان بدون أن يرافقهما أحد لأول مرة وجهاً لوجه. سكيبيو الشاب والعجوز هنيبعل، التلميذ الشاب اللامع والمعلم القديم.

35- عن المؤرخ بوليبيوس.

لقد أرادت الآلهة أن أكون أنا، القائد الذي شنّ الحرب على أراضي روما، وأحرز النصر في أغلب الأحيان، من يمدّ يده لك طالباً السلام. من بين جميع الجنرالات الرومانيين الذين قابلتهم منتصراً، فإنه لمن دواعي شرفك أنك جعلت هنيبعل يتخذ هذه الخطوة. يجب ألا نفقد إرادتنا في التفكير الهادئ. السلام المضمون أفضل من النصر غير المؤكد.

كان سكيبيو يراقب القائد القرطاجي دون أن يظهر أي انفعال. لكن عيناه الزرقاوين الساطعتين تحدته وأظهرتا الإرادة والشجاعة والمثابرة.

وتابع القائد القرطاجي: «أنا هنيبعل، أطلب منك السلام».

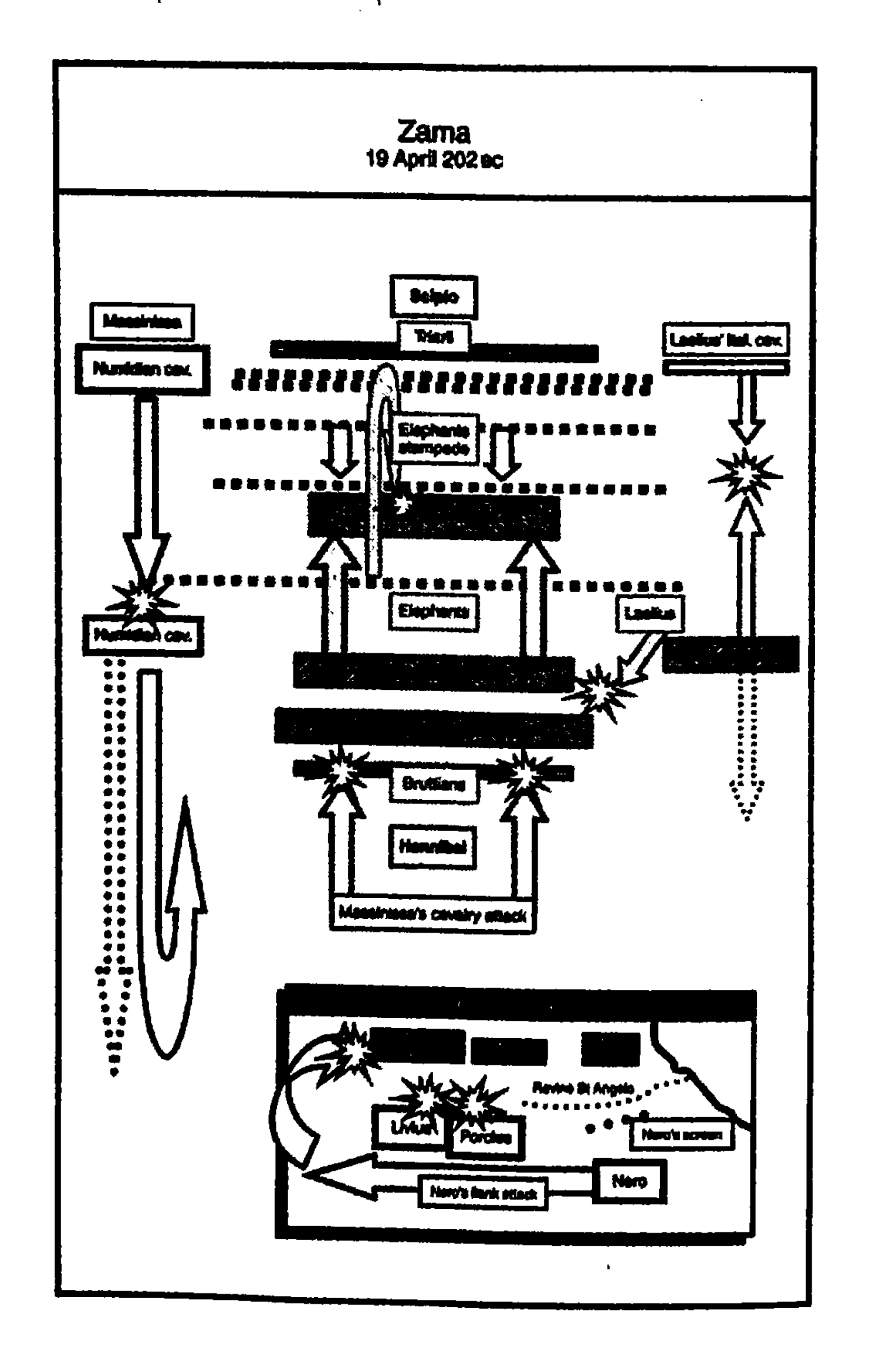
رد سكيبيو أخيراً بصوت سيد لا يفاوض ولكن يملي الشروط فقط. آباؤنا لم يبدؤوا هذه الحرب، لم يغزوا وطنك. أنت رجل شريف، لكن مجلس شيوخك غادر. كان أعضاؤه يتحدثون عن السلام ولكنهم يستعدون للحرب. أنا أعرف جيداً قوة القدر، أيها القائد القرطاجي، تماماً كما أعرف أن كل شيء في المعركة متروك للصدفة. ليكن، دع الآلهة هي من تقرر»[36]. لقد أطاع سكيبيو القاعدة القديمة التي تقول إن على المرء أن لا يساوم العدو في زمن الحرب.

استدار كلاهما ببطء نحو خيولهما وعادا إلى خطوط قواتهما.

لقد ضاع على هنيبعل عنصر المفاجأة عندما وجد أن قادة جيش سكيبيو قد اصطفوا بالفعل حسب الرتب، متخفين بواسطة صف رفيع من الرماة. كانت قواة المشاة القرطاجية المدرعة قد اتخذت مواقعها القتالية، ولكن لم يتم الإبلاغ عن أي اشتباكات كبرى حتى الآن، عدا بعض المناوشات المعتادة بين قوات صغيرة من سلاح الفرسان لكلا الجانبين. كان يتمّ تمييز أفراد قوات مشاة هنيبعل المدرعة (سكوتاري)، من خلال أرديتهم البيضاء الموشحة باللون البنفسجي، وقد تمّ تجميعهم في الوسط، وقد اصطدمت دروعهم البيضوية الطويلة بالأرض. عبر خطوط الجبهة، ركّز هنيبعل كل فيلته. وسار ممتطياً جواده برفقة جنرالاته، على طول خط

36- عن: M. Jelusich, Hannibal, Vienna, 1934 (after Titus Livius).

القتال وتوقف عند مرتفع صغير وبصوت تردد صداه بشكل يناقض حجم جسمه الصغير صرخ قائلاً: «يا رجال قرطاج، لقد كللتم أنفسكم بالمجد الأبدي في العديد من المعارك التي خضتموها... في أراضي العدو. الآن يجب أن تفعلوا الشيء نفسه عند أبواب مدينتكم الحبيبة. أنتم ولا غيركم حماة قرطاج. لقد حان الوقت الآن لكي نظهر للرومان قوة سيوفنا».
ارتفعت الأصوات العالية للمقاتلين وهم يحيّون زعيمهم المحبوب.



درس سكيبيو طريقة اصطفاف عدوه. لقد كان على وشك مخاطبة قواته، لإشعال حماسهم الوطني وتحفيز كراهيتهم للعدو. ولكن بعد ذلك حدث شيء ما أبطل خططه المدروسة جيداً. اندفعت مجموعة صغيرة من الأفارقة الذين تمرسوا في القتال وقد ألهب حماسها خطاب هنيبعل، ودخلت في مناوشة مع مجموعة من المقاتلين الهاستاتي[37] الرومان، وقبل أن يكون بالإمكان إخماد نيران هذه الحادثة الصغيرة اتسعت رقعتها لتتحول إلى واحدة من حرائق الغابات العادية. استمرت المعركة. تمّ التخلي عن الخطط التي وضعها الزعيمان بسبب الشرارة المفاجئة التي أشعلت العاصفة ونشرت النيران والدم والموت في جميع أنحاء ميدان المعركة. كانت حرارة الشمس شديدة بشكل لا يطاق عندما ظهرت عشرات الآلاف من الشخوص التي تحتمي بدروع فولاذية وقد كانت كأنها ميتة وعادت لتوها إلى الحياة وتقدمت بسرعة نحو بعضها البعض. لم يعد هناك شيء يمكن أن يوقفها الآن. أصبح ميدان المعركة مثل إفريز متنوع الألوان حيث كانت كل فرقة وكل وحدة من المشاة تندفع إلى الأمام، وقد طليت دروع مقاتليها بألوان زاهية لتمييز كل وحدة على حدة. لم يكن ما يجري أحداث قصة خيالية. هؤلاء الرجال كانوا أحياء، يتنفسون وعلى وشك الوقوع فوق بعضهم البعض وسط قتال مميت. كل من كان يقع يلقى حتفه بعد أن تجرّه حشود المقاتلين المتتابعة وتدوسه بأقدامها.

صدرت الأوامر للرومان «اهجموا بسلاح الفرسان!». فخرج من بين كتائب مشاة الرومان (فلانكس) المتواجدة في أحد أجنحة الفرسان النوميديين بقيادة ماسينيسا. لكن تمّ اعتراضهم على الفور من قبل هجوم مماثل من سلاح الفرسان بقيادة هنيبعل. لكن يبدو أن رجال ماسينيسا فازوا في السباق. فقد كان متسابقوه أسرع قليلاً، أو ربما كانوا محظوظين في اختيارهم للتضاريس، وسددوا ضربة جانبية إلى فرسان قرطاجنة

37- صنف من جنود المشاة في جيوش الجمهورية الرومانية الأولى، كانوا بالأصل يقاتلون بالرماح ثم استبدلوها لاحقاً بالسيوف. المترجم.

النوميديين. نشبت معركة خيالة قصيرة بين «الأخوة الأعداء». لم يكن فرسان ماسينيسا متفوقين عددياً فحسب، لكن القدرة القتالية لقواته كانت قد تصاعدت على يد هنيبعل نفسه ووصلت إلى حد الكمال من خلال المعارك الكثيرة التي خاضها من هسبانيا إلى كاناي. أصبحوا يستخدمون الآن خبرتهم ضد قائدهم الميداني السابق. في غضون دقائق، قاموا بتشتيت فرسان هنيبعل وأجبروهم على الفرار. فبدلاً من التوجه نحو الداخل، نحو جناح هنيبعل، قاد ماسينيسا حشده في مطاردة شرسة لإخوتهم الأعداء في الميدان، ولم يشركهم حينها في المعركة مع جنود مشاة سكيبيو. حدثت المعركة نفسها تقريباً على الجناح الآخر، حيث قاتل الفرسان اللاتينيون بقيادة لايليوس وطاردوا مقاتلي سلاح الفرسان القرطاجيين، ثم تركوا سكيبيو وقد فقد فرسانه الذين لا يقدرون بثمن.

بإشارة من هنيبعل، جعل سيد الفيلة وحوشه الرمادية الضخمة تتقدم إلى الأمام بقوة ماحقة تسحق كل من يعترض سبيلها. ورغم أنهم لم يكونوا بمثل هذه القوة من قبل لكن الرومان الآن ابتكروا عنصراً جديداً: شطر كتائب المشاة لفتح ممرات في وسطها. وباستخدام الحراب والرماح، قام مقاتلو الجحافل بدفع الأفيال إلى دخول هذه الممرات المفتوحة؛ كان الجنود الفيليتس الرشيقون يتراكضون إلى جانب الفيلة وهي تدوس الأرض بأقدامها الثقيلة، وقد تمزقت جذوعها برماح منجلية طويلة من نوع خاص. وأصبح الجنود مأخوذين بلعبتهم القاتلة بحيث وقع عدد منهم ضحية لجرأتهم. فإذا انقلب فيل في اتجاههم، ولم يستطع الجنود الابتعاد عن طريقه بسرعة كافية، فإنه سيسحقهم مثل الخنافس. فيما قفز آخرون واتخذوا أماكن مميزة لهم، وحين كانت كتل من اللحم التي تهاجم تجتازهم، كانت الرماح تطعنها في أردافها. لكن لم يكن هناك شيء يبدو قادراً على إيقاف الفيلة؛ فلم تفعل الرماح المنجلية سوى زيادة هيجان تلك الحيوانات المتوحشة. طغت أصوات صياح الفيلة المرتفعة على صرخات الرعب وهي تقوم بقتل الرومان بشكل جماعي، مخلفة وراءها

أعداداً من الجنود الموتى والمحتضرين. وفي أعقاب تلك الوحوش المخيفة، وصل قدامى المحاربين في جيش هنيبعل، متقدمين بخطوات متأنية، ورماحهم تتصادم بدروعهم تصحبها صرخات الفيلة المزعجة. عند ستين قدماً من خط قتال العدو، توقفوا فجأة، ومن خلال بعض الثغرات في الخطوط القتالية، قاموا بتمزيق أجساد الرجال برماحهم. سددوا وابلاً منها على خطوط العدو ثم تراجعوا بسرعة قبل أن يتقدم المقاتلون المدرعون، وهم يصرخون بحناجرهم الخشنة الصوت. وسط ضجيج هائل، انسحق الجداران المدرعان وهما يصطدمان ببعضهما البعض. ثم بات يُسمع صوت ارتطام الفولاذ وأزيز السهام وهي تطير في الهواء. تشظى الإفريز الموحد الألوان إلى جزر صغيرة بألوان مختلفة. لم يكن بإمكان أحد الهروب من جحيم الصراخ والألم والدم. صنعت صرخات الجرحى وأصوات المزامير الصاخبة موسيقى مرعبة. تحت قيادة هنيبعل الملهمة، شنّت كتائب المشاة القرطاجية العنيدة هجومها بصلابة وقوة شديدة. كانوا أكثر شراسة وتعطشاً للدماء من الرومان ووضعوا أنفسهم في مواجهة مقاتلين من الصنف الأول في جحافل الرومان وهم الهاستي واشتبكوا معهم بقتال شرس ودموي. استسلمت الصفوف الأولى من الرومان تحت ضغط هجوم الفيلة الوحشي، والضربات المتتالية التي تعرضوا إليها على يد المحاربين الغاليين الشرسين، وقد اختلطت كميات هائلة من اللحوم والبرونز والفولاذ مع بعضها. بدأت تشكيلات سكيبيو القتالية بالانهيار؛ وبدا جنود مشاتها مرهقين وأصابهم الإجهاد فلم يعودوا قادرين على التماسك على الأرض الجافة. انهار مركز القوات من الداخل. هوجم مقاتلو الفيليتس وتمّ ذبحهم. تناقص جدار الدرع المكوّن من عشرة أشخاص إلى خمسة، ثم ثلاثة، ثم أصبح مجرد ثقب. تدفقت أعداد من الليغوريين والغاليين بشكل أكبر من أي وقت مضى من خلال الثغرات للقتال عن قرب مع مقاتلي الترياريس. ارتفعت صرخات الرعب من الجيوب القتالية لمحاربي الفيليتس التي تعرّضت لضربات مروعة.

هكذا تقرر مصير قرطاج. لقد كان حادثاً بسيطاً ولكنه حاسم، ولم يستطع أحد تقديم وصف واضح لكيفية حدوثه. ما كان مؤكداً للغاية هو التالي: نجح أحد المقاتلين الفيليتس في أن يغرز رمحه الطويل في المؤخرة الناعمة لفيل شرس وكبير الحجم؛ رفع الحيوان المبتلى بالألم أرجله الأمامية واستند على رجليه الخلفيتين وأوقع سائسه عن ظهره قبل أن يستدير ويتوجه مباشرة إلى الوراء نحو الطريق الذي جاء منه. لا بد أن يكون هذا الفيل هو من قاد عملية التراجع، حيث قامت نصف دزينة من الوحوش المجنونة وبسرعة فائقة بتقليد ما فعله؛ ومع رفع جذوعها وبسطها آذانها إلى أوسع مدى، تراجعت إلى خط القرطاجيين المتقدمين وقامت بتشتيت خطوط هنيبعل التي تضمّ المحاربين القدامى، تاركة وراءها أكواماً من الجثث المسحوقة بأقدامها. أعطى الصوت العالي لنهيم الفيل الهارب إشارة للقطيع بأكمله، والذي خرج عن نطاق السيطرة في خضم أتون المعركة. وسط هذا المرجل الفوار من السحق بأقدام الفيلة ومن ثم الموت، ألقى المقاتلون أسلحتهم للفرار من النهيم المجنون للفيلة التي استدارت نحوهم. غمرت سحابة ضخمة من الغبار وغطت بشكل مناسب مشهد الجنون هذا؛ وتلاشت صرخات العذاب بسبب الأصوات الصاخبة لنهيم الوحوش المجنونة. لم يكن هناك ناجون أعادوا سرد قصة هذه اللحظات الرهيبة؛ أولئك الذين تمكنوا من الفرار تحوّلوا إلى أشخاص مجانين من هول ما شاهدوه.

مستغلاً هذه الفوضى في كتائب مشاة عدوه، أمر سكيبيو على الفور ما تبقى من قوات احتياطية من مقاتلي البرينسيبس والهاستاتي بمهاجمة قلب قوات القرطاجيين. أصبح مقاتلو الهاستاتي متورطين بشكل لا فكاك منه في القتال عن قرب ولم يعد بإمكانهم أن يحققوا أي تقدم ضد المحاربين القدامى المتماسكين بقيادة هنيبعل. وفي لحظة يقشعر لها البدن كان كل شيء معلقاً بشعرة. على الرغم من ضغوط مقاتلي سكيبيو في الصف الثالث الترياري، إلّا أن هنيبعل كان ما زال بإمكانه تحقيق النصر لو كان

الأمر مجرد حركة لقوات المشاة. لكن هذه لم تكن معركة كاناي. ولم يكن معه ماجو شقيقه والفارس الشجاع المسؤول عن القرطاجيين والنوميديين ليساعده في حسم النتيجة. في اليوم نفسه الذي كان يتمّ فيه تدمير سلاح الفرسان التابع لهنيبعل في صقلية، أنزل المقاتلون النوميديون ماجو عن ظهر حصانه وقاموا بقتله. كلا، كانت هذه معركة زاما؛ وكان ماسينيسا القائد النوميدي الشرس قد غيّر وجهة ولائه. ولكن أين كان ماسينيسا؟ بعد الاشتباك الأولي، كان فرسان هنيبعل يفرّون من النوميديين بقيادة ماسينيسا الذين كانوا يطاردونهم حتى أصبحت كلتا المجموعتين بعيدتين عن مرمى بصر من كان في ساحة المعركة.عانى سكيبيو من مأزق كبير بعد اختفاء مقاتليه في سلاح الفرسان بسرعة. لم يكن لديه وقت ليخسره. كان من الضروري حمل ماسينيسا على مهاجمة مؤخرة القرطاجيين. كما أن قيام الفرسان بشنّ هجوم مركز سينهي هنيبعل بسرعة أكبر من أي قدر من البطولة يقوم بها المقاتلون الرومان الترياري. وفي حين أن مشاة سكيبيو فشلوا في اختراق الخطوط التي يقاتل فيها المحاربون القدامى من جيش هنيبعل، وأصبح القرطاجيون متفوقين مرة أخرى، فقد قام بإرسال اثنين من الرسل يسابقان الريح بفرسيهما ليلحقا بماسينيسا ويسلماه أمراً بالالتفاف.

نظر هنيبعل بتقدير كبير إلى المشاعر الوطنية العالية التي دفعت برجاله لأن يضحوا بأرواحهم من أجل الوطن. لقد كانوا يمضون قدماً لأنهم وثقوا به. وكان يشعر أنهم سينجحون في ذلك وسط تسارع خطواتهم. وحينها بدأ سكيبيو يتعرض لضغوط شديدة. كان قدامى المحاربين من مقاتلي هنيبعل قد اقتحموا خطوط قواته وبدؤوا يطوّقون مواضعها الخلفية. اندفعت نحو الرومان حشود من القرطاجيين المسعورين، وهم يسدّدون ضرباتهم بغضب شديد نحو جدار الصدّ المدرع، عندما وصلته أصوات حوافر الخيل وهي تدوي مثل الطبل بجنون غريب. عندما نظر هنيبعل إلى الوراء، لم يكن بائساً بل مهتاجاً، وشاعراً بغضب العاجز. فقد طعنه ذلك الوضيع ماسينيسا، الذي رفعه إلى مصاف العظماء، في الظهر...

أطلق ماسينيسا فرسانه النوميديين باتجاه حاجز الرماح المسننة، التي نصبها على عجل قدامى المحاربين القرطاجيين المتفاجئين. دفع فرسانه الرماح جانباً وسحقوا حامليها. في داخل المرجل استمرت المذبحة. وقد تكدّست في ممرات الهروب جثث المتحاربين. وقف الليغوريون وراء أكوام الموتى متأهبين لمواجهة الهجوم؛ سرعان ما تمّ الضغط عليهم فأصبحوا يقتربون من بعضهم البعض بحيث لم يعد بإمكانهم استخدام أسلحتهم. كان النوميديون يضغطون عليهم، مما تسبّب لهم بخسائر فادحة. ذُبِح مقاتلو هنيبعل حيثما وجدوا. وقام الفرسان –الذين دمروا جحافل روما نفسهم في معركة كاناي، ثم تحولوا إلى حلفاء لروما– بتنفيذ الضربة القاتلة في معركة زاما.

قاد هنيبعل حصانه ببطء وتوجه به نحو قرطاج. كانت معركة زاما نهاية حلم طويل.

جلس سكيبيو على حصانه، وقد زمّ شفتيه. كان يعتقد أنه سيستمتع بمشاهدة أولئك الذين دمروا فخر روما في معركة كاناي وهم يسقطون صرعى. لكنه لم يشعر بالبهجة. كان عليه أن يوقف المذبحة ويعطي القرطاجيين فرصة الاستسلام المشرف. وحسب طريقة تفكيره الأرستقراطية فإنه ليس من النبل قتل عدو لم يعد يستطيع الدفاع عن نفسه. كان لا بدّ من رعاية الجرحى، وبتر الأطراف المصابة، وكي الجروح. أما أولئك الذين تعرضوا للطعن أو مزقتهم السيوف دون أن يكون هناك أمل في شفائهم فيجب أن يوضع حدٌّ لمعاناتهم. كان لا بد من تجميع الخيول السائبة، وأن تُحصى أعداد الموتى. تناثرت الآلاف من الجثث على رمال مدينة زاما، وقد تجعدت، سيقانها ملتوية بشكل غريب، وعيونها المعتمة تحدق في الموت. رفرفت الغربان من فوق جثة إلى أخرى. سقط من الجانب الروماني ألف وخمسمائة قتيل، ومن القرطاجيين أكثر من عشرين ألفاً[38].

38– عن المؤرخ بوليبيوس.

كان ردّ فعل المنتصرين بطرق مختلفة. اشتعل الغضب في بعضهم إلى حدّ جعلهم يقتلون أي جريح يصادفهم. حدّق آخرون ببساطة في المذبحة بوجوه شاحبة مذهولة. ومثل هنيبعل، امتطى سكيبيو حصانه وغادر الميدان، كان رومانياً وليس بربرياً متعطشاً للدماء، كانت آخر أوامره تتعلق بالموتى: «أقيموا المحرقة الجنائزية واحرقوا فيها جثث الذين سقطوا».

«وماذا عن القرطاجيين؟».

«لقد قاتلوا مثل الأبطال، الجميع سواسية عند الموت».

بالنسبة لـسكيبيو، فقد تحقق الانتصار بشق الأنفس. هنيبعل خسر أيضاً، ولكن ليس كثيراً. حادثة واحدة أحدثت فرقاً. في النهاية، توّج المعلم العجوز مآثره من خلال إعطاء منافسه الشاب درساً في التكتيكات. كانت محاولة سحب الفرسان النوميديين من الميدان من خلال عملية انسحاب مفبركة فكرة عبقرية خالصة. وقد نجحت تقريباً. ولولا تدخل ماسينيسا في اللحظة الأخيرة، لكانت نتيجة المعركة قد ذهبت لصالح هنيبعل. على المدى البعيد، أنقذت المعركة التي كان على وشك أن ينتصر فيها مدينته وحثّت الرومان على السعي لتحقيق السلام. وتماماً مثلما لم يتمكن هنيبعل من التغلب على روما عن طريق القوة، امتنع سكيبيو عن مهاجمة قرطاج المحصنة، وتمّ التوصل إلى سلام هش.

على الرغم من اعتراضات عشيرة هانو التي كانت تعادي هنيبعل، اختاره أهالي قرطاج حاكماً جديداً لهم. في السنوات التي تلت ذلك، حاول هذا القرطاجي المخلص عبثاً التغلب على الفساد والظلم الذي ابتليت به المدينة. بقي مستقيماً حتى عندما شوّه أعداؤه سمعته. وجاءت نهايته كما تنبأ العراف، عندما تحوّل الغوغاء عن الرجال الصالحين والطيبين ثم جرجروا أنبياءهم إلى مذبح القرابين. ما لم تستطع أن تحققه الأسلحة الرومانية أبداً، فعله معارضوه الذين كانت تأكلهم الغيرة منه. خانه أهله. أبناء قرطاج الغادرة! تعاون أعضاء مجلس الشيوخ مع روما لتسليمه، معتقدين أن هذا من شأنه أن ينقذ رقابهم. وهرباً من الإهانة، فرّ

هنيبعل على متن سفينة. طارده الرومان في جميع أنحاء الشرق الأوسط بأكمله إلى الأناضول، حيث حصل على حماية بروسياس ملك بيثينيا[39]. لم يكن ذلك بلا مقابل كانت بيثينيا تخوض حرباً ضد جارتها مملكة بيرغامون. كانت قضية السيطرة على المضائق الحيوية الممتدة من البحر الأسود إلى البحر الأبيض المتوسط على المحك. لعب هنيبعل دوراً مهماً في انتصار البيثنيين البحري عندما جعلهم يملؤون الجرار الفخارية بالأفاعي السامة ومن ثم ألقوها على سفن أعدائهم.

أما بالنسبة إلى عدوه، سكيبيو الإفريقي فقد كان يركز على استعداداته للقتال عندما شنّت روما هجوماً ضد أنطيوخوس الثالث، ملك سوريا السلوقية. في أوائل عام 192 ق.م، عبر سكيبيو نهر هيلسبونت وغزا سوريا. قبل أن يحين وقت المعركة، أصيب سكيبيو بالمرض واضطر إلى التخلي عن القيادة إلى غناس دوميتيوس (قنصل ماغنيسيا سنة 190 ق.م). كانت الاستراتيجية التي انتصرت قد وضعها سكيبيو بالكامل. ولكن ذهبت أمجاد النصر إلى دوميتيوس. كان يمكن نسيان هذه الحرب لو لم تشهد حدثاً تاريخياً حقيقياً. التقى هنيبعل برقا والقائد الإفريقي بابليوس كورنيليوس سكيبيو للمرة الأخيرة. سجل المؤرخون المعاصرون تفاصيل لقائهم وحددوا مكانه في مدينة أفسس عام 192 ق.م.

سكيبيو الإفريقي: «من هو القائد الذي تعتبره يمتلك أعظم عبقرية عسكرية؟».

هنيبعل: «الإسكندر المقدوني».

«وفي المركز الثاني؟»

«بيروس الإيبيري».

«إذاً، من الذي ستضعه في المركز الثالث؟»

ومن دون تفكير، أجاب هنيبعل: «أنا! عندما كنت شاباً، غزوت إيبيريا.

39- تقع مملكة بيثينيا بين البحر الأسود وبحر مرمرة.

كنت أول من يعبر جبال الألب بعد هرقل. ثم انتقلت إلى إيطاليا ولم يكن لدى أحدكم الشجاعة لمواجهتي بينما أحرقت 400 مدينة من مدنكم وحتى هددت روما نفسها؛ وكل ذلك دون أدنى مساعدة من قرطاج»[40].

فكر سكيبيو قليلاً، ثم قال: «لكن ما هو المركز الذي ستعطيه لنفسك لو لم أهزمك في معركة زاما؟».

«حسناً، في هذه الحالة كنت سأضع نفسي قبل الإسكندر».

عاد سكيبيو، الذي بات يعرف الآن باسم الرائد الإفريقي، إلى روما. وبسب الوهن الذي أصابه بسبب التقدم في العمر والمرض، لم يعد المحارب الأشيب ذا فائدة. اتهمه أعداؤه في مجلس الشيوخ بالاختلاس. كانت التهمة باطلة، لكن عار خيانة شعبه له دفعه إلى التقاعد الطوعي. تمّ محو كل ما تبقى من أشياء تشير إلى إنجازاته الشخصية. وشمل ذلك علامات انتصاره في معركة زاما.

وجّه بروسياس ملك بريثنيا سؤالاً إلى هنيبعل عن الرجل الذي هزمه في المعركة: «لقد تمّت الإطاحة بسكيبيو. هل يجعلك هذا سعيداً؟».

«ولماذا يجعلني سعيداً؟ لقد كان الروماني الوحيد الذي أكنّ له الاحترام».

«كم أنت غريب يا هنيبعل يبدو أنه يجب على المرء أن يهزمك ليكسب احترامك».

في سنة 183 ق.م، نجحت روما أخيراً في الوصول إلى هنيبعل. في صفقة سياسية مشبوهة، وعد القنصل الروماني فلامينينوس الملك بروسياس أن تقدم روما مساعدة عسكرية له في حرب مملكته بيثينيا المستمرة ضد مملكة بيرغامون. لم يكن الثمن أقل من رأس هنيبعل.

أجاب الملك بروسياس «إنه ضيفي، وحياة الضيف مقدسة».

«والمساعدة التي طلبتها؟»

40- راجع: A. Müller, Gespräche zur Weltgeschichte, Stuttgart, 1965.

«وهذا يقودنا إلى جوهر القضية! هل يليق بي أنا، أقوى الملوك، أن أطلب معروفاً من شخص من عامة الناس!».

بدا فلامينيوس غاضباً. «أنا لست من عامة الناس! أنا قنصل روما».

تراجع براسيوس الماكر عن كلامه بسرعة: «فليكن. سأمنع هنيبعل من عبور حدود بلادي».

«أيها الملك، أنت تمنح شيئاً كانت روما قد حقّقته بالفعل بقوة سلاحها. كلا، يتوقع منك مجلس الشيوخ أن تقدم لهم دليلاً على أن تملك ما هو أكثر من مجرد الفائدة التي تفكر بها. إنهم يطالبون برأس هنيبعل».

«وما هو الثمن الذي ترغب روما في دفعه مقابل ذلك؟ أبناء شعبي يحبون هنيبعل. فإذا خنته، فقد يخونوني».

«في اليوم الذي تسلم فيه هنيبعل، ستدفع روما دينها».

إنها روما الغادرة... أثناء معركة مغنيسيا، كان دور سلاح الفرسان لمملكة بيرغامون فعّالاً في مساعدتهم على هزيمة الملك أنطوخيوس ملك سوريا، والآن يبيعون صداقتهم مقابل رأس رجل واحد. وهكذا كان. بمجرد أن تغلبت السياسة الواقعية على الشرف، تقرر مصير هنيبعل.

في صباح اليوم التالي استيقظ القائد القرطاجني ليكتشف أن مقر إقامته في مدينة ليبيسة (جبزى) كان محاطاً بالجنود، وأن جميع المخارج كانت مغلقة وأن مضيفه كان يستعد لتسليمه إلى القنصل الروماني. وصل هنيبعل، الذي كانت تعذبه شكوكه الذاتية وكبر سنه حيث تعدى عمره ما بعد الأربع والستين سنة، إلى نهاية مسيرته الأسطورية الطويلة. ولكن في لحظاته الأخيرة كان هناك شيء رائع في ذلك الرجل الذي تحدّى قوة عظمى في العصور القديمة لسنوات عديدة. بدا أن هنيبعل العظيم كان يخرج من قبره بقدر ما كان يستعد للنزول فيه. رأى الأشباح في انتظاره؛ غرق والده في الطوفان، وإخوانه ذاهبون إلى الموت في المعركة. كان قدر أبناء برقا أن لا يموتوا ميتة طبيعية. والآن جاء دوره.

يا آلهة الانتقام، أدعوكم لتشهدوا على مقتل شخص حلّ ضيفاً ومعاقبة

من تسبب في وفاة رجل أعزل. اللعنة على ملك بيثينيا الذي خان ضيفه. وليحل الدمار بروما.

شعر الضابط الروماني الشاب المكلف بمهمة القبض عليه بالرهبة في حضرة أعظم الأعداء الذين واجهتهم بلاده على الإطلاق فخاطبه قائلاً: «هنيبعل العظيم، لا ترحل وشفتاك تتمتمان باللعنات. اذهب بسلام».

«السلام، يا بني، لم أعرفه أبداً. ليس الأمر بيدي، طالما أني أتنفس فإن هناك عهداً يعيش معي أخذته على نفسي وأنا طفل. لكن كل هذا يبدو شيئاً من الماضي. فالعشب ينمو فوق ميادين قتالنا. لقد تولى جيل جديد الأمور، سيتمّ نسيان كل شيء قريباً. سوف تصبح أسماؤنا هي الغبار الذي تذروه الرياح». ما كان بالإمكان تصور أن هنيبعل سيكون مخطئاً إلى هذا الحد. على العكس ففي الألفيات القادمة، سيرتبط اسم هنيبعل بالعظمة، وسيكون الرمز الخالد للشجاعة والعبقرية.

لم تكن هناك جرأة أكبر من جرأة ملامحه، ولا أكثر تحدياً من النظرة التي ارتسمت على وجهه لحظة رفع كأس السم إلى شفتيه، وشربه. كان موته الذي اختاره بنفسه آخر ما فعله في ازدرائه للمحن، والإيماءة الأخيرة للصدق أمام نفسه والتاريخ.

عندما وصل الخبر إلى سكيبيو الإفريقي، نظر إلى السماء قائلاً: «أنا حزين على الرجل، وليس على القرطاجيين». وقد أشاد شعب قرطاج وروما بشجاعة هنيبعل الهائلة. حملت تابوته مفرزة من الجنود الرومان وتمّ دفنه ليرقد بسلام بكل إجلال واحترام في ضريح من الرخام في مدينة هيراكليا على شاطئ بحر بونتوس يوكسينيوس (البحر الأسود).

نُقشت مقولة سكيبيو على شاهد قبر القائد القرطاجي العظيم: «أيها الوطن الناكر للجميل! أنت لا تستحق حتى عظامي». لقد بقيت شاهدة قبره شاخصة لأكثر من ألف عام قبل أن يدمرها الأتراك الغاضبون.

إنها واحدة من المفارقات العظيمة أن يتشارك رجلان عظيمان، وعملاقان حقيقيان من بين القادة العسكريين على مرّ التاريخ، المصير ذاته

تقريباً. أصبح سكيبيو، الذي كانت المواكب تسير تكريماً له، وهتف له آلاف الأفراد بصفته منقذاً لروما، وهو يرتقي درجات المنتدى مزيناً بأكاليل النصر ومنحه مجلس الشيوخ في روما لقب الشرف «الإفريقي الأكبر»، شخصاً منبوذاً، يعيش سنواته الأخيرة في عزلة في أملاكه في نابولي.

عاش القائد الروماني بعد منافسه القرطاجي لمدة ثلاثة أشهر فقط. ومثل هنيبعل، مات بوبليوس كورنيليوس سكيبيو الإفريقي الأكبر وحيداً. «أريد أن يتذكر الناس ما فعلته وما حاربت من أجله... لا أكثر ولا أقل». وقد منحه التاريخ أمنيته الأخيرة.

أما بالنسبة لقرطاج، فإن غدرها لم يستطع أن يحافظ عليها. تمّ تدمير المدينة بعد مرور سبع وثلاثين سنة على موت هنيبعل. كانت نهايتها سريعة بقدر ما كانت وحشية. فقد سادت الكراهية. أثار كاتو، زعيم أغلبية مجلس الشيوخ، مشاعر أعضاء المجلس حين خاطبهم قائلاً:

«أنا أؤمن إيمانا قوياً بضرورة تدمير قرطاج».

لو كان مستشار هنيبعل الحكيم قد تغلب على مجلس الشيوخ الفاسد والضعيف، لكانت قرطاج قد نجت من نوبة الإرهاب الأخيرة. ولكن ذهبت تلك الأيام التي كان فيها هنيبعل ذو الشخصية الجذابة يُلهم الرجال على التطوع للقتال من أجل إنقاذ بلادهم. وقد جعلها خوف وضعف تجارها الأثرياء وحكامها مكشوفة للأعداء بلا رحمة. طلبت روما أن يتوجه سكان قرطاج بعيداً عن الشاطئ ويتركوا المدينة، وهذا الإنذار النهائي وجّهه السناتور ماغنوس بورسيوس كاتو الذي كان يكره قرطاج. قام حفيد سكيبيو الإفريقي وهو في الأصل ابن صديقه باولوس وقام هو بتبنيه، وأصبح اسمه بوبليوس سكيبيو أميليانوس بعبور البحر ليفرض حصاراً على قرطاج. ظلت المدينة معزولة عن كل مساعدة خارجية لعدة أسابيع من خلال طوق من الجحافل الرومانية. أهلكها الجوع والأمراض المعدية. توفي تسعة أعشار سكانها وواجه الباقون احتمال الموت بسيوف الرومان. في سنة 147 ق.م، وفي المساء قبل أن يستعد

سكيبيو أميليانوس لهجومه الأخير، قام بتجميع جيشه وقام بترديد تعويذة (الخلاص) devotio[41]، داعياً آلهة الجحيم إلى معاقبة أعداء روما.

«شتتيهم إلى الأبد، انشري بذور الخوف والرعب في بلدة قرطاج وجيشها الذي أدعوه باسمه الحقيقي. واجعلي أولئك الذين يحملون السلاح ويطلقون رماحهم ضد جحافلنا وجيشنا، يختفون، واسلبي النور من هذا الجيش، وهؤلاء الأعداء، ورجالهم في المدن، وحقولهم وجميع سكان هذه المناطق»[42]. بعد ما يقرب من سبعين سنة من ذلك اليوم، كان المنتقمون للهزيمة في معركة كاناي جاهزين، وعيونهم مليئة بالكراهية.

كان الوقت عند الظهيرة، وكانت المدينة ترقد ميتة بلا ظل عندما تسلق الجيش الروماني أسوار المدينة وشرع في القتل في الشوارع. في المرحلة الأخيرة من الحصار، حاول سكيبيو أميليانوس إظهار بعضٍ من نبل ذلك الرجل الذي سُمِّي على اسمه، سكيبيو الإفريقي، لكن مجلس شيوخه أصدر تعليمات صارمة بتدمير المدينة. حوّل الرومان لؤلؤة البحر الأبيض المتوسط إلى مدينة أشباح، خاوية بلا حياة، ليس فيها سوى أكوام من الركام تشير إلى المكان الذي كانت تنتصب فيه بيوت الأرثوذكس ذات يوم. وقد رقد أصحابها تحت أكوام من الحجارة والأخشاب تبعث على الحزن، أولئك الذين خانوا هنيبعل. ظلت المدينة تحترق لسبعة عشر يوماً. بعد ذلك قامت جحافل روما برش الملح فوق الأرض لجعل تربتها غير صالحة للزراعة. لم يحدث أي تدمير مشابه لمدينة كبرى لا قبل ذلك التاريخ ولا بعده، بما في ذلك الدمار الناجم عن القنابل الذرية، لم يشهد أي مكان ولو بشكل تقريبي ما حدث لقرطاج. اختفت كما لو أنها لم تكن موجودة.

41- باللاتينية في الأصل. المترجم.

42- الديفيتو devotio أصلها من كلمة ديفيتورا devotare اللاتينية وتعني إلقاء تعويذة شريرة ذكر نصها الكاتب ماكروبيوس ممثل القنصل في أفريقيا في كتابه عيد الإله ساتورن.

لقد تُرِك الأمر لنظرة يوليوس قيصر الجيوسياسية للتعرف على موقعها بسبب أهميتها الاستراتيجية والتجارية. في سنة 46 ق.م وُضِع الأساس لبناء مدينة قرطاج جديدة. حلّت الأعمدة والمدرجات الرومانية محل معبد الإله بعل، وكانت اللغة السائدة هي اللاتينية.

بعد اغتيال قيصر، أكمل القيصر أوكتافيوس عمل عمه، وباعتباره الإمبراطور أغسطس، فرض «باكس رومانا أو السلام الروماني «الخاص به[43] على عالم العصور القديمة، وهو أمر أصبح ممكناً حينها بفضل اختفاء أكبر منافسي روما في البحر المتوسط.

كان حسم قرار من يجب أن يحكم العالم القديم هو قصة معركتين.

الأولى هي معركة كاناي، التي خطط لها رجل واحد، ونفذها رجل واحد وانتصر فيها رجل واحد. ربما كانت أفضل مثال على إحراز نصر لا يعتمد على الصدفة والغباء. لقد هاجمت أفضل قوات هنيبعل عدوها في أسوأ الاحوال، ومع أن جحافل فارو الرومانية المتمرسة في القتال حوصروا في الوسط على يد مقاتلي القوات المساعدة لقرطاج، إلّا أن معركة كاناي أصبحت نموذجاً كلاسيكياً لأعمال الإبادة. ومع ذلك، فإن معركة كاناي لم تحسم شيئاً. فقد حسمت معركة زاما كل شيء، وبالتالي أصبحت إحدى المعارك المفصلية في التاريخ. لقد كانت أشبه بمعركة (واترلو) بالنسبة إلى هنيبعل، نتيجة لتأثير الصدمة التي أحدثتها صرخة «هنيبعل عند الأبواب!» استيقظت روما المطمئنة وقادتها إلى عظمتها النهائية. عندما بدا أن الجميع ضائعون، انبعث طائر الفينيق الروماني من الرماد، وصنع آلة حربية جبارة ثم استخدمها لغزو العالم.

إلى آخر أيام هنيبعل في الحكم، كانت السياسة، وعلاقتها بالسلطة القرطاجية، جزءاً لا يتجزأ من استراتيجيته، لكن تحليلات حملاته من قبل معاصريه، ومعظمهم من الرومان واليونانيين، ركّزت بالكامل على

43- فترة طويلة من السلام والاستقرار النسبيين حدثت في الإمبراطورية الرومانية. المترجم.

الجانب العسكري البحت. كان تأثير حملاته على روما عميقاً إلى حدّ أن الهزيمة التي حدثت في عامه الأخير لم تفعل شيئاً للتقليل من مكانته الرفيعة. درس القادة العسكريون الرومان حملاته واعتبروها قمة في الخطط الحربية؛ حاولوا توضيح أسرار استراتيجية هذا القائد القرطاجي وأفكاره وتحركاته القتالية، ليس لفهم ما قام به فحسب ولكن للتحضير لحروب المستقبل.

تكمن عظمة هنيبعل في قدرته غير العادية على التغلب على الاحتمالات المستحيلة. ومن خلال اختراق ذهن خصمه، كان ينطلق من الاستنباط إلى التخطيط للعمل، وكان مستعداً للدخول في مجازفات هائلة، ولكنه كان أيضاً قادراً على الحدّ من طموحه. لم يستفد أسلوبه في تحيّن الفرص للقيام بالعمليات القتالية من أي أساليب نموذجية ومحددة سلفاً، بل استغل الثغرات إلى أقصى حدّ ممكن بأي وسيلة متاحة له. وبفضل مهاراته التكتيكية والاستراتيجية البارعة في ظل احتمالات هائلة، واجه أكثر الدول ديناميكيةً وفاعلية من الناحية العسكرية، وحجز له مكاناً كواحد من أعظم ثلاثة قادة عسكريين في كل العصور.

في معركة زاما، استخدم سكيبيو الإفريقي خياله لوضع استراتيجية لخصمه قبل إشراك قواته في المعركة الحاسمة. ولربما لم ينجح في ذلك إلّا أن الفيل استدار نحو الطريق الخطأ. الحظ يقف دائماً إلى جانب المنتصر.كان الأمر بالنسبة للقرطاجيين، صراعاً من أجل البقاء؛ أما بالنسبة للرومان فقد كانت معركة من أجل الهيمنة العالمية والتفوق[44].

قبل معركة ميتوريوس، كانت روما أمة عسكرية إيطالية. بعد معركة زاما، أصبحت القوة العظمى في العالم القديم.

44- راجع: A. Müller, Gespräche zur Weltgeschichte, Stuttgart 1965.

الجزء الرابع

القياصرة

102 – 44 ق.م

من ماريوس إلى قيصر
(دعهم يكرهوننا طالما يخافون منّا).
من كتاب الفيلبيات لشيشرون (106–43 ق.م)

الفصل التاسع

حامي روما
معركة أكواي سكستيا
2 تموز 102 ق.م

«من العار على القائد في ميدان المعركة، أن يتفوق مقاتلوه عليه في الشجاعة، ومن العار على المقاتلين أن لا يصلوا إلى بسالة زعيمهم. يقاتل القادة من أجل النصر، والمقاتلون من أجل قائدهم».

• *من كتاب جرمانيا للمؤرخ تاسيتُس*

كان القنصل غايوس ماريوس هو الملاك الحارس لروما. وعلى أساس النظرة الموضوعية إلى التاريخ، فإن ماريوس فعل من أجل بقاء عزّ روما أكثر مما فعله الآخرون. لقد أنقذها من الدمار، ولا شيء أقل من ذلك. من حسن حظ الأجيال التالية، أن اثنين من الكتاب الرومان قد سجلوا مآثره - تاسيتُس وفلوطرخس.

كان قادة جيوش روما خاضعين لمجلس الشيوخ، يتلقون الإرشادات منه وينفذون أوامره، وبعد أن يحين موعد تقاعدهم ينشغلون في زراعة العنب في مزارعهم، التي منحهم إياها مجلس الشيوخ، ولا يتدخلون في عالم السياسة مطلقاً. لقد تغيّر هذا الأمر فجأة في ظل غايوس غراكوس المولود

في عائلة أرستقراطية والذي اختار أن يكون زعيم العامة، وشكل حزباً من عامة الناس(135-121 ق.م) ثم قاد شخصيات من العامة لتتولى مناصب في مجلس الشيوخ. بعد وفاته وبناءً على طلب من الأعضاء الأرستقراطيين في مجلس الشيوخ، انتخب الأعضاء من العامة قائداً عسكرياً غير معروف ولست مرات متتالية كممثل وقنصل لهم. كان اسمه غايوس ماريوس.

في عام 113 ق.م، أو (DCXL) كما يكتب وفقاً للتقويم الروماني (أو بعد 640 عاماً من تأسيس روما في عام 753 ق.م)، ظهرت فجأة من الغابات الكثيفة على طول الضفة الشمالية لنهر الدانوب في منطقة نوريكوم (النمسا)، حشود كبيرة لرجال عمالقة شقر ذوي عيون زرق، طويلي القامة لدرجة أن أفراد حامية مدينة كارنونتوم الرومانية المتواجدة على نهر الدانوب وبمجرد أن ألقوا نظرة واحدة عليهم، ألقوا بأسلحتهم وفروا. كان هؤلاء هم المحاربون الكيمبري (بالألمانية تعني كلمة Kämpfer المحارب، ويلفظها الرومان Cimbri الكيمبَري) من أقوام التيتون. أدّت الفيضانات الغزيرة إلى تدمير أراضي أوطانهم الأصلية (شليسفيغ هولستاين وشبه جزيرة غوتلاند في الدنمارك) وأجبرتهم على التجوال بحثاً عن مراعٍ جديدة. جمعوا زوجاتهم وأبقارهم وأواني طبخهم وسيوفهم وانطلقوا في مسيرة طويلة. من النمسا، حيث تمّ إيقافهم من قبل فيلق روماني بقيادة القنصل بابيريوس كاربو فسحقوه تماماً، انتقلت حشودهم الضخمة إلى هيلفيتيا (سويسرا)، حيث انضمت إليهم قبيلة محاربة أخرى هي قبيلة، أمبرونس. تمّ التعرف على هذه القبائل الثلاث جميعاً لأول مرة في بلاد الغال (فرنسا) في عام 110 ق.م، وهي متجهة إلى أسفل وادي الرون. التقى القنصل الروماني سيلانوس مع زعماء القبائل، وألقى نظرة على حشودهم الضخمة، ورفض بازدراء طلبهم له بأن يمنحهم أرضاً ليستقروا فيها. لقد قلّل بدرجة كبيرة من التهديد المحتمل الذي تشكله هذه الموجة البشرية على إيطاليا أثناء تنقلها. حاول سيلانوس منعهم من مواصلة رحلتهم، لكن قواته التي تمّ تجميعها بشكل

ارتجالي، والمؤلفة بشكل أساس من قوات الاحتياط والمكلفين غير المدربين، عانت من المصير الكارثي نفسه الذي تعرض له رجال القنصل كاربو قبله. مات أكثر من مائتي ألف روماني بضربات فؤوس العمالقة الشقر. ما لم يتمكن سيلانوس من تحقيقه بمائتي ألف مقاتل، حاول القنصل ماليوس ماكسيموس بعد ذلك تحقيقه بثمانين ألفاً من مقاتلي الجيش الروماني المدربين. في عام 105 ق.م، التقى مع القبائل في منطقة أراوسيو (تسمى حالياً أورانج) على نهر الرون. تحوّلت تلك المعركة إلى واحدة من أسوأ الكوارث التي لحقت بالجيوش الرومانية. عند مواجهة حشد يضجّ بالصراخ من عمالقة الشمال، ترك المقاتلون مواضعهم وفروا مذعورين. وأثناء محاولتهم للهروب عبر نهر الرون الواسع، قُتلوا جميعاً. بعد المعركة، قام المنتصرون بجمع ما يصل إلى أربعين ألفاً من المقاتلين غير الرومانيين وذبحوهم.

فجأة بدأ يلوح في الأفق شبح غزو الأراضي الإيطالية. لم يكن هناك شيء يقف بين البرابرة الشقر وشبه الجزيرة الإيطالية، لا شيء سوى بعض مقاتلي الكتائب وكانت معنوياتهم منخفضة ويختبئون مرعوبين خلف جدران ماساليا (مرسيليا). ارتعد مواطنو روما من الخوف، وأُصيب مجلس الشيوخ بالذعر واستدعى مستشاره المختص، القنصل غايوس ماريوس. لقد كان رجلاً من سلالة من الفلاحين صلبة، وكان مواطناً رومانياً حرّاً، ولكنه لم يكن أبداً جزءاً من الطبقة الأرستقراطية الحاكمة. بفضل ذكائه الفلاحي وأعصابه الباردة في المواقف الصعبة، تسلق درجات السلم العسكري. وحين أصبح قائداً رومانياً استطاع أن يُخضع القبائل المتمردة في إسبانيا. في وقت وقوع الكارثة كان في شمال أفريقيا، مشغولاً بالتعامل مع مشاكل النوميديين الشرسين. ومن خلال غدرها المعتاد، هاجمت روما المحاربين، مما أدى إلى انتصار سكيبيو أفريكانوس على هنيبعل. وبخبرته، أصبح ماريوس حامي روما، وأملها الأخير في الخلاص. كانت مهمته الأولى هي وقف تقدم البرابرة نحو غزو الولايات الرومانية.

أبحر ماليوس نحو ماساليا بصحبة طاقمه، وكان يضم الكويستور[1] الشاب لوسيوس كورنيليوس سولا، والذي سيقَّدر له أن يلعب دوراً حاسماً في حياة القنصل. ما كان ينتظره عند وصوله كان حدثاً مخزياً، كشف عن ضعف دفاعات روما وجبن قواتها. كانت هناك حفنة من المقاتلين غير المنظمين، يعانون من نقص في السلاح ومعنوياتهم عند الصفر. كانت مهمة ماريوس الأولى هي جعلهم يتغلبون على مخاوفهم من عمالقة قبائل التيوتوني، وزرع الثقة بين صفوفهم. لم يكن هناك شيء يمكن أن يفعله حيال البرابرة إلى أن تتمّ إعادة تنظيم صفوف مقاتليه المحبطين. كان الحظ معه. حدث ذلك في وقت متأخر من فصل الشتاء، وقرر زعماء قبائل الكيمبري والأمبرونوس والتيوتون وقف رحلتهم جنوباً ونصب مخيم شتائي على طول نهر الرون بالقرب من بلدة أفينيون، قبل محاولة المجازفة بعبور النهر الخطير أثناء فصل الربيع الذي كان على الأبواب. حدث شجار بين القبائل جعل قبيلة الكيمبري تنفصل عن قبيلتي التيوتون والأمبرونوس فقد غادر مقاتلوها للقيام بأعمال نهب في إسبانيا، ولكن تمّ إيقافهم في ممرات جبال البرانس من قبل القبائل السلتية الأيبيرية. قلص انفصال قبيلة الكيمبري من فعالية القبائل بشكل عام، ولكن تفوقها العددي كان لا يزال عند نسبة عشرة إلى واحد.

منح الشتاء أشهراً ثمينة لماريوس، استثمرها في القيام بجلسات تدريب وغسيل دماغ صارمة. وهكذا أصبح ماريوس أول من ابتكر الحرب النفسية. «التيوتونيون ليسوا من عرق متفوق علينا»، ظل يصرخ في وجه رجاله في جلسات يومية. «سنهزم هؤلاء البرابرة». لم يقل علانية إنهم لن يتمكنوا من مواجهة رجال التيوتون العمالقة في القتال ما لم تصبح الظروف أكثر ملاءمة. كان للقبائل ما يزيد عن مائتي ألف فرد من المحاربين القاسين المدججين بالسلاح، يقابلهم عشرون ألف مقاتل.

1- لقب منصب كان يتولّى صاحبه الإشراف على الشؤون المالية في الدولة وتدقيق الحسابات النقدية. المترجم.

كان ماريوس رجلاً يؤمن بالخرافات كثيراً وكان يؤمن بالنجوم، وذبح القرابين ونبوءات العرّافين، ولا يدخل معركة إلّا بعد أن يتلقى البركة الإلهية من كائن أعلى. لذلك كان يحتفظ دائماً بعرّافه الشخصي إلى جانبه، وهي امرأة تُعرف باسم مارثا الساحرة. تلبس رداءً أرجوانياً، ممسكة برمح وقد تزينت بشريط فوق رأسها، كانت مارثا تذبح قرابين من الحيوانات إلى الآلهة وتتنبأ بالغيب باستخدام رماد عظامها. نصحت ماريوس بالتحلي بالصبر، وثق ماريوس بها. وقد كانت نصيحة جيدة.

أمضى ماريوس فصل الشتاء لسنتي 103/ 102 ق.م. في معسكر في مدينة أرناغينوم (تقع في سان غابرييل في منطقة كامارغ). مع بزوغ أولى أشعة الشمس الحارة، تحركت حشود قبائل التيوتون والأمبرونوس ضد معسكره المحصن. لم يحاولوا الاستيلاء على المعسكر بالهجوم عليه، كانوا يسخرون من الرومان ويشتمونهم لإغرائهم بالتقدم خارج دفاعاتهم. لم يهتم ماريوس لأي من هذه الأفعال؛ لقد كان هناك لإنقاذ روما، وليس للدخول في مناوشات سخيفة لا يمكن له أن ينتصر بها. حتى إنه رفض الخضوع للاستفزاز والدخول في قتال منفرد مع زعيم قبيلة التيوتون. وحتى لا يتمّ اتهامه بالجبن، برّر ماريوس فعلته لرجاله بالقول: «إنها ليست مسألة كسب انتصارات شخصية والحصول على غنائم، ولكن لتجنب عاصفة الحرب وإنقاذ روما». عندما ظل زعيم قبيلة التيوتون مصراً، أرسل ماريوس مصارعاً ليحل محله. لا يوجد كتاب يذكر نتيجة المواجهة.

بعد بضعة أسابيع من قيام الطرفين برمي الرماح وصبّ الشتائم على بعضهما البعض، سئم الرماة غير المنضبطين من البقاء في حالة انتظار أمام دفاعات مدينة أرناغينوم العالية. فتركوا مواضعهم لمواصلة مسيرتهم جنوباً (102 ق.م). كان ماريوس يشاهد لمدة ستة أيام كاملة من موقعه في جبل لي بو، مجموعة لانهائية من العربات تتحرك في الوادي، قبل أن ينطلق بملاحقتها. شقّت الحشود الضخمة من المحاربين والنساء والعربات والماشية طريقها بشكل مؤلم عبر العديد من المستنقعات

والبحيرات الضحلة في منطقة كامارغ، قبل أن تعبر نهر الرون دون أن تتعرض لمضايقة ثم سارت على طول نهر دورانس. قام ماريوس ورجاله البالغ عددهم عشرين ألفاً، من مواقعهم الآمنة في سلسلة جبال لوبيرون، بمراقبة تقدمهم البطيء عن كثب. منذ رفض القنصل الروماني الدخول في قتال، تحول الوضع في الأشهر القليلة التالية إلى حالة من الترقب. وسخر مقاتلو قبيلة التيوتون من الحراس الرومان الذين يصطفون فوق المنحدرات التي فوقهم: «هل لديكم أي رسالة لزوجاتكم؟ سنكون قريباً معهن، وننام في فراشكم». بدأت الجحافل، التي حُكم عليها بعدم التحرك فوق الأرض المرتفعة، تعاني من نقص المياه. لقد أظهر مقاتلوها نفاد صبر متزايد، إن لم يكن تمرداً، إلى درجة باتوا يتوقون فيها فعلياً للقتال. وهذا كان من ناحية أخرى مناسباً لماريوس.

«لماذا لا تسير بنا إلى الأسفل قبل أن تجف دماؤنا؟» أراد مقاتلوه الظامئون أن يعرفوا.

ردّ عليهم قنصلهم «كل شيء في الوقت المناسب». كانت استراتيجيته بسيطة جداً: جعل الأعداء يشعرون بالاطمئنان، وفي الوقت نفسه، يزيد من الروح القتالية لجحافله. ولكن قبل أن يفكر في أي هجوم، كان عليه تقسيم القبيلتين إلى «أقسام ذات أحجام يمكن التحكم فيها». كان سيروريوس أحد مساعديه من الشباب، قد اتخذ له موضعاً على نهر الدانوب وكان يتحدث لغة قبيلة التيوتون بطلاقة؛ قام في إحدى الليالي بالتجول في المعسكر البربري وتظاهر بأنه هرب من السجن الروماني في ماساليا. وأثار شهيتهم للذهاب إليها من خلال أحاديثه عن مدينة من الكنوز الهائلة، مجردة عملياً من الدفاعات الخارجية وجاهزة لأن يستولوا عليها. انطلت عليهم الحيلة. في اليوم التالي، وبالقرب من منطقة أكواي سيكتيا سالوفيوروم (مقاطعة إيكس أن بروفانس حالياً)، قررت قبيلة التيوتون الانفصال عن قبيلة الأمبرونس والتوجه للبحث عن الذهب في ماساليا. وأصبح ما يفصل القبيلتين مسيرة يوم واحد.

وصف غايوس ماريوس الوضع حينها بالقول: «بإمكان جحافلي أن تتخلص من البرابرة واحداً تلو الآخر. لكن يجب أن نسحبهم إلى أرض المعركة المناسبة. هم إلى الآن يتصرفون بذكاء شديد بحيث لا يتمّ القبض عليهم بهذه الطريقة. لكن حتى الأذكياء يرتكبون الأخطاء». تمّ العثور على «أرض مناسبة للقتال» عندما وصلت قبيلة الأمبرونس إلى وادي القوس، وهو مكان جميل يحوي منحدرات لطيفة وينابيع دافئة. كانت العائلات الرومانية من مقاطعة إيكس أن بروفانس تستخدمه كمنتجع صحي وهو المفضل لديها. قامت قبيلة أمبرونس بالتخييم في وادي الجنة هذا بالقرب من الآبار، في حين كان مقاتلو جحافل روما في أعلى التلال والعطش لا يزال يفتك بهم.

«غايوس ماريوس، يجب أن يكون لدينا ماء وإلا سنموت من العطش».

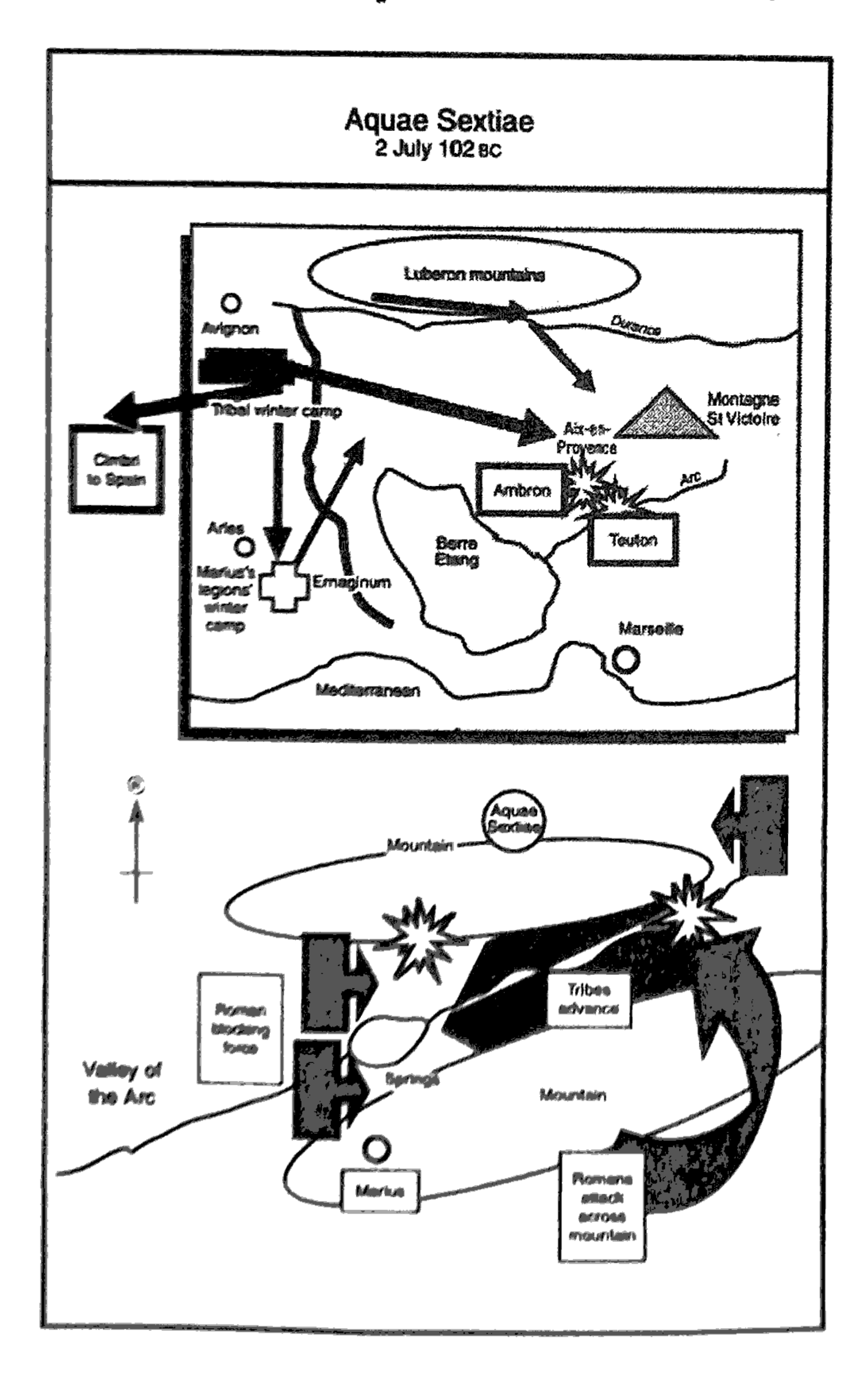
أجاب قائدهم: «من حقكم، لكن يجب أن تحصلوا على الماء بدمائكم»، وبذلك وجّههم إلى ما يريدهم أن يقوموا به دون أن يعلموا بذلك. كانت الحادثة التي تلت ذلك بسيطة في حدّ ذاتها ولكنها ساعدت في تغيير مجرى التاريخ. كان أفراد إحدى الوحدات الرومانية، قد نال منهم العطش لدرجة أنهم كانوا على استعداد لترك صفوفهم، والمجازفة والحصول على ما يحتاجونه؛ هرعوا إلى أسفل التل مصطحبين معهم أوعية ودلاء، ومسلحين بالسيوف، لكي يجلبوا الماء. قابلوا حفنة من نساء القبائل يقمن بغسل الثياب، وكن محميات من قبل حفنة من المحاربين. نظراً لوجود عدد أكبر من الرومان أكثر من العمالقة الشقر، تعامل مقاتلو الجحافل مع البرابرة بسرعة. جلبت صيحاتهم بضعة مقاتلين آخرين من قبيلة الأمبرونس إلى مكان الحادث، جاء بعضهم مباشرة من حيث كان يأخذون حمامهم الرائع في الينابيع الحارة، غير مسلحين ويتعين عليهم خوض المعركة بقبضاتهم العارية. تغلب الرومان المدربون جيداً، والمدججون بالسلاح، عليهم بسهولة. سارع عدد أكبر من المقاتلين إلى النزول لمساعدة رفاقهم، وسرعان ما تطور القتال إلى معركة منتظمة مع اندفاع البرابرة بأعداد متزايدة إلى أرض المعركة. ظل

مقاتلو الأمبرونس يصلون بشكل عشوائي، في حين كان الرومان يصلون بشكل كتائب منظمة. لم تكن لدى البرابرة أية فرصة للنجاح أمام جحافل منضبطة. كانت حادثة مدبرة بشكل جيد جعلت مسألة الحسم تعود من جديد بيد ماريوس. ومثل فيضان من الدروع، تدحرجت جحافله أسفل المنحدرات، وخاضت القتال بعزم شديد، تخترق العمالقة الشقر لتقسمهم إلى مجموعات أصغر وأصغر، ليتمّ ذبحهم على يد كتيبة رومانية راسخة. مع صراخ قبيلتهم القتالي «أمبرا!»، حملت حتى نساء الأمبرونس السلاح. ولكن دون جدوى - فقد امتلأ جدول المياه الرائع حدّ الاختناق بأجساد البرابرة الموتى والمحتضرين. «كانت تسمع صرخات مقاتلي قبيلة الأمبرونس المهزومين طوال الليل، ولم تكن مثل تنهدات وآهات الرجال ولكن مثل عواء وحوش برية»[2]. وهكذا هلكت أمة الأمبرونس.

لم يكن لماريوس وقت لتذوق النصر. أخبره جواسيسه أن رجال قبيلة التيوتون المخيفين كانوا بالقرب منه. هجومهم المتوقع لم يتحقق، لكن مع ذلك فإنه ترك ماريوس مع مشكلة التعامل مع قبيلة التيوتون الكبيرة العدد. هل يتراجع إلى التلال؟ كان الأوان قد فات على ذلك. يجب اتخاذ القرار خلال ثمانٍ وأربعين ساعة. أبقاه جنود الاستطلاع على اطلاع بكل تحركات التيوتونيين. دخلت القبيلة إلى وادٍ بموازاة مواضعه. قبل حلول الظلام، انطلق ماريوس مع عدد من المرافقين. نزلوا عن خيولهم وصعدوا التل الذي يفصل جحافله عن البرابرة. كانت الغابة صامتة مميتة؛ لا طيور، ولا مخلوقات أرضية، وبالتأكيد ليس هناك بشر؛ لقد فروا قبل وصول موجة مقاتلي التيوتون. كان يكمن أمامهم ما يشبه الممر. كان المنحدر المؤدي إلى الأعلى حاداً ولكنه غير سالك. ثم كانوا في القمة، فصارت لديهم رؤية واضحة للوادي الذي أمامهم وآلاف من الخيم التي يتسامر أمام بابها الجنود. بحماقة تامة، استقرت قوة التيوتونيين في منطقة يمكن نصب كمين فيها بسهولة وإيقاعهم فيه؛ إذا كان هناك جيش ينصب

2- عن المؤرخ فلوطرخس.

لهم كميناً! لم تكن جحافل ماريوس كبيرة بما يكفي لنصبه. كان لزعماء القبائل الحق في التصرف بثقة. في الصباح، توجهوا من الوادي وانتشروا في الأراضي غير المحمية. كان هناك شعور بالموت الوشيك منتشراً في الأجواء المحيطة بهم. عرف ماريوس أنه كان يدافع عن الحاجز الأخير بين هذا الحشد الهائل وروما. نظر متهكماً إلى الأسفل نحو القوات المحتشدة. كان عليه إعادة تنظيم رجاله والتخطيط لشيء مختلف وجديد. كان لديه بعض الأفكار؛ كان يأمل فقط في أن يمنحه إله الحرب فرصته.



لم يتقيد ماريوس بالنماذج المعروفة للخطط الحربية. فقد بنى خطته وسط حالة من اليأس. في الحرب، يُعرف هذا باسم «الحل الأفضل في سلسلة من الخيارات السيئة». قرر أن يستخدم كل مجموعة مقاتلين كقوة قتال فردية بدلاً من دمجها في كتيبة مشاة متماسكة. كان على كل مجموعة أن تقيم خطَّ قتالٍ أمامياً مكوّناً من خمسين رجلاً، مع فاصل ستة أقدام بين كل مقاتل، بدلاً من تشكيل السلحفاة للتروس المتراصة[3]. وهذا من شأنه أن يسمح بوجود المزيد من المساحة لاستخدام السيوف، ويزيد من طول خطه القتالي إلى حدّ كبير. كما يضاعف من تأثير القوى البشرية المتاحة. ثم أضاف مفاجأة، فإذا كان هنيبعل قد استطاع نقل أفياله عبر جبال الألب، فمن المؤكد أن رجاله سيتغلبون على الجبل الذي تغطيه أشجار الصنوبر. خلال الليل، أمر ثلاثة آلاف من مقاتليه النخبة، يقودهم الضابط التريبيون كلوديوس مارسيلوس في الصدارة، بعبور الممر الجبلي والاستعداد لإغلاق الوادي من الناحية الخلفية لمواضع قبيلة التيوتون بينما سار مع قوته الرئيسة في الجبل لإغلاق المخرج الأمامي للوادي. وجعل جحافله تتراصف وفق ترتيبه التكتيكي الجديد، وهو تشكيلة رقعة الشطرنج المرنة التي ستحدث ثورة في طريقة ترتيب تشكيلات الجيش الروماني وتحمل اسمه على مرّ القرون التالية: جحافل ماريان. بمجرد أن سارت جميع الأمور وفق ما يرضيه، صعد ماريوس إلى قمة التل حتى يتمكن كل فرد من زملائه من رؤيته بوضوح. لقد كان يعرف ماذا يعني وجود القائد وتأثيره على معنويات المقاتلين؛ فقد تمّت خسارة الكثير من المعارك لأن القائد لم يكن حاضراً ليرى ما الذي يحدث في ساحة المعركة، وبالتالي فشل في الاستجابة للموقف الذي كان يتطور بسرعة. ربما كان الوقوف على التل أقل شجاعة من القتال في وسط المعمعة، لكنه اعتبر أن الشجاعة ستكون صفة عقيمة عند مقارنتها بالنظرة العامة للقائد.

3- في هذا التشكيل يجتمع جميع الرجال في صفٍ واحد ويمدون التروس المستطيلة الضخمة للأمام والأعلى، لتحصين أنفسهم من جميع الجهات. المترجم.

كان قد أعطى تعليمات دقيقة لمجموعة الإغلاق الأولى؛ على صفوفهم المتقدمة أن تصدر أصواتاً، ثم تتوقف وتهرب كما لو أن الذعر قد أصابها، لتغري العدو للوقوع في الفخ. وذلك ما فعلوه، وابتلع مقاتلو التيوتون الطعم. وسط صراخ القتال الشرس، اندفع عمالقة الشمال في أعقاب الرومان الهاربين، بينما صرخت نساؤهم بالتشجيع وجلجلت طبول حربهم.

أصدر ماريوس أوامره «لترتفع أصوات أبواق المعركة». وسط دوي الأبواق، خرج صف من حملة الرماح ذات الرؤوس الفولاذية المدببة من مكان اختبائهم خلف الأشجار التي تغطي الوادي، لمواجهة البرابرة القادمين. في هذه اللحظة الحرجة، بدأت تصدح المزيد من أبواق الرومان. وهذه المرة جاءت من خلف الوادي. انقض مقاتلو الجحافل على العمالقة الشقر بعنف لم يترك مجالاً للشك في مدى تصميمهم. فوجئ التيوتونيون لدرجة أنهم توقفوا عن الحركة وسط صيحات ونظرات من الحيرة. كان التأثير المعنوي لهذا الهجوم المفاجئ من خلفهم مدمراً؛ كان البرابرة يدورون من حولهم بحَيرة، الأمر الذي جعلهم يتداخلون مع بعضهم بشكل لا فكاك منه. أغلق الرومان مخرجي الوادي كليهما. وقف ماريوس، بهيئة إمبراطور (قائد) وهو يرتدي عباءة قرمزية، مثل المنار على صخرة شاطئية. وأمر عازف البوق بأن يطلق نداء الدعوة للتقدم. انتظمت أفواجه على شكل مربعات واندفعت قدماً نحو التيوتونيين الغارقين في الفوضى. استخدم أول صفين الطعن برماحهم، في حين أن الصفوف الخلفية قامت برمي (الرماح) على مؤخرة العدو. تمّ استخدام معظم الرماح عدة مرات، حيث كانت الجحافل المتقدمة تسحبها من الجثث. مع الضغط على مقاتلي قبيلة التيوتون من الأمام والخلف، بين المنحدرات على كلا الجانبين، تحوّلت المعركة إلى مذبحة، ارتفعت على الأرض أكوام عالية من جثث الذين سقطوا. سجل المؤرخ فلوطرخس مقتل مئات الآلاف وأسر ثمانين ألفاً من النساء والأطفال الذين سيكونون عبيداً في المستقبل. والحقيقة هي أنه لم ينج الكثير من مقاتلي قبيلتي التيوتون

والأمبرونس. لم يعد الأسرى الضعفاء والبائسون مصدر إزعاج لمجرد أنه كان لا بدّ من إطعامهم، بل أصبحوا يمثلون تهديداً مباشراً للأمن وحتى لحياة غزاتهم المرتدين بذلات جحافل ماريوس ذات الزخارف اللامعة. سار مئات الآلاف على المنحدر شديد الانحدار لجبل سانت فيكتوار[4]، وهو عبارة عن صخرة ضخمة زرقاء وبيضاء ارتفعت بشكل حاد من وسط سهل بروفينسال، ثم ينضغط ليصبح ذا شكل مستدق فوق المنحدرات. تركوا وراءهم أكواماً من الموتى والمحتضرين، والآلاف من الجثث العارية والمتشابكة مع بعضها، لتتعفن في حرارة الصيف، فتنطلق منها رائحة كريهة لدرجة أنها أجبرت مواطني مقاطعة إيكس أن بروفانس على الفرار بسبب تلك الرائحة الكريهة. وباتوا يطلقون على المنطقة آنذاك تسمية (حقول التعفن) Campi Putridi[5]، ولا تزال القرية الموجودة في موقعها اليوم تسمى(Pourrières) وتعني بالفرنسية المتعفنة.

كان لا يزال هناك خطر واحد؛ خطر قبيلة الكيمبري، التي عادت من جبال البرانس وتوجهت لقتال الرومان. والأكثر من هذا، أن ماريوس توجه لإنقاذ روما، مصطحباً معه هذه المرة قوة رومانية أُعيد بناؤها. أثبتت المعركة ضد التيوتونيين قيمة تشكيله التكتيكي الجديد، وكانت معركة فيرسيلاي (101 ق.م) تكراراً لانتصاراته السابقة؛ تمكنت مجموعات القنصل القتالية وسلاح الفرسان التراقي من إبادة قبيلة الكيمبري: قُتل 140 ألف شخص أو أُعدموا في ساحة المعركة، وأُرسل ستون ألفاً من غير المقاتلين إلى مناجم الملح ونساءهم إلى بيوت الدعارة. في معركة فيرسيلاي، كما هو الحال في معركة أكواي سيكسيتاي، ترك ماريوس وراءه أكواماً من جثث القتلى المتعفنة.

بعد معركتي أكواي سيكستياي وفيرسيلاي، تمّ الترحيب بماريوس

4- جبل فنتوري، بات يعرف منذ القرن السادس عشر باسم مونتاني سانت فيكتوار أي جبل النصر تكريماً لانتصار ماريوس.

5- بالفرنسية في الأصل. المترجم.

باعتباره حامي روما وانتخب لمنصب القنصل ست مرات متتالية. ومع ذلك، لم تكن حنكته السياسية مثل ٬موهبته العسكرية، وأدى حكمه السيئ إلى نشوب حرب أهلية مرعبة (91-88 ق.م)، كانت الأسوأ في التاريخ الروماني، حيث دار القتال في شوارع روما. كان خصم ماريوس الذي كان زعيماً من عامة الناس مرافقه السابق والشخصية المحافظة سولا وكان هو الذي بدأ القتال. هرب ماريوس إلى أفريقيا، لكن الزعيم الشعبوي لوكيوس كينا أعاده. أقام ماريوس عهداً من الرعب والذي ظهر مثيلاً له بعد ألفي عام في عهد الرعب الذي أقامه روبسبير خلال الثورة الفرنسية (1794). في نهاية المطاف تقرر مصير الحرب الأهلية في روما على يد سولا (82 ق.م)، الذي هزم قوة الشعبويين، واستولى على روما وأعلن نفسه ديكتاتوراً. أنهى حامي روما، غايوس ماريوس، أيامه الأخيرة منبوذاً في أفريقيا، وكان يتعقبه غاليونيوس بومبيوس (بومبي).

أورث ماريوس روما إصلاحاً عسكرياً رائعاً. لقد أظهرت كارثة أراوسيو (105 ق.م) بوضوح الحاجة إلى تغيير نظام روما العسكري، وكان ماريوس هو من قام بإصلاحه. لقد تخلى ماريوس الشعبوي عن كل الفروق الأرستقراطية داخل الطبقة العسكرية وأجبر مجلس الشيوخ على تعيين القادة بحكم الموهبة وليس التوريث. كان مقاتل الجحافل بالعادة شجاعاً، يتغذى جيداً وذا بنية جيدة. كانت مكافأته للسلوك الشجاع قطعة أرض يمنحها له إمبراطوره، وكانت تتحدد مساحتها وفقاً لما يُظهره من شجاعة. اختفى تماماً الإكوايتس (مقاتلو سلاح الفرسان الأرستقراطي، الذي هزم في معركة كاناي)، وهي وحدة كانت محجوزة سابقاً لأبناء النبلاء؛ وتمّ استبدالها بفيالق من سلاح الفرسان المحترفين، يتكون من مرتزقة أجانب من نوميديا أو تراقيا أو هسبانيا. تمّ تنظيمها بشكل (أجنحة) ويديرها الرومان. ورغم أنهم كانوا يفتقرون إلى الحماسة الوطنية لجحافل روما السابقة، إلّا أنهم عوّضوا عن ذلك بمهارتهم وكفاءتهم المهنية. وهذا ساعد الإمبراطور ماريوس على أن يؤسس بالإضافة إلى

فيلق ماريان نظاماً من وحدات قابلة للتبديل ذات مرونة قتالية عالية وقدرة كبيرة على المناورة، وكانت أداة عسكرية قوية أورثها إلى ابن أخيه، الرجل الذي سيقوم قريباً بمتابعة خطاه وجعل روما في النهاية قوة عالمية: غايوس يوليوس قيصر.

تمّ تحقيق الانتصارين في معركة أكواي سيكستياي بحكم الضرورة الملحة. وبسبب موارده البشرية المتدنية، اضطر ماريوس إلى تبني نظام تكتيكي أصبح مفتاح الإصلاح العسكري الشامل. ومن دون أن يدرك التأثير الكامل لابتكاره، فإنه وفّر العنصر الأساس لعمليات الفتح الروماني العظيم.

كان ماريوس قد أوقف البرابرة عند بوابة إيطاليا. والآن جاء الدور لرجل أصغر سناً ليقهر العالم.

الفصل العاشر

القيصر الغاضب
14 أيار 55 ق.م

«يا رجل روما، وأنت تُخضع الأمم لحكمك
عليك أن تهتم بشؤونها وأن تقيم السلام بين
المغلوبين، فتدع الخامل وتقهر المتكبر».

• *فيرجيل (19-70 ق.م) الإنيادة*

يمكن لأي شخص يمتلك السلطة أو القدرة على الإلهام أن يحثّ الرجال على القتال. يتساوى في ذلك راعي الأغنام والقصاب، فالخطب الديماغوجية البارعة لها فوائد واضحة. كان الفارق الأساس بين قيصر وخصومه هو أن قيصر لا يخوض معركة ما لم يكن متأكداً من وجود فوائد أولية فيها، وربما لا يفعل حتى في تلك الحالة، في حين أن خصومه كانوا على استعداد لشنّ الهجوم مهما كانت مساوئه. لقد فهم كيفية الحصول على المزيد من المنافع بتكلفة أقل. وبهذه الطريقة، كان قيصر معلماً بارعاً في مجاله. ولم يكن خصومه كذلك.

لم يكن يمتلك الذكاء العسكري للإسكندر أو هنيبعل، ولكنه كان يمتلك شيئاً حيوياً للنجاح: وهو الحظ. في التاريخ الطويل للحروب، لم يكن هناك أي قائد عسكري أكثر حظاً منه أبداً، فبالإضافة إلى جرأته وطاقته المفرطة كان يمتلك حظاً مميزاً. علاوة على ذلك، أدرك طبيعة الحرب

في عصره، وجعل من جيشه أداة تدميرية بشكل فعّال كشفت عن مهاراته الخاصة. في أي محاولة كان يشارك فيها، سواء كان ذلك في إسبانيا أو في بلاد الغال أو أثناء الحرب الأهلية في روما أو في مصر، كان يتأكد له من خلال قيادته وشخصيته الجذابة، مدى ولاء قواته الذي لا يخامره الشك فيه. كانت مواهبه فريدة من نوعها. لم يتمكن أي شخص بعد ذلك من الجمع بين صفات القائد العسكري العظيم ورجل الدولة والدبلوماسي والمشرع والمؤلف. لقد وجه كل الوسائل المتاحة له -الرجال والمال والسياسة- نحو هدف واحد لا غير: الاستراتيجية الكبرى للفوز بالسلطة. قامت نجاحاته العسكرية على مبدأ أساس: التصرف بسرعة قبل أن تتفاقم الأزمة ويتضاعف الخطر، وحالما تتجاوز حدود القوة، اضرب بكل ما تملك ولا تتوقف حتى يتمّ القضاء على العدو تماماً. مرة واحدة خانه حظه. في ذلك اليوم الذي وقع فيه ضحية لخنجر القاتل. لكنه ترك للتاريخ اسمه، الذي بات يرمز إلى أعلى سلطة في أي دولة: قيصر.

كان غايوس يوليوس قيصر (من مواليد حوالي عام 102 ق.م) صاحب نزعة ديموقراطية، ومثل عمه، ماريوس، أظهر أن له مستقبلاً واعداً عسكرياً. في العشرين من عمره، منحه مجلس الشيوخ التاج المدني (corona civica) تكريماً لانتصاره المذهل على قراصنة بحر إيجه والدور الذي لعبه في انتصار روما على الملك ميثريداتس (74 ق.م). في عام 68 ق.م، حصل على لقب quaestor كويستور[1] منطقة هسبانيا التيريور. قام بقمع الانتفاضات المحلية وأنهى فترة ولايته من خلال غزو منطقة لوسيتينيا بأكملها ليصبح ممثل القنصل في إسبانيا (61 ق.م). بالنظر إلى ما بات يمثله من نموذج للشجاعة الفائقة، فقد حاز على تقدير الجنود وباتوا يعتبرونه إمبراطوراً لهم، وقد سبّب هذا الإطراء إزعاجاً كبيراً لمجلس الشيوخ خاصة وأن قيصر كان جزءاً من الأقلية الشعبية في المجلس. تمّ استدعاؤه إلى روما، حيث أكسبه

1- وهو منصب في مرتبة أدنى من ممثل القنصل.

ذكاؤه الحاد بسرعة سمعة أنه لا يحب الدخول في جدالات ونقاشات مفتوحة. في مؤامرات الصراع على السلطة في مجلس الشيوخ، كان يواجه تحدياً مستمراً من قِبل غانيوس بومبيوس (الذي كان يدعى بومبي)، والذي كان قد نال مؤخراً استقبال المنتصرين بعد أن اقتحم مدينة القدس وغزا مقاطعة يهودا (63 ق.م). كان قيصر يعلم جيداً أنه لا يمكنه محاربة بومبي العظيم على أسس متساوية يقول المثل: «إذا لم تتمكن من قتالهم، انضم إليهم»، وقد فعل ذلك، حين تمّ تأسيس الحكم الثلاثي (60 ق.م) كان يضم: بومبي، الجنرال المنتصر في الحرب ضد ميثريداتس (66 ق.م)، وقيصر المعتز بنفسه، وليسينيوس كراسوس، المصرفي وأغنى مواطن في روما. على الرغم من أن من المستحيل أن يكون كراسوس قائداً عسكرياً إلّا أنه «اشترى» جيشاً، واستخدمه في إخماد تمرد سبارتاكوس (71 ق.م) بوحشية، وهو الإنجاز الذي ختمه بأن قام بصلب كل مؤيد لذلك المصارع المتمرد على طول طريق أبيان[2]. لم ينظر إلى هذا العمل سوى أنه دليل على أن كراسوس كان قاسياً، لكنه لا يمثل خطراً على الهيمنة السياسية لقيصر، الذي اقترح على شركائه في الحكم الثلاثي أن يخدموا روما على أفضل وجه، وأن يملؤوا جيوبهم بالمال، من خلال الاعتناء بـ «المقاطعات ذات الثروة الواسعة» - التي كانت بعيدة عن مقرِّ سلطة روما - بينما عرض أن يتولى تنظيم الأمور في الداخل، حيث اندلعت أعمال الشغب وازداد التهديد بنشوب حرب أهلية. وبعد أن أزاح عن طريقه شركاءه الذين يتقاسمون السلطة معه، والذين انشغلوا بالاهتمام ببعض المقاطعات النائية، حصل قيصر من مجلس الشيوخ على أمر تعيينه ممثلاً للقنصل في مقاطعة إليريكام (كرواتيا وصربيا) ومنطقة غاليا كيسالبينا (المنطقة الواقعة شمال جبال أبينيني ووادي بو) ومنطقة غاليا ترانسالبين (التي تضم كامل جنوب فرنسا مع مقاطعتي، دوفين ولانغيدوك)، التي مات

2- يُعدّ من أوائل الطرق الرومانية المهمة والاستراتيجية. المترجم.

حاكمها السابق إثر سقوطه عن ظهر حصانه وقد خدم موته أهداف قيصر، الذي كان يعتقد، أن «البرابرة يهددون إيطاليا». حمل ادعاؤه هذا بعض المصداقية، لأنه قبل أربعة وأربعين عاماً فقط نجح عمه ماريوس في وقف غزو قبائل الكيمبري والتوتون والأمبرونس. كان قيصر يخطط للكثير من الأشياء. منحه منصبه الجديد كممثل للقيصر لكلي منطقتي بلاد الغال سيطرة تلقائية على عدد من جحافل روما المخضرمة في القتال.

لم تكن عبقريته العسكرية قائمة على أفكار جديدة، لكنه طبق مخططات الجنرالات العظماء الآخرين - الإسكندر وهنيبعل وسكيبيو وعمه ماريوس بشكل وصل إلى حدّ الكمال. درس قيصر الإصلاحات العسكرية التي قام بها ماريوس، وقد شغلت اهتمامه تأثيرات إيجاد مساحة بين أعضاء كل مجموعة قتالية، على عكس التكوينات السابقة لكتائب المشاة الضخمة المتماسكة، المدربة فقط على المواجهة إلى الأمام والبقاء هناك، فيما يحمل قسم من أفراد الصفوف القتالية رماحهم. تمّ تصميم جيش قيصر الجديد بحيث يتمكن من سرعة الحركة وزيادة مرونته القتالية.

كتب يوليوس في مقدمة كتابه الضخم تعليقات حول الحروب الغالية، «تنقسم بلاد الغال إلى ثلاثة أجزاء». ولكونه قائداً عسكرياً، فقد كان يرى الأشياء بشكل مختلف عن الجندي العادي؛ ولكونه مؤلفاً استدلالياً فقد قام بمسح للمسيرات المستعجلة وعمليات الحصار ومعارك القادة. كتب قيصر عن القائد العسكري قيصر بصيغة الغائب، ولكن في الحقيقة كان هو الرجل نفسه.

كانت خططه الأولية هي توسيع ممتلكات روما عبر نهر الراين والسير على طول نهر الدانوب، ذلك النهر الأسطوري الذي يفصل حدود جبال الألب في روما عن البرابرة الشماليين. ولكن النزوح المفاجئ الذي قام به 385 ألفاً من أبناء قبائل الهلفيتيان جنوباً على طول

نهر الرون وتعرض روما جوهرة الأقاليم الرومانية إلى الخطر أجهضت خططه الخاصة بنهر الدانوب. مع 34 ألفاً فقط من المقاتلين المتمرسين بالقتال، سارع يوليوس قيصر إلى ملاقاتهم. كانت هذه هي المرة الأولى التي يلجأ فيها إلى استراتيجية منع عدو قوي ومتمكن من خلال سلسلة من القلاع.

قام كشافة قيصر بعمل ضخم في تتبع مسار الأنهار والممرات الجبلية، ولكن هنا، في أعماق الغابات في منطقة جورا، كانت جحافله تتعثر في مسارات لا تشبه الطرق التي شيّدها الرومان لنقل جحافلهم من حول مقاطعاتهم. لم تكن هذه أكثر من مسارات للأبقار، حيث كانت أغصان الأشجار تخفق بقوة أردية المقاتلين الطويلة وقد أبطأ الإعياء مسيرة الرتل الطويل القسرية. كانوا متعبين، ولكن العدو كان كذلك. قام مقاتلو قبائل الهلفيتيان بمسيرة عبر الوديان والجبال، والتي لم تكن سهلة حيث كان يرافقهم طابور المؤن الكبير وجميع خدم المعسكر. وعندما أقاموا المعسكر لم تكن لديهم خطة دفاعية؛ ولا خنادق، ولا أوتاد مشحوذة، ولا صفوف منسقة من الخيام. انتشرت الملاجئ البدائية والخيام الثقيلة بصورة عشوائية. تجولت الماعز والأغنام والخيول والخنازير بأعداد كبيرة. اشتبك رجال قيصر مع الهلفيتيانيين أثناء عبورهم لنهر أرار (سون). تمّ إبادة 30 ألف فرد منهم، كانوا ما زالوا ينتظرون من ينقلهم إلى الضفة اليسرى، بينما اضطر بقية مقاتلي القبيلة لمشاهدة المجزرة وهم بلا حول ولا قوة من الشاطئ المقابل.

في تموز سنة 58 ق.م، اشتبكت جحافل قيصر مع ما تبقى من الهلفيتيانيين بالقرب من مدينة غرونوبل. قام قيصر برفقة 30 ألفاً من جنوده، معززين بـ 20 ألفاً من قوات الغاليين المساندة والتي كان ولاؤها مشكوكاً فيه، بمهاجمة 70 ألفاً من الهلفيتيانيين خارج معسكرهم. في معركة استمرت على مدار اليوم، أعاد الرومان فيها الهلفيتيانيين إلى معسكرهم، وهم يشتعلون غضباً مع صراخ مئات

الآلاف من النساء والأطفال. استغل قيصر الهرج والمرج الذي ساد لشن هجومه النهائي. كانت المرة الأولى التي يظهر فيها شخصيته الحقيقية. كانت المعركة شرسة، وفي بعض الأحيان بدا الأمر وكأنه قد يخسرها. كان من الضروري ذبح القرابين، لجعل الآلهة سعيدة. إذا كانت جثث المهزومين ستقوم بذلك، فليكن. كان هنك قرابين وفيرة من الأسرى. تمّ الكشف عن مشهد فظيع جرى في المعسكر حيث ذُبِحَ الرجال والنساء والأطفال بشكل عشوائي بأمر من يوليوس قيصر؛ مات 130 ألفاً من المحاربين الهلفيتيانيين. لم يحسب الرومان القتلى من النساء. أصيب مبعوث خاص لمجلس الشيوخ في روما بالصدمة لما شاهده؛ مناطق من الريف مليئة بالجثث المشوهة لقبيلة بأكملها. وطالب بتبرير من ممثل القنصل. كان قيصر مقنعاً للغاية في شرحه بأن رجاله لم يتصرفوا إلّا دفاعاً عن النفس إلى درجة أن المبعوث أعلن رضاه عن ذلك.

بعد القضاء على تهديد الهلفيتيانيين، سار قيصر بجيشه إلى مدينة بيبراكتي (عند جبل بوفراي) للتعامل مع دومينوريكس زعيم اتحاد الأيدونيين، والذي يمثل أكبر اتحاد للقبائل الغالية في وسط فرنسا. لعدة سنوات كان هذا الرجل يجمع الضرائب، وأصبح غِنياً للغاية. كان يحتفظ بحارس شخصي وفرسان معروفين، وبمساعدتهم مارس نفوذه على القبائل المجاورة. كان متزوجاً من أميرة من قبيلة الهلفيت، وكان يغذي في داخله مشاعر الكراهية ضد قيصر وكل ما هو روماني. علاوة على ذلك، قلص وصول قيصر من سلطاته عندما قام قيصر بتكريم شقيقه ديفيسياكوس علانية[3]. استخدم قيصر مهارته الدبلوماسية العظيمة لإقناع دومينوريكس بالخطر الجسيم على حكمه بسبب غزو قبائل تيوتوني بقيادة أريوفيستوس، وهو تهديد، وفقاً لقيصر، لا تتمكن من منعه سوى جحافله الرومانية. ولهذا الغرض، تحدث مع زعيم

3- راجع: Caesar, De bello gallico.

اتحاد قبائل الأيدويين لتزويده بأربعة آلاف مقاتل من سلاح الفرسان من الغاليين. فسارع قيصر مع مساعديه الغاليين المعينين حديثاً، إلى مواجهة أريوفيستوس. في 10 أيلول سنة 58 ق.م، اشتبك مع 75 ألفاً من المقاتلين البرابرة بالقرب من مدينة فيزانتيو (حالياً بيزونسون). استطاع سحق مقاتلي قبيلة التيوتون وطردهم عبر نهر الراين. وبهذا النجاح انتهى العام الأول من الحرب الغالية (58 ق.م). وأمضى قيصر أشهر الشتاء في بيزونسون.

في عام 57 ق.م، اندفع قيصر شمالاً، مع جحافله التي يبلغ تعداد مقاتليها 20 ألف جندي و20 ألف مقاتل من القوات المساندة، وقام بغزو بلجيكا. في نيسان، اشتبك في قتال مع مئة ألف من رجال القبائل بقيادة الملك غلبا عند نهر أكسونا (يعرف حاليا بنهر آن) وهزم المقاتلين البلجيكيين المتوحشين وغير المنضبطين، وكاد أن يحتل أراضيهم عندما في تموز وقعت قواته في كمين نصبه له مقاتلو قبيلة نيرفي. حدث الهجوم بينما كانت جحافله متناثرة على طول الوادي الضيق المليء بالأشجار لنهر سابس (أو سامبر)[4]. هبط خمسة وسبعون ألفاً من رجال قبيلة نيرفي من التلال الحرجية وفاجؤوا الرومان عند ضفة النهر. على الرغم من الصدمة الأولية، تمكن قيصر من إعادة تشكيل جحافله ثم أخذ زمام المبادرة. في نهاية اليوم، طافت جثث ستين ألف فرد من قبيلة نيرفي في نهر سامبر. كانت خسائر قيصر كبيرة أيضاً، ولكي يتمكن من تعبئة جحافله، اضطر إلى تأجيل خططه للقيام بالمزيد من الفتوحات حتى العام المقبل. بعد انتصاراته الثلاثة الحاسمة على البرابرة الشماليين، اعترفت مناطق بلاد الغال الشرقية والوسطى بسيادة روما.

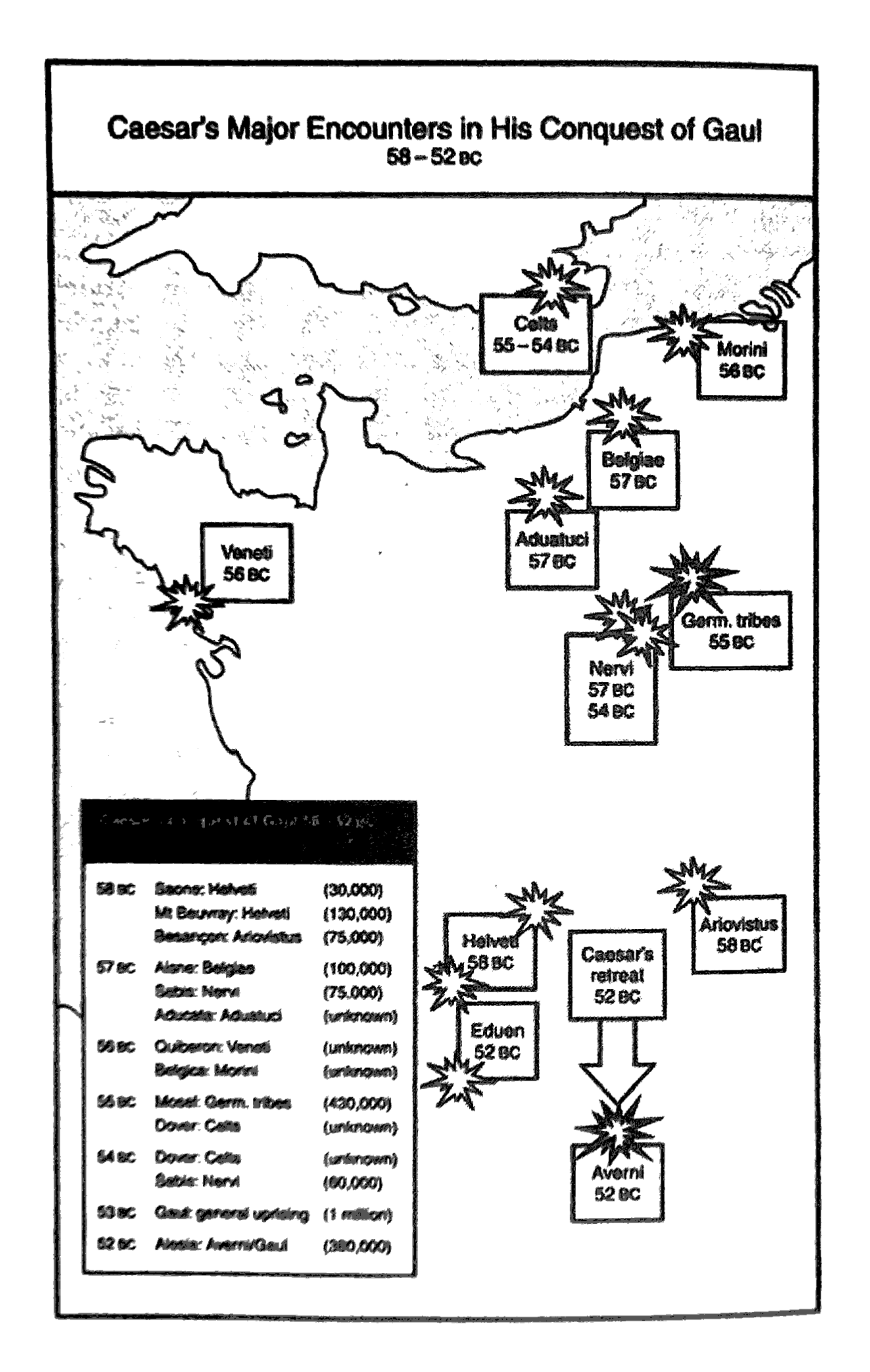
أثناء وجوده في فصل الشتاء في وادي اللوار، خطط قيصر للقيام بحملة عسكرية عامة في عام 56 ق.م. فقد أرسل بوبليوس كراسوس

4- استخدم الألمان النهج نفسه في الحرب الخاطفة لعام 1940.

بصحبة فيلق واحد إلى منطقة آكيتانيا (آكيتيين)، وتيتوريوس سابينوس إلى مقاطعة النورماندي، في حين أن مرؤوسه الأكثر موهبة، ليجيت تيتوس لابيانوس، واجه البرابرة الألمان على طول حدود الراين. قام قيصر، على رأس عدد من الجحافل، بالسير نحو قتال قبائل الفينيتي التي كانت متواجدة في منطقة أرموريكا (حالياً شبه جزيرة بريتاني)[5]. سبقه خمسة من ضباطه ببذلاتهم الرومانية للتفاوض على احتلال المنطقة دون قتال. صفع الفينيتيون المبعوثين الرومان وقيّدوهم بسلاسل ووضعوهم في قفص وتجولوا بهم في جميع أنحاء البلاد لإظهار قوتهم. لم يسبق لهولاء أن تعاملوا مع قيصر فلم يكونوا يعرفونه جيداً. بعد أن علم باعتقال سفرائه، هدّد قيصر قائد الفينيتيين بأنه سيقوم بأعمال نهب وقتل. اعتمد الفينيتيون على أسطولهم البحري لصدّ الرومان الذي لم يكن لهم منفذ بحريّ. فاجأهم قيصر من خلال إصداره أمراً ببناء ستين سفينة، زودها بفيلق من المقاتلين بقيادة ديسيموس بروتوس[6] بينما وقف بقية أفراد جيش قيصر على الشاطئ، وقعت معركة بحرية في خليج كويبرون بين ديسيموس بروتوس والفينيتيين. لم تكن السفن الرومانية المبنية على عجل تستطيع مجاراة السفن السريعة والأثقل لعدوهم. كان موقف الفينيتيين هو الأقوى. توصل بروتوس لفكرة ذكية تمثلت في تزويد أفراد قواته بمناجل ذات مقابض طويلة يمكن للمقاتلين من خلالها قطع حبال أشرعة سفن عدوهم. قريباً سيتمايل أسطول الفينيتيين وسط الخليج على غير هدى وسيكون عاجزاً عن فعل شيء. صعد المقاتلون الرومان إلى سفن الفينيتيين وقتلوا بحارتها. انتقم قيصر انتقاماً رهيباً لسوء المعاملة التي تلقاها سفراؤه.

5- أصبح هذا الحدث موضوعاً لشريط رسوم متحركة فرنسي شهير بعنوان أستريكس، Astérix.

6- والذي سيكتسب سمعة سيئة بسبب عبارة قيصر الشهيرة: حتى أنت يا بروتوس.



خلال أشهر الشتاء، انكب قيصر على دراسة خرائط بلاد الغال لمعرفة عدد القوى البشرية التي سيحتاجها في حملته الربيعية القادمة. مع ذوبان الثلوج، واجهت جحافله مقاومة ضئيلة في محاولتها للتغلب على قبائل

الموريني والمينابي في بلجيكا (الفلاندرز). مع تقلص حجم التهديدات الأخيرة، وإقرار المعاهدة مع دومينوريكس ملك الأيدونيين، أصبحت معظم أراضي بلاد الغال تحت سيطرة قيصر. في عام 55 ق.م، وجه قيصر انتباهه الكامل لإخضاع قبائل التينكتري والأسيبيت الجرمانية، التي كانت محتشدة في بلاد الغال عبر نهر الراين. سار قيصر مع قواته الأساسية شديدة الولاء له والبالغ عددها ثلاثين ألف مقاتل، لملاقاة 430 ألف ألماني، منهم مئة ألف على الأقل من المحاربين المتمرسين بالقتال. على الرغم من الاحتمالات المستحيلة للنصر، كان قيصر مقتنعاً في تلك اللحظة أنه لا يوجد شيء على وجه الأرض يمكن أن يقف أمام جحافله لدرجة أنه قرر أن يجعل هذه المعركة أمثولة تمنع جميع المغامرات التي يمكن أن تقوم بها القبائل البربرية عبر نهر الرون مستقبلاً. ومثل ثعبان كبير، كانت أرتال لا نهاية لها من الألمان تلتف عبر الأودية الواقعة بين تلال آردن المليئة بالشجر قبل أن تنصب لها خيماً على طول نهر الموزيل في منطقة تريفيري (ترير).

بدأ قيصر يلعب بورقة الدبلوماسية ببراعة. طوال فترة المفاوضات، كان يتعمد المماطلة مع البرابرة. وكان يجادل أن نهر الراين يشكل خطاً طبيعياً لترسيم الحدود جغرافياً؛ لكن زعماء القبائل لم يكونوا يعتبرونه كذلك. ولم يستطيعوا الاتفاق فيما بينهم على أي شيء، واصلوا مشاحناتهم علناً، واستغل قيصر الانقسامات الموجودة بين قبائل عدوه وجعلها تصبّ في خدمة الهجوم الذي كان يخطط له. وتوصل بإدراكه السياسي والعسكري منذ البداية أنه لا يمكن كسب شيء عن طريق التفاوض؛ وأنه لا يمكن حل الأمور إلّا من خلال القتال. كان تقييمه بعيد المدى يشير إلى أن روما يمكنها أن تنجو من غزو قبائل الغال لمدة لا تزيد عن عام قبل أن تتحرك القبائل عبر نهر الراين جنوباً وتطرق أبواب روما. بينما كانت المفاوضات مع زعماء القبائل جارية على قدم وساق، والقوتان تنصب خيمهما على مرأى من بعضها البعض، ظل قيصر على علم دائم بخطط العدو عن طريق

شخص منشق من قبيلة تينكيتري، الذي كان يخبره عن الخلافات بين رؤساء القبائل. وكان ذلك مناسباً لقيصر، إلى أن جاء اليوم الذي أخبره فيه جاسوسه أن البرابرة يخططون لشنّ هجوم مفاجئ.

لقد حانت اللحظة التي يجب فيها على قيصر أن يقرر الاختيار ما بين الهجوم والتراجع. إنه يريد أن يقاتل، لكن عليه أن يقرر متى. قامت حشود القبائل الجرمانية بالتخييم عند سهل بالقرب من غابة كثيفة – وهذا الموقع كان مناسباً لنصب كمين لها من قبل سلاح الفرسان. وكان مع قيصر سلاح الفرسان المساند بمقاتليه الغاليين وتحت إشراف الضباط الرومان. وخاطبهم قائلاً «سوف يسلبون منكم وطنكم». لقد كان متأكداً أن بلاد الغال كانت وطنهم. «يجب أن نقف معاً لإنقاذها»، كان يتحدث مع الفرسان الغاليين بلهجة مغرية مثل نغمة المزمار الذي يسحر الأطفال.

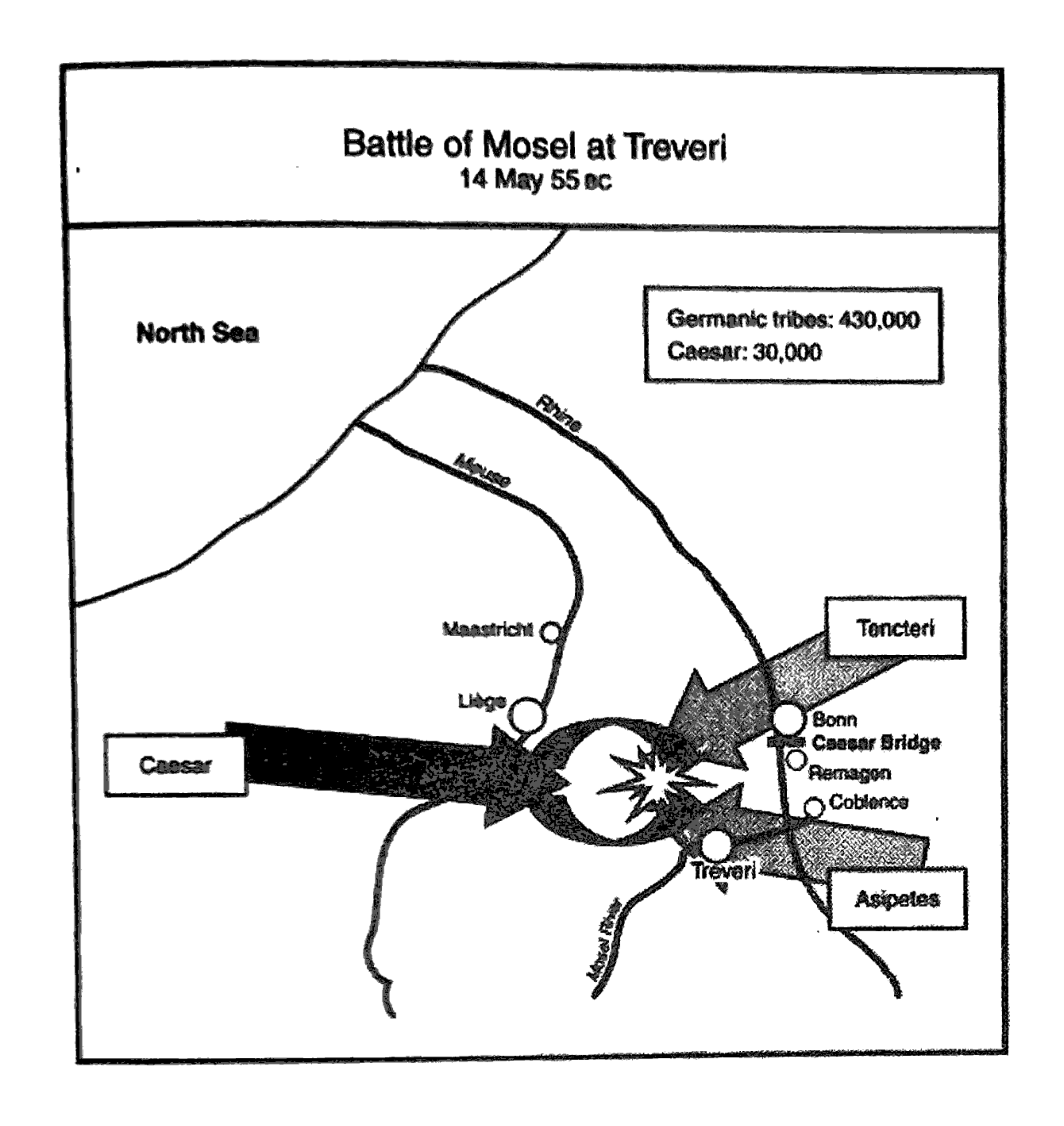
كانت الاستعدادات التي قام بها قيصر لشنّ هجوم صادم بمثابة تجميع للعديد من الخدع المضللة. لقد قام بتحويل انتباه العدو عن تعزيز قوته بشكل متزايد وباطراد من خلال إصدار أوامر إلى سلاح الفرسان بإقامة استعراضات شكلية وعمليات تفتيش روتينية للقوات على مرأى تام من الألمان، بينما كان ينقل في الخفاء في الليلة نفسها فيلقاً كاملاً إلى أعماق الغابات ليأخذ مواضعه على جوانب المعسكر الجرماني. كانت النيران تتصاعد بشكل كبير في إشارة إلى استمرار وجود هذا الفيلق في المخيم. وفي الوقت نفسه كان مقاتلو سلاح الفرسان ينسلّون من خلال الغابة إلى الجهة الأخرى، حيث يتمركزون في الغابة الكثيفة.

خاطب قيصر ضباطه «سنفاجئهم»، ثم التفت إلى قائد سلاح الفرسان. «اقتحموا الغابة واذبحوهم قبل أن يصل جيشهم بالكامل سوف يبتسم لكم الإله جوبيتر». لكز الضابط لوسيوس مانسينوس حصانه نحو الغابة حيث وقف الفرسان. تجمع الرجال حيث يقف. لم يسبق للألمان أن قاتلوا ليلاً؛ خطط قيصر لمهاجمتهم بينما كانوا يستريحون وهم متجمعون حول نيران خيمهم.

كان قيصر (ممثل القنصل) محقاً. كان نادراً ما يخطئ في المسائل العسكرية. كان رجاله هم الذين يشكلون قوة ذراعه اليمنى، وكانوا في موقع المعركة، بينما كان البرابرة يتنعمون بالراحة في معسكراتهم، من دون خفراء ولا حراس. بدأت أبواق قيصر تصدح. تلاشى صوت كل شيء بسبب الصراخ، الذي انفجر من عدة آلاف من الأفواه، وكان يهتز في الهواء، صادراً من جحافل قيصر. كان البرابرة غير مستعدين تماماً، وقد فوجئوا تماماً. «الرومان قادمون!». أما زعماء القبائل الجرمانية، الذين كانوا يتناولون الشراب معاً، فقد بدأت أقدامهم تترنح، وقفزوا إلى جيادهم وانطلقوا ليوقظوا من كان في المخيم. «الشجاعة، أيها الإخوة»، صرخ أحدهم، «هؤلاء هم الرومان نفسهم الذين سبق وأن هزمناهم من قبل. تذكروا كراهيتكم لأي شيء روماني. سنكون سادة هذه الأرض. قاتلوا، يا إخوتي، قاتلوا!» لقد فات الأوان لإنقاذ الموقف. عندما احتشدت بعض القبائل، كانت صفوف مقاتلي الرومان على مرمى رمح عنهم، فانطلقت حرابهم. دمر وابل من الرماح المتساقطة صفوف الألمان. كانت السيوف تومض على طول خطوط قتال الجحافل. وفي لمح البصر أصبحت الأرض من حول المخيم مليئة بالجثث. تردد الألمان أولاً، ثم تراجعوا، وبعدها هربوا، فيما كان قيصر يلاحقهم بحماسة لا هوادة فيها تعرض سلاح الفرسان للاختراق من مواقعه الخلفية غير المحمية. وتعثرت الجحافل التي جاءته من الخلف أثناء مسيرها بأكوام القتلى والجرحى، الذين انزلقوا في برك من الدماء، وتعرضوا للأذى من أسلحة الموتى التي كانت ملتصقة بالأرض. كان البرابرة يتلقون عدة ضربات على ركبهم بشكل مستمر، فتهتز أذرعهم عشوائياً. اندفعت موجة من المقاتلين الرومان، وهم يقفزون من فوق من تساقط من الرجال. تدحرج البعض. كانت تتدفق على الجميع موجات متتابعة من المحاربين، تطعن من سقط على وجهه وتدوس عليه. لقد اجتاحوا المكان دون أن يردعهم

المدافعون المذهولون ولو قليلاً. في زحمة الخنادق الكثيرة المنتشرة حول المخيمات، أصبحت خيول سلاح الفرسان التابع لقيصر لا قيمة لها. ترجل الرومان عن خيولهم لمهاجمة البرابرة القادمين سيراً على الأقدام من الأجنحة. دخلوا وسط صفوف الألمان، على الرغم من أن العديد منهم قد مات نتيجة الضربات الشديدة التي تلقوها من الفؤوس القتالية الفتاكة حيث ترك المزيد من المحاربين الجرمان أمكنتهم في المعسكر للانضمام إلى المعركة.

سار قيصر بحصانه حتى خط المواجهة الذي كانت تسوده الفوضى وفجأة وجد نفسه وسط البرابرة. مدّ البرابرة أياديهم لتتناوشه، خدشوا جلده، ومزقوا رداءه الأرجواني. هاجمه أحد البرابرة بفأس ضخمة. انغرزت شفرة الفأس في مؤخرة حصانه فسقط عن متنه؛ وقبل أن يتمكن المحارب الألماني من توجيه ضربته القاتلة، اندفع أحد المقاتلين الرومان لإنقاذ قائده. سقط الألماني، واخترقه رمح الروماني. لم يكن لدى قيصر وقت للشعور بالخوف. هذا سيحدث لاحقاً. استمرت المذبحة من حوله. تحركت جحافله الموجودة على الأجنحة نحو المخيم، مثل باب ضخم يتأرجح من مفاصله. اكتسحت الجحافل الرومانية حشود الغوغاء التعساء من الألمان وبدأت تدفعها أمامها لتعيدها مرة أخرى إلى معسكرها، مسببة ذعراً رهيباً بين زوجاتهم وأطفالهم. تمّ تطويق الكثيرين وظهورهم نحو نهر الموزيل، وفي حالة من الذعر غرق عدد كبير منهم. انهار الباقون أثناء رحلتهم البرية. منح الريف ذو الغابات الكثيفة جنود قيصر الفرصة لإغلاق خط الرجعة على رجال القبائل. وقف مقاتلو الجحافل وراء أكوام من جثث الموتى، ومنعوا أي شخص من الفرار. خفّ الضغط على المقاتلين، وحينها تحول الخوف الذي سيطر عليهم في البداية الى غضب فاتر.



ظهر القائد غايوس يوليوس قيصر بقامته المديدة وسط مقاتليه. كان وجوده بحدّ ذاته مبعث فخر لهم. لقد كان انتصاراً رومانياً رائعاً. ارتفعت الهتافات: يعيش القيصر! انحنى على جثة لوسيوس مانسينوس، قائد سلاح الفرسان. للحظة وجيزة، ظهرت على وجهه أمارات الحزن والغضب قبل أن تتحول إلى نظرات جامدة، وهو يثبّت عينيه فيما هو أمامه مباشرة. «لن يكون في مصلحة روما أن أبدّد بقية قواتي في هجوم جديد. يجب تلقينهم درساً. لن يتم السماح أبداً للبرابرة الجرمانيين مرة أخرى بتهديد مصالح روما الحيوية. لن يعبروا نهر الراين مرة أخرى». بهذه العبارة الوحيدة، حكم على أربعمائة ألف شخص بالموت. جمع كل رجل وامرأة وطفل من قبيلتي الأسيبيت والتينكتيري وقام بقتلهم. سمح

لعدد قليل منهم بالهروب عبر نهر الراين، حتى يتمكنوا من إيصال رسالة تعبّرعن غضب قيصر الرهيب، وبالتالي منع القبائل الجرمانية الأخرى من التفكير بالقيام بأية مغامرة في المستقبل.

ما إن وصل خبر حمام الدم المتعمد هذا إلى مجلس الشيوخ، حتى استخدمه أعداء قيصر لإضعاف موقفه السياسي في الداخل، معبرين بشكل منافق عن صدمتهم. طالب مجلس الشيوخ قيصر بالدفاع عن موقفه من المذبحة. لم يفعل الكثير لتوضيح الأمر؛ لقد ذكر ببساطة أن حجم نشاط التمرد في جميع أنحاء بلاد الغال وألمانيا لم يترك له أي بديل سوى تلقينهم درساً مناسباً لإخماد الخطر المتزايد وضمان سلامة مواطني روما. حرص أنصاره على نشر ردّه في جميع أنحاء المدينة؛ وبدلاً من أن تتم إدانته على هذه الفظائع، تمّ التهليل له في جميع أنحاء روما. باعتباره قيصرَ منقذ روما.

كنتيجة مباشرة لانتصاره على القبائل الجرمانية، حقق قيصر إنجازاً هندسياً غاية في الروعة، رغم أنه لم يتم الحديث عنه على نطاق واسع. في أوائل حزيران سنة 55 ق.م سار مع جحافله إلى نهر الراين. كانت نيته عبور النهر والتوغل في عمق ألمانيا لمعاقبة القبائل الأخرى. كان حلّه لقضية الموارد اللوجستية مذهلاً. من أجل ضمان إمدادات ثابتة لجحافله، أمر بتشييد جسر يمرّ من فوق نهر الراين، وهو إنجاز لم يسبق له مثيل من قبل. كانت المشكلة التي واجهت مهندسيه أن النهر كان عريضاً بشكل كبير إضافة إلى تيارات الماء القوية التي ازدادت قوتها بسبب أمطار الربيع. كانت مهمتهم هي بناء جسر من شأنه أن يصمد أمام فيضانات الصيف ويضمن لجيوش قيصر عودة آمنة بعد حملتهم الصيفية[7]. وكانت مهمتهم الأولى هي تحويل التيار القوي من أجل نصب أعمدة التجسير. لقد قاموا

7- من مصادفات التاريخ، أن الجسر الذي شيّده قيصر يقع بالقرب من جسر ريماجين الشهير، والذي استخدمه الجيش الأمريكي لعبور نهر الراين في الحرب العالمية الثانية.

بحل هذه المشكلة عن طريق تنصيب صف من الأعمدة الثلاثية كواقيات من التيارات المائية. وبمجرد الانتهاء من ذلك، وُضِعَ صف آخر من الأعمدة، متبوعاً بالصف الثاني من الأعمدة المزدوجة بزاوية مائلة لكي تقف بوجه التيارات القوية. بمجرد أن تمّ وضع كلا الصفين، وُضِعَت عوارض متقاطعة ومغطاة بجذوع الأشجار. أصبح الجسر جاهزاً الآن، وعبر قيصر مع جحافله إلى ألمانيا. لم تكن حملته ناجحة مثل إنجازه لبناء الجسور. كان لدى القبائل وقت للمغادرة، وقام قيصر بمطاردتها في المناطق النائية في ألمانيا دون أن يحتك بها. في منتصف الصيف عاد إلى بلاد الغال. وبمجرد عبور آخر جندي نهر الراين، تمّ تدمير الجسر. وبقي نهر الراين بدون جسر لمدة ألف عام.

بحلول عام 55 ق.م، أصبح قيصر مستعداً لغزو منطقة لم يكن قد مسّها بعد النسر الروماني[8]؛ وهي الجزر البريطانية. أثناء تواجده داخل ألمانيا، أمر بإنشاء أسطول يتمّ تجميعه في ميناء إيتيوس (مقاطعة بولونيا). خلال أسبوع هادئ في أواخر الصيف، تمكن من الوصول إلى ميناء دوفر. وعند الشاطئ واجه مقاومة شديدة من تحالف من القبائل السلتية تمّ تشكيله على عجل. باستخدام المنجنيقات والمقاليع التي يتمّ تركيبها على السفن، تمكن من إنزال بعض من قواته. بعد حالة انتظار دامت أسبوعين على الشواطئ دعا قيصر قواته للانسحاب وأبحر بها مرة أخرى إلى بلاد الغال من أجل إعداد غزو للميناء بشكل مدروس أكثر في العام المقبل. في تموز من سنة 54 ق.م، قامت جحافل قيصر الخمسة مع ألفين من مقاتلي سلاح الفرسان – بلغ إجمالي القوات 22 ألف فرد – بالإنزال على شاطئ ميناء دوفر دون أن تواجه معارضة. بعد وقت قصير من استقرار الجميع بسلام على الشاطئ أغرقت العاصفة أسطول الغزو. وجد قيصر نفسه بلا إمدادات وتجهيزات، وفي الوقت نفسه، واجه قوة كبيرة من محاربي القبائل السلتية تحت قيادة زعيمهم كاسيفيلونوس. وبينما تردد

8- النسر شعار الجيش الروماني. المترجم.

البريطونيون[9]، اندفع قيصر نحو داخل البلاد وعبر نهر التايمز في مكان ما شمال لندن. تقدمهم السريع هذا منع كاسيفيلونوس من توجيه ضربة قاصمة لهم، فبدأت حينها المفاوضات، والتي انتهت بالخضوع الاسمي للبريطونيين لسلطة قيصر وروما.

خلال هذه المفاوضات، تعرض قيصر لضغوط بسبب اندلاع تمرد صريح في شمال بلاد الغال. مع بقاء قيصر في بريطانيا، هاجمت قبائل النيرفي الفيلق الذي يقوده سابينيوس، وعندما طلب الرومان هدنة، منحهم زعيمهم أمبيوريكس ممراً آمناً؛ ولكن بمجرد أن تحرك الرومان من معسكرهم، كان يكمن لهم رجال القبائل وقاموا بقتلهم. شكل فقدان القائد الروماني سابينيوس نكسة شديدة. من حسن حظ روما، أن قيصر كان رجلاً اعتاد على التحديات الصعبة وقادراً على اتخاذ القرارات بسرعة البرق. وفي سبيل حلّ الأزمة، طلب يوليوس قيصر من مجلس الشيوخ منحه حق القيادة الفردية؛ من تلك اللحظة فصاعداً، لم يعد طاقمه التشغيلي أكثر من تنظيم لتجميع المعلومات المطلوبة، ونقل أوامره الشخصية.

بوجود 7000 رجل فقط، سارع قيصر إلى مواجهة 60 ألف محارب يقودهم أمبيريكس. حيث التقيا في نهر سابس (سامبر)، حيث قام قيصر بذكاء بادعاء أن له نوايا حسنة في المفاوضات وتظاهر بالتردد، مما أدى إلى إغراء أمبيريكس بشنّ الهجوم في أرض غير مواتية حيث إن تفوقه العددي لم يحدث فرقاً كبيراً. قام مقاتلو قيصر بشنّ هجوم مضاد وطرد قبائل النيرفي من ميدان المعركة. بعد انتصاره على النيرفي، انتقل لمهاجمة بلجيكا، وأجبرها على الخضوع له.

في عام 53 ق.م، هزّ حدث غير متوقع معاقل روما القوية عندما قاد كراسوس الشريك الثري للثلاثي الحاكم لروما، مهمة استكشافية حمقاء ضد الفرثيين في عهد القائد سورينا، الذي لا يمكن مقارنته بهنيبعل، ولكن

9- عرقية قديمة تواجدت في جزيرة بريطانيا. المترجم.

بالمقارنة مع المصرفي كراسوس فإنه يكون مخططاً استراتيجياً كبيراً. عبر كراسوس نهر الفرات واشتبك معه سورينا في الصحراء المفتوحة بالقرب من (حران). بدلاً من الهجوم وفرض نتيجة حاسمة، قام كراسوس بقيادة مقاتليه من سلاح الفرسان في دائرة من حول الميدان. وبدؤوا يطلقون السهام باتجاه حشود الجحافل الضخمة لخوض المعركة، في حين ترك الرومان لتحترق جلودهم تحت أشعة الشمس الساخنة، قام فرسان سورينا بتعذيب مقاتلي الجحافل الرومانية الذين أصابهم العطش عن طريق حمل قراب من جلد الماعز وترك الماء يتدفق منها إلى رمال الصحراء. لم يستطع كراسوس الهائج أن يحسن التعامل مع العدو المراوغ بينما كان جيشه يهلك بسبب الحرارة والعطش. في خطوة يائسة، أرسل ابنه بوبيليويس كراسوس مع أحد الفيالق لجلب الماء. قام سلاح فرسان الفرثيين بالتظاهر بالانسحاب، مما أغرى الرتل المكون من ستة آلاف رجل للوقوع في كمين نصبوه لهم، وعندما أصبحوا وسط الكثبان الرملية العالية نزلوا عليهم ومحوهم إلى آخر رجل. مع حلول الليل، أخذ كراسوس استراحة، تاركاً أربعة آلاف جريح من مقاتليه تحت رحمة الفرثيين. تمّ إيقاف تراجعه عند شروق الشمس. بينما كان يجلس في خيمة سورينا للمفاوضات، لقي مصرعه على يد سيف مقاتل من الفرثيين. كانت معركة حران انتصاراً واضحاً لسلاح الفرسان على «الجحافل الرومانية التي لا تقهر»، وهي أول إشارة إلى أن جنود المشاة لم يعد بإمكانهم الوقوف أمام الفرسان الرماة الموجودين في الشرق. كان الفرسان الفرثيون الأشداء يمثلون النذر التي تشير إلى فرسان قبائل الهون والمغول الذين سيأتون بعدهم. كانت النتيجة السياسية لمعركة حران هي سيطرة الإمبراطورية الفرثية على أرمينيا وبلاد ما بين النهرين.

في أعقاب هزيمة كراسوس، اجتاحت شوارع روما أعمال عنف. وبدأت تجوبها قطعان صاخبة من أفراد مسعورين، وكان أي شخص في طريقها يتعرض للضرب والسرقة ترافقه قهقهات بذيئة. تمّ تنصيب بومبي ديكتاتوراً، وبصحبة حاشيته ومرافقيه اشتبك مع حشود المشاغبين. سحق

بعض الرؤوس، وصلب آخرين حتى تمكن من فرض النظام بسرعة قياسية، مما جعل المواطنين يدينون له بامتنان كبير.

لم تكن هزيمة كراسوس مفاجأة لقيصر. في البداية، كانوا ثلاثة، بطلاً هو (بومبي)، ومصرفياً (كراسوس) ودبلوماسياً (قيصر). الآن أصبحا اثنين فقط، وكان يجب أن يرحل أحدهما. علم قيصر أنه من أجل أن يقضي على الدعم الشعبي لبومبي، كان يحتاج إلى عمل واضح للغاية ومفيد لروما. كان الهدف الأكثر إغراءً هو بلاد الغال، والذي كان يشغل منصب ممثل القيصر فيها. كانت خطته دائماً توسيع نطاق سيطرة روما من منطقة الأقاليم الرومانية (بروفانس) شمالاً لتشمل جميع بلاد الغال، مما يستلزم القضاء على العديد من القبائل المستقلة. الآن اتخذ هذا الطموح بُعداً سياسياً أوسع. لم يكن قيصر يقوم بأي إجراء بدون خطة محكمة تماماً. وإذا أصبح فاتح بلاد الغال فإنه سيكون في وضع يمكنه من تحدي بومبي ويتوّج بإكليل الغار. لم تكن هناك سوى عقبة واحدة تقف بين قيصر وحصوله على الإجماع الشعبي على شخصيته الذي من شأنه أن يؤدي به بالتأكيد إلى السلطة المطلقة، وهو زعيم الغال المغمور الذي يحمل اسماً غير مألوف: فرسن جتريكس. أخبره جنود الاستطلاع أن قبيلة الأفيرني فيها مقاتلون متوحشون وأنهم يعتبرون فرسن جتريكس بمثابة إله لهم. ومن المحتمل أنه اقتنع بذلك. وهكذا توجه قيصر ليخوض كبرى معاركه.

كان نجاح قيصر في نهر الموزيل، في مواجهة احتمالات لا يمكن التنبوء بها، يعود إلى قدرته على استغلال عاملين في فن الحرب: المرونة والمفاجأة. فقد كان قائداً أكثر منه جنرالاً عسكرياً، يجسد مقولة نابليون التي أعلنها بعده بألفي سنة: «نسبة أهمية الروح المعنوية مقارنة بالقوة الجسدية هي من ثلاثة إلى واحد». وللأسف فإن بريق شجاعته الشخصية في ساحات القتال قد زال نتيجة أحداث شائنة جرت فيما بعد. وكانت النتيجة النهائية لعمله الذي اعتبره البعض معيباً هو أن القبائل الجرمانية مُنعت لقرون من عبور نهر الراين.

الفصل الحادي عشر

العام الرهيب 52 ق.م
معركة أليسيا
15 أيلول سنة 52 ق.م

«إلى الأمام يا أبناء بلاد الغال تقدموا إلى الأمام، يا أبناء فرنسا، تقدموا نحو المجد... إلى الأمام يا أحفاد العمالقة مقاتلي القبائل السلتية ذوي الشعر الطويل».

• فيكتور هيجو، *العام الرهيب*، *1871*

بدأت حروب بلاد الغال، بمذبحة التجار الإيطاليين التي حدثت في مدينة سينابوم (حالياً أورليان) في شتاء عام 53 ق.م. بدأ حلفاء روما من قبائل بلاد الغال ينشقون عنها واحداً تلو الآخر؛ فبعد انشقاق قبائل الأيدويين انشقت تباعاً قبائل سيغيسياف وباريسي وكيبوباك وسينيون وبولوفاك وأمبارس. لكن من كانت أكثرها شراسة إلى حدّ بعيد هي قبيلة الأفيرني تحت قيادة زعيمها فرسن جتريكس. وكانت الوحيدة التي تمتلك كلّاً من القوة والتنظيم اللذين يمكناها من أن تتحكم بمصير بلاد الغال، لأن معظم القبائل الأخرى كانت إما ضعيفة جداً أو منقسمة للغاية فيما بينها فلم تشكل تهديداً خطيراً لروما. كانت بلاد الغال ذات أهمية عسكرية حيوية مزدوجة لروما؛ فهي تضم نهر الراين الذي هو بمثابة حاجز لصدّ

القبائل الجرمانية، وفي الوقت نفسه، هي نقطة انطلاق جحافل روما نحو بريطانيا.

ما تكشف عنه عام 52 ق.م -وهو العام الذي أطلق عليه الفرنسيون اسم «العام الرهيب»- l'année terrible[1]، كان سيناريو لم يكن أحد يتوقعه حتى ذلك الحين. لقد انهار نظام حكم روما الثلاثي القوي. قُتل كراسوس، وكان بومبي منشغلاً بإحكام قبضته على السلطة المطلقة، وكان قيصر غارقاً في قضايا بلاد الغال، محاولاً إخماد نيران التمرد، التي انتشرت في الزوايا الأربع للبلاد. في أحد أخطائه النادرة في التشخيص الاستراتيجي، اعتقد قيصر أن الشمال الشرقي يمكن أن يصبح نقطة محورية في اندلاع الانتفاضة ضد حكمه؛ لكن هذا الخطر جاء من الوسط؛ المنطقة التي بدت فيها تحالفاته أقوى. منذ بداية غزوه، اعتمد قيصر في استراتيجيته على التحالف مع أمة الأيدويين وقبائلها الرئيسية الخمس. بالنسبة إلى القوة الضاربة المتنقلة لجيشه، فقد اعتمد على مساعديه من بلاد الغال، وخاصةً أربعة آلاف فارس من الأيدويين وهم فرسان الملك ديمينوريه. في تموز من سنة 54 ق.م، أثناء انتظاره هبوب رياح مواتية ليعبر إلى بريطانيا، وقع حادث كانت له عواقب وخيمة.

لسبب وجيه، كان قيصر يشعر بالقلق من أن بعض حلفائه في بلاد الغال قد يتخلون عن ولائهم له ويتمردون على الحكم الروماني خلال غيابه أثناء خوضه لمغامرته بالتوجه نحو بريطانيا. لقد قرر أن لا يترك وراءه سوى قادة الغال الذين يمكن أن يثق بهم تماماً، وأن يصطحب معه أولئك الذين كانوا يشكلون تهديداً. وكان الأقوى من بين هؤلاء، هو الملك ديمينوريه زعيم الأيدويين، عندما دعاه «قيصر» لمرافقته في رحلة بحرية، اختلق ديمينوريه جميع أنواع الأعذار: مثل «إنه يخاف من القيام برحلة بحرية»، أو «إنه يفضل البقاء لأن لديه التزاماً بواجبه

1- بالفرنسية في الأصل. المترجم.

الديني تجاه شعبه»[2]. عندما وجد ديمينوريه نفسه في مواجهة رفض قيصر القاطع لتركه وراءه، بدأ يفكر مع زملائه زعماء قبائل الغال على التخطيط لمكيدة تمكنه من البقاء في القارة. لا بدّ أن يكون هناك سبب وراء استدعاء قيصر لنبلاء بلاد الغال جميعاً وجعلهم يتركون هذا المكان. «هدف قيصر هو ذبحنا جميعاً بعيداً عن أعين إخواننا. سوف يأخذنا إلى بريطانيا حتى يقضي علينا». كان قيصر منشغلاً للغاية باستعداداته للغزو أكثر من انشغاله بديمينوريه. في اليوم الذي أصبحت فيه الرياح مواتية أعطى الأمر بالبدء بالإبحار، ترك ديمينوريه المخيم وتوجه إلى المنزل. استشاط قيصر غضباً وقرر أن يجعل من ملك الأيدويين عبرة لمن يعتبر، لأنه لم يعد يتوقع شيئاً طيباً يصدر من رجل تجرأ على عصيانه، وأمام زعماء قبائل الغال أرجأ عملية مغادرة أسطوله وأرسل مفرزة من سلاح الفرسان الروماني لإعادة الملك حياً! في غضون أربعة أيام، أمسك الرومان بملك الأيدويين الهارب، الذي كان يتنقل بلامبالاة معتقداً بشكل أكيد أن قيصر كان بالفعل في أعالي البحار. فاجأ الفوج الروماني الأيدويين وهم نيام في معسكرهم. سمع ديمينوريه الضجة وخرج من خيمته لمواجهة ما يجري حاملاً سيفه في يده. وسط حماس تلك اللحظة، وعلى الرغم من الأمر الصريح الذي أصدره قيصر لإعادة رهينته وهو على قيد الحياة، رمى قائد الفوج برمحه نحو صدر ديمينوريه «أيها الخائن، لقد حان يومك!» بينما أصبح الأيدويون يدورون من حولهم بسرعة جرّاء شدة الهجوم، غرز المزيد من المقاتلين الرومان حرابهم في جسده. حدث هذا القتل على مرأى ومسمع من المحاربين الأيدويين المرافقين لملكهم. وفقاً للأعراف، تمّ قطع رأس الملك الميت والعودة به كدليل على القبض عليه. أصيب قيصر بالصدمة، ليس بسبب وحشية الفعل، بل بسبب ما انطوى عليه من غباء مطلق. فقتل الملك أمام مواطنيه لا يمكن

2- عن كتاب يوليوس قيصر الحروب الغالية وجميع الاقتباسات اللاحقة منه.

أن يؤدي إلّا إلى المتاعب. انتشرت القصة وأصيب أبناء بلاد الغال بالصدمة. وكما توقع قيصر، بعد مقتل ملكهم تمّ إلغاء المعاهدة مع الأيدويين. ثم تمّ إلغاء جميع المعاهدات الأخرى مع القبائل الغالية ووجد قيصر نفسه مع جحافله الرومانية فقط وبدون معاونيه يقوم بالقتال من أجل روما. تركه هذا الأمر من دون سلاح الفرسان، لم يعد يستطيع الاعتماد على المؤونات التي كانت تأتيه من حلفائه، وبدأ رجاله يعانون من الجوع.

خلال اجتماع عقدوه في أعماق غابة كارنوتس، أقسم زعماء القبائل يميناً مقدساً، وقد وضعوا جانباً مشاعر الغيرة فيما بينهم وعقدوا العزم على محاربة عدو مشترك واحد. كل ما كان يتطلبه الأمر هو أن يتقدم زعيم نشط ويأخذ الأمر على عاتقه ويوحّد القبائل. وكان مثل هذا الرجل هو فرسن جتريكس أمير قبيلة الأفيرني. وُلد في قرية غيرغوفيا حوالي عام 80 ق.م، وهو سليل عائلة من الأمراء. وكان عمه جوبانيتيو ملك أفيرني، ووالده هو سيلتيليو الشرس، الذي حاول اغتصاب تاج شقيقه وأُعدم بسبب ذلك علناً. كان فرسن جتريكس في أواخر العشرينيات من عمره، طويل القامة وذا بنية جيدة، مع شعر طويل ينسدل على كتفيه ولحية ذهبية أعطته مظهراً يتسم بقوة مهيبة لنبي شديد الغضب من العصور القديمة. كان قد تلقى تدريبه العسكري على يد قيصر في حظيرة (contubernales) في الجيش الروماني يسكن أفرادها في خيمة واحدة، وهي في الواقع طريقة لاحتجاز ذوي النسب النبيل. لاحظ قيصر الصفات القيادية لدى الشاب وأمل أن يجعله قائداً للجحافل المساندة لروما. ولكن فرسن جتريكس كان يتمّ تدريبه من قبل روما ومن أجلها -مثلما سيحدث مع تيتونيس أرمينيوس بعد بضع سنوات- فقط لخدمة روما والقتال في جحافلها. منحه رجال قبيلة أفيرني درعاً وأعلنوه ملكاً عليهم. كانت خطوته الأولى هي إرسال سفراء إلى قبائل بلاد الغال -كان عددها يقارب الثلاثمائة، يتمركز

معظمها حول أوبييدومات oppidum[3]- ودعاها للانضمام إلى حملته لتحرير بلده من الغزاة الرومان. كانت تحركاته تزداد زخماً فقد قررت القبائل الكبرى، مثل باريسي وبيكتون وكادوروكي وتورون وسينون، أن تنضمّ إلى حملة فرسن جتريكس.

فوجئ قيصر بالأمر ولم يكن متحسباً له، ولكنه بعد ذلك قام برد فعل سريع كعادته. لقد فاجأ اتحاد القبائل الغالية الناشئ لتوّه بعبوره قمم جبال فيفاراس المغطاة بالثلوج في أوائل شهر شباط وغزو أراضي قبائل الأفيرني، ومن هناك سار بجحافله إلى قرية أغيدينكوم بالقرب من مدينة سينس. كان هذا هو المكان الذي بدأت فيه المرحلة الأخيرة من حرب قيصر ضد بلاد الغال. لقد شنّ قيصر الحرب عندما رفض الأيدويون تزويد جحافله الجائعة بالمؤن الغذائية. في أوائل آذار، غادر أغيدينكوم وسار نحو مدينة سينابوم (حالياً أورليان). في منتصف الليل ظهر جيشه أمام بوابات المدينة. تدفق عدد من الناس المذعورين على الجسر الضيق الممتد على نهر اللوار بينما كانت الجحافل تشقّ طريقها إلى المدينة. سمح قيصر لرجاله بنهب أورليان قبل أن يشعل النيران فيها. ومن أورليان سارع إلى هدفه التالي، مدينة أفاريكوم (بورجيس) المحصنة بشدة، جوهرة بلاد الغال وعاصمة قبائل بيتورجيس.

بالنسبة لقيصر، كانت مدينة أفاريكوم ذات أهمية مزدوجة: كمكان يبين فيه للقبائل ما سيفعله لأي حليف يتجرأ على تغيير ولائه له، وكمصدر لإمدادات ثمينة لجحافله. كان ممثل القنصل الروماني يتعلم درساً حول مدى خطورة القيام بحملة مع جيش يعتمد على الخيول قبل أن يتمّ حصاد الحبوب. لحرمان جيش قيصر من علفه، أمر فرسن جتريكس باتباع سياسة الأرض المحروقة. وبناءً على أمره، أحرق الغاليون ثلاثين مدينة - لكن لم تكن بورجيس من بينها. فقد رفضوا التضحية بـ «لؤلؤة بلاد الغال». وهكذا بقيت بورجيس صامدة، وكان ذلك عيب قاتل في

3- مصطلح قديم يشير إلى تجمعات سكنية كانت منتشرة في أوروبا. المترجم.

استراتيجية قبائل الغال. ولأول مرة، برزت إلى الواجهة عبقرية قيصر في فرض الحصار. استغرق الأمر من جحافله يومين فقط لتشييد هيكل ضخم؛ كانوا يعملون مثل النمل، وأقاموا مدرجين مرتفعين، طول كل منهما 100 متر وارتفاعه 30 متراً. وباستخدام المنجنيقات أبادوا قوات العدو. كان سقوط المدينة مجرد مسألة وقت. لم يكن أمام المدافعين خيار سوى الهروب، من خلال نفق سري. وعندما نجحوا في هروبهم، اعترضت عليهم نساء البلدة بصيحات عالية لدرجة أنها كشفت موقع النفق، فقام رجال قيصر بسدّ مخارجه. تسلق المقاتلون الرومان أسوار البلدة دون أن يواجهوا مقاومة واقتحموا المدينة، وارتكبوا في طريقهم أعمال ذبح رهيبة؛ من بين أربعين ألف مقاتل كان يدافع عنها، تمكن 800 فرد منهم فقط من الفرار. هذا النصر الروماني لم يكن بسبب بسالة المقاتلين ولكن بسبب خطة قيصر المبتكرة في فرض الحصار. ما تلا ذلك لم يضف سوى القليل إلى أمجاد قيصر: لقد أعطى أوامر محددة بذبح جميع سكان بورجيس، مع إيلاء اهتمام خاص للدرويد[4]. لكن حمام الدم المستهتر هذا عاد بنتائج عكسية على قيصر. فقد أصبح حل الأزمة سياسياً الآن أمراً غير وارد.

بعد يومين من الراحة، بعد حصول جيشه على الطعام والإمدادات اللازمة، سار قيصر بجيشه نحو تجمعات سكن الأيدويين (oppidum) في بلدة ديسيتيا (ديسيز) وأجبر كوتوس، الحليف الوحيد له والذي كان لا يزال بإمكانه الاعتماد عليه، على التنحي لصالح كونفيكتوليتافيس. أمل قيصر أن يثبت الأخير أنه ممتن له ويساعد في حماية مؤخرة الجحافل. ولكن بدلاً من ذلك اختار كونفيكتوليتافيس التعاون مع فرسن جتريكس ووجد قيصر نفسه عالقاً بين جبهتين، أمة الأيدويين القوية إلى الشمال وفرسن جتريكس في قرية غيرغوفيا.

سبق لقيصر أن حسب تكلفة مشروعه التالي: حصار غيرغوفيا،

4- كهنة بلاد الغال. المترجم.

وتجمعات سكن قبيلة الأفيرني (بالقرب من مدينة كليرمونت في وسط فرنسا). كان يدرك أنه يجب أن يتحرك بسرعة ويضرب بحزم قبل أن يجد الأيدويين في ظهره. وهو في الطريق، حاول قيصر جمع دعم روما لمخططه؛ لقد طلب مساعدة الحلفاء الأقوياء؛ ليس فقط موافقة مجلس الشيوخ على خططه العسكرية، ولكن أيضاً موافقتهم على أهدافه الكبرى أيضاً. لن تكون هذه هي المرة الأولى التي ينجح فيها قائد بارع، بالقيام بغزو حاسم، ثم يستخدمه في سعيه للوصول إلى السلطة المطلقة. بعد تخلصه من فرسن جتريكس لن يتبقى له سوى التخلص من بومبي.

كان فرسن جتريكس يستعد لوضع خطته الرئيسية موضع التنفيذ. من خلال إغراء قيصر لفرض حصار على غيرغوفيا، وحينها سيضيق الخناق عليه ثم يسحقه حينما يصبح بين قوات قبيلته أفيرني من جهة وقوات الأيدويين القوية من جهة.

كان الحصار الذي قام به قيصر بمثابة كارثة منذ البداية. كان قد وقع في الفخ. ومع تدفق حشود ضخمة من مقاتلي قبائل الغال بشعرهم، الذي دُهنت جدائله الطويلة بالزيت، وقد ارتدوا سترات جلدية على صدورهم العارية وحملوا سيوفهم الطويلة في أحزمة معلقة على كتف واحد، متأهبين للانقضاض، تخلى عن فرض الحصار وقرر الانسحاب. كان هذا الأمر مكلفاً؛ لقد فقد ألف قتيل، بما في ذلك ستة وأربعين من ضباطه الأكفاء. لكن قيصر تخلص من الفخ وتمكن من الانضمام ثانية إلى نائبه في القيادة تيتوس لابينوس، الذي كان قد حقّق لتوّه مع جحافله الست انتصارات على قبيلة باريسي على أبواب مدينة لوتيس (باريس). كان قيصر لا يزال بدون سلاح الفرسان المهم لديه. فقد تركه سلاح الفرسان التابع للقوات الغالية الحليفة معه سابقاً وكانت كل المؤشرات تميل لصالح قوات الغاليين البالغ عددها ثلاثمائة ألف فرد، بما في ذلك ما لا يقل عن ثلاثين إلى أربعين ألف مقاتل من سلاح الفرسان.

قرر قيصر أن يترك بلاد الغال ويتوجه نحو قلاعه في المقاطعات الرومانية (بروفانس). كان أكثر شيء يحتاجه هو حماية قواته المنسحبة من هجمات سلاح الفرسان. بعد أن تركه مقاتلو سلاح الفرسان من الغاليين الذين كانوا معه، أرسل سفراء يحملون أكياساً من الفضة عبر نهر الراين لإشراك خمسة آلاف من الفرسان الألمان الذين لا يرحمون، وكانت تلك مقامرة جريئة حيث إن من المعروف أن المرتزقة البربريين يقاتلون مع من يدفع أكثر. وبمجرد وصولهم عبر نهر الراين، استطاع الذهب الذي قدمته لهم قبائل الغال أن يغيّر مواقفهم بسهولة وبدؤوا يقاتلون ضد الرومان. وكان استنتاجه صحيحاً، وسرعان ما أثبت هؤلاء البرابرة أنهم يستحقون الذهب الذي منح لهم.

في الوقت الذي سارع فيه قيصر بالتوجه جنوباً، ازدادت أعداد المحاربين في قوات بلاد الغال، مثل جداول الماء التي تغذي مجرى نهر كبير. ومع ذلك، كانت القوة الرئيسة لا تزال بعيدة جداً في الشمال فلا يمكن أن تقدم مساعدة فورية إلى فرسن جتريكس، وتركت له أمر إغلاق طريق قيصر المؤدي إلى المقاطعات الرومانية. وقد فعل هذا عند نهر أرمانسون (بالقرب من مونبار). عند ريف بورغوندي الجبلي، انقسم سلاح الفرسان لبلاد الغال إلى ثلاثة أرتال - ظهر اثنان فجأة على الأجنحة الرومانية بينما منعت قوات المشاة الغالية تقدم قيصر. دخل مرتزقته الجرمان ميدان المعركة. وخاضوا معركة قصيرة ولكن شرسة، وصل الألمان ذروة قتالهم حين انقضوا على مقاتلي بلاد الغال. كان الهجوم الذي شنّه الألمان مفاجئ للغاية لدرجة أن فرسن جتريكس لم يكن لديه الوقت لنشر جنوده؛ تمّت هزيمة وحدته المحتجزة عند نهر أرمانسون و«ارتكب البرابرة الألمان بحقهم مجزرة فظيعة».

دعا قيصر إلى اجتماع مع ضباط جحافله. «نحن نسير عبر أرض معادية يعوي الذئب منادياً: أنا، فرسن جتريكس، سوف آكلكم! حسناً، الذئب، حتى الجريح، يظل ذئباً. مقاتلو الغال أمامنا وفي ظهورنا. دعونا نطارد

هذا الذئب الوحيد طالما يفتقر إلى الدعم. إذا تراجع إلى موقع محصّن، فسوف نطوقه ونجوّعه».

«وما العمل عندما يأتي الجبش الجرار لمساعدته؟»

«حينها سنقيم خطاً دفاعياً ثانياً وسنقاتلهم أيضاً».

«يعيش القيصر، ولتكن الآلهة معك». هذا كل ما قالوه، لأنهم كانوا يعرفون أن إرادة قيصر هي فقط ما تتحقق. بينما كان الرومان قد وضعوا بالفعل خططاً لفرض الحصار، توصل فرسن جتريكس إلى قرار مصيري. في هذه المرة سينصب فخاً أقوى من الفخ الذي نصبه في غرغوفيا، الذي فلت منه قيصر. وسوف يعترض طريق الجحافل وينتظر وصول جيش الغاليين من الشمال ليسحق قيصر مثلما تُسحق الذرة بين حجارة الطاحونة. بعد هزيمة فرسانه، أمر فرسن جتريكس الذي كان عند نهر أرمانسون مقاتليه بالانسحاب الفوري وتوجه إلى حيث يقيم المندوبون وهو تجمع لعدد من قبائل الغال في مدينة أليسيا[5].

منذ ذلك الحين، والمؤرخون يتساءلون لماذا حبس فرسن جتريكس نفسه وقواته داخل حصون مدينة أليسيا. فهو إجراء لا معنى له من الناحية الاستراتيجية. كان لديه أكثر من وسيلة فعّالة كافية لعرقلة الطريق الوحيد المؤدي إلى الجنوب عبر جبال بورغوندي، وهو موقع مثالي لنصب الكمائن. كان لديه ثمانون ألف مقاتل ولم يكن لدى قيصر سوى خمسة وثلاثين فقط. التفسير البسيط هو أنه قد انصدم بشدة بسبب أن ما فعله كان أشبه بالهروب عند نهر أرمانسون، حيث شهد بأم عينيه كفاءة جحافل روما المنضبطة، مما جعله يخطط لمحاصرة قيصر ويبقى ينتظر، ما دامت جميع قبائل الغال قد اندفعت نحو قيصر لتبيد النسر الروماني. هذا العامل، وليس غيره، يمكن أن يكون الدافع الاستراتيجي لخطوته. لقد تجاهل الخطر الرئيس. إذا حدث خطأ ما، فسيتم تركه محاصراً عند

5- عن كتاب يوليوس قيصر: الحروب الغالية.

إحدى الصخور. ولكن كيف يمكن أن يحدث أي شيء خطأ؟ أخبره جنود الاستطلاع أن القوة الغالية الرئيسة التي يبلغ عددها مئات الآلاف لم يعد أمامها سوى بضعة أيام لتتجه إلى الشمال.

«قيصر لا يستطيع أن يسير جنوباً خلفنا وإلا فإننا سوف نزعج قطعاته الخلفية. علينا أن نكون في طريقه مباشرة. فيضطر لأن يهاجمنا، وهذا مكان مناسب. لكنه سيأتي محملاً بالحديد والنار، والآلهة وحدها تعلم ما يملك من القوى المظلمة الأخرى». ومهما كان السبب الذي دفعه، فقد كان زعيم الغال يقوم بإعداد الميدان لمعركة ذات أبعاد ملحمية.

تقع حصون(oppidum) مدينة أليسيا [6] عند جبل أوسوغ الصخري، الذي يبلغ ارتفاعه 418 م، تحيطها أربع تلال متساوية تقريباً في الارتفاع: ريا بارتفاع (386 م)، ودي باسيه (246 م) وبينيفيل (405 م) ودي فلافيري (421 م) ويمتد أمامه لمسافة ثلاثة أميال، مرعى يسمى بلين دي لاموس، يقطعه نهر بينر. تتناثر فيه اليوم الحقول والمزارع ويوجد فيه الطريق السريع المؤدي إلى مدينة ديجون. ثم يأتي مرج تنتشر فيه حقول الذرة التي تستخدم لإطعام سكان الحصون.

في صيف عام 52 ق.م، تغيّر الطقس فجأة بشكل سيئ. بدأت السماء تمطر، وارتفعت نسبة مياه الأنهار وأصبحت الأرض مغمورة بالمياه. كان هذا ليصبح أحد العوامل الحاسمة في المواجهة القادمة، بينما كان فرسن جتريكس ينتظر جيش قبائل الغال الجرار ليحكم الطوق على الجحافل الرومانية، والتي كانت تُعسكر في مخيمات أمام

6- حتى منتصف القرن التاسع عشر، ظل الموقع الدقيق لمدينة أليسيا لغزاً. أمر نابليون الثالث بإجراء عمليات تنقيب لتحديد ما سمعه قيصر موروس غالوس، أي جدار الغاليين، بالقرب من قرية أليزيه سانت، تمّ تقديم الدليل النهائي على وجوده في منتصف الخمسينيات باستخدام التصوير الجوي، والذي أظهر بوضوح المعالم الأساسية للجدار الذي تحدث عنه قيصر. من يزُرْ المكان سيتعرف على تمثال فرسن جتريكس البرونزي العملاق وهو تحفة فنية للنحات الفرنسي إيمي ميلت والذي يطلّ على ريف بورغوغني.

جبل أوكسوا في سهل مفتوح، لا يمكن الدفاع عنه، تباطأ بشكل كبير تقدم قوة الإغاثة وهذا منح قيصر الوقت للتحضير للمواجهة. كان من الصعب مهاجمة حصون أليسيا. ومع ذلك، أدرك قيصر نقطة ضعفها: إذا لم تتمكن جحافله من صعود التل، فإنه سيستطيع -من خلال تطويق كامل لجبل أوكسوا عن طريق السدود الترابية التي لا يتجاوز ارتفاعها صدر الإنسان المتوسط القامة- منع فرسن جتريكس وقواته فعلياً من النزول. وهذا من شأنه أن يحرم المحاصرين من مصادرهم المائية، وهما اثنان من الجداول الصغيرة أوسي وأوسيراين، واللذان يمران عبر الوادي. ومن خلال تحويل مسار إمدادات المياه الخاصة بهم، فإن هذا من شأنه أن يجعل من في الحصن مضطراً للنزول. أمر القائد البارع في فنون الحصار بتشييد أضخم أسوار الحصار التي عرفها العالم من قبل: لقد تمّ نقل مليوني متر مكعب من التراب لبناء سورين دائريين، ليكونا بمثابة مصدّ لمنع سكان أليسيا من الخروج، وتمّ تطويقها لمنع مقاتلي قوات الإغاثة من الوصول إلى إخوانهم المحاصرين في حبل أوكسوا. سهّلت المياه التي غمرت الأرض عملية حفر مساحة هائلة منها والتي كانت لازمة لبناء مثل هذه الأسوار الضخمة. تمّ تشييد القاعدة الأساسية لها من جذوع الأشجار المقطوعة بدلاً من الأرض الرطبة، وحالما تصبح جافة، يتمّ جعلها دعامة ثابتة. عمل مقاتلو الفيالق الرومانية، الذين كانوا عراة إلى حدّ خصورهم، على تعزيزها بالاستحكامات. كانت فؤوسهم ومعاولهم ترتفع وتهبط بإيقاع واحد. وبعد أن اشترك جميع المقاتلين في كل عمليات القطع والحفر والسحب والبناء، تمّ الانتهاء من تشييد السورين في وقت قياسي. تأكد قيصر أنه أصبح بمأمن من أي هجوم مفاجئ يقوم به فرسن جتريكس، كانت خطته هي انتظار وصول بقية مقاتلي القبائل الغالية. وُضِعَت الموانع، التي تمتد على طول قاعدة الجبل لمسافة عشرة أميال، في أقل من أسبوع. وبهذا تمّ القضاء على أي أمل للسكان بترك الحصون، وما

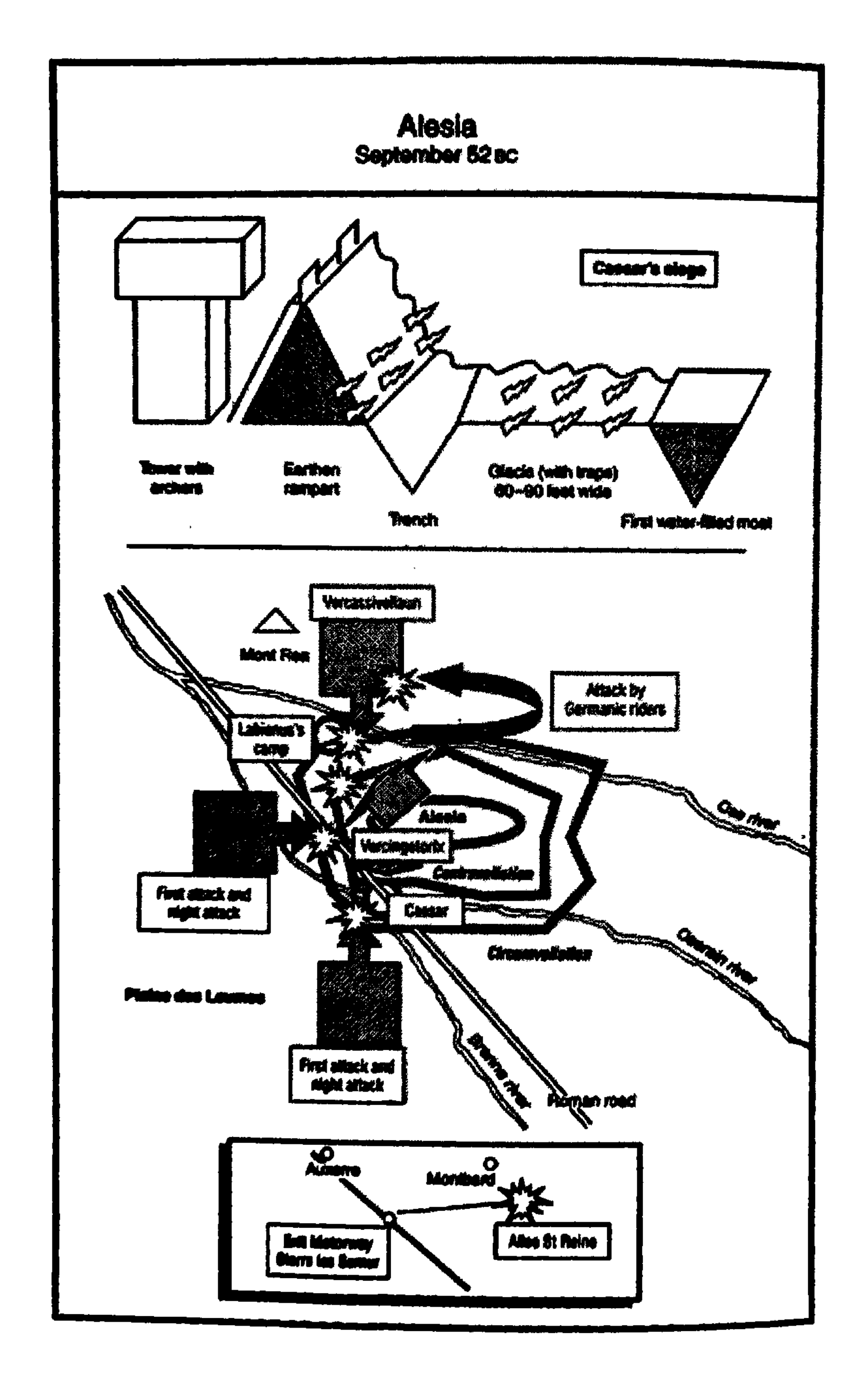
لم تتم إغاثتهم قريباً، فسيحكم على الحامية الموجودة فيها بالموت البطيء جراء العطش والجوع.

بالنسبة لمواقع الرماية في السورين، صمّم قيصر نظاماً معقداً وفعالاً للغاية من الدفاعات. تمّ تعزيز السورين بثلاثة وعشرين كاستيل (castelli)[7]، وهي أبراج خشبية مزودة برماة. أسفل الأسوار مباشرة، كانت هناك خمسة صفوف من الأغصان الشوكية (مثل الأسلاك الشائكة) مغروزة بعمق في الجدران الطينية الرطبة؛ وعلى طريق قليل الانحدار بعرض ستين قدماً، وهي المساحة ما بين السور والخندق المائي، تمّ نقل الآلاف من (السيبس cippis)، وهي مسامير خشبية تمّ تصليبها بالنار[8] إلى الأرض. تمّ استخدام شجيرات غابة بأكملها في هذه الفخاخ. كانت المنطقة مليئة بما يسمى (ليلياس lilias)، وهي فتحات بعمق خمسة أقدام مخبأة تحت أغصان الأشجار لتتعثر بها الخيول وتتكسر أرجلها. في مقدمة الطريق كان هناك خندقان يبلغ عمقهما 20 قدماً تمّ ملؤهما بالمياه المحولة من الجدولين. خدمت هذه الخنادق غرضين محددين: إبطاء مسير قوات المشاة مما يجعلها تتعرض لنيران الرماة من الأبراج، وتحويل المياه عن الحصن المحاصر. تمّ تعزيز كامل طول المصد، وهو المتراس الذي يطل على السهل، بأدوات كانت تمثل مدفعية قوات قيصر، وتشمل السكوربيون scorpions (وهي أقواس ضخمة مثبتة على حامل ثلاثي الأرجل وتطلق حزماً من المسامير المعدنية) والأوناجرس onagers (منجنيقات عملاقة تقذف كتلاً من الحجارة كأنها قنابل عنقودية)[9]. وفي النهاية، قام رجال قيصر وأولئك الذين كانوا مع لابينوس معاونه في القيادة، والذي كان يتراوح عددهم من ثلاثين إلى خمسة وثلاثين من جنود الفيلق بالإضافة إلى وحدات الإمداد، بنصب خيامهم بين السّورين.

7- باللاتينية في الأصل. المترجم.

8- أي نزع الرطوبة عن الخشب. المترجم.

9- يمكن رؤية كلا أدوات الحصار هذه في عمود تراجان في روما.



في هذه الأثناء، كان فرسن جتريكس قد وضع رجاله البالغ عددهم 80 ألف رجل على طول الجهة الشرقية من الجبل وليس على قمة الحصن (oppidum)، لقد كان هذا خطأً تكتيكياً جسيماً كونه أعطى قيصر دلالة قوية

على المكان الذي سينطلق منه الهجوم الرئيس، ولذلك قام بنقل قواته وفقاً لذلك. لقد كان يعلم أنه لا يملك من الوقت لا أشهراً ولا حتى أسابيع بل ليس أمامه في أفضل الأحوال سوى أيامٍ للانتهاء من نصب دفاعاته. فقام بالتودد لآلاف من الرجال الذين يعملون مثل النمل عراة الصدور والضغط عليهم لحفر الخنادق وتشييد الجدار ياردة بعد أخرى. لقد كان على صواب؛ فقد صنعت أربعة أيام فرقاً. تسببت أربعة أيام قصيرة في إعادة كتابة التاريخ. أدى التأخير الناجم عن هطول الأمطار الغزيرة وتردد قيادة جيش قبائل الغال إلى إبطاء مسيره بما فيه الكفاية لمنعه من اللحاق بجحافل قيصر التي كانت غير مستعدة عند سهل مفتوح على مصراعيه. هكذا وقف الحظ إلى جانب قيصر.

وصل جيش الإنقاذ الغالي بجميع أفراده، البالغ عددهم مائتان وثمانية وأربعون ألف مقاتل، من الشمال الغربي. لم يكونوا يتحركون كأفراد جيش ولكن أشبه بقطيع من أفراد عاديين هائل الحجم؛ كانت الخيول تصهل، والسيوف تصلصل والأسلحة تقعقع، وامتلأت الأجواء بالنكات البذيئة. كان المحاربون مليئين بالثقة. كان الجو أشبه بكرنفال أكثر منه مهمة عسكرية خطيرة ولا عجب فهم لم يروا الرومان منذ شهر. توجهت وحداتهم المتقدمة بخيولها نحو قمة جبل ريا. ارتفعت أمامهم على بعد بضعة أميال عبر المرج المسطح، المنحدرات الشاهقة لمدينة أليسيا. حدّقوا في الدخان الذي كان يتصاعد من خيم إخوانهم، وهو يرتفع في السماء من صخور أليسيا، لكنهم رأوا شيئاً آخر عند أسفل المنحدرات: كان هناك سياج مزدوج من الأسوار والأبراج! وبين هذين الجدارين، كان هناك المزيد من النيران؛ على شكل دائرة كاملة. وهذا منع قادة جيوش الغال من التواصل مع فرسن جتريكس الموجود في الحصن[10]. في ذلك المساء، عقد قادة الغال اجتماعاً. حضره زعماء القبائل الرئيسة الثلاث، كوموس زعيم قبيلة

10- كان لدى الرومان نظام موحد للإشارات لمسافات طويلة باستخدام المرايا أو الدخان؛ أما جيوش الغال، كونها تجمع مختلف القبائل، فلم يكن لديها شيء من هذا القبيل.

الأترىباتس، وفيركاسيفيلون زعيم قبيلة الأفيرني، وإيبوريدوريكس زعيم قبيلة الأيدويين، بالإضافة إلى زعماء القبائل الأصغر. كان الاجتماع عاصفاً حيث أراد كل واحد منهم الدفاع عن استراتيجيته. «مهمتنا هي إطلاق سراح فرسن جتريكس». وقد وافق معظمهم على ذلك عندما ارتفع أحد الأصوات وأوقف هذيانات الآراء المعارضة. «لا! نحن لسنا هنا لتحرير إخواننا. نحن هنا لإبادة قيصر وجيشه، ويجب ألا نتوقف قبل أن يموت آخر روماني!». كان هذا الصوت هو الأكثر إثارة للدهشة لأنه كان صوت فيركاسيفيلون زعيم قبيلة الأفيرني وهو ابن عم فرسن جتريكس، بالنسبة له أصبحت القضية مسألة شرف وحماية مجد عشيرته. كان تحرير فرسن جتريكس أمراً ثانوياً مقارنة بكراهيته الشخصية لأي شيء روماني مهما كان بعيداً، وهي كراهية عمياء لا تؤدي إلى التفكير بالتخطيط السليم لاستراتيجية قتالية. «نعم، اقتلوا كل روماني!»، الأمر يتطلب بالتأكيد شنّ هجوم، لكن أين؟ لم يفكر أحد في هذه المشكلة. لقد هزمت الجيوش لأنها لم تكن لديها أدنى فكرة عن التضاريس التي تقاتل فيها. كانت هذه أرض بلاد الغال، لكن جيش الغال الذي تمّ جمعه على وقع الطبول لم يكن من منطقة بورغوندي؛ وبسبب تفوقها العددي الهائل، لم تفعل تلك الجيوش شيئاً لاستكشاف المنطقة والتعرف على دفاعات قيصر.

سخر قيصر بازدراء من غفلة هذه الجيوش، التي تصبّ في مصلحته، لكن مع ذلك، كان انتشار قواته بالكاد مطمئناً. لم يقتصر الأمر على مواجهته عدداً كبيراً من قوات المشاة، فقد كانت قواته تضمّ سلاح الفرسان الأكثر إرعاباً منذ أيام سلاح الفرسان النوميديي بقيادة هنيبعل. كان قدامى محاربي قيصر متفوقين في الانضباط والتكتيكات والخبرة القتالية، لكنه لم يستطع تحمل خوض معركة طويلة، لم يكن ليستطيع الانتصار بها. كان هدفه هو أن يثبت لجيوش أعدائه أن محاولة عبور أسواره المحصنة ستكون باهظة التكلفة وبالتالي إقناعها بالعودة إلى أراضي قبائلها، وبعد ذلك سيغادر هو إلى الأقاليم الرومانية.

في صباح اليوم التالي، ساد الصمت في أرجاء السهل بشكل يثير الفضول. فقد كانت تُسمع فيه على مدى أسابيع أصوات المطارق وهي تطوّع الحديد لتصنع منه رؤوساً للسهام والرماح. الآن باتت المطارق صامتة، ولم تكن هناك أصوات صيحات أو لعنات تصدر من المئات من الضباط أو المهندسين. انتهى وقت البناء واقترب وقت القتال الجدي. وبينما كان على حصانه يطل على جحافله من ارتفاع شاهق، كان صوت القائد نائب القنصل مقنعاً: «يا جنود روما، أصحاب التقاليد التي تبعث على الفخر، لقد شهدتم حالات صعبة عديدة من قبل، وكانت دائماً شجاعة جحافلنا تحقق النصر. فلتكن هذه المرة مثل سابقاتها. هناك عدو أمامنا وآخر وراءنا. ليس لدينا خيار سوى القتال من أجل البقاء. اتخذوا مواضعكم في شرفات السورين وقاتلوا حتى لو كلفكم ذلك حياتكم. ويجب أن يتذكر كل واحد منكم مقولة: أنا مواطن روماني».

كان أمراً جيداً أنهم وثقوا به وصدقوه.

شنّت جيوش قبائل الغال أول هجوم لها دون استعدادات، ومن دون خطة أو قيادة شاملة. كانت قد وصلت للتو. تدفق الآلاف والآلاف من المقاتلين من التلال (التي تعرف اليوم باسم موسيه لافوس) نحو سهل لوميه Plaine des Laumes. وسرعان ما امتلأ السهل بأكمله بالمقاتلين الخيّالة وقد دخلوا في قتال عنيف. من قمة جبل أوكسوا كان المشهد رائعاً، وكان رجال فرسن جتريكس فرحين كثيراً. خاض الخيالة في مياه نهر برين، تبعهم عن قرب رجال يسيرون على الأقدام وهم مصممون على ملاقاة الرومان. قام قيصر بجعل فيلقين من فيالقه وهما الفيلق العاشر بقيادة الليغات[11] كينينوس ريبيلوس، والحادي عشر بقيادة الليغات أنتيستوس ريجينوس يصطفان سوية[12] أمام الأسوار لوقف ذلك

11- رتبة ضابط في الجيش الروماني. المترجم.

12- سيستخدم نابليون قصة صمودهم كنموذج يحثّ فيه حرسه الإمبراطوري على الصمود.

التدفق، وقف الجدار الروماني من الدروع والرماح صامداً بثبات لساعات ومنع مقاتلي الغال من عبور الخندق. زحف الجرحى رغم آلامهم عبر البوابة بسرعة وبأعداد كبيرة بحيث لم يكن بالإمكان صدّهم في الوقت المناسب. كانت تنتشر في حرارة الصيف، الإصابات بالغرغرينا.

بسرعة، مات الكثير نتيجة فقدانهم الدم. كانت جثثهم مكدسة قبالة سياج من أوتاد خشبية في جدار الصد. وعندما لم تكن هناك مساحة إضافية لتكدسهم، كان يتمّ إلقاء الجثث فوق الجدران، مما زاد من رعب المشهد. ظلت نتيجة القتال تتأرجح بين الطرفين حتى حلول الظلام، عندما أصبح الضغط شديداً لدرجة اضطرت جحافل الرومان إلى التراجع خلف جدرانها الواقية، تاركة مئات الجرحى والقتلى خارج الأسوار. في اليوم الأول عانى كلا الجانبين من خسائر فادحة؛ لكن بينما كان بإمكان جيوش قبائل الغال تحملها، لم يستطع الرومان ذلك. إذ لم تكن لديهم قوات احتياطية.

كان اليوم الأول من القتال قد كشف لقوات قبائل الغال عن الفخاخ الكثيرة المدفونة في خطوط الدفاع المحصنة، وقد أمضوا يوماً كاملاً في إعداد المواد اللازمة للتغلب على العقبات التي واجهتهم: كانت الأرض مليئة بالخنادق والجحور التي تتسبب في كسر السيقان، والسلالم وخطافات التثبيت التي تستخدم في تسلق المتاريس. خلال الليلة التالية، زحف الآلاف من مقاتلي الغال نحو الخندق الأول للسور الدفاعي. امتلأت معاطفهم بالتراب وهم يجتازون الممرات عبر الخندق. فشل المدافعون في السور في اكتشاف المدى الهائل لهذا النشاط المحموم. لسبب واحد، كان الرومان مرهقين للغاية بعد يومين من القتال ليكونوا متيقظين بشكل كافٍ، ولم يرتفع أي صوت إنذار حتى صارت القوة الهجومية على بعد أمتار قليلة من هدفها النهائي. فجأة، نهضت حشود من المقاتلين من الأرض وسط صخب مخيف، وهرعت لتشنّ الهجوم. ثم صبّت وابلاً غزيراً من السهام نحو الجزء العلوي من السورين.

كانت الضجة التي بدأت تنبعث من السهل أول إشارة إلى أن فرسن جتريكس عاود الهجوم على الجدار الأول من التحصينات التي شيّدها الرومان. ومن ثم ألهب حماس مقاتليه وقادهم إلى شنّ هجوم على الجدار الثاني. سارع الرومان لإمداد مواقعهم بالرجال. وباستخدام أكداس من الذخائر المجهزة مسبقاً، قاموا بهجوم مضاد بإطلاق وابل من الحجارة بواسطة منجنيقاتهم المخصصة لفرض الحصار، لكنهم لم يستطيعوا فعل الكثير لتعزيز الزوايا الضعيفة في دفاعات الجدار. من حسن حظهم أن مقاتلي الغال هاجموا في كل مكان في الوقت نفسه، بدلاً من تركيز جهودهم على نقطة محددة من الحاجز. سرعان ما انحشر الكثيرون في المنطقة الضيقة المنحدرة قليلاً الواقعة بين الخندقين المائيين والحاجز، وعلى الرغم من الظلام، وجد الرومان أهدافاً سهلة لهم وتكبد مقاتلو الغال خسائر فادحة. هذا ما أنقذ جحافل قيصر في تلك الليلة. بالإضافة إلى الشجاعة والقيادة المذهلة لاثنين من الضباط (برتبة الليغات)، هما غايوس تريبونيوس وماركوس أنطونيوس (الذي سيصبح فيما بعد أحد الرجال الثلاثة الذين يحكمون روما وفق النظام الثلاثي وعشيق كليوباترا). فقد ألهموا رجالهم في الدفاعات بالأمثلة التي قدموها. وطالما بقي مقاتلو الغال خارج «الأرض الملغومة»، وهي المنطقة المحصورة بين الخنادق المملوءة بالماء والحاجز، فقد احتفظ الرومان بميزة التفوق، فبمجرد عبورهم الخندق الأول، تكون حرية تنقلهم مقيدة إلى حدّ كبير بسبب ضيق المساحة والفخاخ المنصوبة. ويعود سبب تكبدهم تلك الخسائر بشكل رئيس إلى اندفاعهم الهائل إلى الأمام مما جعل المسامير المغروزة في الأسوار تخترق أجسادهم. أمر قيصر الضابط (الليغات) تيتوس لابينوس بشنّ هجوم مضلل بواسطة فيلقين كاملين خارج منطقة التحصينات لتخفيف الضغط على مقاتليه. تمّ الهجوم على فيلقي لابينوس على الفور من قبل موجات من مقاتلي قبائل الغال وهم يصرخون بأعلى أصواتهم في الميدان المفتوح وكانت

أجسادهم تتدافع باتجاه المعسكر. زادت حمى القتال على الأرض إلى مستويات عالية. كان معظم مقاتلي الغال قد عبروا الآن الخندق ووجدوا أنفسهم محشورين بين الماء من جانب والحصن وجحافل الرومان المتوجهة نحوهم من الجانب الآخر. لم يتمكنوا من تسلق الجدران ولا من العودة عبر الخندق المملوء بالماء. وبما أن الضغط أصبح مسلطاً عليهم من كل الجهات، فقد أصبحوا هدفاً مثالياً لقذائف القوات الرومانية. التي أمطرتهم بوابل من الحجارة فيما كان يُسمع صوت السهام وهي تتطاير في الهواء، محدثة بعده صوتاً مكتوماً وهي تضرب أجساد الرجال وتخترقها وتجعل خيولهم في حالة من الهيجان. بدأت العديد من الخيول تطرح راكبيها أرضاً وتنتصب على قائمتيها الخلفيتين ليخترقها رمح آخر عند الجزء السفلي الناعم من جسمها. بدأ مقاتلو بلاد الغال يترنحون واندفعت الجحافل المنضبطة للأمام على شكل كتائب مشاة مدربة جيداً واخترقت موجات المهاجمين. حسم هجوم الفيلقين أمر الهجوم الليلي. لقد ترك مقاتلو قبائل الغال الآلاف من القتلى وراءهم، وقد سقطوا في الفخاخ أو طافوا في ماء الخندق. بمجرد توقف القتال حول سور التحصينات، لم يتبق أمام فرسن جيتركس أي خيار سوى التراجع والعودة إلى حصنه الجبلي. للمرة الثانية، فشل هجوم كبير له. كان قيصر على بيّنة من أنه لن يكون هناك هجومان فقط بل سيعقبهما هجوم ثالث، لذلك استعد للهجوم الأخير.

لقد اتضح أخيراً لمقاتلي قبائل الغال أن «قتل الرومان» يتطلب أمراً أكثر من الشجاعة. انتخبوا قائداً جديداً لهم. وقع اختيارهم على فيركاسيفيلاون. أخبرته قبيلة المندوبيين التي كانت تسكن في تلك المنطقة عن وجود طريق يمر من حول المعسكرات الرومانية، واكتشف جنود استطلاعه وجود بقعة متهاوية في الجدار الروماني. كان معسكر القائد لابينوس يمتد على شريط من أرض مستوية بدون مصائد مما منح إمكانية الوصول إلى بوابة جدار التحصينات. بعد وقت قصير من منتصف

الليل في يوم 15 أيلول سنة 52 ق.م، اصطحب فيركاسيفيلاون ستين ألفاً من أفضل مقاتليه، وكان أغلبهم من سلاح فرسان القبائل الغالية، نحو منعطف حول جبل ريا حتى لا يثير الشكوك عند الحراس الرومانيين. قبل بزوغ الضياء الأول، كانت قوته قد أخذت موقعاً لها عند قمة الجبل. ورأى مقاتلوها أسفلهم حلقة النيران التي أشعلها الرومان كإجراء وقائي ضد أي هجوم ليلي مفاجئ آخر. سمح فيركاسيفيلاون لرجاله بأخذ قسط من الراحة حتى الظهر. عندما بلغت الشمس أوجّها، أعطى الإشارة للتقدم.

بالنسبة إلى الرومان المتواجدين في الأسوار، كان لا بدّ أن يكون هذا مشهداً مخيفاً، فموجات ضخمة من المقاتلين كانت تتدفق من التلال المحيطة بهم، وسيوفهم تضرب بشدة دروعهم البيضاوية وهم يرددون ترانيم القتال التي تنشدها القبائل السلتية بأعلى أصواتهم. اقتحم سلاح فرسان القبائل الغالية غابة جبل ريا ونزل المنحدر الطويل؛ خاضت خيولهم في المياه وهي تعبر نهر أوسي. كان هناك الكثير من حشود المقاتلين بحيث اصطدم بعضهم بالبعض الآخر. توجهوا مباشرة إلى معسكر القائد تيتوس لابينوس، الذي يقيم فيه الفيلق 30، بدعم وثيق من الفيلقين 31 و36. قبل الوصول إلى الخندق، قام فرسان قبائل الغال بإمالة النصف العلوي من أجسامهم، وسحبوا أوتار أقواسهم، وانحنوا إلى الوراء وهم على سروج خيولهم وأطلقوا وابلاً من السهام على الرومان المتواجدين في الجدار ومجموعات المقاتلين المصطفة خلفه مباشرة. تبع هؤلاء الفرسان حشود من مشاة القبائل الغالية. في هذه المرة كان قد تمّ تحذير فيركاسيفيلاون مسبقاً من الهجوم القادم بإشارة ارتفع وميضها من درع مصقول، فنزل حينها بسرعة من جبل أوكسوا مع جميع محاربيه المتبقين لمهاجمة قوات قيصر من الداخل.

لم يعد الخندق يشكّل عقبة حيث تمّ ملؤه خلال الهجومين السابقين؛ في كل مرة كان الرومان يحاولون تفريغه، كان يتم إبادة فرق العمل الخاصة بهم بواسطة السهام ذات الريش. من برج المراقبة الخاص به،

شاهد قيصر بدايات المعركة التي كان يعرف أنها ستكون حاسمة. كانت المجازفة هائلة؛ هلاك جحافله أو احتلال بلاد الغال. كان تركيز قيصر ينصبّ على إطلاق نيران هائلة من الأسوار والأبراج. أدى القذف المطرد الصادر من المنجنيقات إلى إطلاق آلاف الحجارة والكرات الحديدية وباتت تدور في الهواء. عانى الرومان من ذلك بشدة. ملأت السهام أرض المعركة وتساقط الرجال بأعداد كبيرة على الأرض. ما كان يخشاه حدث الآن، فقد تمّت محاصرة رجاله وهم بين جدرانهم. مرة أخرى، كان قيصر محظوظاً. لم يتم التنسيق بين هجومي القائدين فيركاسيفيلاون وفرسن جيتركس أبداً، وبدلاً من إطلاق جهد منسق في المكان نفسه، هاجمت قواتهم أجزاء منفصلة من الجدران الخارجية والداخلية. كانت لحظة الحسم قريبة؛ سيخسر مقاتلو الغال إذا فشلوا في تحطيم المتاريس الترابية الرومانية، وكان الرومان يعلمون أنهم سيخسرون إذا تمكن مقاتلو الغال من عبور الأسوار. في المكان الذي تعرض للهجوم من قبل مقاتلي القائد فيركاسيفيلاون كانت هناك فرصة جدية لتحقيق انفراجٍ في الوضع. لأول مرة يهاجم محاربوه بانسجام تام. تناثر الرماة على الجدران وزحف الجنود المشاة باطراد نحو الجدار تحت حماية «غطاء واق» من الدروع المرفوعة فوق رؤوسهم لدرء ما يقذفه الرومان عليهم. وبينما كان فيركاسيفيلاون يرسل المزيد والمزيد من القوات النشطة إلى أرض المعركة، كان على الرومان التمسك بالأرض التي لديهم؛ أي شخص كان لا يزال بإمكانه الصمود، سواء كان جريحاً أو لا، تمّ إشراكه في القتال. بين الجدران كان هناك الكثير من الارتباك. فالأوامر المتضاربة دفعت الجنود إلى الركض في جميع الاتجاهات، وغلق الثغرات أو حمل ما استطاعوا من السهام.

رفع قيصر رأسه ليمعن النظر من فوق الجدار. لقد رأى عدداً كبيراً من مقاتلي الغال في طريقهم نحو بوابة لابينوس. «أحكموا سيطرتكم على البوابة!»، صاح على عجل لإضافة دعم للمقاتلين من خلال وجوده الشخصي. كانت لديه قوات احتياطية واحدة فقط، هي سلاح الفرسان

الجرماني الثمين، والذي كانَ قد أبقاه بعيداً عن أنظار جيش الغال. كان هؤلاء الألمان البالغ عددهم خمسة آلاف شخص يمثلون ذخره القوي، وكان سيستخدمه في الوقت المناسب من المعركة. استغرق الأمر انضباطاً كبيراً للقيام بذلك، لكن قيصر كان رجلاً لديه إرادة حديدية. بخلاف الخمسة آلاف فارس، كان إجمالي عدد القوى البشرية المتاحة لديه لوقف الانهيار قد انخفض إلى ستة أفواج أو ثلاثة آلاف رجل؛ وكان ما يحتاجه لوقف أي هجوم جديد حوالي مئة ألف رجل!

في هذه الأثناء، هاجم فرسن جتريكس بقوة جانب الجدار الذي يقع على نهر أوسي، حيث عهد قيصر إلى الشاب ديسيموس بروتوس مسؤولية الدفاع عنه. كان أحد الأجزاء الأكثر عرضة للهجوم يقع بين البرجين، وكان يدافع عنه صف فيه عدد قليل من المقاتلين الرومان المرهقين من الفيلق الثلاثين. بالنسبة لهم، بدا القتال وكأنه مسرحية سريالية، تتم مشاهدتها من خلال الغشاوة التي أحاطت بهم بسبب الإرهاق والدخان الناتج عن نيران القوات الإغريقية. كان الرماة في الأبراج يصطادون المقاتلين الغاليين بدقة قدر استطاعتهم وبأقصى سرعة يتمكنون بها من تثبيت السهام على أوتار أقواسهم. لا شيء على ما يبدو كان يستطيع وقف حماس الغاليين. كانوا يجيئون، مراراً وتكراراً، زرافات ووحداناً، ومع ذلك فشلوا في الوصول إلى أعلى الأسوار. أدى مهندسو قيصر المسؤولين عن كل ما يتعلق بوسائل فرض الحصار عملهم بشكل جيد؛ تحصيناتهم كانت معدة جيداً ومرصوفة بشكل عميق. استمر الهجوم على مدار الساعة. كان يمكن حساب المكاسب على الأرض بالياردات. قام فرسن جتريكس بإجراء مناوبة بين قواته كل نصف ساعة، لكن الرومان لم يكن لديهم مثل هذه الإمكانية في مناوبة قواتهم، لقد تابعوا القتال. بدأ مقاتلو الغال يشعرون بالضغط؛ كانت الوحدات التي دخلت أرض المعركة تتمتع بحيويتها فهي لم تدخل في معارك بعد وبدأت تفقد الأرض التي استولى عليها المحاربون القدامى، لذلك كان عليهم العودة ومواصلة القتال. بعد

ساعات من الارتباك وخمس محاولات غير مجدية، نقل فرسن جتريكس رجاله إلى أسفل الجدار لمهاجمة جزء آخر من التحصينات. وبينما كان حشد من مقاتلي الغال يسيرون جنباً إلى جنب في الخارج، على مرأى ومسمع من المدافعين، جمع الرومان قواتهم بعيداً عن الأنظار وتحركوا إلى جانبهم، وبالتالي تركوا أجزاء كبيرة من الجدار من دون وجود مدافعين عنها تقريباً. ومرة أخرى، ابتسم الحظ لقيصر: هذه المرة لم يعد لدى قوات الغال الاحتياطيات اللازمة للهجوم في كل مكان في وقت واحد، أو ربما لم يفكروا في الأمر وسط حمى القتال. حيث أصبحت الأسوار الآن غير محصنة فعلياً، وكان بإمكانهم تسلق الأسوار دون أن يواجهوا مقاومة تذكر.

عند بوابة لابينوس، كانت الأمور ميؤوساً منها. كان مقاتلو قبائل الغال يتجمعون على بعد أقدام قليلة من الجزء العلوي من الأسوار. أرسل قيصر آخر ستة أفواج لديه تحت قيادة غايوس فابيوس ماكسيموس عندما اندفع فارس نحو القائد ليبلغه أن ليس أمام القائد لابينوس سوى بضع دقائق للصمود وبعدها ستنهار قواته أمام الهجوم القادم. سرعان ما حول قيصر الأفواج الستة من بروتوس إلى لابينوس، الذي بات يتولى الآن قيادة تسعة وثلاثين فوجاً، أي نصف مجموعة قيصر الفعالة؛ وفي محاولة أخيرة، جمعهم داخل البوابة، التي كانت على وشك أن تنهار تحت وابل الضربات المستمرة. وفجأة تمايلت الأبواب وانفتحت واندفع منها خمسة عشر ألفاً من مقاتلي الرومان في هجمة جريئة. واجه الرومان على الفور جحافل من الشياطين ذوي الوجوه الحمر وهم يزعقون؛ ثم انقضّ بعضهم على بعض، وهم يصرخون مثل نسوة تنوح ويخبطون بأذرعهم. اشتبكوا مع بعضهم مثل الكلاب البشرية، يعضون، وينهشون ويغرزون أظافرهم في أجساد بعضهم البعض. يلكمون بعضهم وهم ثملون، ويمزقون شعر وعيون بعضهم البعض. بعض من ماتوا كانوا واقفين إلى جانب الجدار نتيجة الضغط من كلا الجانبين. ولكن كان هناك الكثير من موتى مقاتلي الغال مقارنة بالرومان.

أعاد لابينوس تشكيل قطعاته المنهارة. أولئك الذين كان يعتقد المقاتلون الغاليون أنهم انهزموا كانوا يقفون في تشكيل مثالي؛ فاجأهم هذا للغاية إلى حدّ أن القتال توقف لبضع لحظات. خرج لابينوس ليتمشى من خلف خط القتال، درعه على ذراعه الأيسر، ومعه حارسان فقط. أعطى الإشارة فتقدم الخط القتالي قليل العدد وأفراده يحملون رماحاً بالارتفاع نفسه. لم يكن هناك شيء يدعو للإسراع في تقدمهم. استمر فيلقه في التقدم بانتظام وثبات يرتدون دروعهم المعدنية الرمادية اللون وستراتهم الجلدية البنية. بعد إشارة أخرى تراجعت الأفواج رويداً لتتوقف، واصطفت سوية، هادئة بلاحراك. حدث ذلك عندما هدرت حناجر مقاتلي الغال بصرخات القتال الشرسة وانقضوا عليهم.

وبينما كانت هذه المعركة محتدمة، كانت تحدث حالة طوارئ أخرى عند أجنحة قوات قيصر. كان بإمكانه أن يرى حشوداً من مقاتلي سلاح فرسان القبائل الغالية وهي تغادر مواقعها على يمينه ليلتفوا حول جحافل لابينوس، وهم يتنقلون بمهارة تمهيداً لشن هجومهم.

كانت ذروة المعركة على وشك الحدوث. حتى تلك اللحظة، كان بإمكان فرسن جتريكس شنّ هجوم مضاد مكثف. لو استطاع فقط إعادة تنظيم رجاله بسرعة ليتحين الفرصة لاحتمال حدوث منعطف، لكان قد نجح بالتأكيد. لكنه أراد القيام به بعد فوات الأوان، وكانت الفرصة قد ضاعت.

منح الهجوم الذي شنّه لابينوس بعض الوقت الثمين لقيصر بينما قام بسحب كل رجل موجود من الأجزاء الآمنة من كلا السورين. هذا الأمر أدى إلى تشكيل أربعة أفواج إضافية، ألفا رجل في كل فوج. تولى قيصر بنفسه زمام القيادة. ظهر قيصر ممتطياً جواده، وفي هيئة ملفتة للنظر، يرتدي رداءً فضفاضاً (paludamentum)، مع الوشاح الأرجواني للقائد العسكري الروماني. مشهد قائدهم هذا أشعل الحماس في صدور مقاتلي الجحافل؛ ارتفعت صيحات عالية من شرفات الأبراج وانقض الرومان

بقوة متجددة على مقاتلي بلاد الغال. فيما أطلق الضابط (برتبة السنتوري) والسيف في يده، صيحة عالية. كان أعلى صوت أطلقه على الإطلاق. وعند رأس قوته كان يحيط به الموتى والمحتضرون والمصابون. فوجئ مقاتلو الغال بالهجمة الجديدة. جمد البعض ثم استداروا بسرعة. أغلق محارب عملاق من قبائل الغال -كان لديه لحية تغطي وجهه بأكمله، وطويل القامة- الطريق على الرومان. تصادم أحدهما بالآخر وسط بريق الشفرات الرنانة؛ تعثر القائد (السنتوري) في مشيته، وسقط، واخترقه سيف العملاق. قفز اثنان من المقاتلين الرومان نحو المحارب طويل القامة. حينها سقط هو أيضاً وبدأ المقاتلون الغاليين بالتراجع... ثم بدؤوا يركضون، هاربين كما هي عادة البرابرة دائماً قبل أي هجوم روماني قوي.

كانت تلك هي اللحظة الحاسمة التي كان ينتظرها قيصر. إذا استطاع أن يهزم مقاتلي بلاد الغال ويجعلهم يهربون، فستحدث فوضى. لقد حانت اللحظة المناسبة لفرسانه الجرمان. قرر قيصر أخيراً الاستعانة بسلاح فرسان المرتزقة الثمين. أصدر أمراً كمحاولة أخيرة: على سلاح الفرسان أن يلتف من حول التحصينات ويشتبك مع العدو، أصبح الآن منخرطاً بشدة في القتال من الخلف إلى جانب جحافل لابينوس. لقد كانت مقامرة يائسة لكنه كان مضطراً للقيام بها وإلا ضاعت روما وقيصر معاً.

مع ارتفاع صوت الأبواق، تجمع سلاح فرسان المرتزقة بشكل كتلتين كبيرتين. ما إن ارتفع صوت إشارة أخرى من الأبواق حتى انطلق مقاتلو سلاح الفرسان الجرماني من مواقعهم، وتسارعوا في انطلاقهم بشدة، وخيولهم ترغي وتزبّد. كان لكل فارس سيفه الطويل الذي يمر عبر سرجه فيما كان يقبض بكلتا يديه بسرج الحصان. اصطدمت السيوف بالسيوف، والأجساد بالأجساد. انقّض الألمان القادمون لتوِّهم إلى أرض المعركة على مقاتلي بلاد الغال. وأعقب تلك الموجة الأولى من الفرسان موجة ثانية، كانت قادمة من حول تلة أليسيا من الاتجاه المعاكس واشتبكت مع جيش الغاليين من الخلف. اجتاح الفرسان الألمان حشود خصومهم

مثل عاصفة هوجاء. حارب مقاتلو الغال مثل الوحوش البرية. انقسمت دروع الأجساد تحت الضربات القاصمة للسيوف التي يمسكها كلّ مقاتل بكلتا يديه، سقط وابل من المسامير على الرجال والخيول. جلس ضابط روماني (برتبة تريبون) على الأرض، ممسكاً بطنه حيث أصيب بضربة من رمح. انسكب الدم من فمه قبل أن يسقط على وجهه.

في النهاية، بدأ الفرسان الألمان القادمون من خلف الجبل بمهاجمة أي تجمع للأعداء يجدونه أمامهم. يدفعون بهم على طول الطريق المؤدي إلى النهر حيث اتخذ زعماء قبائل الغال موضعاً لهم مع قوات مشاتهم، وارتكبوا بحقهم مذبحة مروعة[13].

ارتقى قيصر أعلى تل صغير حيث يستطيع من هناك رؤية ساحة المعركة بأكملها، وحدث ذلك في الوقت المناسب ليشاهد فرسانه وهم يغيرون على مقاتلي بلاد الغال من الجوانب ومن الخلف. كان جيش بلاد الغال ينهار أمام عينيه. تشتتت مجاميعه في كل مكان وبدأت بالهروب، كان المقاتلون يتخلصون من أسلحتهم ليسرعوا في هروبهم، انقضّ مرتزقته الجرمان، الذين لم يعودوا يواجهون أية مقاومة تقريباً، على الحشود الهاربة، وسيوفهم الطويلة تصعد وتنزل. قُتِل العديد من محاربي قبائل الغال، ولم يُؤسر أي واحد منهم. تكدست جبال من جثث المذبوحين أمام المتراس، وأولئك الذين لم يموتوا تماماً سرعان ما اختنقوا تحت كتل الجثث التي كانت تسقط فوقهم. ثم استمر القتال على طول السور الحصين، وأصبح اشتباكاً بالأيدي. قاتل محاربو القبائل الغالية بشكل جيد طوال فترة ما بعد الظهر، لكن التعب بدأ ينال منهم بشكل متزايد، بعد أن استخدموا كل قوتهم في محاولة عقيمة لاقتحام السور الدفاعي في وقت مبكر من اليوم. أعاق جبل الجثث تراجعهم. أمسك الرومان بالكثير منهم وقاموا بذبحهم.

كان فرسن جتريكس متواجداً طوال اليوم في الخط الأمامي للمعركة.

13- عن كتاب يوليوس قيصر: الحروب الغالية.

تمزقت ملابسه في أماكن متعددة من أثر طعنات السيوف والتصقت بها بقع من الدم المجفف الذي يعود لأعدائه. لم يكن لديه وقت لتنظيفها إلّا بعد أن يرسم خططه لليوم التالي. كان الحقل الأخضر أسفل جبل أوكسوا قد تلوث بسبب الجثث المكدسة، وعلى امتداد السهل، كانت قوة الإغاثة تتراجع مثل سيل خفيف، متجهة إلى مناطق آمنة عند التلال البعيدة. كان رجاله يتراجعون ويجتازونه دون أن ينظروا إليه. كان مثل جزيرة وسط تيار من المنسحبين. ذهب العديد من رجاله إلى حتفهم وهم واقفون قبالة الجدار الذي شيّده قيصر تحت أشعة الشمس الساطعة لظهيرة حارقة. وقد أخبره صوت في داخله ليس فيه أثر لعاطفة ولم يتأثر بالغضب الذي أحرقه، أنه لا يمكن الاستيلاء على ذلك السور الملعون. لقد انتهى الأمر؛ إلى جانب رعب الخسارة، استولى عليه التعب والغضب اليائس. مات رجاله من أجل لا شيء وأرسلهم إلى حتفهم. في أسفل الوادي، من وسط دخان العديد من الحرائق، ظهرت ملامح شخص راكباً حصانه ويرتدي عباءة قرمزية. كان وجهه قاسياً شاحباً، وعيناه ساطعتين وساختين بينما كان يحدِّق عبر فراغ الموت إلى حيث يقف فرسن جتريكس وحيداً. استدار زعيم مقاتلي الغال. مكتفياً بما رآه. مشى أعلى التل، في نسيم المساء. أدرك فجأة الدموع وهي تترقرق في عينيه. تجمع قادة قواته من حوله، واقفين بلا حراك، وقد استوعبوا المعلومة التي بدأت تنتقل بينهم دون كلام بأن الأمر قد انتهى. بدأت الشمس تغيب، وكانت حمراء مثل الدم، ومعها جاء الظلام بطيئاً وقد خيّم فوق الحقل وحتى فوق السور الملعون، يغطي الموتى والمحتضرين مثل ظلال أجنحة طير عملاق. لقد اندحر جيش قبائل الغال الجرّار وتعرض إلى مجزرة كبيرة. تُركت عظام أفراده لتتحول إلى غبار في حقول بورغوندي.

انحنى فرسن جتريكس على مقبض سيفه. كانت شفرته الطويلة تتدلى حتى كاحله مع وجود نتوء منحوت على الشريط الممتد حول كتفه لكي يجعله في متناول اليد. ما الفائدة من السيف في مواجهة آلام الجوع؟

كان رجاله منهكين يقتلهم الجوع، وإذا حاول الهجوم مرة أخرى غداً فسيخسر نصفهم؛ كانوا مرهقين بشكل يتجاوز القدرة على التحمل، وقد أصبحت ألسنتهم غليظة من العطش وحلوقهم شديدة الجفاف لا تستطيع مضغ الطعام. لكنهم كانوا مضطرين إلى الخروج؛ وسيسمح لهم بكل ما يحتاجون إليه من فترات راحة بعد أن يقتحموا هذا السور الملعون. كان عليه أن يقودهم إلى الخارج من جديد، حتى قبل أن يكونوا مستعدين، لأنهم، إن لم يفعلوا، سيموتوا من العطش والجوع. كان هناك غضب يشتعل في رأسه كالمقاتل الذي سقط وقام من جديد بحثاً عن مخرج. كان غضباً صامتاً. مع حلول الليل ارتفع صوت عويل النساء، وهن يرثين أزواجهن وأبناءهن. نظر فرسن جتريكس إلى أبناء قومه الذين يعانون قائلاً: «ليس أمامنا سوى أن نموت. ماذا يمكن أن نفعل أيضاً؟ لا أرى أن هناك أي خيار».

لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك. ظل فرسن جتريكس يمانع أسبوعين آخرين قبل أن يشرع في الترتيبات لعقد اجتماع مع قيصر، لتأمين حرية الخروج الآمن من الحصون للنساء والأطفال الذين يعانون بشدة. بقي القائد الروماني قاسياً. فقد أصبح الضغط على غير المقاتلين سلاحاً قوياً في يده لإجبار قائد قوات الغال على الركوع. وتوسل إليه فرسن جتريكس: «أن يشفق على النساء والأطفال».

لم يفعل قيصر سوى أن ينظر إلى ذلك المحارب قائلاً. «الشفقة كلمة لا أعرفها».

عندما عاد فرسن جتريكس إلى التل، كان يعلم أن كل شيء قد ضاع.

من المؤكد أن فرسن جتريكس حصّن نفسه، إلى جانب 80 ألف رجل، داخل قلعة أليسيا، والتي في حدِّ ذاتها لم تكن كبيرة جداً. عندما أرسل سلاح الفرسان للقتال، لماذا لم يرسل معه ستين ألفاً من قوات المشاة؟ كان يكفي عشرين ألف رجل لتعزيز حامية أليسيا، الواقعة على منطقة صخرية تضم بالفعل عدداً كبيراً من غير المقاتلين. لم تكن لديه مؤونة تكفيه لأكثر من ثلاثين يوماً. كانت أليسيا معقلاً قوياً ليس لديها ما تخشاه

سوى الجوع. لو أنه بدلاً من الثمانين ألف شخص، لم يبقِ لديه سوى عشرين ألف شخص، كان سيحصل على طعام لمدة 120 يوماً، ولكان الستين ألف محارب المتبقون قد جابوا الريف وهاجموا قوات قيصر التي تقوم بمحاصرتهم. بدلاً من ذلك، استغرق الأمر 50 يوماً لتجميع جيش جديد من قبائل الغال، وبحلول ذلك الوقت كان قد نفد الطعام الذي يملكه جيش فرسن جتريكس المحتجز.

في خطوة يائسة لإنقاذ جيشه من الموت المؤلم، قام فرسن جتريكس بإجبار جميع الأشخاص غير المقاتلين على الخروج من الحصن. فهاموا على وجوههم بين المنحدر والسور والجدار بحثاً عن لقمة طعام وشربة ماء في انتظار الموت.

وصف أحد الناجين تلك اللحظات قائلاً: «في تلك الأيام من الحصار وقبل أن يتوجه فرسن جتريكس نحو الموت ويصبح طي النسيان، قضينا وقتنا نمعن النظر إلى طعامنا المتضائل، والبحث عن الدخان في الأفق والاستماع إلى صوت البوق في الليل الذي لم يأتِ أبداً وإلى الشائعات خلال النهار، التي كانت تقول إن قوة ستأتي من مكان ما لإغاثتنا وتغيّر مجرى الحصار. لكن الضوء كان يتلاشى بسرعة والظلام الدامس يقترب بخطوات عملاقة».

كان كل ما يهم قيصر هو الانتصار الشخصي. ولا شيء غيره. لقد تحول القتال على السهل إلى عملية حصار بسبب العطش. كان كل ما على قيصر فعله هو الجلوس عند قاع التل والانتظار. كان الخريف حاراً للغاية وسرعان ما جفّت أحواض المياه في مدينة أليسيا. بعد أن هلك الكثير من رجاله بسبب العطش والجوع، استسلم قائد قوات قبائل الغال في النهاية.

لقد كانت كارثة كبيرة أن يموت الآلاف من شباب قبائل الغال بلا داعٍ. حاول فرسن جتريكس تحسين حياة شعبه. لكنه كان يقامر، والآن باتت البلاد كلها في حالة حداد. كان قد اجتنب عدوه الروماني في معركة غيرغوفيا وبات يعرف أنه سيقتله الآن.

في اليوم العشرين، صرخ الحراس الرومانيون عند البوابة وأشاروا إلى رجل جالس على حصان يقف أمامهم كما لو كان منحوتاً من الحجر، وخوذته مربوطة إلى ذقنه، ودرعه المزرد كان باهتاً ومنبعجاً ومليئاً بالثقوب من أثر القتال. لقد دخل فرسن جتريكس، ملك بلاد الغال بشخصه والذي سيمثل رمز النصر المجيد الذي حققته روما، وهو يمتطي حصانه الذي قاتل به من خلال البوابة مرتدياً أكثر دروعه روعة، جال بحصانه في دائرة من حول قيصر، الذي كان يجلس على منصة، وقفز من حصانه ورمى سيفه عند أقدام قيصر: «خذ هذا، المحارب الأكثر شجاعة، انتصر على المحارب الشجاع».

تصلّب فم قيصر وهو يقول. «تعال واركع على ركبتيك؟»

ظل المحارب من بلاد الغال راكعاً على ركبتيه حتى سلمه قيصر إلى الحراس تعبيراً عن ذروة انتصاره[14].

كان حلم زعيم بلاد الغال التخلص من نير الاحتلال الروماني في متناول اليد؛ انتهى هذا الحلم في أحد أيام شهر أيلول سنة 52 ق.م. وكان يوليوس قيصر، المخطط البارع لعملية الحصار شاهداً عليه، شارف كتاب (تعليقات على الحرب الغالية). على نهايته[15] مع حلول العام الرهيب عاش شعب الغال «في ليل طويل من الظلام» دامت هيمنة روما على بلاد الغال 500 عام[16].

تم تأليه قيصر إلى درجة العبادة. عاد إلى الوطن للاحتفال بالانتصار،

14- عن المؤرخ فلوطرخس.

15- يمكن العثور على أفضل وأدق المعلومات عن كل هذه الأحداث في هذا الكتاب الذي ألفّه قيصر. كتبه بعد فترة وجيزة من الأحداث التي وقعت أثناء قضائه فصل الشتاء في مدينة بيبراكتي بين عامي 52- 51 ق.م جميع المذكورين فيه بمن فيهم فرسن جتريكس السجين كانوا بالقرب منه وبالطبع هو يعبّر عن وجهة نظر كاتبه يوليوس قيصر المنتصر كل الكتب التي تناولت تلك الأحداث والتي ألفها المؤرخون تيتوس ليفيوس، وأسينيوس بوليونوس، وفلوروس، وفلوطرخس وديو كاسيوس بعد 150 سنة استقت معلوماتها بالتأكيد من الكتاب.

16- عندما تمّ «تحرير» بلاد الغال في النهاية من قبل الفرنجة رأوا في الملك الفرنجي خليفة لفرسن جتريكس.

لأنه جعل السلام يحلّ في البلد العظيم الواقع شمال جبال الألب. كما جاء في مرسوم مجلس الشيوخ. مرت العديد من العربات الحربية، وقد تكدست فيها غنائم الحرب، وسارت في موكب النصر من أمام معبد الإله ساتورن. كان يجلس في إحداها فرسن جتريكس، وقد وضعت سلسلة حول عنقه، يتبعه رتل من الأسرى وقد رُبِطوا بالسلاسل جميعاً. هتفت الحشود بحياة قيصر معتبرينه بطلهم. ولكن سرعان ما بدأت المؤامرات تُحاك ضده ويتضاءل نفوذه السياسي. كان لا يزال يفتقر إلى القدرة على مواجهة كل من مجلس الشيوخ المعادي له وبومبي منافسه. عاد إلى بلاد الغال للانضمام إلى جحافل المؤمنين به. على مدى العامين التاليين (51-50 ق.م) حوّل قيصر بلاد الغال إلى مقاطعة رومانية، وظلت على هذا النحو جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية الرومانية على مدى الخمسمائة عام التالية. كان أعظم إنجازات قيصر، كما كتب هو نفسه، هو احتلال بلاد الغال. خلال عشر سنوات كان قد غزا ثمانين مدينة كبرى وأخضع لسلطانه ثلاثمائة قبيلة. وأصبح مليون فرنسي عبيداً يخدمون أسيادهم الرومان.

عندما ينظر المرء إلى أحداث العام الرهيب، فإن الانطباع العام الذي يتكوّن لديه هو الانعكاس المذهل في نتيجة الحرب. في البداية، كان قد حكم على جحافل قيصر بالفشل، خصوصاً بعد انتكاستها في معركة غيرغوفيا وانشقاق أكبر قبائل بلاد الغال، الأيدويين. مع دخول الدولة في تمرد مفتوح، وقطع طرقها الرئيسة وحرمان جيشه من الإمدادات بسبب سياسة الأرض المحروقة التي اعتمدها فرسن جتريكس، هرب قيصر بلا تردد نحو القلاع الرومانية المحصنة في منطقة بروفنس؛ وحين وجد أن طريقه مغلق، وقف وقاتل، ثم قلب الوضع[17]. هل كان فرسن جتريكس

17- حدث شيء مماثل في معركة أجينكور في عام 1415. عندما حاول الملك هنري الخامس بقوة متواضعة، الوصول إلى حصنه في كاليه، وأوقِفَ من قبل الفرنسيين ثم حقق انتصاراً مذهلاً. وكذلك فعل الفرنسيون في معركة ديان بيان فو في عام 1954، محاولين إغراء الفيتناميين للوقوع في الفخ وتطويقهم ثم إبادتهم من الخارج، وكانت النتيجة إبادتهم للفرنسيين.

استراتيجياً سيئاً؟ استخدم ثلاث مرات «استراتيجية مأزق ترسيخ القوات في مكان واحد»، والتي كانت تتمثل في إغراء عدوه للدخول إلى موقع حصار ثابت حول حصن مركزي في مدينة صديقة (بورجيس، غيرغوفيا، أليسيا)، ثم جمع أكبر عدد من القوات الصديقة حول العدو لإبادته بواسطة عمل متضافر من الخارج. في معركة بورجيس، لم يكن لدى قوات قبائل الغال حينها القوات اللازمة واستولى قيصر على القلعة؛ وفي معركة غيرغوفيا، اعتمد فرسن جتريكس على القبائل لوضع الرومان بين فكي كماشة، ولكن قيصر أدرك الخطر وانسّل من فخ الإغلاق؛ وفي معركة أليسيا، كان لدى فرسن جتريكس أخيراً كل ما يلزم لتحقيق النصر. كان جيش الإغاثة هو العنصر الرئيس في إبادة الجحافل، وسحقهم داخل أسوارهم الخاصة. ولكن في مواجهة حالة «النصر أو الموت»، أثبتت الجحافل الرومانية الأسطورية أنها منضبطة بشكل أفضل وحماسها أكبر، وقد قاومت. ولم يتمكن تدخل قوة الإغاثة، مهما كان حجمه، من أن يحقق النصر لجيش بلاد الغال. أدرك قيصر الإمكانات الغنية الكامنة لنجاحه. لم يكن وراءها بلاد الغال، بل روما.

كان فرسن جتريكس، قبل كل شيء، رجلاً من لحم ودم. وقد قطع الطريق على الضغائن بين القبائل وتجاوز التناقضات بين الرجال ذوي قصر النظر والأقل قدرة منه. ربما كان انتهازياً، لكنه كان قائداً غالياً بطريقة توحي بأنه من سلالة لها تقاليد راسخة في الإيثار والشرف. كان يمثل صورة المحارب الشجاع والحازم الذي يمتلك مشاعر قوية. لكن في النهاية، تغلب عليه السيد البارع صاحب المهارات الدبلوماسية المتفوقة والقرارات السريعة. بانتصار قيصر في معركة أليسيا، فقدت قبائل الغال هويتها السلتية. وأصبحت لغتها هي اللاتينية (ولا تزال) وأصبحت عاداتها الشعبية لاتينية أيضاً.

تمكن قيصر لمدة ست سنوات مؤلمة من جعل فرسن جتريكس يعاني من كل ما يمكن أن يعانيه من يأتيه الموت. فحبس زعيم قبيلة الأرفيرني

في زنزانة في سجن توليانوم[18] لا تصلها أشعة الشمس والهواء النقي قد يكون الألم الذي عانى منه جسده على أيدي السجانين أقل من الألم الذي تحملته روحه. في أواخر عام 46 ق.م، وفي ذروة مجده، أمر قيصر بشنق السجين. ربما كان موت الزعيم الغالي النبيل هو بمثابة الخلاص له، ذلك النسر المقيّد الذي تمّ إطلاق سراح روحه[19]. أما بالنسبة للقيصر العظيم، فقد نجا من لعنة أسيره لمدة ستة عشر شهراً فقط. بحلول إديس مارس[20]، تحققت لعنة بلاد الغال.

ماذا كان سيحدث لو حقق فرسن جتريكس النصر في تلك الأيام الخريفية الرطبة من سنة 52 ق.م؟ من غير المرجح أن يتغير مسار التاريخ. كانت المصالح الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية لروما هي التي ستحدد ذلك. كانت لدى بلاد الغال حدود مباشرة مع روما ولكانت جحافل روما قد أعادت الكرّة بعناد كبير، ولوجدت بلاد الغال نفسها لا محالة مندمجة في الإمبراطورية الرومانية.

أصبح المجد الذي حقّقه قيصر أسطورة يتغنّى بها الناس. سرعان ما تمّ نسيان فرسن جتريكس، ومع ذلك كان هو الذي جسّد الشكل الحقيقي للوطنية. كانت رحلته ملهمة لمقاتلي الساموراي وكذلك شعاره «الشرف والوطن». كان لا بدّ أن تمر سبعة عشر قرناً حتى يظهر اسمه في إشارة مختصرة في كتاب جاك دي كاسان عن ملوك الغال القدامى[21]. في عام 1873، أصبح لدى باريس شارع باسم فرسن جتريكس، وفي الأيام

18- يعرف اليوم بسجن مامرتين. المترجم.

19- كشفت التنقيبات التي جرت في مدينة أليسيا بأمر من نابليون الثالث عن قطعة برونزية صغيرة يظهر فيها محارب من بلاد الغال مستلقياً على الأرض وسلاحه يغطي وجهه، وهي قطعة رومانية في الأصل وتعرف باسم محارب الغال الميت.

20- هو يوم في التقويم الروماني يتوافق مع 15 آذار. تميز بالعديد من الاحتفالات الدينية، وكان معروفاً بالنسبة للرومان كموعد نهائي لتسوية الديون، وهو يوم اغتيال يوليوس قيصر. المترجم.

21- راجع: J. de Cassan, Traité des anciens rois des Gaulois et des Français depuis le déluge, Paris, 1621.

المظلمة التي سبقت الحرب العالمبة الثانية استعان شارل ديغول بمثال محارب الغال لتحذير الفرنسيين من تهديد هتلر المتزايد: «عندما ألقى فرسن جتريكس بسلاحه عند أقدام قيصر، ربما كان يعتزم أن يكون تكريمه اليائس درساً خالداً لأبناء عرقه». بعد هزيمة فرنسا في عام 1940، استذكر الكتاب إشارة زعيم قبيلة الأفيرني في المنشورات السرية، واعتبره مثالاً على «(أول مقاتلي المقاومة) في تاريخ فرنسا».

وإذا حكمنا عليهما كرجال. فقد كان كلاهما شجاعاً وحازماً، يحركهما تعطشهما للسلطة وتوقهما للتميز؛ أظهر كلاهما عواطف جياشة وكانا قادرين على ارتكاب جرائم بشعة. شيء واحد مؤكد؛ كان فرسن جتريكس وقيصر يستحق كل منهما الآخر، في المجد كما في الهزيمة. اعترف قيصر بصراحة في كتابه تعليقات على الحرب الغالية بأن انتصاره الحاسم على فرسن جتريكس كان معلقاً بخيط رفيع.

يوضح فشل هجوم قبائل الغال المشكلة الأبدية المتمثلة في وجود قوة أقوى يقودها عدد كبير جداً من القادة في مواجهة قوة أضعف يوجّهها رجل واحد. لم يتم حسم الجدال أبداً حول الفرص التي ضاعت في معركة أليسيا وتمّ حجبها وسط ضبابية من الرومانسية.

كان العامل الحاسم في معركة أليسيا هو دهاء قيصر في انتظار اللحظة المناسبة لكي يتلقى العدو ضربات فرسانه الجرمان الشرسين.

بعد مرور ستين عاماً، سيكتب أحفاد المساعدين الألمان نفسهم الذين جعلوا روما تهيمن على بلاد الغال، سطور نهاية حكم روما لبلاد ما وراء نهر الراين. في مواجهة حاسمة في معركة غابة تويتوبورغ[22] حين حطموا جحافل روما وغيّروا إلى الأبد مصير أوروبا الوسطى.

22- وصفها المؤلف في كتابه (عامل المناخ) الصادر عام 1999 وحدثت معركة غابة تيوتوبورغ بين جحافل فاروس وقائد القبائل الجرمانية أرمينيوس.

الفصل الثاني عشر

سَبَقَ السّيْفُ العَذَلَ

عبور نهر روبيكون

11 كانون الثاني 49 ق.م

سَبَقَ السّيْفُ العَذَلَ[1]

- ***غايوس يوليوس قيصر،***

11 كانون الثاني سنة 49 ق.م.

أثناء عبور نهر روبيكون

... «في أوقات الحرب تصمت القوانين»[2]. تبعاً لهذا القول فعل قيصر ما لم يتجرأ أي قائد روماني على فعله من قبل، لم يعر اهتماماً لقوانين روما، وقاد جيشه وعبر به نهر روبيكون. وبهذه الخطوة، كان قد وصل نقطة اللاعودة.

كانت روما مثل اليونان، مهد الديمقراطية، يحكمها عدد قليل من العائلات الحاكمة، أو الآباء patres، أي الأسر الأرستقراطية التي لها مقاعد في مجلس الشيوخ (السينات senat)، وتعني الكلمة مجموعة من الأعضاء كبار السن، مشتقة من كلمة (senex سينيكس) اللاتينية وتعني كبيراً في السن. أما من ينتمي إلى طبقة proletarii البروليتاريا

1- هذه المقولة ذكرها المؤرخ سويتونيوس في كتابه Divus Julius.

2- قائل هذه العبارة الخطيب الشهير شيشرون (106-43 ق.م) أمام مجلس الشيوخ.

(ومعناها باللاتينية المعدمين الذين لا يملكون أرضاً) وplebs البليبس (عامة الناس من سكان المدن)، الذين يجب أن يتبعوا أسيادهم، فلم تكن لديهم مقاعد في المجلس. استغرق الأمر 250 عاماً قبل أن يحصل هولاء الناس على من يمثلهم في المجلس ليحقق مطالبهم. وحين اندلعت الثورات في نهاية المطاف ضد الأسر الحاكمة، كانت دامية ووحشية، حيث لم يكن لدى الناس انموذج يسترشدون به لحل مشاكلهم من خلال الحوار. كان عدد قليل من الرومان يملكون الملايين بينما كان الملايين فقراء. تطلب الأمر أن يشتعل السخط لدى اثنين من الأخوة الأرستقراطيين لكي يوقظا المعدمين من سباتهم، قام الضابط (برتبة تريبون) سامبرونيوس غراكوس وشقيقه الأصغر غايوس بتشكيل لجان في الأحياء تابعة للحزب الشعبي، وعندما حاولوا منح الأرض للمحرومين منها، قام الأرستقراطيون بقتلهم، مع مئات من أتباعهم. خرج عامة الناس إلى الشوارع. اندلعت حرب أهلية فظيعة بين القنصل الشعبوي غايوس ماريوس وبطل معركة أكوي سيكستيا ونظيره المتعطش للدماء مثله، الأرستقراطي لوسيوس كورنيليوس سولا، الذي كان أول من أطاح بصراحة بسلطة مجلس الشيوخ وقام بمسيرة مع جحافله نحو روما (88 ق.م). دخل سولا المدينة وانتقم من أتباع ماريوس شر انتقام: «تعفنت الجثث التي بلا رؤوس في الشوارع، لقد تركها هناك لجعل كل الذين وقفوا ضد حكمه يرتجفون خوفاً». صوّت أعضاء مجلس الشيوخ المرتعدين خوفاً على تنصيب سولا ديكتاتوراً. لكن هذا لم يضع حداً للصراع بين الأشقاء الذي مزّق البلد. بحلول الوقت الذي توفي فيه هذان الرجلان القاسيان في فراشهما، كانا قد تمكنا من القضاء على سكان روما[3]. سيسجل التاريخ أنهما من حفرا قبر الجمهورية الرومانية.

كان هناك جنرالان، يعرفان الكثير عن شؤون القتال ولكنهما لا

3- راجع: Plutarch, Vies: Marius, Paris, 1971.

يعرفان أي شيء عن كيفية إحلال السلام. كانت الجمهورية تترنح. رأى القنصل ماركوس توليوس شيشرون، الخطيب اللامع الذي كانت أعظم إنجازاته تغيير ولاءاته بانتظام والسير وراء الطرف المنتصر، إن الساسة يجب أن يتجاهلوا دائماً قرارات العسكر وكان يقول: «دع السلاح يفسح الطريق إلى التوجة togas [الرداء المدني] وإكليل الغار إلى أناشيد الشكر والتسبيح». في الواقع، إن الحرب قضية خطيرة للغاية بحيث لا يمكن ترك مصيرها بيد الجنرالات. حصل شيشرون، بعد أن زعم أنه اكتشف مؤامرة ضد مجلس الشيوخ الموقر، على سلطات استثنائية، استخدمها بعد ذلك للقضاء على مؤيدي عدوه، شريف روما لوسيوس سيرجيوس كاتيلينا (63 ق.م). خلال أربع من خطبه الشهيرة كرر هذه العبارة: «يا لهذا الزمان يا لأساليب البشر» على كاتيلينا حتى مماته (62 ق.م). بعد خمس سنوات وبمجرد انتهاء الخطر الظاهر، تمّت إدانة شيشرون نفسه. (في عام 43 ق.م، بعد تغييره ولاءه مرة أخرى، تمّ قتل شيشرون بأمر من ماركوس أنطونيوس).

أصبح الوقت ناضجاً لظهور «الرجل القوي». الرجل الذي كان على وشك الظهور لم يكن جنرالاً فقط، بل كان سياسياً ذكياً. ما إن كادت الحرب الأهلية تنتهي بمشقة، ولم تزل روما غير مستقرة، حتى ظهر تحدٍّ جديد في شخص ابن شقيق القنصل ماريوس، وهو الوحيد الذي فشل سولا في القضاء عليه خلال سورة غضبه. كان اسمه غايوس يوليوس قيصر. كان هذا العضو الشاب اللامع في الحركة الشعبية (البوبيلارس populares) شخصاً طموحاً ومتعطشاً للسلطة. كان توقيت ظهوره مثالياً. بينما قاتل العديد من الرجال من أجل السيطرة على السلطة مثلما تتقاتل الكلاب على عظم يُرمى لها، ظهر ثلاثة منتصرين وشكلوا ائتلافاً، أو حكماً ثلاثياً (60 ق.م). الجنرال بومبي، والمصرفي كراسوس، ويوليوس قيصر. كانت القوة الدافعة وراءه هو يوليوس قيصر، الذي أغرى مجلس الشيوخ لجعله القنصل من خلال الحيلة البسيطة المتمثلة في اعتقال

رئيس مجلس الشيوخ ورميه في السجن. كان يوليوس قيصر لا يزال ضعيفاً جداً ولا يستطيع القيام بالأمر بمفرده. لذلك ساعد كراسوس على استعادة ثروته الشخصية المفقودة خلال الحرب الأهلية، وقام بتحويل الأموال المخصصة للمقاتلين المتقاعدين إلى بومبي، واحتفظ بالمنصب الأهم لنفسه. تمّ ترشيحه لتولي القيادة بمفرده على إقليمي بلاد الغال، شمال وجنوب جبال الألب. وهو المكان الذي توجد فيه جحافل روما المتمرسة بالقتال، وكان بمثابة روما مصغرة. نال هذا المنصب بجانب سلسلة من الانتصارات الرائعة على القبائل الجرمانية والغالية. بحلول عام 52 ق.م، أصبح يوليوس قيصر يمتلك قوة لا يُستهان بها، وبدا الشعب يعبده وكرّمه مجلس الشيوخ بأكاليل الغار.

في عام 52 ق.م، بينما كان يوليوس قيصر يقاتل ضد قبيلة أفيرني في بلاد الغال، وضد أي قانون يحكم الدولة الرومانية، تمكن منافسه الكبير بومبي من جعل مجلس الشيوخ ينتخبه القنصل الوحيد والأوحد. كانت إحدى خطواته الأولى هي إصدار أمر إلى يوليوس قيصر بتسريح مساعديه، والتخلي عن قيادة جحافله المنتصرة والعودة إلى روما؛ أو مواجهة عواقب اعتباره خائناً وستتم ملاحقته بهذه التهمة. وللحيلولة دون تحقيق الطموحات المعادية للقائد العسكري المهووس بالسلطة، منع القانون الروماني أي جنرال من دخول إيطاليا برفقة جحافله من دون الحصول على موافقة مسبقة من مجلس الشيوخ. رفض يوليوس قيصر أن يتمّ استدعاؤه للمثول أمام مجلس شيوخ لا يمتلك أية سلطة ويرد على اتهامه بالعصيان. في أعقاب انتصاراته العظيمة، لم يكن هو ذلك الشخص الذي يتلقى الأوامر من منافس غيور. كان معسكر يوليوس قيصر مليئاً بالضباط الذين أظهروا طاعة عمياء لقائدهم الأعلى، ومن خلال مناداة جنوده بتعبير «رفاقي» أقنعهم بالقتال من أجله حتى بدون أجر. كانوا يعلمون أنه سيكافئهم بلا حدود. مع فوج واحد فقط -ولكنه كان بالتأكيد أفضل قوة قتالية في روما على الإطلاق- سار من مدينة رافينا

ووصل إلى الحدود التي تفصل ما بين بلاد الغال وروما، والتي تتميز بوجود نهر صغير يصبّ في البحر الأدرياتيكي، هو نهر روبيكون.

في الوقت نفسه، وبينما كان القائد كراسوس يشتبك مع القبائل في آسيا الصغرى، وقع في كمين نصبه المقاتلون البارثيون مما تسبب في قتله (53 ق.م). وقد أدى هذا الحادث، بالإضافة إلى الخوف من تزايد شعبية قيصر، إلى وجوب أن يتخذ منافسه بومبي خطوة ما. أصبحت المواجهة بين الشريكين المتعطشين للسلطة حتمية الآن. وبينما لم يفكر بومبي أبداً باستخدام جحافله للإطاحة بالنظام، لم يكن قيصر يعاني من مثل هذه المشاكل. لكنه تردد قبل غزو إيطاليا، ليس بسبب المخاوف من شرعية مثل هذه الخطوة ولكن بسبب الشكوك حول فرصه في الاستيلاء على السلطة.

في 11 كانون الثاني سنة 49 ق.م، عبر يوليوس قيصر نهر روبيكون. بدأ شيشرون، الذي التقى به لغرض تقديم فروض الطاعة للشخص الذي سيمسك قريباً بالسلطة، بتوجيه عبارات الإطراء: «عندما أرى شعره الذي قام بتمشيطه بعناية ونظرة عينيه المخلصة، لا أستطيع أن أتخيل أن يوليوس قيصر يحمل في داخله فكرة شريرة مثل تدمير النظام الروماني». ولكن، كما كان قيصر قد أعلن بوضوح: «Iacta alea est... لقد سبق السيف العذل» فقد جرت الأمور على هذا النحو. وبتلك الخطوة بدأت الحرب الأهلية الكبرى.

حدثت المواجهة الأولى مع بومبي. في مدينة درشيوم، هاجم يوليوس قيصر معسكر بومبي المحصن وتمكّن من هزيمته. مرت بضعة أشهر قبل أن يجتمعوا مرة أخرى. في 9 آب سنة 48 ق.م، في بلدة فارسالوس على شاطئ نهر إينيبيوس، واجه قيصر مرة أخرى بومبي في معركة أخرى. قاد قيصر اثني عشر من الجحافل التي لم تكن بكامل رجالها، كانوا ثلاثين ألف رجل على الأكثر، وعدد مقاتلي سلاح الفرسان كان قليلاً للغاية، في حين أن بومبي كان بإمكانه أن يجهز جيش روما بأكثر من ستين ألف رجل وسبعة آلاف فارس. لكن قيصر لن يواجه عدواً وجميع أوراقه

مكشوفة،... بماذا سيتعامل مع العدو بالخدعة أم بالقوة؟[4] لقد تجاهل تماماً هذا العنصر الأساس الذي تبناه جميع قادة التاريخ العظماء. بقي وفياً لنظرية الهجوم الجبهوي. كان العيب الأساس في خطته هو كشفه جبهة قتاله. لقد حشر جحافله في عنق الزجاجة فأصبح المكان مكتظاً بها تماماً. بالنسبة إلى قيصر، تكمن الوسيلة التي يمكن من خلالها تحقيق المفاجأة في مكان يقع وراء إحدى التلال، وكانت ذات موقع استراتيجي يقع بين بلدة فارسالوس ونهر إينيبيوس؛ كانت مناسبة بشكل مثالي لإخفاء القوة التي ستقوم بهجوم مفاجئ من الخلف وتتخفى في الأجنحة المفتوحة لخصمه. في غضون ذلك، كان قيصر قد عزل ستة أفواج وجمع ما يقرب من ألفي رجل من جحافله التي سبق وأن استنزفها القتال ووضعهم كاحتياطي في مكان خلف التلال. ثم باعد ما بين خطيه القتاليين ليتمكن من تغطية خط قتال قوات بومبي بالكامل. ترك هذا الأمر ثغرات كبيرة في الوسط. لم يكن قيصر، أحد أكثر جنرالات التاريخ إقداماً، ينتظر إلى أن تقع عليه الضربات بسبب ثقل القوة المناوئة بل أمر عازف البوق بإصدار إشارة بدء الهجوم. تقدمت جحافله، وبدأ مقاتلوها بتصويب رماحهم، التي ما لبثت أن تحطمت على جدار رماح قوات بومبي. كان هؤلاء قدامى محاربي قيصر الذين شاركوا حروب الغال، في مواجهة قوة تمّ تجنيدها على عجل. وبدؤوا برمي رماحهم بسرعة شديدة لكي تصل إلى مدى السيوف. واجه بومبي اختراقهم من خلال دفع المزيد من احتياطيات قواته المتمرسة في القتال إلى الوسط، مما جعل مسار المعركة يميل لصالحه. بالنسبة إلى قيصر، الذي كان يراقب عن كثب المعركة من إحدى التلال، جالساً على حصانه وكان يراه الجميع إلى جانب حامل العلم، أصبح الموقف حرجاً. لكن مقاتلو الفيلق في الوسط صمدوا، على الرغم من أن بقية محاربي خطه القتالي كانوا في حالة حركة مستمرة. حاول بعض من قدامى المحاربين الانسحاب من أجل إعادة تجميع وحماية

4- عن الأنيادة للكاتب فيرجيل (70-19 ق.م).

جناحهم الأيمن، لأنه كان يتواجد فيه الثقل الأكبر للعدو ومقاتلوه الذين كانوا يندفعون لمهاجمة ألف من فرسان قيصر.

بينما كان بومبي يراقب هزيمة سلاح الفرسان بقيادة قيصر عند أحد الأجنحة، كان يتردد في أخذ زمام المبادرة، توجه قيصر إلى الأمام على رأس ست مجموعات من المقاتلين، كانوا من ضمن النخبة المتقدمة من مقاتلي الجحافل. وأخذوا سلاح الفرسان بقيادة بومبي على حين غرة وتسببوا في إحداث فوضى كبيرة. قام جنوده بتكسير أرجل الخيول مما جعل سلاح الفرسان بأكمله يعيش في حالة من الفوضى؛ فهرب مقاتلوه نحو مؤخرة تشكيلات بومبي، فطاردتهم مجموعات قيصر الست. لو كان بومبي قد أخذ زمام المبادرة حينها، وأشرك جميع احتياطياته المتبقية، وأربعة جحافل أخرى، لكان مصير قيصر هو الهزيمة بسبب ظهور فجوة بين مجموعاته الست المتقدمة وسلاح الفرسان ومركزه. لكن بومبي، الجنرال الذي كان يتفاعل دائماً مع الأحداث بسرعة وشجاعة، أصبح منشغلاً جداً بمحنة سلاح الفرسان الثمين مما جعله يفشل في القيام بأي ردّ فعل. كان ذلك الحادث مقدمة للمزيد من الكوارث، لأن قيصر أمر حينها احتياطي خطه القتالي الثالث بالتقدم عبر الثغرات الموجودة في خطي قتاله الأماميين. ركّز على جناح جيش بومبي وجعله في مرمى قذائفه ثم أخذ يقصفه بشكل مستمر. كان الهجوم الذي قامت به قوة جديدة ونشطة، إلى جانب المفاجأة التي أوجدتها المجموعات الست، ناجحاً بامتياز وحسم نتيجة المعركة. انهارت صفوف قوات بومبي الخلفية، وأصيب مقاتلوها بالدوار نتيجة الهجوم المفاجئ. وما كان يمثل خطاً قتالياً أمامياً قبل دقائق اجتاحته حالة من الذعر وأصبح عبارة عن مجموعة من الأفراد غير المنضبطين يتراكضون لينفذوا بجلودهم. لم يسمح لهم مقاتلو فيلق قيصر بأخذ فترة راحة بل بدؤوا يطاردون حشود الهاربين. كان نمط القتال الذي أمر به قيصر مثالياً، فتحت طائلة التعرض لعقوبة الإعدام لم يسمح، بأي عملية نهب لمعسكر بومبي قبل أن يتمّ إبادة جيش العدو بالكامل

فسماحه لأفراد جيش العدو بالفرار وتجميع أنفسهم بعيداً في المواضع الخلفية سيجعل النصر بلا قيمة، تمّت هزيمة جيش بومبي وقُتِلَ خمسة عشر ألفاً من مقاتليه فيما لم يفقد قيصر سوى 230 مقاتلاً.

... عاش الإمبراطور قيصر! هكذا أعلنت المقاطعات الرومانية جميعاً ولاءها لقيصر. هرب بومبي إلى مصر، حيث طلب اللجوء من الملك بطليموس الثاني عشر وكليوباترا شقيقته وشريكته في العرش. مع إقصائه نهائياً للرجل الوحيد الذي كان ما يزال يقف حائلاً بينه وبين القوة المطلقة التي لا يتقاسمها مع أحد والتي كانت تستولي على تفكيره، انطلق قيصر مع أربعة آلاف رجل ليطارد بومبي إلى الإسكندرية. لدى وصوله إلى مصر، استقبله ثيودوتوس مساعد الملك بطليموس، بعبارة: «الموتى لا يلدغون!» وقدّم له رأس بومبي. في الإسكندرية، سقط قيصر تحت سحر كليوباترا الجميلة. كان دخولها حياة قيصر من خلال مشهد كان مذهلاً بقدر ما كان فريداً من نوعه: دخل خادمها أبولودوروس إلى غرفة نوم قيصر، وكان يحمل سجادة ثمينة على كتفه «هذه هدية لك، يا قيصر العظيم!» ثم قام بنشر السجادة، وكانت المفاجأة، لقد ظهرت الملكة المصرية الجميلة وكانت ملفوفة في داخلها، وربما كانت لا تزال عذراء في ذلك الوقت، لأن شقيقها[5] الملك بطليموس، كان عمره عشر سنوات فقط. في تلك الليلة، أصبحت كليوباترا عشيقة القائد الروماني وأنجبت له لاحقاً صبياً. ولحقت بقيصر إلى روما، حيث أسكنها في أحد قصوره حيث كان يمضي لياليه معها؛ ولأسباب سياسية بحتة، ظل مقر إقامته الرسمي هو القصر الذي تسكن فيه زوجته كالبورنيا.

أما بالنسبة لفكرة أن يوليوس قيصر كان ببساطة قد ألهمته الرغبة في المجد الشخصي أو من خلال الشعور الأسبرطي[6] بالواجب البطولي، فقد كان من المؤكد حقاً أن روما كانت معجبة بالبطولات وتمجدها ولم

5- ترد كلمة زوجها خطأً في النص الأصلي. المترجم.

6- نسبة إلى أسبرطة. المترجم.

تعتبر دائماً أن التعقل هو الجزء الأفضل من الشجاعة. تمكن قيصر من تفهم النصيحة التي قدمها أعظم قائدين عسكريين في العصور القديمة، وهما الإسكندر وهنيبعل، بأن الاختبار الأضمن للقائد العظيم في المعركة هو معرفة متى يتراجع. وقد شعر بالقلق والغضب عدة مرات عندما قاوم «مقاتلي بلاد الغال المتمردين»، أو غيرهم من المساعدين الكسولين الذين يعملون تحت إمرته، محاولاته لفرض انضباط الجحافل الرومانية عليهم. لم يحاول قط فهم رعاياه الأجانب ودائماً ما كان يعاملهم وفق المعايير الرومانية.

برع قيصر، وقد كان خير من طبّق مفهوم تحشيد القوات والمرونة، في تطبيق التقنيات العسكرية لعمه ماريوس، والتي كانت في الأساس صالحة لكل زمان ولا تتأثر بالتطور التكنولوجي. لقد فهم فعالية الضرب في محور قوة خصمه. بمجرد هزيمة جيش العدو الرئيس، واحتلال مراكزه الاقتصادية، فإن كل شيء آخر سيتحقق لاحقاً. لقد أدرك أن أضمن الوسائل لتحقيق أهدافه كانت خلق قوة كبيرة وجعلها تركز على الأهداف الأساسية. عكست هذه القوة العسكرية، بالاقتران مع الواقع السياسي، حاجة قيصر النفسية إلى الفتوحات والهيمنة المطلقة. أمدّت المشاعر القومية التي تفجرت بالكامل في زمن قيصر حشود المقاتلين الهائلة الجديدة في جيوش روما بقوة تحفيزية يمكن الاعتماد عليها، لم يعرفها الإسكندر أو هنيبعل إلّا بشكلها الأولي. وكان مزاج قيصر يميل إلى تحقيق المجد الشخصي من خلال الإجماع الشعبي عليه. «لم تصنع روما أبداً رجلاً مثل قيصر، ولو استمر بالالتزام بالدوافع والمبادئ نفسها في سياسته في المستقبل، لكان امراً حتمياً أنه سيتمكن من السيطرة على العالم».

لم تكن انتصارات قيصر أقل شأناً من تلك التي حققها الإسكندر في اليونان، ولم تكن مبادئه الاستراتيجية أقل تقليدية من تلك التي تبناها هنيبعل. لكن جيشه وأسلحته وأدوات الحصار التي استخدمها قد تغيّرت الى درجة أصبح من الصعب التعرف عليها. لم يكن يفتقر إلى الشجاعة

الجسدية، ولم يكن أبداً مهووساً بسلامته الشخصية. وقد أثبت ذلك مراراً وتكراراً عندما قاد رجاله في الجبهة. كان قيصر بعيداً عن الكمال؛ لقد تعامل بوحشية مع الأشخاص الذين غزاهم، لا سيما في بلاد الغال. كانت تلك الأفعال تجعل القلب حجراً وثقيلاً كالرصاص. ولكن لولاها لما كان قيصر الذي نعرفه.

«Veni, vidi, vici...[7] أتيت، رأيت، انتصرت»[8]. قيصر الفاتح، الديكتاتور قيصر، الإمبراطور قيصر. قام قيصر بتنمية السمات الشخصية التي تتناسب مع كل لقب من هذه الألقاب. كانت هناك هالة من العظمة، والبطولة حوله، لم تتشكل نتيجة لانتصاراته المذهلة فقط. كان يحيط به شيء غامض يصعب تفسيره ولا يمكن إدراكه وحتى من دون إنجازاته العسكرية كان بإمكانه أن يحجز لنفسه مقعداً في مدفن العظماء.

لم يكن قيصر يمتلك نبل الإسكندر ولا فطنة هنيبعل العسكرية. لكنه كان بالتأكيد رجل دولة ذكي، يعقد الصفقات التي تتيح له أن يحكم روما وبمفرده. تحقيقاً لهذه الغاية، كان يجزل العطايا على مجلس الشيوخ والناس، ليثبت أنه يتمتع بالفطنة وكرم الروح التي تؤهله للقيادة بحكمة وإتقان. لم يكن أعداؤه واثقين من حسن نيته. «يجب على الرجل الذي يكون في حضرة قيصر أن يتصرف بحذر إذا كان يهتم بإبقاء رأسه على كتفيه». في عام 46 ق.م، وكان حينها في الرابعة والخمسين من العمر، أوكل شعب روما لقيصر منصب (praefectura morum)[9] ومعناه الديكتاتور حامي الأخلاق، مما سمح له أن يجعل العملات المعدنية تحمل رسماً له. كانت هناك عبادة فرد حقيقية تحيط بشخصيته. ومثل الآلهة أطلق اسمه على أحد أشهر السنة، ومثل الآلهة كان يتمّ تبجيله في

7- باللاتينية في الأصل. المترجم.

8- هذه العبارة الشهيرة أرسلها قيصر إلى روما بعد انتصاره على الجيش البنطسي في معركة زيلا (2 آب سنة 47 ق.م).

9- باللاتينية في الأصل. المترجم.

الاحتفالات الدينية. «لقد أصبح هذا الرجل الآن إلهاً»[10]. وقد أُطلق عليه لقب «الإمبراطور مدى الحياة» أعلى قاضٍ في زمن السلم وأمير الحرب الأعلى في زمن الحرب. ضمن لنفسه دعماً هائلاً من خلال منحه الحق لمقاطعات بأكملها في إطلاق تسمية المواطنين الرومانيين على سكانها. قام بتأسيس جيش عظيم، وزاد من مرتبات أفراد جحافله واستبدل كل موظف حكومي مهم بواحد من ضباطه. كان قيصر هو المنتصر دائماً، وحملته الحشود على أكتافها نحو مقر الحكم للاستيلاء على السلطة. كان لا يزال هناك ضباط من رتبة التريبيون والسنتوري[11] وأعضاء في مجلس الشيوخ وكويستوريون[12]، وقناصل، لكن بالاسم فقط. كان غايوس يوليوس قيصر دكتاتور روما، ودكتاتور العالم القديم أيضاً.

كان سحر شخصيته قد طغى على كل شيء؛ عشقه جنوده ولم تتمكن أي امرأة من مقاومة سحره. أحبته حشود الناس، وكان يستمتع بكل دقيقة من تملق الناس له؛ أينما كان يذهب، كان يسمع هتافات الحشود: «قيصر... قيصر... قيصر...» والأهم من ذلك كله، كان قيصر رجلاً طموحاً ومتعجرفاً وذا شهوة لا تحدّها حدود للسلطة المطلقة. أصبحت عملية غزو بلاد الغال هي القاطرة التي كانت مهمتها جعله يهيمن على كل شيء. كان هدفه الوحيد هو أن يكون سيد روما، وحاك المؤامرات لتدمير كل خصومه السياسيين. قتل بومبي في مصر. وتعرض ابن بومبي للضرب في إسبانيا؛ ذهب كاتو إلى أفريقيا، حيث تعرض للضرب ثم قتل نفسه. نجا شخص واحد فقط، لأنه كان يعرف كيف يتكيف مع طموحات قيصر: إنه شيشرون. بمجرد أن أصبح قيصر إمبراطوراً، لم يعد بإمكان أيّ قوة على وجه الأرض من إيقافه، ولم يعد بإمكان أي شخص أن يعرف ماذا ستكون خطوته التالية. ومع ذلك، كان هناك من

10- شكسبير، مسرحية يوليوس قيصر.

11- رتب عسكرية عالية. المترجم.

12- موظفون مهمون في حكومة روما. المترجم.

شعر أنه يجب وقف هذا المغتصب للعرش عند حدّه. وقد اتخذ أكثر من رجل هذا القرار.

كان يوليوس قيصر كاتباً موهوباً وغزير الإنتاج كتب تاريخ حياته؛ وكتب عنه الآخرون، الذين كانوا يعبدونه، تعبيرات تحمل أكثر عبارات التملق إذلالاً. أولئك الذين استنكروا أفعاله البغيضة وتجرؤوا على قول الحقيقة عن المغتصب الذي سار على الجثث من أجل أن يحوز على السلطة المطلقة، تمّ إسكات أصواتهم. كان قيصر داهية كبيراً. وببراعة غير عادية، غيّر أذهان الحشود المبتهجة به لإعدادهم لأن «يكونوا عبيداً تحت أقدام إمبراطور طاغية» وكان عليهم تحمله لقرون.

وبالفعل، في عام 62 ق.م، حاول شيشرون أن يحذّر أهالي روما: «أينما كنتم، تذكروا أنكم تحملون القدر نفسه من قوة الفاتح يوليوس قيصر». عندما واجهه أصدقاؤه بسؤاله عما جعله يغيّر رأيه فجأة عن قيصر، أجابهم شيشرون ساخراً... كل إنسان يمكن أن يخطئ؛ فقط الأحمق من يبقى مصراً على الخطأ. لقد أثبت صعود قيصر السريع مثل الشهاب أنه كان على صواب. اقتربت الساعة التي يكشف فيها «إله النصر» أمام مجلس الشيوخ وشعب روما، عن أن قيصر هو كبير كهنته.

قاد «مجمع الإله» قيصر إلى الاعتقاد حقاً بأنه قد تمّ اختياره من الآلهة؛ كان سياسياً لا يتورع عن ارتكاب الجرائم، ولكنه كان أيضاً رجلاً يمتلك عواطف وأحلاماً وكان على وشك أن يقع ضحية لغايته المطلقة: إشباع تعطشه للسلطة الذي لم يستطع السيطرة عليه.

الفصل الثالث عشر

شريف روما

مسرح بومبي، روما

يوم إديس مارس، سنة 44 ق.م

«لم يكن ماركوس بروتوس، الذي كان يحمل نزعة للخير، مساوياً له في الأمانة ونقاء الهدف».

• المؤرخ فلوطرخس

من مفارقات التاريخ أن تكون أعظم جمهورية في العصور القديمة قد تأسست وسقطت على يد شخصين ينتميان إلى العائلة نفسها (جونيا). يحمل كلا الرجلين اسم بروتوس: لوسيوس جونيوس بروتوس وماركوس جونيوس بروتوس. وتفصل بين هذين الحدثين خمسة قرون.

في عام 535 ق.م، استولى الطاغية تاركينيوس سوبيربوس على عرش روما. كان أول عمل له هو قتل كل أولئك الذين ساندوا سلفه، بما في ذلك الابن الاكبر لعائلة جونيا. بعد إجباره على مشاهدة تنفيذ حكم الإعدام علناً بأخيه، خطط الشاب الأصغر للثأر. كان بحاجة إلى انتظار اللحظة المناسبة، وفي الوقت نفسه تظاهر بأنه أبله. لقد أنقذ حياته ولكن ابن عشيرة جونيا الأصغر حمل الاسم المستعار بروتوس؛ ويعني باللاتينية الأبله. منذ تلك اللحظة أصبح معروفاً باسم لوسيوس جونيوس بروتوس، الأبله.

عندما أرسل الملك تاركينيوس أبناءه لاستشارة عرّافة معبد دلفي،

أخذوا طوال الوقت يهزؤون بابن عمهم الأبله، لوسيوس جونيوس بروتوس قالت لهم العرافة نبوءة غريبة: «من يقبّل والدته قبل الآخرين سيحصل على أعلى سلطة على روما». كان الإخوة الملكيون، الأكثر حرصاً على أن يكونوا أول من يقبّل أمهم، وكانوا متحمسين للعودة إلى روما. أثناء انتظار سفينتهم، قام أحدهم بمدّ ساقيه لإيقاع ابن عمه بروتوس فسقط على الأرض. وبالتالي كان لوسيوس جونيوس بروتوس أول من قام بتقبيل والدته؛ الأرض الأم.

انتظر لوسيوس جونيوس بصبر لسنوات فرصة الانتقام وتخليص المملكة من ذلك المغتصب. في سنة 510 ق.م حانت الفرصة لبروتوس. كان من الممكن أن يتم التغاضي عن حوادث القتل التي تحدث في أوساط الطبقات العليا في المجتمع، خاصة عندما يرتكبها أحد أفراد العائلة المالكة، أما حوادث الزنا والاغتصاب فكان من المستحيل تجاهلها.

وقع الأمير، سكستوس تاركينيوس الذي تجري في عروقه الدماء الملكية، في غرام زوجة ابن عمه، السناتور الشاب لوسيوس تاركينيوس كولاتينوس. كان اسمها لوكريسيا كولاتينوس، وكانت تتمتع بجمال أخاذ وتحوز على تقدير الجميع كامرأة فاضلة لا تشوبها شائبة. في إحدى الليالي، اقتحم الأمير سكستوس منزل زوجها وتسلل إلى الغرفة التي كانت تستلقي فيها لوكريسيا الجميلة. «لوكريسيا»، غمغم الأمير، ووضع يده على صدرها العاري، لا تصدري صوتاً. أنا سكستوس تاركينيوس وأنا مسلح. لا تصدري صوتاً والا سأقتلك بلا تردد. «حدّقت به لوكريسيا بعيون مرتعبة؛ فهي لا تأمل أن تحصل على نجدة حيث إن زوجها قد أرسله الملك لقضاء مأمورية له. اعترف سكستوس برغبته بها وطالبها بأن تمنحه نفسها، ولكن دون جدوى؛ فحتى الموت لن يجعلها ترتكب مثل هذا الفعل المشين. فاغتصبها عنوة[1].

1- عن كتاب تيتوس ليفايوس (Ab Urbe Condita) وقد كتب هذا العمل بعد مرور ستمائة عام على ذلك الحدث.

في صباح اليوم التالي، نادت لوكريسيا المحطمة زوجها العائد، واعترفت له بقصة العار الذي لحق بها، وطالبته بالانتقام لها. عندها دفعت خنجراً إلى قلبها وماتت عند أقدام زوجها. انهار كولاتينوس حزناً عند جثة زوجته ونادى الصديق الوحيد الذي يمكن أن يثق به لوسيوس جونيوس. في الوقت الذي رثى فيه الزوج وفاة زوجته الحبيبة، قام بروتوس بسحب الخنجر من صدر لوكريسيا وهرع إلى (مقر الحكومة)، حيث كانت قد سبقته القصة وتجمع حشد كبير. وبدأ يحثّ الحشد هو يلوح بالخنجر قائلاً: «قسماً بدم لوكريسيا، الأكثر عفة من أي شيء والذي جلّله العار واحد من ذرية الطاغية، أقسم بهذا الخنجر والنار وكل شيء آخر يعطي قوة لذراعي، بأن أقتفي أثر تاركينيوس سوبيربوس وألقي القبض عليه، هو وزوجته الشريرة، ونسله اللعين، ولن أسمح له أبداً، ولا لأحفاده، ولا لأي شخص آخر بأن يسود مرة أخرى على روما»[14]. لقد أدى استشهاد لوكريسيا إلى تأسيس أعظم جمهورية في العصور القديمة.

ربما هناك رواية أكثر صدقاً من هذه القصة المشرفة بالتأكيد. بحلول القرن السادس ق.م، بدأت تعاليم مؤسس الجمهورية، سولون الأثيني (590 ق.م)، تتسلل إلى المجتمع الروماني. عندما أصبح طغيان تاركينيوس سوبيربوس لا يطاق، تحولت العائلات الرومانية إلى بروتوس، الذي كان يمتلك كل الصفات المطلوبة لقيادة التمرد؛ الصدق والشعور الوطني والحنكة السياسية. لقد خرج لأجل الانتقام بالتأكيد، لكنه في الوقت نفسه كان خارجاً أيضاً لإنقاذ روما. لقي مسعاه الدعم الكامل من الأسر الأرستقراطية والشعبية. تبعه أهل روما، وكذلك الجيش (الذي أقنعه لوسيوس جونيوس بروتوس بواسطة الذهب الأرستقراطي بتغيير ولائه)، ونجح في طرد الملك وذريته. بمجرد أن تحقق ذلك، وتمّ تحرير روما من ملكها، فعل لوسيوس جونيوس بروتوس شيئاً غير متوقع للغاية. فبسبب عدم رغبته في أن يصبح مغتصباً آخر للعرش، وأن يكون

14- عن كتاب تيتوس ليفايوس (Ab Urbe Condita).

بدلاً من ذلك الشخص الذي يفي بوعوده ونزاهته، فقد رفض التاج الذي كان من حقه. لقد استطاع أن يتنبأ بتهديد الحرب الأهلية في حالة عدم السماح للشعب بالحصول على ما يريده مقابل دعمه المتواصل له بينما يهدئ في الوقت نفسه من قلق طبقته الأرستقراطية.

وجاء التحدي الأكبر له من داخل عائلته. تآمر ولداه لإعادة تأسيس الملكية. تمّ اكتشاف المؤامرة، واعتُقل المتآمرون. لقد ترك الأمر لبروتوس ليقرر الحكم. لم يتردد ذلك الوطني الكبير في أن يضع مصالح الجمهورية فوق مصالح أسرته. ولكي يقدم مثالاً للأجيال القادمة، وللتأكد من أن لا يحدث أي تمرد ضد (SPQR)، وهي عبارة لاتينية تعني أعضاء مجلس الشيوخ والشعب في روما، فإن الأب المؤسس لجمهورية روما قام بإعدام أبنائه علناً بتهمة الخيانة «وأصبح... لقب بروتوس، الأول، شريف روما».

وبحكمة سياسية، واصل لوسيوس جونيوس بروتوس بناء روما على النموذج الجمهوري الإغريقي. صار هناك حاكمان، ينتخبان سنوياً، وكانا بمثابة القنصل. وبهذه الطريقة فإنه وزّع قوتهم وقضى على مخاطر طغيان أحدهما. لقد سار هذا النظام بنجاح وأصبح رائداً لنظام الحزبين في أسلوب الحكم المعاصر. كان إيمان الرومان بدستورهم ثابتاً، وفي الواقع وعلى مدى الخمسين عاماً التالية، كان يعمل بطريقة تقترب من الكمال.

استمرت روما في الهيمنة على إيطاليا، فقد نجت من الحروب الأجنبية والغزوات الهمجية والكوارث الطبيعية والاضطرابات الداخلية. ونجت من هنيبعل وقبائل الهلفيت. لكن روما واجهت فجأة تحدياً يمكن أن يودي بالجمهورية ومبادئها.

وكان هذا هو المنعطف الذي ظهر فيه بروتوس آخر في مشهد الأحداث. قضى ماركوس جونيوس بروتوس، الذي قاد المؤامرة المعادية لقيصر، شبابه في قراءة أعمال الفلاسفة اليونانيين الذين نقلوا إليه أفكارهم بشأن تأسيس جمهورية منيعة غير قابلة للتجزئة. ومع ذلك، على الرغم من تمسكه التام بالجمهورية، كان بروتوس الثاني يساهم بقدر

كبير في استعادة الملكية كما كان سلفه الأكبر مسؤولاً عن تدميرها. بعد أن شهد وفاة قيصر؛ الذي كان صديقه، وربما كان يمثل له شخصية الأب الذي رعاه؛ كان عليه أن يعيش طويلاً بما يكفي ليلاحظ أن وفاة قيصر لم تسبب سوى في تأخير حدوث الأمر الذي لا مفرّ منه.

أصيب ماركوس جونيوس بروتوس، أول حاكم مخلص لبلاد الغال، بالصدمة من حجم الفساد السياسي الذي اكتشفه عند عودته إلى روما حين استُدعِيَ لتولي أعلى منصب في المدينة، وهو منصب البريتور[15] كان يبلغ من العمر ستة وثلاثين عاماً، وكان مثقفاً ومتحضّراً مثل الرجل الذي كان معجباً به كثيراً، يوليوس قيصر، وكان متشبعاً بالروح نفسها، وفجأة واجه احتمال الاضطرار إلى التغاضي عن عدم شرعية بعض الأعمال التي كان يقوم بها جميع أولئك الذين كانوا يقومون بتطويع القانون لأغراضهم الخاصة تحت عباءة الشرعية. احتفظ بروتوس بحب حقيقي ليوليوس قيصر لا يمكن إنكاره؛ ومع ذلك، فقد بدأ يقلق عندما تغيرت تصرفات وأساليب معبوده. كان قيصر بالتأكيد الشخصية الأكثر إغراء لجميع الطغاة. فقد كان يأمر بقتل قبيلة بأكملها دون أن يشعر بتأنيب الضمير، وفي الوقت نفسه، يسامح عدوه الشخصي. أكسبته قدرته على صنع القرار وصموده عند الشدائد سمعة العسكري العبقري؛ على المستوى السياسي كان لا يمكن مقارنته بأحد. وبتوليه منصب الرقيب[16]، استطاع قيصر التلاعب في مجلس الشيوخ وفقاً لإرادته. والأسوأ من ذلك، أن مجلس الشيوخ ومن أجل تكريمه منحه لقب، أبو الأمة، على الرغم من أنه كان يفضل لقب الإمبراطور. من الناحية القانونية، جعل هذا جميع الناس في روما يخضعون لقيصر. وباعتباره الحبر الأعظم (pontifex maximus)، كان بإمكانه التلاعب في التعاليم الدينية لتخدم

15- هو لقب يعني الحاكم. المترجم.

16- منصب في روما القديمة يتولّى صاحبه الإشراف على إحصاءات السكان في الدولة، إضافةً إلى تولي عدد من الشؤون المالية. المترجم.

أهدافه السياسية، وباعتباره الرقيب والحاكم (praefectura morum) استخدم لقبه هذا لتمرير أي قانون يرضيه. من خلال طرافته اللاذعة، علّق شيشرون عن الطريقة التي أساء فيها قيصر استغلال منصبه السياسي: «في الساعة الأولى، أعلن قيصر انتخاب قنصل ليكون في منصبه حتى الأول من كانون الثاني؛ الذي كان يصادف صباح اليوم التالي. لذلك يمكنني أن أبلغكم أنه في يوم انتخاب كونينوس قنصلاً، لم يتناول أي شخص الغداء. ومع ذلك، لم يحدث أي شيء غير مرغوب فيه أثناء قيامه بمهام القنصل: كان يقظاً طوال فترة عمله، فلم يغمض له جفن!

وبينما أصبح قيصر باعتباره إمبراطوراً معبود الناس العاديين ومحط إعجابهم، بدأ ينمو داخل الطبقات الحاكمة شعور بالاستياء منه والتوجه لخيانته. ومن كان المنقذ، أصبح «العدو الداخلي» للآخرين. شعروا بالحاجة المتزايدة لإيقاف الشيطان الذي كان يدمر كل القيم الديمقراطية التي كانوا يعتزون بها. كانوا يتهامسون فيما بينهم أنه لوّث أفكار الحرية والإنصاف والعدالة، وأنهم كانوا على استعداد لفعل أي شيء لمنعه. حاول ماركوس جونيوس بروتوس أن يحذّر قيصر من أن تسلقه الفظ أعلى مراتب الديكتاتورية كان يتناقض مع مبادئ الجمهورية الرومانية، لكن الديكتاتور رفض تحذيره بازدراء. لم يكن ماركوس بروتوس يشكل بحدّ ذاته خطراً على قيصر، لكن بعض أصدقائه سوف يجعلونه كذلك قريباً.

باتت العلامات التي تشير إلى إصابة قيصر بجنون العظمة تتزايد. خلال الألعاب الرومانية التي جرت عام 45 ق.م، رُفِعَ تمثال يصوره في الساحة في المقدمة أمام التماثيل التي كانت تمثل الآلهة. كان هذا تجديفاً، وأزعج الأرستقراطيين. كانت المؤامرة لإسقاطه تتشكل، لكنها كانت لا تزال بلا قائد ذي شخصية قوية. كان بروتوس متردداً، حتى جاء اليوم الذي وصلته دعوة من قبل عشيقة قيصر، الملكة كليوباترا، مع عشرين ألفاً من الرومان، لحضور حفل عشاء فاخر. تمّ تنظيم هذه المناسبة لاستكشاف ردّ فعل الناس على إعادة الملكية إلى روما. بعد العشاء، سمع بروتوس العديد

من الضيوف المدعوين الذين تحدثوا إلى قيصر باحترام باعتباره ملك روما (Rex). على الرغم من حبه وإعجابه بقيصره الكبير، اتخذ بروتوس أخيراً قراراً بالانضمام إلى المتآمر لونجينوس كاسيوس. مع هذه الخطوة، أصبح ماركوس جونيوس بروتوس القائد الواضح للمؤامرة، «الذي لم يحمل معه من الأسلحة إلّا الجرأة وسمعة رجل نزيه مثل بروتوس ليؤكد من خلال وجوده تطبيق العدالة من البداية إلى النهاية»[17]. كان لدى بروتوس حاكم روما، الذي كان يسيطر على الجهاز الاستبدادي في العاصمة بأكمله، فرصة لإيقاع ضربة قاتلة. لكن «بروتوس كان رجلاً شريفاً» قضى أسابيع في ألم ولوعة ممزقاً ما بين تأنيب الضمير والانسياق وراء تحقيق هدفه. وأخيراً أصبح الرجل الأخير في تاريخ روما الذي اختار الإخلاص للدستور على الولاء لمن رعاه واعتنى به. وجد نفسه يؤدي دوراً لا يناسبه، بسبب تحوله من الاهتمام بشؤون الجمهورية إلى انضمامه إلى حلقة من المتآمرين الذين لم يكن يَكُنّ لهم سوى الازدراء.

في شباط عام 44 ق.م، قام مجلس الشيوخ، الذي زاد قيصر عدد أعضائه بشكل كبير ليتسع لمقربيه حتى وصل إلى تسعمائة عضو، بتسميته دكتاتوراً دائمياً (dictatus perpetuus). وبجعله ديكتاتوراً مدى الحياة فهذا يعني أن روما قد عادت فعلياً الآن إلى السيطرة المطلقة من قبل رجل واحد. وأصبح قيصر النقطة المحورية لكل مشاعر الكراهية التي تحملها الطبقة الحاكمة الرومانية. في وقت لاحق من الشهر نفسه، أعلن قيصر أنه سيغادر روما لشنّ حملة عسكرية في إسبانيا. وحدد موعداً لذلك يوم الثامن عشر من آذار. انتشر الذعر بين المتآمرين بسبب ضرورة اتخاذهم قراراً عاجلاً. فلا يمكن السماح له بالحصول على مزيد من الدعم الشعبي من خلال تحقيقه انتصاراً آخرَ. في الواقع، لو كان قيصر والمتآمرون قادرين على مناقشة مشكلتهم في جو رصين، وخالٍ من العداء المرير الذي تولده الحرب الأهلية، لوجدوا أرضية مشتركة واسعة. كان قلب كل

17- عن كتاب المؤرخ فلوطرخس، سيرة حياة بروتوس.

منهما على مصالح روما، وبطرقهم المختلفة، كان يتمنون رؤية روما وقد عادت إلى الاستقرار، تحت حكم ديكتاتور أو قنصلين. كان وجود قيصر بحدّ ذاته باعثاً لصراع مستمر بين المثالية الفطرية التي دفعته إلى السعي لإقامة مملكة عظيمة في روما والانضباط الحديدي لرجل الفتوحات الدكتاتوري.

كان من بين الأسباب الرئيسة للدراما التي وقعت في يوم (إديس مارس) في عام 44 ق.م «قضية التيجان». لقد حدث ذلك خلال (مهرجان اللوبركاليا أو مهرجان الخصب)[18]، عندما قدّم قائد سلاح الفرسان إلى قيصر الرقيب والحاكم (censor) والإمبراطور تاجاً أمام جمهور كبير من الحاضرين. كرر مارك أنتوني مشهد التتويج هذا أمام حشد هائل من الأشخاص في المنتدى[19]. عندما رفض قيصر التاج بخجل مصطنع، هتف الحشد له. لذلك طلب منهم قيصر أن يحملوا تيجان الغار إلى معبد الكابيتول. في الأيام الأولى من شهر آذار سنة 44 ق.م، وضع أحد أعضاء مجلس الشيوخ المناصرين للديكتاتور (ربما كان مارك أنتوني نفسه) تاجين صغيرين متشابهين على اثنين من تماثيل قيصر عند المدخل ثم دعا إلى تنصيب قيصر - كملك لروما. أزعج هذا الأمر الأرستقراطيين في مجلس الشيوخ إلى درجة أن اثنين من رتبة التربيون وهما، مارولوس وفلافيوس، انتزعا التيجان التي فوق التماثيل وطردا أولئك الذين هتفوا لقيصر ملكاً لهم بقوة السلاح. أظهرت إيماءاتهم أن مجلس الشيوخ وشعب روما أحبوا قيصر، لكنهم لم يهتموا كثيراً بالملوك. واستبد الغضب بيوليوس قيصر، وخلع الضابطين من منصبيهما. بالنسبة للمتآمرين، فقد حان الوقت لوضع

18- وهو مهرجان سنوي كان الرومان يقيمونه في الخامس عشر من شهر شباط تكريماً لـ«لوبركوس» إله الحقول والقطعان، وذلك بغيةَ ضمان «الخصب» للناس والقطعان والحقول. المترجم.

19- مكان عام في قلب المدينة الرومانية. كانت تقام فيه الاحتفالات والمناقشات السياسية. المترجم.

خططهم موضع التنفيذ. لم يجرؤوا على مواجهته علناً في مجلس الشيوخ، ولكن كان يجب وقف القيصر. من كان يبتسم له الحظ لم يعد كذلك. لقد تبدل مسار الحظ[20].

«إذا كانت السماء لها عيون، فلن يعيش طويلاً بما يكفي» هكذا تكلم كاسكا، أحد قادة المؤامرة. قطب بروتوس حاجبيه، لكن عينيه كانتا تحملان نظرة شخص مستغرق في التفكير ويتأمل. فقد استطاع أن يدرك الخطر الكامن. سفك الدماء لن يؤدي إلّا إلى خلق رجل شهيد. اختاروا تاريخ 15 آذار، لأن كاسيوس علم أن مؤيدي الإمبراطور في مجلس الشيوخ سيعلنونه ملكاً في صباح اليوم التالي.

في الليلة التي سبقت يوم (إديس مارس)، شارك قيصر في وليمة باذخة في منزل صديقه ليبيدوس والتهم الكثير من الطعام وأسرف في الشراب. في صباح اليوم التالي، عندما وصل إلى مسرح بومبي، كان لا يزال تحت تأثير النبيذ الكثير الذي تناوله ولم يكن قادراً على مواجهة أي خطر أو إنهاء أي تمرد بكلمات حاسمة. كان بروتوس، محاطاً بالمتآمرين، ينتظر الإمبراطور على درجات المسرح. كانت مبادئهم نبيلة. وكل شيء عداها كان أقل مجداً. كان المشهد، الذي حدث أمام تمثال بومبي، تحدياً لاستقامة بروتوس المحترم. وكما لو كان مشهداً للقتل في مسرحية تعرض في المكان، قفز ثلاثة وعشرون شخصاً يرتدون ملابس الأرستقراطيين نحو قيصر وحينها سقط طموحه ضحية لطعنات خناجرهم.

> *... قام تيليوس سيمبر، بسحب رداء قيصر بكلتا يديه من رقبته، نحو الأسفل، وكان ذلك إشارة لبدء الهجوم عليه. سدّد كاسكا إليه أول ضربة له في الرقبة، لم تكن مميتة ولا خطيرة، حيث كانت صادرة من شخص كان في بداية مثل هذا العمل الجريء مضطرباً جداً؛ استدار قيصر على الفور، ووضع يده على الخنجر وأمسك به. وصاح الاثنان في الوقت نفسه، الذي تلقى الضربة،*

20- عن المؤرخ كورنيليوس نيبوس(99-24 ق.م).

قال باللاتينية:«Vile Casca، ماذا يعني هذا؟» والذي سددها، قال باللغة اليونانية لأخيه: «يا أخي، النجدة!»

منذ بداية الخطوة الأولى، أصابت الدهشة أولئك الذين لم يكونوا مطلعين على الخطة، وكان رعبهم وذهولهم لما رأوه كبيراً لدرجة أنهم لم يفروا، ولم يساعدوا قيصر، ولم ينطقوا بكلمة واحدة. لكن أولئك الذين كانوا مستعدين للعمل، قاموا بتطويقه من كل جانب، يحملون خناجرهم العارية في أيديهم. في أي جهة يلتفت قيصر إليها كان يتلقى الضربات، وكان يرى سيوفهم متجهة نحو وجهه وعينيه، وكان مطوقاً، مثل وحش بري وقع في الشرك، من كل جانب. لأنه قد تمّ الاتفاق على أنه يجب على كل واحد منهم أن يندفع نحوه، ويمسح جسده بدمه؛ لهذا السبب سدّد بروتوس له أيضاً طعنة في الفخذ. يقول البعض إنه قاتل الباقين وقاومهم، وحول جسده لتفادي الضربات، وطلب المساعدة، ولكنه عندما رأى بروتوس قد استل سيفه، غطى وجهه بردائه واستسلم، ووقع حينها، ولا أحد يعرف إن كان ذلك بسبب المصادفة، أو أنه تمّ دفعه في هذا الاتجاه من قبل قتلته، عند قاعدة النصب الذي يقف عليه تمثال بومبي، وكان مخضباً بدمائه. وبدا أن بومبي نفسه يشرف، كما أراد،على عملية الثأر من خصمه، الذي يستلقي عند قدميه، ونفث أنفاسه من خلال العديد من الجروح، لأنه يقال إنه تلقى ثلاث وعشرين طعنة.

بعد قتل قيصر، وقف بروتوس ليشرح سبب ما فعلوه[21].

كان من بين مجموعة القتلة نسيب قيصر وقائد البحرية، ديسيموس بروتوس- يجب عدم الخلط بينه وبين زعيم المؤامرة، ماركوس

21- سرد المؤرخ فلوطرخس تفاصيل عملية القتل في كتابه (The lives of the Noble Grecians and Romans published byEncyclopaedia Britannica, Chicago, 1952) عاش المؤرخ فلوطرخس للفترة من 46-102 م ويمكن اعتبار روايته الوصف الأقرب للأحداث الحقيقية.

جونيوس بروتوس، بل هو «بروتوس الأصغر سناً»، نجل عشيقة قيصر السابقة سيرفيليا، الذي هزم قبيلة الفينيتي في البحر. وكان هو من قال له قيصر جملته الشهيرة بصوت مختنق: «حتى أنت يا بروتوس؟» عندما كانت عملية القتل قد تمّت لتوها، كانت تتعالى صيحات مفاجئة لأشخاص يهرعون تجوب أنحاء المدينة، مما زاد في الحقيقة من الخوف والاضطراب، كما ذكر المؤرخ فلوطرخس. عندما أصبح المكان خالياً وهرب جميع أعضاء مجلس الشيوخ من أعداء قيصر من القاعة، اعتقد بروتوس أن من مصلحته أن يشق طريقه ويتوجه إلى البيت ولكن حينها بدأ الناس يصلون وسط الكثير من الصراخ. كانت الأخبار تنتشر في المدينة وتجمّع حشد كبير أمام المسرح ليقدموا لقيصر القتيل آخر تحايا الاحترام. أدرك بروتوس أنه لا يمكن أن يصبح الزعيم الجديد لمجلس الشيوخ دون أن يثير ذلك الفتنة وربما حرباً أهلية تجري في المدينة. سارع أحد المتآمرين، وهو الجمهوري لوسيوس، إلى تبرير جريمة القتل كقربان ضروري: «يا أهل روما، لاحظوا ملامح هذا الشخص الذي حرّركم من الديكتاتور وقدروا روحه العالية. لا تخونوا حريتكم، أو المدافع عنها». ومع ذلك، ظل الرأي السائد هو أن ما حدث كان اغتيالاً وحشياً لرجل عظيم، لا سيما بعد تأثرهم بعبارة التأبين النارية التي قالها مارك أنتوني الذي كان يقف فوق جثة القتيل... «وبروتوس رجل شريف...»[22].

كان خوف بروتوس الأعظم مبرراً. فبموته، أصبح قيصر شهيداً، وما فعله المتآمرون بكل جهدهم لإيقافه قد بدأ يحدث الآن دون أن يكون هناك أمل في أن يتوقف. كان سكان روما ذوو العواطف المتقلبة يشعرون بالحزن على إمبراطورهم كحال جميع الرعايا الطيبين الذين سيحزنون على ملكهم. دفعت حادثة قتل قيصر إلى دخول روما في حرب أهلية أخرى. في السنوات اللاحقة، مات الكثير من الجنود الرومان على أيدي بعضهم البعض أكثر من الذين قتلوا خلال حرب قيصر ضد بلاد الغال.

22- استقى شكسبير هذه العبارة من المؤرخ فلوطرخس.

لم ينته الصراع بين الملكيين والجمهوريين. انضم مارك أنتوني، الجنرال المخضرم، إلى ابن شقيق قيصر أوكتافيانوس، السياسي الداهية، في صراعه ضد الجمهوريين كاسيوس وبروتوس. واشتبك مارك أنتوني على رأس قوة رومانية، مع جحافل الجمهوريين في منطقة للمستنقعات بالقرب من مدينة فيليبي.

عشية المعركة، استدار بروتوس نحو صديقه كاسيوس قائلاً: «إذا لم تقتنع العناية الآلهية بما نقوم به الآن وفقاً لرغباتنا، فقد عقدت العزم على عدم إبداء المزيد من الآمال أو القيام باستعدادات حربية من أجل إقناعها، بل سأموت كما كتب قدري لي. لأني قد تخليت عن حياتي من أجل بلدي في يوم إديس مارس وعشت منذ ذلك الحين حياة ثانية من أجلها، بكل حرية وشرف!

في صباح يوم 3 تشرين الأول سنة 42 ق.م بدأت المعركة الأولى. أصاب النجاح خط القتال الذي قاده بروتوس بشكل كامل، ولكن كاسيوس، الذي قاد الجناح الأيمن لم يحالفه النجاح. شنّ بروتوس هجوماً وسرعان ما دفع القوات المشتركة لأوكتافيانوس وأنتوني إلى الوراء. ولكن بقيامه بالهجوم أمام كاسيوس الذي كان مستعداً للهجوم، فقد خلق فجوة في تشكيلاتهم القتالية وبات يفصله عن كاسيوس خندق قتالي، حفره جنود مارك أنتوني. وقد خلق هذا الأمر ثغرة قاتلة. في غضون ذلك، تقدم بروتوس، الذي لم يكن على دراية تامة بالخطر، وفي حركة مفاجئة من حول جناح أوكتافيانوس، دخل معسكر عدوه. ظنّ بروتوس أن المعركة حُسمت لصالحه، لكنه لم يتلق أبداً رسالة من كاسيوس يطلب منه أن يهرع إلى نجدته. بينما كان كل شيء يسير على ما يرام بالنسبة لبروتوس، الذي واجه أوكتافيانوس المتردد، تمّ دفع كاسيوس إلى المستنقع من قبل القيادة القديرة لمارك أنتوني وجحافله. كانت تلك هي اللحظة الحاسمة في المعركة. كيف كان التاريخ سيتغير لو أن بروتوس أرسل حتى فيلقاً واحداً. اعتقد كاسيوس، الذي ترك بدون قوة إغاثة، أن

بروتوس كان يفقد السيطرة في القتال. وعندما اندفعت جحافله إلى أبعد نقطة في المستنقعات المميتة، وهوجمت بشدة، وبعد أن رأى كاسيوس، أن كل شيء ضاع، دخل خيمته، وسحب عباءته من فوق رأسه وكشف رقبته. ثم طلب من صديقه بينداروس أن يوجّه له الضربة القاتلة.

قبل أن يمنحهم فرصة لنهب معسكر كاسيوس، حشد مارك أنتوني جنوده لتحويل قوته الكاملة ضد بروتوس. وحينها توقع دعماً قوياً من جنود أوكتافيانوس حتى يتمكنوا من اللحاق بخصمهم في الحال. لم يكن بروتوس على دراية بالخطر الشديد المتمثل في كونه أصبح تحت رحمة قوتين. وبينما كانت المعركة لا تزال تسير في صالحه، كونه قد تحول على الفور للهجوم على مارك أنتوني وجحافله؛ وقع حينها حادث غيّر النتيجة مرة أخرى. في الليلة التي سبقت المعركة، تمّ إخبار أوكتافيانوس عن حلم رآه صديقه أرتوريوس، الذي رأى أوكتافيانوس يحمل من المخيم على حمالة، وقد اخترقت جسمه العديد من السهام وكان يتعذب حتى الموت. لقد أرعب هذا الأمر أوكتافيانوس للغاية لدرجة أنه عندما دخل بروتوس معسكره وقتل من فيه من المرتزقة اليونانيين البالغ عددهم ألفين، أصيب أوكتافيانوس بالذعر وهرب. وعندما دخل بروتوس خيمته، وجدها فارغة، على الرغم من أن بعض جنوده عرضوا عليه سيوفهم الملطخة بالدم وأخبروه أنهم قتلوا أوكتافيانوس. من خلال هروبه، سرق أوكتافيانوس من مارك أنتوني انتصاراً محققاً، وترك المعركة من دون حسم، مما جعل من المحتم خوض معركة أخرى.

خلال العشرين يوماً التالية، كان جيشا مارك أنتوني وبروتوس يعسكران على مرأى من بعضهما البعض. في 23 تشرين الأول سنة 42 ق.م، وفي خطوة مفاجئة مشابهة لما كان يفعله هنيبعل، ترك مارك أنتوني القائد أوكتافيانوس ممسكاً بالجبهة بينما كان يقود جزءاً من جيشه عبر المستنقع واستطاع مهاجمة جحافل بروتوس من الخلف. وللمرة الثانية، لم تحسم نتائج المعركة، لأن أوكتافيانوس فشل في متابعة نجاح

مارك أنتوني مع الجحافل التي تحت قيادته. كان السياسي، الذي سيصبح قريباً إمبراطوراً، غير قادر ببساطة على حسم المعارك عسكرياً، ومع ذلك فإن هذه المعركة بدّدت كل الآمال في استعادة الجمهورية. كان «بروتوس الشريف» يائساً من إمكانية أن ينهض شعب روما ويقدم الدعم له. لقد عمتهم وعود أوكتافيانوس الفارغة بإبقاء الجمهورية على قيد الحياة، وهو تعهدٌ لن يفي به أوكتافيانوس الطموح. كانت الجمهورية ميتة. كان بروتوس يواجه نهايته. لم يكن هناك شيء يمكن أن يفعله لإيقاف العملية. لقد قرر الإله الأعظم، إله الجمهورية وإلهه، أن يحكم بالموت على الرجل الوحيد الذي كان يمكن أن يعارض بروحه الجمهورية القوة المطلقة للملك؛ أو من يسمى في هذه الحالة بالإمبراطور.

كان ماركوس جونيوس بروتوس مسؤولاً بقدر كبير عن إعادة تثبيت النظام الملكي كما أسقطه جده الشهير لوسيوس جونيوس بروتوس. جعلته هذه الفكرة يائساً لدرجة أنه ألقى بنفسه على سيفه. «أنا لا أبكي على سوء حظي، لكن من أجل أرض الآباء والاجداد»، كانت تلك كلماته الوداعية[23]. عثر مارك أنتوني على جثته، وقام بتغطيتها بعباءته الغالية الثمن ذات اللون الأرجواني، وعندما حاول لص سرقة الوشاح قتله على الفور. أحرقت جثة بروتوس النبيل بمراسم شرف كبيرة وأرسل رماده إلى والدته سيرفيليا.

أراد بروتوس أن يموت، وأراد أن يدفع ثمن خطايا جمهورية مترنحة كان يؤمن بها، ثم حاول الحفاظ عليها. مع موته ماتت الجمهورية، لتحل محلها الإمبراطورية الرومانية Imperium romanum.

كان الأمر أشبه بدائرة مغلقة. تنازلت الملكية عن سلطتها للطاغية، وتنازل الطاغية عن سلطته لأجل تأسيس جمهورية أرستقراطية. بعد

23- من الممكن أيضاً أن يكون بروتوس قد طلب من ستراتو، صديقه، أن يطلعه على الأمر، لأن ستراتو تمّ إحضاره للمثول أمام مارك أنتوني من قبل أحد ضباط بروتوس (رتبة تريبيون) الذي علق قائلاً: «إن هذا الرجل يا قيصر، هو من قام بآخر عمل ودي مع محبوبي بروتوس».

ذلك، استسلم الأرستقراطيون لجمهورية أكثر ديمقراطية، حتى أطاحت ملكية أخرى بالقيم القديمة وأعادت طغيان الملك المطلق.

الاختلافات بين قرننا والعالم القديم عميقة، ولكنها ليست كافية لجعل المقارنة سطحية. إن تجربة الجمهورية الرومانية التي تبلغ مدتها خمس مائة عام تعدّ ثمينة للغاية ولا يمكن تجاهلها. لقد حدث الكثير في هذه القرون الخمسة: الفتوحات العظيمة -لكل من إيطاليا، وقرطاج، واليونان، وبلاد الغال؛ وظهور القادة أمثال كاتو وسكيبيو وريغولوس، وسينسيناتوس، والكفاح من أجل إقرار واحدٍ من أفضل الدساتير صياغة في التاريخ الجمهوري.

مع حدث اغتياله الأكثر شهرة في العالم، فإن الرجل الذي كان يتفنن في أداء المظاهر الاحتفالية والبراقة، وصاحب الرؤية الواثق من نفسه، والبارع في استخدام السلاح، والذي يتلاعب بالقضايا النبيلة أو الفاشلة قد وقع ضحية لطموحه. كان جايوس يوليوس قيصر أحد تلك الظواهر التي لا يمكن تفسيرها، والتي ظهرت في فترات نادرة في تاريخ البشرية. لقد أبهر شعب الأمة الرومانية بشكل يندر أن حدث قبله أو بعده.

قرع «يوم إديس مارس» ناقوس الموت للجمهورية الرومانية، التي أرست على مدار خمسة قرون الأساس لبناء مجتمع روماني عادل، ولهذا فقد أصبح شعار الدولة منذ سقوط النظام الملكي، هو: الحكم لمجلس الشيوخ وشعب روما.

كانت تكفي حادثة اغتيال واحدة لإحداث تغيير هائل خلال الخمسة قرون التالية.

الجزء الخامس

الأباطرة

من 27 ق.م – 81 ب.م

من أغسطس إلى تيتوس

«منهم من مات في ساحات المعارك
أو قتل أو توفي بشكل مفاجئ».
ترتيل من كتاب للصلاة

الفصل الرابع عشر

مواسم القتل
دوموس أورا، روما
9 حزيران عام 68 م

القوانين بلا أخلاق لا نفع فيها

• *هوراس (65 ق.م – 8ب.م)*

قائمة بأول عشرة أباطرة رومان، اثنان منهم فقط ماتا بشكل طبيعي:

أغسطس	(29 ق.م – 14ب.م)	قام بقتل قيصرون ابن قيصر
تيبيريوس	(14-37 ب.م)	تمّ اغتياله
كاليغولا	(37-41 ب.م)	مات مقتولاً
كلوديوس	(41-54 ب.م)	مات بالسم
نيرون	(54-68 ب.م)	انتحر
غالبا	(68-69 ب.م)	مات مقتولاً
أوثو	(69 ب.م)	انتحر
فيتليوس	(69 ب.م)	مات مقتولاً
فيسبازيان	(69-79 ب.م)	مات بشكل طبيعي
تيتوس	(79-81 ب.م)	مات مقتولاً
دوميتيان	(81-96 ب.م)	مات مقتولاً

مسكين شعب ومجلس شيوخ روما (SPQR) فقد تمّ تفكيك جمهوريته. وما تلا ذلك هو تربع سلسلة من الحكام القتلة الوحشيين على العرش. كان هناك العديد من الطرق التي أعادت بها السلطات الإمبراطورية إنتاج نفسها: عن طريق الانتخاب والعنف والاغتصاب والميراث الطبيعي. كانت أفضل طريقة للاستيلاء على الوشاح الأرجواني[1] هو قتل أخيك، ثم عائلتك بأكملها. لم يتوقف القتل في الأسر الإمبراطورية أبداً.

حلّ فسادهم وقمعهم العسكري محل القانون الليبرالي حول صون كرامة الطبيعة البشرية. وكانت النتيجة النهائية هي الانحطاط الأخلاقي والميل إلى الانغماس في جميع أنواع الشهوات المتاحة، وكانوا يفضلون الجنسية منها. لقد تنعم الأباطرة بالثروات التي سرقوها من شعبهم، وقد أخفوا عمليات القتل متسترين بشكليات إقامة العدل، منتهكين الحقوق الأساسية لشعبهم بينما كانوا يتسترون خلف كلمات الوطنية.

أصبح الإمبراطور بمثابة إله. كان ابن شقيق قيصر، الذي سيصبح أول إمبراطور يدعى أغسطس، أول من مهّد لذلك الطريق. توجه أوكتافيان (أوكتافيانوس اسم آخر لأغسطس) بالسؤال إلى أحد العرّافين: «أنت تجرؤ على مناداتي بالمتصوف؟»؛ حدث ذلك في مكان ذبح أحد القرابين والذي تحداه قائلاً له: «ألا تؤمن بالآله؟»

«ليس لدي شيء ضد هذا الإله أو ذاك على وجه الخصوص. بالطبع، الإله هو فرضية عقلية، لكن يجب أن أعترف أن الإله حيوي للاستقرار، استقرار الكون الذي هو». ثم أضاف بعد لحظة من الصمت: «ربما يجب أن نخترع إلهاً...».

هكذا وبعبارة واحدة حدد مسار روما الإمبراطورية للأربعة قرون القادمة. سيكون هناك إله، هو أغسطس، «إله يصعد إلى السماء».

الهوس الديني هو نتيجة الغرور المتعاظم، وهم السلطة التي لا تحدّها

1- وشاح الملوك وهو رمز السلطة. المترجم.

حدود، والتصرف الأول تجاه جنون العظمة. عندما سيطرت إرادتهم بالكامل على البشر، أعلن الأباطرة الرومان أنفسهم آلهة. سادت أجواء الخوف والذعر في أغلب فترات حكمهم، وكانت تنتهي بعمليات الغدر والقتل؟ ما فائدة القوانين من دون أخلاق؟[2].

لم يخاطر ابن شقيق قيصر بالانتقام من «الفعل الشائن» الذي ارتُكب بحق قيصر؛ التي تمّ على يد مارك أنتوني في مدينة فيليبي. كانت نتيجة الصراع أن يتقاسم أنتوني المنتصر السلطة مع أوكتافيان. تمّ إتمام الصفقة عندما تزوج أنتوني من أوكتافيا شقيقة أوكتافيان. لم يحسب الجميع حساب كليوباترا الجميلة. التي أسرتها روح الدعابة لدى قيصر بطريقة لم يستطع فعلها الرجال الأكثر عاطفة. مع أنتوني كان الأمر مختلفاً. كان حباً خالداً، إذا لم يكن أحمقَ، سريع الاحتراق وسط نوبات من الندم. ومن أجل حب ملكة مصرية، هجر أنتوني زوجته أوكتافيا، مما جعله يتعرض للغضب الشديد علناً من شقيق زوجته المهجورة، الذي تمكن من تحويل عشيقة عمه قيصر السابقة التي كان مفتوناً بها كثيراً إلى زانية ومنبوذة. في الواقع، بالنسبة لأوكتافيان، كانت القضية ذريعة أرسلتها السماء لينتزع السلطة من مارك أنتوني ويحوز على السلطة الديكتاتورية، مثل عمه المقتول. وبحماس وعناد، شجّع بشكل علني القيام بأعمال عنف ضد مؤيدي خصمه. كان مارك أنتوني قد انحدر إلى يأس تام. الشخص الذي وعد صديقه قيصر بأنه سيحميه دائماً، والشخص الذي كان قد ساعده بمهارة كبيرة للوصول إلى قمة السلطة، وهو أوكتافيان، المتشائم من العالم الذي تخلص من الروح النقية للجمهورية قد خرج ليصلبه حتى الموت. اشتبك أسطولاهما المكون من أربعمائة سفينة في البحر المفتوح بالقرب من منطقة أكتيوم (2 أيلول 31 ق.م). اشترى أوكتافيان بالذهب ولاء عدد من قباطنة أنتوني، الذين قاموا، بعد وقت قصير من بداية المعركة، بتسليم سفنهم لأغريبا جنرال أوكتافيان. هربت كليوباترا

2- من كتاب أوديس للشاعر هوراس.

وأنتوني إلى مصر، وطاردهما أوكتافيان بحماس. عندما خرج أنتوني للتحقق من تقدم أوكتافيان في الإسكندرية، تمّ إبلاغه (بشكل خاطئ) أن عشيقته كليوباترا قتلت نفسها؛ وفي وسط مشاعر اليأس التام جراء خسارته انتحر. قام أوكتافيان بأسر كليوباترا وأبلغها أنها ستُعرض مقيّدة بالسلاسل في شوارع روما. لكن هذه المرأة المعتزة بنفسها، التي غزت قلب قيصر وأصبحت الحب الكبير لمارك أنتوني، رفضت أن تتعرض لمثل هذه العار. وانتحرت بلدغة أفعى سامة.

في عام 29 ق.م، عاد أوكتافيان منتصراً إلى روما ونال لقب الإمبراطور. وأضاف إليه لقباً آخر: المواطن الأول في الجمهورية. بعد ذلك بعامين، في عام 27 ق.م اتخذ مجلس الشيوخ الخطوة المتوقعة برفعه إلى مصاف الإله الأرضي. مع هذا، تمّ إلغاء الجمهورية. غيّر أوكتافيان اسمه إلى قيصر أوغسطس، أو «الشخص الذي ارتفع إلى السماء». لا تكمن إنجازاته في القيام بعمليات غزو للأراضي الإقليمية المجاورة، كما فعل أسلافه، ولكن في وقف الحرب الأهلية وضمان أمن الدولة. وكان الضامن لهذا وجود قوة دفاع قوية. لقد قام بإصلاح الجيش وخلق منه وحشاً؛ أصبحت القرارات السياسية التي يتخذها أي إمبراطور تعتمد بشكل كامل من تلك اللحظة فصاعداً على حسن نوايا الجيوش. كان الجيش، وليس الدولة أو الإمبراطور، هو الذي يقرر وبذلك حافظ على فترة ما عرف بـ«باكس رومانا»وهي فترة طويلة من السلام والاستقرار النسبيين شهدتها الإمبراطورية الرومانية.

مع وفاته في 14 م، اندلعت حروب خلفاء الإسكندر[3] بين خلفائه، لم تساهم الفترة التي أعقبت وفاة الإمبراطور أوغسطس بأي شيء لتحسين مجد الإمبراطورية. وعلى الأغلب فإنه من غير الضروري تعداد الحكام غير الجديرين بخلافة أوغسطس. مثل تيبيريوس المتصلب

3- سلسلة من الحروب والصدامات المسلحة خاضها بعض القادة الذين ادعوا أحقيتهم بحكم إمبراطورية الإسكندر الأكبر.

الظالم، وكاليغولا الذي لا يرحم، وكلوديوس الضعيف، ونيرون الفاجر القاسي، وفيتيليوس المتوحش، ودوميتيان الخجول الذي لا يحمل مشاعر إنسانية والذي تمّ وصمه بالعار الأبدي. كانت روما تئن تحت طغيانهم المتواصل، الذي أهلك العائلات القديمة في الجمهورية وكان قاتلاً لكل فضيلة وموهبة نشأت في تلك الفترة التعيسة[4].

كان الأباطرة راضين عن الحفاظ على هيمنتهم في مأمن من الغارات التي يقوم بها الفرثيون واليهود في آسيا الصغرى، والقبائل البربرية شمال نهر الدانوب وما وراء نهر الراين. لقد كشف هؤلاء المحاربون التوتونيون الأقوياء عن الثمن الذي كان على الإمبراطور الروماني أن يدفعه مقابل طموحاته الإقليمية عندما حاولت جحافله إخضاعهم. في عام (9 م)، أهلكت القبائل الجرمانية الموحدة تحت قيادة أرمينيوس، وهو أمير من قبيلة شيروسكي وضابط ومواطن روماني فخري، الجحافل الثلاثة لفاروس في غابة تيوتوبورغ[5]. خلال هجوم شرس حسمته بالصدفة عوامل الطقس، حين هبّت عاصفة رعدية مفاجئة نصب أرمينيوس كميناً لفاروس وجحافله في غابة مظلمة، وذبح مقاتلي جحافله وعلّق من أسرهم على الأشجار. وضعت هذه الكارثة التي حلّت بالرومان، والتي كانت إحدى معارك التاريخ الحاسمة، حدّاً لجميع خطط التوسع الإقليمي الروماني خارج حدود نهر الراين ونهر الدانوب. وأصبح النهران يمثلان الحدود النهائية للإمبراطورية (Termini imperii)، وهي الحدود التي فرضتها عليها الطبيعة. بعد هذه الهزيمة الرهيبة، لم يعد للإمبراطور أوغسطس أي مزاج للقتال. في آسيا الصغرى، من أجل استعادة نسور الجحافل المفقودة للقائد الروماني كراسوس، فضل دفع فدية للفرثيين بدلاً من مواجهة فرسانهم المتوحشين في معركة مفتوحة. عندما توفي

4- راجع: G.M. Low, Gibbon's Decline and Fall of the Roman Empire, London, 1960.

5- راجع كتاب المؤلف (عامل المناخ).

أوغسطس، تمّت قراءة وصيته عند مدرجات منتدى روما. وحدد فيها، حدود الإمبراطورية الأوغسطينية، استناداً إلى الحواجز الطبيعية مثل الأنهار والصحارى: نهر الراين والدانوب من الشمال، والمحيط الأطلسي من الغرب، والفرات من الشرق والشريط العريض من صحراء شمال أفريقيا من الجنوب. وقد بقيت تمثل حدود الإمبراطورية الرومانية على مدى الأربعمائة سنة التالية.

تمّ تعريف المصالح الإمبراطورية لروما بضرورة حماية دماء أبناء الإمبراطورية وتربتها. وهذا هو السبب وراء وضع جميع الجيوش بشكل استراتيجي عند حدودها الواسعة وإبقائها في المعسكرات؛ في كثير من الأحيان كان تتمركز الجحافل من دون جنرال، لأن أوغسطس كان لا يحافظ على الجنرال الذي يحصل على قدر أكبر من الاحترام من فيلقه يفوق ما يحصل عليه الإمبراطور. لم يتم تشجيع مبادرات القادة العسكريين على الإطلاق، وقد أدى ذلك مرة أخرى إلى انخفاض كفاءة الجيوش وانضباطها. أصبحت الجحافل، المدافعة الأبدية عن روما، أقل فاعلية. لم تعد صفوفها تحمل ذلك الشعور برفقة السلاح والمشاعر الوطنية الشديدة التي ساعدت روما على النجاة من العواصف الرهيبة وقادتها إلى العظمة. سمحت الحرب للإمبراطور بالاستفادة من رغبات الرجال المحظورة بطريقة أو أخرى بسبب ارتكابهم لأنواع كثيرة من الجرائم؛ لقد انضموا فقط لاستعادة حريتهم من خلال القانون (قانون الإمبراطور) حيث تمّ منح العفو لأي شخص يرغب في القتال. أدى هذا إلى أن يتضخم داخل صفوف الجيش عدد أولئك الذين لو لا السماح لهم بالانضمام للجيش لكانوا مذنبين لارتكابهم أفعالاً سيئة، والذين أصبحوا يشتركون في القتال لا لسبب سوى كونه أفضل وسيلة للهروب من العقوبة. توافد الفقراء إلى مخيمات الجيش لضمان وجبة يومية لبطونهم التي تتضور جوعاً في مقاصف الجيش. انضم آخرون إلى الجيش للبحث عن الثروة. كان الأرستقراطيون الشباب، من أبناء الضباط، والذين

لم تكن تهمهم الثروة ولا الغنائم، قد خرجوا للقتال بحثاً عن المجد الشخصي - أو لمجرد التسلية. ففي الحرب، يمكنهم القتل والاغتصاب، وكل ذلك يجري بشرعية تامة. كان الملل في الحاميات العسكرية تكسره نوبات محمومة من القتال وأعمال النهب. وكانت الحياة في المخيمات تمثل فترة الانتظار الطويلة التي تفصل بين نوبات القتال. كان المقاتل يقضي أغلب وقته في الاسترخاء. أو يقوم بإجراء القليل من أعمال الحفر الظاهرية ويترك عدة العمل لتتآكل. ويقضي بقية اليوم في معاشرة البغايا والنوم والتفاخر والأكل والشرب. كانت هناك أيضاً مشكلة حاجز اللغة بين العديد من العناصر العرقية داخل الفيلق الواحد. فكانت تندلع المشاجرات وتتم تسوية الحسابات بالأسلحة التي كان من المفترض أن يستخدموها ضد عدو إمبراطوريتهم.

وقد أدّت مرابطة المقاتلين عند الحدود إلى ترك قلب الإمبراطورية عرضة للخطر. كان عدد قليل من الجحافل مكلفة بقمع المشاكل الداخلية. تمّ تسليم حماية الإمبراطور والمدينة بالكامل بأيدي عشرة آلاف رجل تمّ اختيارهم من الحرس الإمبراطوري. ثبت فيما بعد أن هذه كانت خطوة خطيرة. وفي حين أن الجيش منع المواطنين والعبيد من خلق المتاعب، أبقى حرس الإمبراطور الشخصي الجيش تحت سيطرته، وقضى أوغسطس وقته قلقاً حول كيفية السيطرة على أفراد الحرس الشخصي. لأن مهمتهم لم تعد تقتصر على الحماية الشخصية للإمبراطور؛ بل سرعان ما بدؤوا في تقرير من ينبغي أن يكون الإمبراطور فعلاً، وبالتالي تعيين الأباطرة بأنفسهم؛ الأمر الذي أدى في كثير من الأحيان إلى قيامهم بتنحيتهم أو اغتيالهم.

أما بالنسبة للناس العاديين، فقد جرد الأباطرة حياة رعاياهم من الآلية الاجتماعية التي عملت بشكل جيد في ظل الجمهورية. وحولوا البلاد إلى آلة تدير نفسها بنفسها وبشكل عديم الرحمة، مما خلق أوضاعاً تناسبهم بشكل أفضل. وكلما تمردت الجماهير العظيمة، يمنحها الأباطرة الخبز والطرائد

ويرسلون عدداً قليلاً من المسيحيين المزعجين إلى الأسود لكي تلتهمهم. شكّل الدين الجديد (المسيحي) تحدياً لسلطة الإمبراطور. وعاجلاً أم آجلاً، سيكون هناك عصيان، أو ما هو أسوأ من ذلك، وسيقوم الإمبراطور بحظر جميع تعليمات الديانة المسيحية. وهذا لم يؤدِ إلّا إلى جعل الأمور أسوأ؛ أصبحت الدعوة للمسيحية سرية واستمرت في الانتشار والتوسع. أصبحت روما مثل عش الأفعى يفرخ المكائد وأعمال القتل. وهكذا تبين أن الأباطرة كانوا أكثر اهتماماً بضمان بقائهم على قيد الحياة من خلال القضاء على أي معارضة بدلاً من اهتمامهم بإدارة شؤون الإمبراطورية.

كانت جيوش من العبيد تقوم بجميع الأعمال الوضيعة، وكانوا بمئات الآلاف من جميع أنحاء الإمبراطورية. لم يجرؤ العبيد على التمرد، وإذا حدث وغامروا بالشكوى من معاملتهم اللاإنسانية، ترد عليهم السلطات بوحشية قصوى. فبينما كان يتمّ شنق الرومان خلف جدران السجن، كان العبيد يُصلبون علناً على أحد الطرق الرئيسة المؤدية من روما، ثم يُتركون معلقين هناك حتى تنهشهم الغربان. كانت أفضل طريقة لحصول العبد على حريته هو أن يقدم خدمة ثمينة أملاً في الحصول على كرم سيده. للأسف لم يتوقف الجشع الروماني عند حدود معقولة. كان العبد عبداً، وإنساناً بلا وطن، وعاملاً رخيصاً.

كان مجلس الشيوخ أداة بلا سلطة يتحكم بها الطاغية. كانت اجتماعاته قصيرة ولا تفعل أكثر من التصديق على قرار للإمبراطور والتصويت على منح وسام أو رتبة جديدة لسيده الأوغسطس. لم يكن للروماني العادي أي دور في الحكومة، وعلى عكس أسلافه، لم يكن يرغب في شيء. كان المواطنون العاديون سعداء للذهاب إلى الكولسيوم[6] لمشاهدة المصارعين وهم يصارعون بعضهم البعض حتى الموت. ويهتفون «عاش الإمبراطور حيث كان أولئك الذاهبون إلى الموت يؤدون التحية العسكرية، morituri te salutant...».

6- حلبة المصارعة الرومانية. المترجم.

انتشرت المكائد في كل مكان، وباتت أعمال القتل تحدث بسرعة، عن طريق السم أو الخنجر. لم يعد بإمكان أي من الأباطرة الرومان أو المطالبين بالعرش إنهاء يومهم بنوم هادئ. توترت علاقة الإمبراطور تيبيريوس مع جيرمانيكوس، المطالب بالتاج الإمبراطوري. وتمّ نفي جيرمانيكوس بتعيينه قائداً للقوات الموجودة في الشرق، حيث سقط ميتاً بعد تناوله إحدى الوجبات التي قدمها له أحد عبيد تيبيريوس. من خلفه كإمبراطور جعل اسمه رمزاً للوحشية المطلقة. حفيد تيبيريوس، الذي كان قد خنق الإمبراطور أثناء نومه من أجل اغتصاب التاج (16 آذار سنة 34). كان غايوس قيصر، المعروف باسم كاليغولا، وهو ابن جيرمانيكوس سادياً شريراً، مقتنعاً أن حياته كانت ترشدها القوى الكونية؛ لم يكن يستمع إلى أي أصوات أخرى غير أصوات السماء، التي كانت تردد صدى أفكاره الخاصة. ومهما كانت المكاسب التي حصل عليها على حساب رجال حاشيته التافهين من خلال أعمال قتلهم التي لم تتوقف عند حدّ، فإنه لم يسيطر أبداً على رجال الحرس الإمبراطوري (البريتوري) الذين لا يمكن السيطرة عليهم، والذين من دون رضاهم لا يستطيع التمسك بالعرش. تسبب له اعتقاده الراسخ في مهمته كمخلص بالجنون. واستمر في مواصلة عمليات القتل، والتخلص من المنافسين المشتبه بهم، وبالدرجة نفسها، التخلص من أقرب مؤيديه. وأخيراً فقد السيطرة على الأمور واغتيل على أيدي ضباط من الحرس الإمبراطوري. خلفه في الحكم كلوديوس، وهو رجل عفيف نسبياً قياساً بالأباطرة الرومان. كان متزوجاً من ميسالينا التي كان جمالها الرائع أسطورياً مثل عربدتها الجنسية. كان زوجها مهتماً بالكتابات التاريخية أكثر من اهتمامه بقضاء وقته في أداء واجباته الزوجية. وبحثاً عمّن يطفئ نيران شهوتها، انخرطت ميسالينا في أعمال أدّت إلى تدميرها ذاتياً، وعادت إلى طريقة الحياة الطائشة المليئة بالعربدة الجنسية والتي أكسبتها السمعة السيئة قبل زواجها من كلوديوس. أصبحت حفلاتها حديث روما، والتي كانت تنتهي دائماً بحالة

فوضى صاخبة. وفي كل صباح كانت تنحي جانباً عشيقها، وهي تعاني من الصداع والغثيان والمزيد من الشهوة. ونقلت طريقة عيشها هذه إلى مدارس المصارعين، حيث وهبت جسدها لعشرات الشباب المتعطشين. وكانت تبحث عن سلوتها في زنزانات السجون، فتشبع رغباتها مع جميع المحكوم عليهم بالموت، وفي صباح اليوم التالي تبدأ بوقاحة في استدعاء حراس الإمبراطور إلى فراشها، أمر كلوديوس أخيراً بقتلها وحدث ذلك على يد أحد عشاقها السابقين بينما كانت في أحضان رجل آخر.

تصرف كلوديوس بسذاجة شديدة عندما اتخذ شقيقة الإمبراطور المجنون كاليغولا زوجة له. كانت أغريبينا امرأة أكثر فتكاً بكثير من زوجته السابقة؛ كانت طموحة، وخلال فترة قصيرة استحوذت على زمام السلطة. وهذا الأمر أزعج الرومان، لذلك غيّرت خططها. لم يكن ماضي أغريبينا مثالاً على المرأة العفيفة. لقد أتيحت لها فرصة كبيرة «لتذوق الثمرة المحرمة» مع سلسلة من العشاق، من الجنرالات إلى الجنود العاديين في المخيمات، وتركت لها تلك العلاقات ابناً؛ كم كانت تتذكر صراخها من العذاب أثناء ولادة الطفل. كان الناس يتهامسون أنها لعنة الإله جوبيتر، أنجبت أخت كاليغولا الشرير بذرة لأفعى خبيثة. وأجبرت حينها زوجها الإمبراطور الرعديد على تبني ابنها الوغد، الذي مُنح اسم نيرون كلاوديوس قيصر دروسوس جيرمانيكوس. هذه الخطوة وضعت الوحش على السلم المؤدي إلى العرش. ولكن لكي ينجح، سيكون من الضروري القضاء على جميع الموجودين في السلم قبله.

طوال حياته، ظل نيرون مسكوناً بحمام الدم الذي أوصله إلى السلطة. ما إن تبناه الإمبراطور كلوديوس وأسبغ عليه صفة الابن الشرعي، حتى توجب أن يموت الإمبراطور قبل أن يصل بريتانيكوس -ابن كلوديوس من زوجته ميسالينا- السن الذي يستطيع فيها الحكم. تمّ كشف المؤامرة. كانت قوتها الدافعة هي أغريبينا والدة نيرون، وقد لقنها شقيقها درساً.

في 13 تشرين الأول سنة 54، أعدت الإمبراطورة أغريبينا وليمة كبيرة من نوع خاص، وطلبت من قائد حرس الإمبراطور كلاوديوس أن يبلغه: «إن السيدة النبيلة تتمنى حضورك».

عندما دخلت الملكة. قالت له: «إنك تتهرب مني، زوجي العزيز».

فأجابها: «إن شؤون الإمبراطورية تجعلني مشغولاً».

«ليس الليلة، يا حبيبي». ثم صفقت بيديها ودخل أحد عبيدها بكأسين من النبيذ. كانت أغريبينا حريصة على تناول الترياق قبل دخول غرفة الإمبراطور. كانت تعرف أنها في مأمن من السم. «أنت لا تثق بي؟» ضحكت وأفرغت كوبها. جعلها النبيذ تشعر بالدوار. كانت تعلم أنها يجب أن تتحلى بالصبر وتنتظره حتى يشرب كأسه. وقد فعل، وسقط على الأرض، يئن ويشهق، وقد التوى وجهه، قبل أن يغلق عينيه إلى الأبد. في طريقها للخروج من غرفتها، نظرت أغريبينا إلى الحراس المسترخين والكؤوس المنسكبة من النبيذ المسموم. مع إزاحة كلوديوس من الطريق، لم يعد هناك سوى بريتانيكوس الابن الشقي لميسالينا والذي يجب التعامل معه. بعد أربعة أشهر من وفاة والده، سقط صريعاً بعد أن تناول طبقاً متبلاً، وأصبح نيرون وريثاً بلا منازع لإمبراطورية ضخمة وهو في سن السابعة عشرة. وواصل تقليد والدته في القضاء على جميع أفراد عائلته المزعجين. في السنوات التالية، قام بقتل زوجتين بالإضافة إلى والدته المشاكسة، لأن أغريبينا ارتكبت خطأً لا يمكن التغاضي عنه بأن استولت بنفسها على مقاليد الحكم في الإمبراطورية.

أصبح الإمبراطور عبداً للرجال الذين كرهوه واحتقروه. ربما تكون التجاوزات الهمجية التي ارتكبها أفراد حرسه الشخصي قد أزعجته، لكنه كان سعيداً بأي عذرمقبول لتبرير تردده. كان يقضي كل صباح في مهامه المعتادة، بما في ذلك الموافقة على الدفعة التالية من عمليات الإعدام. تكوّنت لديه انطباعات خاطئة من أثر التقارير الإيجابية التي كانت تصله من رجاله، الذين كانوا يخبرون إمبراطورهم بما يريد أن يسمع، واصل

نيرون أسلوب حياته الفاجر. كانت حوادث العربدة والقتل تتتابع الواحدة تلو الأخرى. كان يجب أن يكون أعمى كي يتغاضى عن الغضب المتنامي.

كان مهووساً بانعدام الثقة وما يصاحب ذلك من عصاب. وتعزز فساده في السلطة بسبب الخوف من الخيانة. لمنع نفسه من الانهيار تحت وطأة هذه الحياة، اعتمد نيرون بشدة على تناول المخدرات. تمكن عرّافوه من التستر على حالة الإنهاك التي أصابت إمبراطورهم عن طريق إمداده بالمنشطات، وهو نهج دمّر نيرون بالكامل. كان من شأن امتلاكه بنية جسمية قوية أن تمنعه من الانهيار البدني والعقلي المبكر، ولكن سرعان ما أصبحت التغييرات في حالته الجسدية واضحة للعيان واتخذت نوبات الغضب المستمرة شكل الجنون المستفحل. بات يعاني بشكل متزايد من تقلصات في المعدة. كان كهنته وعرّافوه، هم الذين زوّدوه بوصفاتهم السامة المهدئة، وكانوا يتغامزون فيما بينهم على الاحتفالات الدينية -التي باتت عتيقة- التي كان يحتفلون بها بشكل مهيب بحضور الإمبراطور، ثم يقدمون له بعدها مزيداً من المخدرات لتهدئته. كان نيرون يتجسس على المتآمرين في كل مكان؛ فقد اضطر العديد من رجال حاشيته، وأعضاء مجلس الشيوخ البارزين، وحتى أفراد عائلته، إلى دفع حياتهم ثمناً لإصابته بجنون العظمة. تمّ اتهامهم بالخيانة ونفّذ بهم حكم الإعدام. وإذا فشلت تهمة الخيانة، فإنهم يُقتلون ببساطة. كان القصر الإمبراطوري الذي يسكن فيه نيرون يعجّ بالمحظيات المسرفات في زينتهن. كان يتسلى معهن بقراءات من شعره، وبعدها يستمعن إلى موسيقاه، ثم يقمن بأعمال القوادة فيجلبن له من يحب معاشرتهم، الذين يكونون في أكثر الأحيان من أبنائهن وبناتهن. كان بلاطه مزدحماً بالطفيليين. كان متملقوه الذين يتغنون بعطره يساعدونه في تقرير سياسة الدولة. (من سخريات القدر السيئة أن الذين كانوا مهرجين في القرى بالأمس، هم من يفصلون بين الحياة والموت اليوم، وسيكونون في الغد حراساً في المراحيض العامة)[7].

7- الشاعرالروماني جوفينال.

متأثراً بالإنجازات الكبيرة التي حققها قيصر، أطلق نيرون جيشه في رحلة استكشافية إلى مملكة بارثيا. تمّ تسليم قيادة الجحافل إلى جنرال متمكن هو غانيوس دوميتيوس كوربولو، الذي تسلم مهام جيش أضعفته سنوات من التقاعس عن العمل وحوله إلى أداة قتال فعالة. وبناء على توجيهات كوربولو الفعالة، سرعان ما اتخذ الجيش تشكيله المناسب وحدّد غايته، وبدأ في تحدي هيمنة المتملقين الأذلاء في بلاط نيرون. أخاف هذا الأمر الإمبراطور المجنون للغاية لدرجة أنه استبدل كوربولو بشخصية عسكرية غاية في الغباء لم يكن بإمكانه أن يمثل تحدياً؛ وهو كيسينيوس بيتوس. الذي جاء، ورأى، وتمّ سحقه في معركة الريحانية (62 م) من قبل القوات الفرثية-الأرمنية المشتركة بقيادة الملك تيريدياتيس. وحقيقة أن الخيالة الفرثيين كانوا يحاصرونهم باستمرار، يحومون حولهم مثل الذباب مبتعدين عنهم مسافات معينة، قد فسره بيتوس على أنه علامة على الخوف، واعتبر أن قواته تمتلك ما يكفي من القوة تجعلها تستغني عن طليعة جيشه. حتى إنه أهمل إرسال جنود استطلاعه إلى الأمام. أما جحافله، التي سقطت مرة أخرى في وهدة روتينها الذي يبعث على الكسل بعد إقالة، الجنرال كوربولو، فقد رفضت وببساطة مواصلة مسيرتها قبل أن تحصل على استراحة لغرض تناول الغداء على الرغم من أن معلومة وصلت من أحد الخدم المرافقين لقطعات الجيش تفيد بأنه رأى ثلاثة حشود كبيرة من الرجال والخيول، تلمع وسطها الرماح والدروع. توقف بيتوس، وكان رجاله يتكئون بتكاسل حول مواقد الطهي حينما ضربت رشقة من السهام أجزاء من المخيم. قبل لحظة من ذلك الحدث، لم يكن بإمكانهم رؤية رجل واحد، وفجأة أصبح يقف الآن ألف من الرماة وراء الشجيرات والتلال المنخفضة، بعد أن نهضوا على ما يبدو من الأرض. أشعلوا حلقة من النار التي سرعان ما انتشرت في العشب الجاف، كانت ألسنة اللهب تنطلق عالياً في الهواء. هبّت ريح قوية وهيّجت النيران، حتى بدا الوادي وكأنه حفرة من الجحيم، يتشابك

فيه الدخان مع فرقعة اللهب. تمّت محاصرة ما تبقى من الرومان داخل المرجل. وكانت تصل عبر النيران رشقات متتالية من السهام، للوصول إلى المنطقة الآمنة التي تقع أمامهم كان على الرومان المرور من وسط رماة الأسهم وقاذفات المنجنيق، لكن أولئك الذين حاولوا الوصول إليها ماتوا وسط ألسنة اللهب أو أطلق عليهم الرماة الأرمن سهامهم من مسافة قريبة. بسبب الفوضى والهجوم المستمر من السهام، كان كل رجل يهتم بنفسه. تمّ دفن جحافل من المقاتلين تحت وابل من السهام. انطلقت رماح بطول ذراع رجل طويل القامة، وقد شحذت رؤوسها بالنار، من الأقواس التي يسحبها الرجال الذين كانوا قد تعودوا على استخدامها وهم في سن الطفولة لصيد الحيوانات. الآن كانوا يصطادون بها أعظم حيوان على الإطلاق، كانت تلاحق الرجال. ارتفع صراخ المقاتلين من الألم وارتفعت أصوات ضباطهم بغضب. كانت المذبحة عظيمة. السهام اخترقت الخيول والسروج. سقط بعض الرجال، وترنح آخرون فوق الخيول التي سقطت. سادت المخيم حالة من الفوضى؛ انتشرت في كل مكان الجثث والرماح والسيوف والخيول الميتة. تمكنت مجموعة واحدة من سلاح الفرسان من ارتقاء صهوة خيولها وقادتها عبر النيران. واشتبكت على الفور مع حشد كبير من الخيالة الفرثيين، وأوقعوهم عن سروج خيولهم. كان بيتيوس المسكين الأحمق واحداً من بين آخر من ماتوا. تمّ أسره وقتله بعد ذلك. لم يكن لدى الفرثيين والأرمن وقت لأخذ أسرى. بعد المذبحة التي حدثت في بلدة الريحانية، أعاد الإمبراطور نيرون القائد كوربولو إلى الخدمة، والذي أعاد بناء الجحافل وقادها نحو غزو أرمينيا وإحلال النظام الروماني فيها.

منذ عهد الإمبراطور أوغسطس فصاعداً، أصبح جميع الحكام جوهر العبادات الدينية، وارتقوا إلى مرتبة الألوهية. لكن قوة أغسطس كانت هشة، حيث بُنيت بالكامل على ولاءات حرسه الإمبراطوري، والجيش، وعلى طائفة واسعة من الشعب الروماني، فإذا لم يرتق الإمبراطور إلى

مستوى تطلعاتهم، ولأنه شخصية إلهية فلا يمكن التصويت على طرده من منصبه، كانت هناك طريقة عملية واحدة للتخلص منه؛ وهي تصفيته. كان هذا المصير قد طال الجميع قبل نيرون، وخاصة شقيق والدته، كاليغولا الشرير، والآن أصبح لدى النبلاء الطيبين سبب وجيه للتخلص من نيرون. كان مهتماً بالحضور إلى مضمار سباق الخيل أكثر من اهتمامه بالتواجد في ميدان القتال. كان يتردد دائماً على مواخير الشرب وأوكار البغايا من أدنى مستوى، ويرتدي دائماً ملابس العبيد، ليلتقط عاهرات الشوارع اللواتي يصادفهن. أصبحت حوادث عربدته الجنسية حديث روما. كانت العذارى من أصل نبيل يضاجعن الحيوانات؛ وكان الإمبراطور، يقوم بارتداء ملابس النساء، ويقوم بأداء دور تمثيلي يصور فيه اغتصابه علناً من قبل مقاتلي الجحافل الأشداء. لكن الشيء الذي تخصص به كان ممارسة اللواط مع الأولاد الصغار، وخنقهم بحبل من الحرير عند وصوله مرحلة الجنون النهائي. في إحدى المرات، نظم حفل زفاف حيث كان هو العروس وعشيقه المفضل هو العريس. كان من المفترض أن يؤدي ذلك إلى غضب شعبي، خاصة بعد أن أجبر المواطنين البارزين، حتى أعضاء مجلس الشيوخ، على الانضمام إليه، حيث عرضوا زوجاتهم وبناتهم على سلسلة من الرجال ذوي العضلات الذين تمّ اختيارهم خصيصاً وهم يرتدون أقنعة بشعة.

أدت سلسلة من الأحداث المظلمة إلى سقوط نيرون. في سنة 64 م حلت بروما كارثة خطيرة اندلع حريق في مستودع كبير. لم يثبت مطلقاً كيف بدأ الحريق، عن طريق الصدفة أو عمداً. أصبح بسرعة خارج نطاق السيطرة واجتاحت نيرانه جزءاً كبيراً من المدينة، وخاصة القسم الأكثر فقراً، الذي كانت مساكنه مبنية من الخشب. أصاب الدمار الكثير من أجزاء روما. لم تنجُ من النيران سوى أبنية الأرستقراطيين العظيمة المبنية من الحجر والرخام؛ وكانت رمزاً لإثارة التوتر الشديد الذي كان سائداً في المجتمع الروماني، والفجوة الكبيرة بين الأغنياء والفقراء. انتشرت

شائعات في جميع أنحاء القسم الأكثر فقراً في المدينة مفادها أن نيرون هو من أشعل النار لاستخلاص إلهام فني لقطعة موسيقية ليهديها لإحدى عشيقاته. سواء كان هذا صحيحاً أم لا، بدأ الناس يؤمنون بهذه القصص لأنهم أرادوا الإيمان بها. بدأت عصابات من الأشرار تجوب الشوارع، وقاموا بضرب مؤيدي الإمبراطور (لغرض سلبهم أكثر من إلحاق الضرر بهم)، في حين اتخذ أفراد الحرس الإمبراطوري موقف المتفرج والمراقب، على أمل أن يؤسسوا مراكز القوة الخاصة بهم وسط الفوضى العامة. هرب الأرستقراطيون خوفاً ولجؤوا إلى أراضيهم في الريف، بينما تجاهل نيرون مشاعر الناس وسخطهم. لكنه ارتكب خطأً قاتلاً عندما أمر ببناء قصر جديد له، (دوموس أورا)[8]، ليتم بناؤه فوق الرماد الذي كان لا يزال مشتعلاً، وعلى ممتلكات تملكها بعض الأسر الرومانية الأكثر ثراءً. ولتغطية التكاليف المهولة لهذا القصر المذهل، قام ببساطة بمصادرة الممتلكات الخاصة وزيادة الضرائب العامة. وهذا جعله يدخل في صراع أخير مع الأرستقراطيين. لقد تحمّلوا بصمت أعمال العربدة التي قام بها وجرائم قتل أفراد عائلته. ولكن بمجرد أن مسّ سلوكه ثرواتهم الشخصية، فقد أصبح الأمر يهمّ الجميع. ونظراً لأنهم لم يجرؤوا على معارضة الشخص الإلهي للإمبراطور بشكل صريح، فقد بدؤوا بحملات التشهير به. وقد حققوا النتيجة المرجوة، فسرعان ما ضاقت الجماهير الواسعة ذرعاً بتجاوزاته.

لم يكن الجنرال كوربولو جندياً بارعاً فحسب، بل تمّ تدريبه على أعظم التقاليد العسكرية في العالم القديم، وبالتالي كان مخلصاً لقائده الأعلى، الإمبراطور. في عام 67 م، عندما ازدادت الدلائل التي تشير إلى وجود تهديدات لشخص الإمبراطور الموقر، ظل كوربولو يدعم المزاج التعسفي للطاغية الذي أفسده إفراطه في السلطة. ولأجل حماية نيرون، اقترح وضع جحافله الموالية من حول روما من أجل منع أي مغامرة

8- فتح أبوابه مؤخراً للجمهور وهو مكان يستحق الزيارة. ويقع عبر مدرج الكولسيوم.

يخطط لها جزء من الأرستقراطيين أو الشعب أو أي من أفراد الحرس الإمبراطوري المتقلبين. ولكن حتى أثناء قيامه بواجبه، كان يعرف ما ستكون عليه المكافأة. وكان يقول لضباطه: «سيقطع القيصر رأسي بغض النظر عما أفعله». وقد حدث ذلك فعلاً. لقد وصل جنون العظمة بنيرون إلى درجة من الهيجان لدرجة أنه لم يعد يرى سوى الخيانة. وقد اعتبرعرض كوربولو نشر القوات الذي قدمه بحسن نية كمحاولة للاستيلاء على التاج. فاستشاط نيرون غضباً منه وصاح قائلاً: «خائن»، وأهان كوربولو علانية لدرجة أنه أجبره على الانتحار (67 م). وبموت كوربولو، كان نيرون قد حفر قبره بيديه.

حتى في أسابيعه الأخيرة، عندما تلاشت قدرته على فرض إرادته أو تقديم العطايا، ظن نيرون أنه لا يزال بإمكانه الحكم بإصدار المراسيم. وقد وقّع شهادة وفاته عندما حاول إقالة مجلس الشيوخ. تجرأ مجلس الشيوخ الذي كان بلا سلطة على إطلاق شرارة من الشجاعة عندما رشى الحرس الإمبراطوري في روما بأكياس من الفضة ممدودة على ظهور الحمير وأرسلها إلى معسكرهم وأعلن نيرون «عدو شعب روما» (68 م). اندلعت أعمال شغب. قُتل الكثير من أفراد الحرس وسط حالة من الهياج بعدما نفد صبر السكان تحت وطأة الاضطهاد الإمبراطوري. تعرض الرجال الأثرياء للدفع من قبل حشد من المشاغبين الذين كانوا يصرخون: «أيها العبيد، عودوا إلى عملكم!» والذي كان دائماً يُوَجّه إليهم في السابق، وبدؤوا يضربون أسيادهم. مات الكثير من الناس. ثم ارتفع صراخ صوت عميق: «وأنتم، أيها الأموات، عودوا الى جحيمكم!» حُلّ مجلس الشيوخ استجابة لمطالبات الجماهير. استجاب الحرس الإمبراطوري المتقلب لصوت الشعب (vox populi)، خاصة وأنهم شعروا أنهم قد حرموا من حصتهم العادلة من الثروة التي كان يوزعها الإمبراطور؛ تحول ولاؤهم وبدؤوا يطاردون نيرون. في بادرة يأس أخيرة، دعا الإمبراطور مقاتلي جحافله لمساندته،

لكنهم لم يستجيبوا لندائه. كم شعر نيرون بالندم لأنه أمر قبل أشهر فقط بإعدام الرجل الوحيد الذي كان سيقود جحافله المخلصة لتهبّ إلى نجدته؛ من حقق النصر في أرمينيا، غانيوس كوربولو.

كانت تصله من خارج قصره الرائع، دوموس أوريا، أصوات الغوغاء وهم يصرخون مطالبين بموته. أخبر الإمبراطور خدمه عندما دخل غرفته في 9 حزيران سنة 68. «لا أريد أن يزعجني أحد». استلقى نيرون، الوحش، على سريره، وقد أصبح وجهه مظلماً بسبب المحنة وكان يتقلب ويتلوى في فراشه. حدّق في السقف ورأى مشاهد الخيانة وأعمال القتل المقرفة والإعدامات التي أمر بها. همست في أذنه أصوات هؤلاء القتلى. لقد دفن وجهه بيدين مرتجفتين، وبدأ يقضم أظافره وينتحب مفجوعاً. لقد بدا أن صلواته، والهبات التي منحها لحراسه الشخصيين، وقرابين البشر التي لا نهاية لها؛ أصبحت بلا جدوى ولا معنى لها الآن. ومع ذلك، حتى مع سماعه خطى جلاديه التي كانت تضرب بقوة سلالم القصر، كان نيرون ما يزال يجد الوقت لترتيب مشهد لنهاية مشؤومة. كان يرتدي الجلباب الفضفاض كما لو كان يؤدي آخر مشهد من مأساة يونانية، ثم أمر عبده الشخصي أن يناوله خنجره الذهبي. وبينما هرع أفراد الحرس الإمبراطوري، وقد استخرجوا السيوف من أغمادها، نحو غرفته، سُمِع يصرخ: «يا لعظمة الفنان الذي سيموت معي». ومع ذلك، لم يجرؤ المقتحمون لغرفته على لمسه، متأثرين بهيبة قربهم من الإمبراطور، وبدأ يتلوى ويئن من ألم جرحه. وفقط عندما لم يعد باستطاعته الوقوف، قاموا بإمساك يده الهامدة ونزعوا منها خواتمه، ونزعوا كذلك القلادة الذهبية والأساور من عنقه وذراعيه. هتف الحشد الذي في الخارج: «لقد مات الوغد. لقد تمّ إنقاذ روما». كان هؤلاء هم الأشخاص أنفسهم الذين فرحوا واستمتعوا بمنظره المهيب في الساحة، إنه حشد روما المتقلب في مواقفه. وهو الذي خلق صورة دائمة للإمبراطور الروماني المجنون، مما جعله يغرق في ملذاته. كان هناك قياصرة، وحكام جيدون، صنعوا الثروة

وجلبوا الازدهار لمواطنيهم. لكن لم يكن لأي منهم تلك السمعة السيئة التي تميّز بها نيرون.

بموت نيرون انتهت سلالة أوغسطين. لم يكن مفاجئاً أنه بعد التراجع الحاد في الأخلاق وسنوات من الانحراف والعربدة، التي رعتها شخصيات من أمثال ميسالينا وأغريبينا وكاليغولا ونيرون، انقلب الرجال المحبطون والساخطون ضد بعضهم البعض، واندلعت صراعات مريرة، وانقلب الرومان على بعضهم البعض وسط غضبهم الجريح. مع موت نيرون، اندلعت الحرب الأهلية بين كبار الجنرالات وصغار القادة (الليغات)، الذين تقاتلوا من أجل التاج مثلما تتقاتل الكلاب على العظام. شهدت سنة (69 م) أكبر حالة ارتباك، عندما ادعى ما لا يقل عن أربعة من القادة العسكريين في المقاطعات الرومانية الحق في أن يصبح كلّ واحد منهم الإمبراطور.

كان لكل من غالبا وأوثـو وفيتليوس وفيسبازيان، منذ البداية، مفهوم مختلف عن أفضل السبل للوصول إلى السلطة. كان سيرفيوس سولبيسيوس غالبا هو الأسرع في الشروع بالسباق نحو السلطة. لقد ارتقى بنفسه وحصل على رتبة فخمة في جيوشه الإسبانية واعترف به أفراد الحرس الإمبراطوري في روما. لكنه تعامل معهم بشكل سيئ لدرجة أنهم حوّلوا ولاءهم لماركوس سالفوس أوثو، الذي أخذ قرضاً كبيراً من أحد المصرفيين ليدفع لهم الأموال. دفع أوثو مبالغ إلى ضباط في الحرس الإمبراطوري ليقوموا بقتل غالبا أثناء نقله إلى المنتدى لتقديم القرابين إلى الإله جوبيتر. قام فابيوس فابولوس، وهو مقاتل بسيط، بقطع رأس غالبا وقدّمها لجنراله، ماركوس أوثو. بعدها هاج رجال أوثو وقتلوا جميع رجال غالبا. تمّت عملية القتل، ولبس أوثو الرداء الأرجواني. في غضون ذلك، طالب ضابط كبير آخر برتبة ليغات كان يمسك الحدود مع ألمانيا وهو أولوس فيتيليوس بحقه في عرش روما، وسار بجحافله نحو روما. التقى به الإمبراطور أوثو الجديد، الذي لم يمرّ على توليه العرش

إلّا ثلاثين يوماً فقط، في معركة بيدرياكم الأولى (في مدينة كريمونا، نيسان 69 م). انهزم جيش أوثو وقُبِض عليه وسُمِح له بقتل نفسه بيده. ثم قال قبل أن يسقط على سيفه: «يمكنني أن أموت بشرف أكثر مما لو كنت أحكم. وسأحقق بموتي السلام والإجماع وأنقذ إيطاليا من يوم آخر غير سعيد». وبانتصاره هذا أصبح أولوس فيتيليوس الإمبراطور الفعلي. ولكن - التاريخ ممتلئ بالاعتراضات - في حامية نهر الدانوب في منطقة بانونيا (المجر) كان هناك قائد (برتبة ليغات) آخر لم يعترف بأولوس فيتيليوس. كان اسمه أنطونيوس بريموس، لكن بما أنه كان رجلاً يعمل من وراء الكواليس، فقد دعا صديقه، القائد العام في الجيش ويدعى فيسبازيان، ليصبح إمبراطوراً. ونظراً لأن فيسبازيان كان لا يزال منشغلاً بحرب ضد اليهود في الشرق الأوسط، قاد أنطونيوس بريموس جحافله وتوجه بهم لمقاتلة مغتصب العرش فيتيليوس. في معركة بدرياكوم الثانية (تشرين الأول 69 م) تمكن أنطونيوس من هزيمة فيتيليوس، الذي تمكن من الهرب ولكن قُتل بعد ذلك بفترة وجيزة على أيدي حشد غاضب من أبناء الشوارع. وحيث لم يبقَ أحد في قائمة المرشحين، تمّ تنصيب الجنرال تيتوس فلافيوس فيسبازيانوس (فيسبازيان)، الذي تميّز حكمه بغزو بريتانيا ومقاطعة يهودا، إمبراطوراً من قبل مجلس الشيوخ في روما. كان أول عمل له هو حل أربعة جحافل كانت غير مخلصة له. وقام بإرسال جانيوس أغريكولا إلى بريتانيا لتوسيع حكم الرومان ليشمل اسكتلندا وويلز (77–84 م).

عندما نفد المال من فيسبازيان لدفع رواتب مقاتلي جحافله، فرض ضريبة على دورات المياه العامة.عاتبه تيتوس ابنه: «كيف يمكنك فعل ذلك يا أبي؟»

حمل الإمبراطور قطعة معدنية بيده وأجابه: «لأنها ليست لها رائحة»...

بعد وفاة الإمبراطور فيسبازيان المفاجئة (79 م)، أصبح ابنه تيتوس فلافيوس سابينوس فيسبازيانوس (تيتوس)، الذي كان قد تولى منصب

والده على رأس جحافل روما في الشرق الأوسط، هو الشخص المؤهل بشكل واضح ليتولى التاج الذي كان يرغب فيه. عاد إلى روما ونظم أتباعه موكباً احتفالياً، وكان الموكب الأكثر عظمة والذي لم تشهد له روما مثيلاً في أي وقت مضى. في الواقع كان لديه سبب وجيه للاحتفال، فقد كان هذا الرجل هو من فتح مدينة القدس المقدسة.

شهد القرن الأول من عصر الإمبراطورية الرومانية ظهور عشرة أباطرة، قتلوا جميعاً باستثناء اثنين. يبدو من غير المعقول أن هؤلاء الحكام المهووسين بالسلطة كانوا يعتقدون أن النجوم ستحمي صورتهم الإلهية، أو أن أعمالهم الوحشية مثل القتل العنيف لعائلاتهم يمكن أن ينقذهم. من الواضح أنهم لم يفهموا أبداً حتمية نهايتهم. بقتل أمله الوحيد في النجاة وهو الجنرال المخلص له، فإن نيرون كان قد ختم مصيره بيديه.

الفصل الخامس عشر

وسيقعون بفم السيف
8 أيلول 70 م

«... هٰذِهِ الَّتِي تَرَوْنَهَا، سَتَأْتِي أَيَّامٌ لاَ يُتْرَكُ فِيهَا حَجَرٌ عَلَى حَجَرٍ لاَ يُنْقَضُ. وَمَتَى رَأَيْتُمْ أُورُشَلِيمَ مُحَاطَةً بِجُيُوشٍ، فَحِينَئِذٍ اعْلَمُوا أَنَّهُ قَدِ اقْتَرَبَ خَرَابُهَا. وَالنَّاسُ يُغْشَى عَلَيْهِمْ مِنْ خَوْفٍ وَانْتِظَارِ مَا يَأْتِي عَلَى الْمَسْكُونَةِ وَيَقَعُونَ بِفَمِ السَّيْفِ، وَيُسْبَوْنَ إلى جَمِيعِ الأُمَمِ).

• *إنجيل لوقا (21، 6-24)*

لقد تمّ بالفعل تقرير مصير إسرائيل في عام 63 ق.م عندما سار بومبي الى يهودا ودخل القدس بعد حصار دام ثلاثة أشهر. وهكذا أصبحت يهودا مقاطعة رومانية وكان استقلال مملكة إسرائيل قد انتهى. في أعقاب استبدال بومبي للقضاة اليهود بالموظفين الرومان، ومحاولاته لفرض آلهته الوثنية باعتبارها صورة «الرب الواحد»، نشأت «الزيلوت» كطائفة تضمّ اليهود الذين جمعوا بين الاحترام الشديد للقانون اليهودي مع المعارضة المسلحة للحكم الروماني. لهذا لم يتورعوا عن استخدام السلاح. ظهرت طائفة الزيلوت أولاً في شكل منظم عندما قاوم أفرادها عملية تعداد سكان مدينة الجليل التي أمر بإجرائها سيرينيوس الحاكم

الروماني لسوريا عام (6 م)، فدعوا لإعلان عصيان مفتوح، مستعدين للتضحية بحياتهم من أجل الاستقلال عن السيطرة الرومانية.

كان هيرودوس الأول (62-4 ق.م)، رجلاً اعتقد الرومان أنه بإمكانهم الوثوق به وجعلوه يتولى حكم المقاطعة اليهودية. حاول هيرودوس تهدئة حماسة المتعصبين الدينيين من خلال إعادة الهيكل الثاني[1] الذي شيّد عام 520 ق.م إلى روعته السابقة، ولكن بخلاف ذلك فإن الشيء الوحيد الذي صنعه هو القسوة الشديدة التي نمّت لدى الناس مشاعر الكراهية لنظامه. لم يكن ملكاً، بل الطاغية الأكثر قسوة بين جميع من تسلقوا العرش على الإطلاق. فقد قتل عدداً كبيراً من الناس، وعاش الكثير ممن تركهم أحياءً حياة بائسة لدرجة أن الموتى قد يحسبون أنفسهم محظوظين قياساً بهم[2]. «لقد حكم لمدة ستة وثلاثين عاماً، وأصبح عهده مشهوراً بحقيقة أنه لا يمرّ يوم واحد دون أن يقوم بالحكم على شخص ما بالموت، بما في ذلك زوجته ماريان (والذي أطلق اسمها على أحد الأبراج في قصره)، وأبناؤه الإسكندر وأريستوبولوس وأنتيباتر. ترك الملك، «الذي حكم كوحش برّي»، واحدة فقط من أقاربه على قيد الحياة، وهي فتاة تبلغ من العمر تسعة عشر عاماً، هي ابنته سالومي الجميلة، التي رقصت طبقاً لما جاء في الكتاب المقدس أمام ابنه هيرودوس أنتيباس طلباً لرأس يوحنا المعمدان. قد يكون أكثر فعل سيئ قام به هو قتله جميع الصبيان الأبرياء من سكان مدينة بيت لحم كما يذكر إنجيل متى، الجزء 2، السطر 17.

تمّ تجاوز كراهية الشعب لعائلة هيرودوس المستبدة[3] من قبل كراهية أقوى لقوات الاحتلال في إسرائيل، والتي كان يمثلها بيلاطس البنطي الحاكم الروماني الفاسد للغاية، الذي كان يمتلك بمفرده

1- هو هيكل يهودي أقيم على أنقاض هيكل سليمان بعد السبي البابلي. المترجم.

2- عن المؤرخ يوسيفوس فلافيوس.

3- بعد وفاة هيرودوس الكبير خلفه ابنه هيرودوس أنتيباس، ملك الجليل (4 ق.م- 30 م)، وجاء بعده هيرودوس أغريباس الثاني، ملك يهودا (14-37 م).

صلاحية إصدار الحكم بالإعدام. عندما تمّ اقتياد يسوع، أو خريستو (وهي كلمة يونانية تعني «الممسوح بالزيت»، وهي ترجمة للكلمة العبرية «المسيح»)، الذي أعلن بشارته (معناها بالإغريقية: «إعلان أخبار سارة»)، أمام الحاكم بيلاطس البنطي، أعلن الأخير: «إني لا أجد علة في هذا الإنسان» (إنجيل لوقا، 23، 4). في الواقع، لم يكن الرومان مهتمين بشكل كبير بالخلافات الدينية بين اليهود. لكن من كان يحرض جماعة الفريسيين، هو كاهنهم الكبير، قيافا، والذي كان يخشى كثيراً على منصبه الرفيع وما تمثله الانتفاضة الدينية من تحدٍّ له لذلك لم يقفوا معه». قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إلى الآبِ إِلّا بِي» (إنجيل يوحنا 14، 6). وقد استشهد بقوله هذا كمثال على الكفر، وبدأ قيافا واليهود يطلقون على يسوع الجليل لقب المسيح الكاذب، وأنه على استعداد لاغتصاب تاج قيصر، وبالتالي طالبوا بقتله. «وَلكِنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَصْرُخُونَ قَائِلِينَ: «إِنْ أَطْلَقْتَ هذَا فَلَسْتَ مُحِبّاً لِقَيْصَرَ. كُلُّ مَنْ يَجْعَلُ نَفْسَهُ مَلِكاً يُقَاوِمُ قَيْصَرَ» (إنجيل يوحنا 19، 12). كان بيلاطس البنطي يعرف أن خيانة إمبراطوره الروماني كانت عقوبتها الإعدام، وما لم يتصرف سريعاً فإن حياته في خطر. «فَلَمَّا سَمِعَ بِيلاَطُسُ هذَا الْقَوْلَ أَخْرَجَ يَسُوعَ، وَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ الْوِلاَيَةِ فِي مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ «الْبَلاَطُ» وَبِالْعِبْرَانِيَّةِ «جَبَّاثَا»... فَحِينَئِذٍ أَسْلَمَهُ إِلَيْهِمْ لِيُصْلَبَ» (إنجيل يوحنا 19، 13-316) «وَكَانَتِ السَّاعَةُ الثَّالِثَةُ فَصَلَبُوهُ» (إنجيل مرقس 15، 25)[4].

على الرغم من أن تاريخ صلب يسوع غير مؤكد، فإنه لا يمكن إنكار أنه في العصور الرومانية، كان يُعتبر الصلب عقاباً للجناة الذين ارتكبوا جرائم ضد الدولة الرومانية. وكان الإعدام الجماعي للعبيد أثناء ثورة سبارتاكوس أكبر مثال على ذلك.

4- راجع: J. Landay, Silent Cities, Sacred Stones, New York, 1971.

في صيف عام 1968، بينما كانت أعمال البناء جارية في تل يُعرف باسم جفعات هاميفتار، فتحت إحدى الجرافات دون قصد موقعاً قديماً للدفن يحتوي على العديد من الرفات البشرية. كان يعتقد أن أحد الهياكل العظمية، تعود ليوهان بن هاغلغول، وكانت جمجمته مهشمة. لكن قد يتخيل المرء الصدمة الأولية لمشغل الجرافة عندما وجد أن أقدام الضحية مقطوعة عن الجسم حيث تمّ تثبيت مسامير فيها وكانت لا تزال مثبتة على أجزاء من ألواح خشبية. عندما تمّ إبلاغ السلطات الإسرائيلية بما تمّ الكشف عنه، أدركت عواقب ذلك وما قد يثيره هذا الأمر من جدل، فأرسلت خبيرين مستقلين بارزين هما، عالم الآثار فاسيليوس تزافيريس وخبير علم الأمراض نيكو هاس، لفحص الرفات. اكتشفوا علامات مماثلة لعمليات اختراق جرت بواسطة المسامير، لم تخترق باطن اليد ولكن دقت على سواعد الرجل، بالقرب من الرسغين. وخلصوا إلى أن وزن الجسم كان من شأنه أن يتسبب في تمزق الأنسجة لو تمّ دفع المسامير إلى باطن اليد. ووجدوا إصابة أخرى شنيعة يتعذر تفسيرها: فقد وجدوا عظام الساق الأكبر للضحية مهشمة. وخلص العلماء إلى أن هذا ربما لم يكن تعذيباً إضافياً، لكنه بمثابة إطلاق رصاصة الرحمة، وكان يهدف إلى إحداث صدمة لإنهاء حياة المصلوب بسرعة أكبر[5]. وأثار احتمال وجود طريقة «لتسريع الموت» سلسلة من المناقشات الساخنة والتهم المضادة من قبل الكنيسة عن الطريقة التي تمّ فيها صلب المسيح.

خلال عهد الإمبراطور كلوديوس (41-54 م) اندلعت المزيد من المشاكل الدينية. لقد كانت حقيقة مؤسفة للعديد من الأجيال القادمة من اليهود أن المتعصبين سعوا لتصدير ثورتهم إلى كل ركن من أركان الإمبراطورية الرومانية. لو كانت الثورة قد توقفت عند الكلمات

5- يمكن تفسير هذه الظاهرة بسبب المستوى العالي للأملاح في البحر الميت، والتي تجعل جسم الإنسان يطفو، والتفسير الأكثر منطقية هو أن تيتوس أراد الإبقاء على قائد اليهود ليستعرض به في شوارع روما.

الخطابية، ربما كان بإمكان الإمبراطور أن يغضّ الطرف عنها. ولكن بمجرد أن وصلت إلى روما نفسها، كان لا بد من القيام بشيء ما. لم يكن بالإمكان التسامح مع المعارضين الذين كانوا يجتذبون الانتباه، وقد أخرج الإمبراطور كلوديوس اليهود من روما. هرب الناجون من هذه المذبحة الأولى إلى إسرائيل، وانتشرت المشكلة بسرعة في جميع أنحاء الجليل، حيث طالب المتعصبون الحمقى بإزالة كل شيء روماني من وطنهم. اشتعلت شرارة الاحتجاجات في أيار عام 66 م.

كان السبب الذي مهّد لذلك بسيطاً، لكن النتيجة لم تكن كذلك. والقضية تتعلق بواحد من العديد من الحكام الرومانيين غير الكفوئين، ويدعى فلوروس، والذي لم يكن أفضل من الحاكم الفاسد بيلاطس البوني، حيث طالب بأن تدفع له سبع عشرة قطعة طالين (وحدة وزن أو نقد قديمة) من خزانة الهيكل اليهودي. قوبل طلبه بالرفض. أرسل فلوروس عشرات الجنود الرومان لجمع الضريبة بالقوة. وبذلك ارتكبوا جريمة لا تغتفر وهي اقتحام معبد اليهود الأكثر قداسة، وبالتالي أثاروا غضباً عارماً بين اليهود، تبعه تمرد اندلع بسرعة في جميع أنحاء مقاطعة يهودا. انتشر الإرهاب في المدن بقيادة المتعصبين الزيلوت. واندلعت أعمال شغب عنيفة في مدينتي قيسارية والقدس، حيث قُتل الكثير من أنصار روما. شنّ اليهود وبدهاء ومهارة -كان سادتهم الرومان يذكرون دائماً أنهم لا يمتلكونها- حرب عصابات ببراعة لافتة للنظر. ومن خلال سلسلة من عمليات الكرّ والفرّ، أحرقوا الفيلات الرومانية ونصبوا كمائن للدوريات الرومانية. وبتشجيع من نجاحاتهم الأولى هذه، توافد المزيد من اليهود للانضمام إلى صفوف الزيلوت المتعصبين. في تشرين الأول سنة 66 م، حلّت كارثة كبيرة بالحامية الرومانية في حي بيزيتا في القدس، عندما تمّ اجتياح معسكرها وقتل معظم سكانه الستة آلاف. قبل أن يُسمح بانتشار التمرد المناهض للرومان في جميع أنحاء آسيا الصغرى، تمّ تنظيم حملة استطلاعية رومانية كبرى من سوريا لقمع الانتفاضة اليهودية. كان

الرجل المسؤول عن إخماد التمرد هو الحاكم الروماني لسوريا، نائب القنصل سيستيوس غالوس، الذي هرع مع فيلق واحد بالإضافة إلى عدد من القوات المساندة لإنقاذ الحاكم الروماني، المحاصر داخل القدس. في الوقت الذي كانت فيه قواته أمام القدس، كانت المدينة قد سقطت بيد تحالف غير مستقر بين المعتدلين اليهود والمتعصبين الزيلوت. ومن هنا بدأت «الحرب اليهودية» (66-73 م).

تمّ تعيين جوزيف بن ماتياس، الفيلسوف والمؤرخ العبري، المعروف باسمه الروماني باسم فلافيوس جوزيفوس (وقد أكرمه الإمبراطور فيسبازيان، بأن جعله فيما بعد مواطناً رومانياً)، قائداً عاماً لقوات المقاومة اليهودية في الجليل. وأسس دفاعاته حول بلدة يوتاباتا.

ناشد الأثرياء الرومان في جميع أنحاء الشرق الأوسط إمبراطورهم، خوفاً من انتشار الثورة في جميع أنحاء المنطقة، طالبين منه إرسال قائد كفء. لم يبدِ الإمبراطور نيرون قلقاً كبيراً بشأن الأحداث في مقاطعاته البعيدة في آسيا الصغرى، ومع ذلك استقطع وقتاً كافياً من طقوس عربداته لتعيين جنرالٍ كفوءٍ مثل فيسبازيان «لإحلال النظام في آسيا الصغرى». تصرف فيسبازيان بأقصى سرعة وأعلى همة. أصبحت المنطقة التي بشّر يسوع قبل بضع سنوات فقط بأن السلام سيحل فيها بين جميع البشر، المشهد الافتتاحي لأنشطة واسعة من أعمال القتل (تشرين الأول 67 م). كان يحكم بالإعدام أي يهودي يتمّ إلقاء القبض عليه لقيامه بسلوك غير عادي، حتى لو كان قد اختلس نظرة إلى مقاتل روماني، دون منحه فرصة للدفاع عن نفسه. بحلول شهر كانون الأول من ذلك العام، كانت دفاعات يوتاباتا، التي صمدت لمدة سبعة وأربعين يوماً، قد سقطت على يد قوات فيسبازيان البالغ عددها ستين ألفاً وتمّ أسر فلايفوس جوزيفوس. لقد كان أحد اليهود القلائل الذين نجوا من الصلب، وبالتالي كان بإمكانه أن يترك للتاريخ سرداً للأحداث في عمله الضخم «حرب اليهود». ربما تمّ إنقاذ حياته بسبب ظروف غريبة. فقد أمر تيتوس الجنرال في الجيش، وابن فيسبازيان والشخص الثاني في القيادة،

برمي عدد من الأسرى من جبل موآب إلى البحر الميت. ولكن وبشكل لا يصدقه العقل، كان أغلب من تمّ إلقاؤهم من المنحدرات إلى الماء، قد انجرفوا عائدين نحو الشاطئ. أدهش هذا القائد الروماني، الذي آمن أن ذلك من عمل الشيطان اليهودي، لذلك أوقف إعدام بقية أسرى الحرب[6].

كانت الأخبار القادمة من روما مثيرة للقلق. مع وفاة نيرون وحيث كانت بوادر اندلاع حرب أهلية وحشية تلوح في الأفق، رفع الجنود فيسبازيان على أكتافهم وهم يهتفون بقوة: «عاش القيصر». غادر فيسبازيان إلى الإسكندرية لتنظيم حملة غزو إيطاليا، وترك ابنه تيتوس، الشاب الماهر للغاية، لمعالجة مشكلة مقاطعة يهودا، وسكانها اليهود - والقدس.

كان تيتوس رجلاً طويل القامة ممتلئ الجسم يتصرف مثل شخص صارم وذي عزم، وصرامته جاءت من كونه شخصاً عاش إلى جانب والده وأمضى حياته في ساحات القتال. كان مظهره الخارجي رقيقاً بشكل مخادع، ولكن عندما يعطي الأوامر فإنه يفعل ذلك بصرامة المقاتل المحترف. كانت روما مليئة بالقصص الرومانسية عن مآثره الناجحة. وكان قد اكتسب سمعة تميزه بقسوة شديدة والتي خلقت حتى لوالده بعض الصعوبات. كانت مهمته الحالية هي استعادة السلطة الرومانية في مقاطعتي إسرائيل ويهودا.

في ربيع عام 70 م، ظهر تيتوس أمام أسوار القدس وهو يقود قوة مؤلفة من 80 ألفاً من الرجال مع 340 منجنيقاً، وبعبارة أخرى كان الأمر أشبه بمطرقة ثقيلة معدّة لسحق ذبابة. صادف حينها أحد الأوقات المقدسة من السنة. فقد تجمهر الآلاف من المؤمنين للاحتفال بعيد الفصح عند اليهود وكانت المدينة مزدحمة بما يتجاوز سعتها بالحجاج من جميع أنحاء الشرق الأوسط. طوّق رجال تيتوس المدينة وعزلوها عن الريف المحيط

6- يمكن تفسير هذه الظاهرة بسبب المستوى العالي للأملاح في البحر الميت، والتي تجعل جسم الإنسان يطفو، والتفسير الأكثر منطقية هو أن تيتوس أراد الإبقاء على قائد اليهود ليستعرض به في شوارع روما.

بها. تمّ الرد على دعوته لاستسلام المدينة بتوجيه الإهانات لشخص والده المهيب. شرعت المقاليع والمنجنيقات في عملها، وبدأت ترمي الأحجار الضخمة باتجاه التحصينات. بدأت مطارق المنجنيقات تدكّ الأسس، في حين كانت فصائل المتعصبين داخل المدينة المحاصرة قد دخلت في قتال مع فصائل المعتدلين للسيطرة عليها. وفقط عندما بدأت تظهر في الجدران فجوات صنعتها الأحجار المتساقطة، توقفوا عن القتال فيما بينهم. اتفق قائدا الفصيلين المتنافسين، سايمون بار غيورا زعيم المعتدلين وجون غيشالا زعيم المتعصبين، على تعليق مؤقت لمشاكلهم الداخلية -حتى تتم مواجهة العدو- وأقاموا قيادة مشتركة للدفاع عن الأسوار.. وفي ظل تضخم عدد سكان المدينة بسبب توافد الحجاج من العديد من قبائل المحاربين في إسرائيل، أصبح بإمكان الزعيمين الاعتماد على رجال أكثر من العدد الكافي من المدافعين عن الجدران والأبراج. وتركوا البقية في يد الرب، الذين، واظب كهنتهم على طمأنتهم، أن الرب لن يتخلى عن أبنائه وعما هو أكثر قداسة لديه الخيمة[7] في المعبد.

في بداية شهر أيار من عام 70 م، حاصرت أربعة جحافل البلدة من جميع الجهات وبدأت هجومها. تحركت موجة بشرية من مقاتلي الفيلق الخامس والعاشر والثاني عشر والخامس عشر نحو الأسوار. وشقوا طريقهم من فوق التلال المليئة بالصخور وبدؤوا بإصدار صرخات مسعورة عند اقترابهم من الأسوار العالية. وتوقف البعض للاحتماء من وابل الحجارة التي كانت تتساقط عليهم مثل المطر بينما كان يصرخ ضباطهم بهم ليواصلوا المسير. كلما اقتربوا من الجدار، كانوا يعانون أكثر من الصخور المتساقطة وأنواع أخرى من السهام وقذائف المنجنيق، وأثبت نوع واحد من الدفاعات كفاءة خاصة؛ نظراً لأن اليهود كانوا بحاجة إلى إمدادات المياه المتناقصة الخاصة بهم لأغراض الشرب، ولا يمكنهم

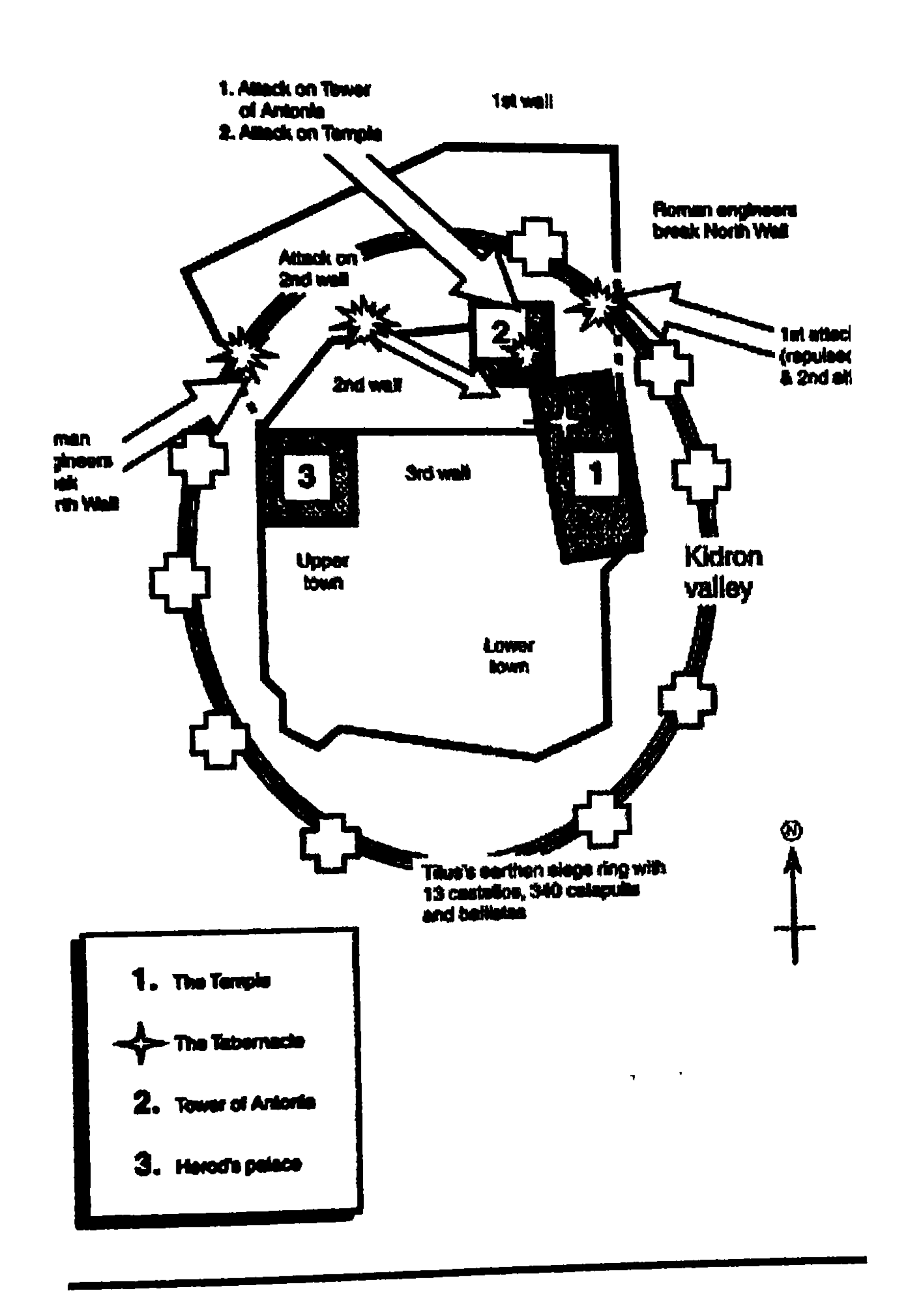
7- هو المسكن الأرضي المحمول للرب الذي استخدمه بنو إسرائيل من الخروج حتى غزو كنعان. المترجم.

إهدارها عن طريق غليها ليتمّ صبّها على المهاجمين، فقد توصلوا إلى حلٍّ مبتكر: استخدام الرمال، وكان لديهم الكثير منها. كانوا يقومون بتسخينها في غلايات برونزية ثم يصبون ما يتصفى منها على المهاجمين لحرقهم، فتلتصق بجلودهم وتشوي عدداً كبيراً منهم مثل شوي الدجاج في الفرن.

لم تتوّج المحاولات الرومانية الأولى لعبور الأسوار بالنجاح، وفي إحدى المرات تمّ بناء أبراج لحصار المدينة بلغ طولها 120 قدماً من الأخشاب الصلبة، ومغطاة بجلود الحمير الرطبة للتغلب على تأثير السهام المشتعلة وتمّ دفعها لتصبح داخل نطاق الرماح للحفاظ على رؤوس المدافعين في الأسفل، وحتى تتمكن الجحافل من وضع المدكات الحديدية في موضعها. لكن مشاكلهم استمرت؛ قام المدافعون بقطع الحبال الموجودة في بندول المدكات بمناجل مربوطة بأعمدة طويلة. بدا أن عملية الحصار تتجه للدخول في مأزق، خاصة وأن اليهود تمكنوا من إمداد المدينة بالمواد الغذائية المهربة من خلال الثغرات الموجودة بين مختلف معسكرات الرومان. بدأ الرومان يتساءلون: ما نوع هؤلاء الجنود الذين استطاعوا القتال بضراوة شديدة على الرغم من الصعوبات الهائلة التي تواجههم؟

أصدر تيتوس أوامره في محاولة لإنقاذ أكبر قدر ممكن من أجزاء المدينة -ليس بسبب الاعتبارات الإنسانية ولكن لغرض نهبها، علاوة على الحفاظ على جدرانها سليمة لاستخدامها كحصن روماني- بتنظيم استعراض عسكري مثير للإعجاب وبحجم لم يسبق أن حدث له مثيل خارج روما. كان القصد من تنظيم هذا العرض الضخم هو استخدامه كسلاح في الحرب النفسية، لتخويف اليهود وجعلهم يعلنون الاستسلام. لمدة أربعة أيام طويلة، استمرت وحدة تلو الأخرى من القوات الرومانية -وقد تمّ طلاء دروعها بشكل قارب حدّ الكمال ونسور فياقلها (التي تمثل شعارها) مرتفعة إلى الأعلى- تمرّ من أمام تيتوس وهي تستعرض قوتها أمام الجدار الشمالي للقدس. لكن تيتوس شعر بخيبة أمل؛ فقد فشل استعراض القوة العسكرية لروما فشلاً ذريعاً في تحقيق التأثير المنشود.

Jerusalem
8 September AD 70



شعر اليهود المتواجدون في شرفات الأسوار والمجهزون جيداً بالمؤن، أن بإمكانهم الصمود لأشهر، دون أن يأخذوا في الحسبان تواجد الآلاف من الحجاج الذي زاد من عدد الأفراد المتواجدين في المدينة وبالتالي زاد من استهلاك المؤن الغذائية.

قبل هبوب العاصفة الهوجاء، غالباً ما تأتي فترة تكون فيها السماء صافية تماماً. كان يوم السبت المقدس، وكان معظم السكان اليهود، الذين لم يحرسوا الأسوار، يذهبون إلى المعابد لسماع كلمة الرب. قام المتشددون بتعبئة الحشود بشعارات التحدي. وعلى الرغم من أن المعتدلين اليهود حاولوا أن يجعلوا أبناء جلدتهم يصغون إلى صوت العقل، واقترحوا أن يصلوا إلى تسوية مع روما، والتي كانت لا تزال ممكنة، فقد أخرس المتطرفون أصواتهم التصالحية، وأثاروا مشاعر الجماهير لكي تتبعهم نحو المأساة والكوارث؛ كما هو حال المتطرفين في جميع المواقف والأزمان.

ارتكب أفراد من عامة الناس وقد استولى عليهم الحماس خطيئة لا تُغتفر، كلفتهم غالياً. اصطف الآلاف من اليهود المتحمسين عند الأسوار وسطوح المباني ليتفوهوا بأعلى أصواتهم بعبارات مهينة ويسخرون من درع الرومان المصقول، واصفينه بأنه «مثل ثوب امرأة جميل، ولكن تنقصها الشجاعة». ولكي يثيروا سخط تيتوس ومقاتليه، بدؤوا يبصقون على الرومان الذين يسيرون في الموكب الاستعراضي ويرمون عليهم النفايات. وهكذا فإن رجال الفيلق العاشر بقيادة فرينتيسيان، وهم من قدامى المحاربين الأشداء من صقلية الذين نالهم الشرف في ذلك اليوم، ليسيروا في الموكب قد تحملوا لبعض الوقت تلك الإهانة، ولكن بعد ذلك جاء قائدهم يحمل نسر الفيلق. وبينما كانت المجموعة الحاملة للعلم تمرّ بالقرب من جزء من الأسوار، كان يصطف عنده مجموعة من المتعصبين المتشددين، وقاموا بقذف شارة الفيلق بنفايات قذرة. لقد تحقق ما كان يقصده المتعصبون، لكن النتيجة النهائية لم تكن مثلما

كانوا يتمنون. كان الرومان قد قبلوا صاغرين بكل الإهانات التي وجهت لهم خلال فترات مسير موكبهم السابقة، لكن هذه كانت إهانة لم يكن من الممكن أن يغفرها لا المقاتلون ولا قيصرهم، تيتوس[8]. وجد تيتوس نفسه فاغراً فمه ثم أطبق بعدها شفتيه. وأقسم حينها بالإله جوبيتر! كانت فكرة وحيدة واضحة لديه؛ وكانت باقي الأفكار مشوشة بسبب الغضب الذي اعتمل في صدره وإدراكه لوجود الآلاف ممن كانوا شهوداً على هذا العار. وأثارت الإهانة حنق تيتوس ومقاتلي جحافله بحيث أوصلتهم إلى حدود الهيجان، مما زرع لديهم الرغبة في قتل كل فرد يهودي. شعر جميع أفراد الفيلق بالغضب الشخصي، وهذا أعطى نكهة جديدة تماماً لما كان من قبل مجرد عملية حصار روتينية. أدى هذا الحدث، الذي كان مؤسفاً بكل الأحوال، إلى واحدة من نقاط التحول المثيرة في التاريخ.

قام تيتوس على الفور بإلغاء العرض العسكري وبدأ يعدّ بدلاً من ذلك لشنّ هجوم على اليهود. كان بحاجة لخرق الأسوار المحيطة بالقطاع الشمالي. باشر مهندسو الفيالق بالعمل؛ خلال أسابيع من العمل الشاق، تمكنوا من تقويض أسس الأسوار من خلال حفر عدد من الأنفاق التي قاموا بتدعيمها بالخشب. بمجرد أن أشعلوا النيران في الدعامات الخشبية، أدى هذا إلى خلق فسحة تحت أسس الجدران، وأدى ثقل المبنى إلى انهيار جزء من الجدار الشمالي. قام الجنود بإدارة آلات المدكات (الكبش) وإرسال حمم الموت من أبراج الحصار بينما كانت 350 من منجنيقاتهم تقوم برمي كتل من الحجارة الثقيلة على المدينة التي لا حول لها ولا قوة. حمل مقاتلو الفيالق رماحهم واستعدوا للهجوم. وبعد محاولات عدة استغرقت وقتاً طويلاً وباءت جميعها بالفشل لم يستطع الرومان تسلق الجدران. أظهر اليهود عناداً كبيراً، وأطلقوا وابلاً من السهام من أعلى شرفات أسوارهم نحو الرومان. كان مقاتلو جحافل الرومان يتساقطون إما موتى أو مصابين بجروح شديدة، دون حتى أن

8- تشير كلمة قيصر إلى رتبته وتعني أنه يحتل المنصب الثاني بعد أغسطس أي الإمبراطور.

يكون بإمكانهم رؤية من يقتلهم. أصبح المنحدر الحاد المؤدي صعوداً إلى الأسوار ممتلئاً بجثثهم. مع تصاعد الضغط، شنّ اليهود غارة مفاجئة. وأخذوا الرومان على حين غفلة وقام المهاجمون بحرق عدد من الأبراج والحصون، لكنهم لم يستطيعوا فعل الكثير حيال الأنفاق التي تحت الجدران. أدى التدخل السريع من قبل أحد الأفواج الرومانية إلى تطويق الأطراف المهاجمة قبل أن تتمكن من العودة بسلام إلى ما وراء الأسوار. صُلِب أولئك الذين تمّ القبض عليهم دون محاكمة.

واصل اليهود دفاعهم بشكل جيد وسدّوا الثغرات. ولكن جاءت لحظة، كما يحدث في كثير من الأحيان في حالات الحصار، عندما يصيب التعب والإرهاق المدافعين ويستسلمون للنوم. كان هناك جزء من الجدار الشمالي غير خاضع للحراسة، فشقت مجموعة من مقاتلي الجحافل طريقها عبر الجدار المهدم جزئياً في الجزء الشمالي من المدينة. اندفعت المزيد من مجموعات أخرى من مقاتلي الفيلق العاشر، بمساعدة مجموعات من الفيلق الثاني عشر، وعبرت من خلال الثغرة بشكل غير منظم، وانتشرت في الدهاليز الضيقة للممرات التي خلفها. تسبّبت سلسلة من أعمال القتل التي قاموا بها في إثارة حالة من الذعر وانحشر الهاربون في الجزء العلوي من المدينة بأعداد تفوق سعته، وكان يحميه الجدار الذي يؤدي من قصر هيرودوس إلى الهيكل. ما جرى جعل الوضع ميؤوساً منه بالنسبة للمدافعين الذين كانوا لا يزالون في القطاع الشمالي. ولكن تمّ إغلاق البوابات التي أمامهم، والتي تؤدي بهم من خلال الجدار الثاني، وتمّ إلقاء القبض على جميع الذين كانوا خارج الجدار الثاني وقام الرومان بتجميعهم وقتلهم. ارتفع النواح من شرفات الحصون حيث كان المقاتلون اليهود ينظرون إلى الأسفل ليشهدوا النهاية الشنيعة لرفاقهم. حينها تمّ تقليص أعداد المتعصبين في القدس إلى حدّ كبير وتمركزوا داخل السور الأوسط أو سور المعبد، وفي الأسوار الجنوبية. تمّ جلب معدات الحصار الضخمة لتكون قريبة من الجدران

وأطلقت أطناناً من الكتل الحجرية على المدينة، مما أسفر عن مقتل أعداد كبيرة من المتواجدين فيها.

تمّ على الفور تلمس دلائل فقدان القسم الشمالي، حين نُهِب جميع متاجر المدافعين الغذائية الثمينة. اقتربت المجاعة بخطوات سريعة. تسبب الطعام الفاسد والهواء الملوث بسبب انتشار العديد من الجثث المتعفنة بانتشار الأوبئة، التي حصدت من أرواح المدافعين أعداداً أكبر من تلك التي حصدتها الكرات الحجرية التي كانت ترميها منجنيقات الرومان. أمر تيتوس بعد ذلك ببناء السور المراوغ (circumvallation)، وهو جدار مأهول بالجنود ليل نهار، والذي أثبت نجاحه الكبير عندما استخدمه يوليوس قيصر العظيم في معركة أليسيا. هدم الرومان عدداً كبيراً من المنازل وبنوا من أنقاضها ستاراً ترابياً يحيط بالمدينة تماماً ويقطع عنها وصول كل المساعدات المحتملة. تمّ حينها الحكم على سكان مدينة القدس بالموت البطيء بسبب الجوع. دفعت الأخبار عن وصول وشيك لقوة إغاثة من بعض القبائل الجبلية إلى أن يبذل اليهود جهودهم الأخيرة، كان كل رجل يقاتل كما لو كان مصير القدس يعتمد عليه وحده. ولكن عندما فشلت هذه القوة في الظهور وتحول الأمر إلى مجرد شائعة انتشرت بسبب اليأس، انهارت آمال الناس وتلاشى حماسهم لمزيد من القتال.

بعد أن أصبح الوضع ميؤوساً منه بالنسبة لليهود، ولم تصلهم مساعدة من الخارج أو من إله المتعصبين، حاول تيتوس لآخر مرة التفاوض معهم لإقناعهم. خلال معركة يوتاباتا، أسرت جحافله فلافيوس جوزيفوس، الزعيم اليهودي لمنطقة الجليل. لم يكن تيتوس يؤمن بالخرافات حول عودة أجساد اليهود إلى الشاطئ فحسب، وهو الأمر الذي أدى إلى إنقاذ حياة الباقين، بل إنه أبقى فلافيوس جوزيفوس أيضاً على قيد الحياة حتى يمكن استخدامه كبيدق للتفاوض على استسلام اليهود. قام أولاً بجولة في أرجاء المدينة (castellos)[9]، والتي أثبتت أن لا جدوى لمزيد من

9- باللاتينية في الأصل. المترجم.

المقاومة. كانت جولته مدعومة، من أجل سلامته، بقصف متواصل من آلة العقرب (scorpionis)[10] وهي آله تشبه المدفع تتميز بسرعة إطلاقها للقذائف، بعدها قام تيتوس بإرسال فلافيوس جوزيفوس كمبعوث منه إلى المقاتلين اليهود عند أسوار المدينة، مخاطباً إياهم: «أوه، أيها الرجال القساة، تخلصوا من أسلحتكم وأشفقوا على بلدكم الذي يقف على حافة الهاوية!»[11]. توسل إليهم، وأشار إلى مدى حراجة موقفهم، لكنهم لم يستمعوا إلى مستشاره الحكيم.

كان برج أنطونيا يقع بجوار مبنى المعبد، وكان موقعاً محصناً يسيطر عليه أنصار قائد المتعصبين جون جيسكالا. كان يطل من الأعلى على منطقة معزولة من الهيكل المقدس، والتي تشكل مفتاح الدخول إلى مجمع الهيكل. تحت الأسطح الخشبية الواقية، كان الرومان ينقلون آلاتهم من الكباش الثقيلة بسرعة ليتمكنوا من قصف الجدار الأوسط. استمر القصف ليلاً ونهاراً، وفي نهاية المطاف بدأت تظهر الشقوق في الجدار. كانت القذائف تسقط على المدينة المزدحمة من معدات الحصار الرومانية بشكل مستمر مثل المطر، في وقت كانت المجاعة والأوبئة قد فتكت بالآلاف من الحجاج والمحاربين.

أدى القصف المستمر للمنجنيقات والاهتزاز الناجم عن تأثير قذائفها إلى تبلد مشاعر وأحاسيس من طالهم القصف. لقد سبق وقُصِفت مدينة القدس المقدسة في العصر الحجري. لكن العمل العسكري لم يكن يشكّل شيئاً مقارنة بمعاناة السكان؛ فقد كان يموت الآلاف جوعاً في كل يوم. مما جعل البعض يقتل أشخاصاً آخرين ليتناولوا لحمهم. كانت حرارة منتصف الصيف قد جففت ما تبقى من إمدادات المياه وشرب الناس بولهم، مما أدى إلى حدوث تقلصات مؤلمة لديهم، ومن ثم الموت. لقد كان الجوع أسوأ ما عانوا منه.

10- باللاتينية في الأصل. المترجم.

11- راجع: W. Keller, The Bible as History, London, 1965.

كانت المجاعة الرهيبة التي زادت من الفزع اليومي قد أهلكت أسراً بأكملها. كانت المدرجات مليئة بالنساء والأطفال الذين انهاروا من الجوع، تكدست في الأزقة جثثٌ لكبار السن. وكان الأطفال والشباب، الذين تورمت أجسادهم بسبب نقص الغذاء، يدورون حول أنفسهم مثل الأشباح حتى يسقطوا موتى. لقد كانوا متعبين للغاية لدرجة أنهم لم يعد بإمكانهم دفن أي شخص، وإذا فعلوا فإنهم يسقطون ميتين فوق الجثث التي كانوا يدفنونها. كان البؤس لا يوصف. لأنه بمجرد ظهور ظل أي شيء يمكن أكله في أي مكان، يبدأ التقاتل حوله، وكان أفضل الأصدقاء يمزّقون بعضهم البعض من أجل أتفه الأشياء. لا أحد كان يصدق أن من كان يحتضر لا يملك أشياء مفيدة. كان اللصوص ينقضّون على أولئك الذين كانوا في أنفاسهم الأخيرة ويفتشون ملابسهم. كان جوعهم لا يطاق لدرجة أنهم أجبروا على مضغ أي شيء وابتلاع كل شيء. لقد وضعوا أيديهم على أشياء تتعفف أحقر الحيوانات عن لمسها، دع عنك أكلها.

يصرخ فلافيوس جوزيفوس برعب في السطر الأخير من روايته: «ولكن هل يجب أن أصف العار والإهانة التي تسببت بها المجاعة للرجال، وجعلتهم يأكلون مثل هذه الأشياء غير الطبيعية؟»[12].

ذكر جوزيفوس، الذي استند في وصفه للأحداث المأساوية على تجارب شهود العيان الذين قابلهم، وكتبه بعد خمس سنوات فقط من وقوع الحدث (75-79 م)، أن مجموعة من المتعصبين المتواجدين في الجدار الأوسط كانوا ضعيفين للغاية بسبب الجوع بحيث لم يعد بمقدورهم رفع الأحجار الثقيلة ليقذفو بها أعداءهم. كانوا يبحثون عن الطعام عندما اشتموا فجأة رائحة لحم مشوي، اقتحموا منزل عائلة بيت عزوب الثرية ووجدوا الزوجين العجوزين متمددين على الأرض ميتين.

12- فلافيوس جوزيفوس، كتاب حرب اليهود.

لكن ابنتهما ماريا كانت ما تزال على قيد الحياة، حيث كانت متكوّرة في إحدى زاويا المنزل، وهي جامدة ومرعوبة. عندما هددوا الفتاة، سلمتهم اللحم المشوي. كانت جثة طفل قد أكلت نصفها؛ لقد كان طفلها.

داخل المدينة، بدت الأرض ذاتها مسمومة ومتعفنة بسبب رائحة الموت والمرض والبراز. امتلأت الممرات الضيقة بالرائحة النتنة للبشر المزدحمين بينما كان الهواء يعجّ بصدى عويل الآلام. وكانت تأتي الأخبار الكئيبة على شكل أسراب من النسور تحوم حول المدينة لتتغذى على الآلاف من الجثث المتعفنة. ولمنع انتشار الأوبئة، كان يتمّ إلقاء جثث الموتى قرب الأسوار بشكل فظ مثلما تُرمى النفايات، مما زاد من الرعب العام بسبب رائحتها الكريهة. حاولت الهياكل العظمية الشبحية الفرار من المدينة عن طريق النزول ليلاً من الأسوار. كل من تمّ القبض عليه كان مصيره أن يقف مسمراً على الصليب. قطع الرومان بساتين الزيتون والتين الجميلة لاستخدام جذوعها في صنع الصلبان. لقد احتاجوا إلى الكثير؛ ففي يوم واحد تمّ قتل خمسمائة شخص بهذه الطريقة الرهيبة، حتى طوقت غابة من الصلبان المدينة. «لقد حولت الحرب جمال كل هذا البلد إلى صحراء»، بهذه الكلمات عبّر فلافيوس جوزيفوس عن أسفه لحال المدينة في روايته لأيام الحصار. وبالنسبة لأولئك الذين لا يموتون من الجوع أو من المسامير في الصلبان فعند القبض عليهم كانت تنتظرهم نهاية مروعة مشابهة. انتشرت شائعات مفادها أن اليهود الهاربين كانوا يبتلعون جواهرهم لمنع اكتشافها أثناء التفتيش. في ليلة واحدة فقط، قام المقاتلون الرومان الجشعون بشق بطون ألفي يهودي بحثاً عن المجوهرات. عندما سمع تيتوس بهذه الفضيحة، أمر بقتل كل فرد من أفراد تلك الوحدة العسكرية الجشعين؛ بعد ذلك استمر ذبح اليهود، ولكن بصمت. أصبح هناك المزيد من أكوام الأجساد العارية متكدسة أمام الأسوار، أو كانت تتعفن وهي تتلوى من الموت، أو تترك تتدلى من الصلبان مثل أعلام رثة بائسة. ومن المفارقات أن الموت كان بحدّ

ذاته يمثّل القوة التي تمدّ المتعصبين بالحياة وبات من أكثر الأسباب التي تجعلهم يصمدون.

في أواخر شهر تموز، أعدّ تيتوس الهجوم النهائي. صعدت قوته إلى التلال ووصلت إلى القمة قبل أن تتحطم الأسوار. اخترقت الجحافل الجدار الأوسط واقتحمت قلعة أنطونيا. كان الرومان يربّتون على ظهور بعضهم البعض فرحين بانتصارهم. انتشر الخبر من رجل لآخر: لقد تمّ اختراق الجدار الثاني. صدرت الأوامر للمقاتلين الرومان بالتفرق والتقدم إلى الأمام والتأكد من أن الممرات المتعرجة لم تكن تأوي مقاتلين من اليهود المتعصبين. كل ما وجدوه كان نساء ملطخات بالدماء يبكين، ويصلين، ويضممن أطفالهن الذين يعولون بالبكاء إلى صدورهن. لم يتبق في أيدي اليهود سوى سور المدينة الثالث القصير والجدران القوية التي تحيط بالهيكل. في تلك الأثناء، كان وضع المدافعين ميؤوساً منه تماماً، لكنهم لم يستسلموا. كانت الغاية من زرع غابة من الصلبان حول الأسوار، هو زرع الخوف الشديد في قلوب آخر المدافعين. الأمر الذي أوضح بشكل جليّ كيف يمكن أن يكون للحرب النفسية تأثير معاكس للهدف المقصود منها. لم يتم منح المدافعين خياراً وكانوا يعلمون أن الموت فقط هو الذي ينتظرهم، سواء على المتاريس أو في ساحات الإعدام. لذلك استمر سفك الدماء من دون أن يمنح أحد عفواً أو يتوقعه. كان آخر المدافعين مختبئين خلف جدران المعبد، بالقرب مما كان يمثل لهم قدس الأقداس. ومع المتاهة التي كان يحتويها من الأنفاق والممرات والفناءات، ثبت أنه متراس هائل. وربما من أجل إرضاء آلهته أصدر تيتوس أوامر صارمة للحفاظ على الضريح المقدس ومنع أي ضرر يلحق بالمعبد. أو ربما كان يدرك أن آلاته (كباشه) ستثبت عجزها أمام الألواح الصخرية الضخمة التي بنى بها هيرودوس الهيكل. وللمرة الأخيرة، حاول فلافيوس جوزيفوس أن يجعل المتعصبين يستسلمون. ولكنه لم ينجح.

في 7 أيلول سنة 70 م، شنّت جحافل الرومان، بقيادة الفيلق العاشر،

هجومها الأخير بناءً على الأوامر التي أصدرها تيتوس في ذلك اليوم: «استولوا على القلعة. وحافظوا على المقدسات». لم تصل قذائف المقاليع الرهيبة إلى الحرم الداخلي للمعبد نفسه، ولكن سلسلة من المسامير المعدنية، التي أُطلقت من المنجنيقات المتواجدة في أعلى قلعة أنطونيا، اخترقت أجسام المئات من المدافعين داخل فناء المعبد. لقد تمّ تركهم مستلقين على الرصيف المصقول في فناء المعبد الواسع، وانتشرت دماؤهم على الرصيف والذي عادة ما يكون مخصصاً لإقامة طقوس الصلاة الحماسية من قبل الآلاف من الحجاج. لم يعد المعبد مكاناً للملاذ الآمن والتقوى، بل بات مكاناً للموت واليأس[13].

نظراً لجدرانه المنيعة، أمر تيتوس بإشعال النار في بوابة المعبد الخشبية الضخمة. تحت حماية «السلحفاة»، وهو سقف مصنوع من الدروع ومثبت فوق رؤوس المهندسين، أشعلوا رزماً من القش والزيت باتجاه الباب المصنوع من البلوط والبرونز. لقد استغرق الأمر يوماً كاملاً قبل أن تتلف النار الباب لأجل أن يدخل الرومان منه. عندما أصبحت الفجوة واسعة بما فيه الكفاية، لم يتعين على ضباط الفيلق العاشر إصدار الأوامر بالتقدم؛ فقد تدفق المقاتلون من خلالها مثل تدفق المياه من خلال ثقب في سدّ. اعتقد قائد الفيلق أن المدافعين كانوا أقل استعداداً للهجوم مما كانوا عليه بالفعل. لكنه واجه جداراً من المتعصبين الذين قاتلوا من أجل كل شبر في الأرض المقدّسة، ومن أجل كل جدار، وكل فتحة، كما لو كان الشيطان نفسه يمتلكها. قُتل على الفور قائد أحد الأفواج الذي كان أول من تسلق البوابة التي كانت لا تزال تحترق، لكن الذين جاؤوا في أعقابه قفزوا فوق جسده المنبطح على الأرض ودخلوا من خلال الباب الذي لا يزال مشتعلاً. واجههم بعض المقاومين، ولكن كانت مقاومتهم

13- تم طمس تتابع الأحداث التي قادت أخيراً إلى تدمير المعبد في ظلمات كتب التاريخ، كان فلافيوس جوزيفوس هو الشاهد الوحيد المعاصر الذي سجل في كتابه حرب اليهود تلك الأحداث الدراماتيكية، ولكن لكونه يهودياً لا يمكن اعتبار سرده محايداً.

بلا جدوى. قام الرومان بقتلهم وتقدموا نحو الفناء الأول، واستولوا عليه. وأعقبت المجموعة الأولى من المقاتلين مجموعة ثانية، ثم ثالثة، وقد ترنح مقاتلوها عبر الحجارة المصقولة في الفناء الكبير التي كانت زلقة بسبب دماء الكثير من القتلى. كانت الصفوف الأمامية تتقدم بكامل قوتها نحو جدار المدافعين، مما أدى إلى تزاحم رماحهم الطاعنة في صدور وبطون المدافعين، وبينما كانوا يدكّون آخر متراس أُقيم أمام درج شديد الانحدار يؤدي إلى ممر مرتفع على الحائط. قام قائد أحد الأفواج الذين حلّ مقاتلوه محل زملائهم الذين سقطوا صرعى بالصعود معهم نحو الأعلى، مدفوعين بغضبهم، والمرارة التي كانوا يشعرون بها بسبب وفاة الكثير من رفاقهم، وحين كانوا يمسكون بأي مدافع عند الجدار، كانوا يسحقونه حتى الموت ويرمون به في وادي كدرون الذي يبعد مئات الأقدام في الأسفل. كان هناك جدار واحد فقط حول المعبد المقدس يفصل الرومان عن قدس أقداس الهيكل أي المحراب، كانت المذبحة من حول هذا الجدار الأخير أكثر رعباً. كان كل رجل يقاتل لوحده في عالم من الفوضى يصمّ الآذان. بدا أن الأرض تتحرك تحتهم. اشتبك اليهود مع الرومان وسقطوا، أحدهما فوق الآخر، حتى مات معظمهم أو باتوا يحتضرون، وقد انحشروا عند المدخل. وسط الاضطراب الذي حصل في الهجوم النهائي حدث ما لا يمكن تصوره.

«استولى أحد الجنود، ومن دون انتظار الأوامر ودون أي شعور برعب الفعل الذي قام به، على الشعلة الملتهبة، ورفعها على أكتاف أحد رفاقه، ورماها عبر النافذة الذهبية التي كانت مفتوحة على الغرف التي تقع إلى جانب محراب قدس الأقداس... مهما كان رعبهم مما حرمهم قيصر[14] من فعله كبيراً، كانت كراهيتهم لليهود وتوقهم لقتالهم شديدين بالقدر نفسه. وهكذا تمّ حرق المكان المقدس من دون موافقة قيصر»[15].

14- يطلق لقب قيصر على تيتوس، لأنه كان قيصر أثناء حكم الأوغسطس فيسباسيان.

15- من كتاب فلافيوس جوزيفوس، حرب اليهود.

في الواقع، فإن تيتوس كان قد أصدر أوامر صارمة لتجنب الحرم المقدس. جاء إليه ليبراليوس قائد أحد الأفواج مهرولاً، وهو يشير بيده وهو يصرخ: «النيران تشتعل في المعبد!» جمع تيتوس بسرعة عدداً كبيراً من الجنود وهرع من خلال البوابة المحترقة، وعبر الفناء المليء بالجثث، لإخماد النيران، التي لم تكن قد وصلت بعد إلى الغرف التي تحتوي على المحراب. ولكن الأوان كان قد فات كثيراً. على الرغم من أن الجنود هاجموا الأخشاب المحترقة بالعصي، لم يعد بإمكان أي شيء إنقاذ الغرف ذات الألواح الخشبية. فحينها، كانت النار قد وصلت إلى الداخل ووصلت إلى الجرار الكبيرة المليئة بالزيتً المقدس والتي انفجرت «مثل النجوم المفرقعة». أشعل لهيبها الوهّاج جحيماً لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه، من داخل وسط المبنى، ومن خلال الفتحة المحطمة التي لم تعد تحمي قدس الأقداس من عيون التجسس، خرجت شعلة مخفية، كان سطوعها أكثر من ألف شمس مشرقة، تلاه هدير يصمّ الآذان مثل صرخات مؤلمة لحشد من الغاضبين.

تجمد الرومان في أماكنهم عندما رأوا أحد المتعصبين يتسلق الدرج المنهار، متجهاً بشكل مباشر نحو النيران. وفي اللحظة الأخيرة، أدار الرجل وجهه، وعيناه مملوءتان بالكراهية وفمه مفتوح وهو يصرخ. كان ينادي بشيء لكن صوته ضاع وسط هدير النيران، وكان يشير بإصبع الاتهام مباشرة إلى قيصر الرومان؛ ثم اختفى وراء ستارة من ألسنة اللهب. أراد تيتوس أن يتجنب نظرته، لكن شيئاً ما أجبر عينيه على التحديق في اتجاه ستارة النار التي كان توهجها يسبّب العمى والتي التهمت لتوها كائناً بشرياً.

في الوقت الذي استمر فيه القتال من أجل السيطرة على جدران المعبد، تمكن جون غيشالا وعشرات من أتباعه من الفرار عبر نفق سري وبدؤوا بالترتيب لأعمال المقاومة الأخيرة -رغم أنها كانت يائسة- ليقوموا بها في الأبراج الثلاثة المتبقية من قصر هيرودوس. مما اضطر تيتوس إلى نشر معداته الخاصة بالحصار، والتي حوّلت مكان إقامة هيرودوس الملكي

الرائع إلى مجرد أنقاض، قبل أن يلقي المدافعون أسلحتهم وتنتهي أشهر من القتال والمعاناة. تمّ تجميع آخر المتعصبين الذين أصابهم الهزال وتقييدهم والتحفظ عليهم لعرضهم في موكب النصر.

لم يستطع أحد بعد ذلك أن يقول بشيء من اليقين كم عدد الذين ماتوا أثناء القتال من بين الستمائة ألف فرد الذين كانوا في المدينة في بداية الحصار، وعدد الذين جاعوا حتى الموت وعدد الذين تمّ ذبحهم أثناء نهب واغتصاب المدينة من قبل جحافل تيتوس.

مع استمرار تصاعد الدخان من الرماد، قامت الجحافل بنصب نسورها الذهبية في فناء المحراب قدس الأقداس، الذي تمّ تنظيفه حينها من مخلفات القتال، وقدمت القرابين لإله الحرب، مارس. وكعقاب لموقف التحدي لقوة روما وإهانة شرفها، أمر تيتوس بهدم مدينة القدس وتسويتها بالأرض.

دمروا كل شيء! لا تتركوا حجراً على حجر. هدّوا المباني إلى الأرض. سنقوم بمسح كل أثر لليهود. سنسوي هذه المدينة بالأرض، ولن تقوم لها قائمة مرة أخرى. «أصاب الجنود الرومان الجنون وهم يفكرون في احتمالات الثروة التي يتوقعون العثور عليها في المنازل. والمطارق والأزاميل، التي كانت تُستخدم لصنع الأشياء الجميلة، باتت تكسر بلا رحمة المزهريات والحلي، وتجعلها أجزاءً مهشمة من الحجر والجص. كانت الفؤوس تسقط على جدران تمّ تزيينها بدقة، مما جعلها تتفتت مثيرة الغبار، لأنهم اعتقدوا أن وراء كل جدار، كنزاً مخفياً. تصاعدت غيوم من الغبار المتناثر في السماء الزرقاء. أثار الجنود الفوضى في بقايا المعابد، وقاموا بخدش الطبقات الذهبية في الجدران. أولئك الذين توسلوا إلى الجنود المسعورين لوقف تدمير مزاراتهم المقدسة، تعرضوا للضرب المبرح وتمددوا على الأرض ينزفون، بجانب العديد من الجثث المنتفخة، وقد اختلطت رائحتهم مع رائحة الموت وغطاهم الذباب. «ألا ندفنهم؟»، سأل جندي من الفيلق العاشر. أجابه قائده «دعهم

ممددين»، «ليسوا لائقين للدفن». لقد كانوا جميعاً يعتقدون أنهم قادرون على الوقوف بوجهنا. فليكونوا طعاماً لأبناء آوى والنسور».

أصبحت مدينة النبي داود، التي كانت ذات يوم أمثولة لجمال رائع، ترقد تحت الأنقاض. لم تتبقَ سوى أبراج مريمني وفيزيل وهيبيكوس، التي تحصن قصر هيرودوس، وكان الغرض من إبقائها توفير مكان لخزن المعدات الحربية لجيش روما وكأماكن استراحة لضباط الفيالق. كان خدمهم هم اليهود نفسهم الذين استمتعوا في الأيام التي سبقت الحصار بكرم الملوك، مثل هيرودوس الكبير، وفي هذه الغرف بالذات كان عليهم أن يتحملوا أن يكونوا شهوداً صامتين بينما كانت بناتهم تُجبر على توفير الراحة الجنسية للمقاتلين وتلد منهم نسلاً من أبناء الزنا نتيجة لعمليات الاغتصاب التي لم تتوقف.

اقتيد قادة التمرد في القدس الذين أُلقِي القبض عليهم للمثول أمام تيتوس. كانت ملابس جون غيشالا ممزقة، ولحيته طويلة، رمزاً لمقاومته الرومانسية. عكس وجهه المنهك وعيناه الغائرتان مدى تعبه وجوعه. بعد بضعة أيام، عثر بعض مقاتلي الفيلق على سيمون بارغيورا مختبئاً في كهف. كان كل من جون غيشالا وسيمون بارغيورا رجلين صاحِبَي مبادئ وكان أتباعهما متعصبين لهما بجنون. بخلاف ذلك، لم يكن هناك أي تشابه بينهما. على الرغم من أن كليهما كانا ظاهرياً متعصبين قوميين على حدّ سواء، وكان كلاهما يدّعي أنه يتبنى هدف تحرير إسرائيل ويهودا من الرومان، إلّا أن غاياتهما كانت مختلفة تماماً. فكلاهما قد فشل. لقد تجرآ على المقامرة بالوقوف ضد قوة روما، مما تسبّب في ضياعهما. وقد لقّنهما قيصر الذي لا يرحم درساً في عاقبة العبث مع روما.

ارتفعت الغيوم السوداء من جبل الهيكل. كان الدخان ينبثق من القلب الصخري للأرض. حملت الغيوم رسالة إلى جميع بني إسرائيل عن نهاية معبدهم[16]. لقد تحمل اليهود المصاعب والجوع، وحتى الموت، ولكن

16- أصبح استرجاع المعبد يمثل القضية الأساسية لليهود.

كان كثيراً عليهم تحمل تدمير معبدهم. بالنسبة لهم كان هذا مؤشراً على النهاية، وجعل الصمت المطبق من أثر الصدمة يجتاح أرض يهودا، وخيّم صمت الموت. كانت المجزرة التي حصدت الأرواح البشرية فظيعة: فقد مات مليون ومئة ألف شخص خلال سنوات الحرب، سقط خمسمائة وثمانين ألفاً منهم في ساحات المعارك. أما الباقون فقد ماتوا جوعاً. تمّ بيع ثلاثمائة ألف ممن بقوا على قيد الحياة كعبيد. ومنذ ذلك الحين، بدأ نزوح اليهود إلى شتى بقاع الأرض.

تمّ تنظيم موكب نصر ضخم لتيتوس في روما، حيث قام باستعراض أسراه وهم مقيدون بالسلاسل. لكن لا شيء يمكن أن يقارن بالغنيمة التي حصل عليها، وهي عبارة عن شمعدان ذهبي ذي سبعة فروع. لا يزال من الممكن مشاهدة رسم طبق الأصل له، محفور في الحجر، في قوس النصر الموجود في روما. لا يعرف شيء عن مصير هذا الشمعدان. من المحتمل أن يكون هذا الأثر التذكاري للمحرقة التي دمرت المعبد المقدس وأرسلت مريديه إلى حتفهم قد تعرض للسرقة أثناء طرد البرابرة من روما وتمّ صهره للحصول على الذهب الذي يحتويه.

استمرت مجموعات المقاومة تقاتل لمدة ثلاث سنوات أخرى ووصلت إلى نهايتها عند قمة جبل مسعدة المطل على البحر الميت حين فرضت جحافل تيتوس حصاراً عليها. لعدة أشهر، صمد القائد أليعازار بن يائير مع بضع مئات من المقاتلين، حتى بنى الرومان سلماً للوصول إلى المرتفع، فقام المدافعون عنه البالغ عددهم تسعمائة وأسرهم - وبدلاً من الوقوع في أيدي الرومان- بقتل أنفسهم. كان هذا هو الحدث الأخير في حرب اليهود، والذي أسدل الستار على قصة أرض الميعاد (73 م).

تحت وطأة عقوبة الإعدام، منع الرومان اليهود من المشي مرة أخرى في أراضي المدينة التي تمّ تدميرها. أمر الإمبراطور هادريان ببناء مدينة جديدة على أنقاضها، وباستخدام مواد من مبانيها الأصلية، وبإشراف من المهندسين المعماريين اليونانيين وكانت العمالة من العبيد اليهود، أطلقوا

عليها تسمية أيليا كابيتوليا. وحيث كان المعبد المقدس موجوداً وضعوا تمثالاً للإله جوبيتر. وعلى تل غولغا، حيث صلب يسوع المسيح، وضعوا رسماً يمثل إلهة الحب، فينوس.

أضرم مقاتلو الفيلق العاشر الذي اخترق أسوار المدينة، النار في المعبد المقدس وهدّوا جبل مسعدة ليبقى رمزاً لقوة احتلال مقاطعة يهودا لمدة ستين عاماً. تركوا تذكاراتهم منحوتة في الحجر، بينما لم يترك اليهود شيئاً. على الرغم من قرون من الحفريات الأثرية والكثير من الأبحاث، لم يتم اكتشاف أي دليل حقيقي على وجود إسرائيل في أعقاب نهب مدينة القدس في عام 70 م. لم يتمّ العثور على مقبرة يهودية، ولا نقوش بالعبرية، ولا شواهد قبور. كان الأمر كما لو أن الرب قد قرر أن يمحو كل أثر لأبنائه. تكفل القدر، وقوة روما الجبارة، بما تبقى، ولم يتركا شيئاً. تمّ سحق الحضارة اليهودية القديمة تحت الأحذية الثقيلة لمقاتلي الجحافل الرومانية. ورغم أن معابدهم لم تعد سوى رمادٍ، فقد كان هناك دين جديد يتجذر. شرع به حاخام يهودي من الجليل كان يعظ بالغفران والمحبة. وعلى الرغم من أنه دخل أرض إسرائيل بدون سيف، إلَّا أن رسالته ستستمر بالبقاء أكثر من النسر الروماني لآلاف السنين.

خلف تيتوس والده فيسبازيان على العرش. أصبح الضحية التالية للعنة الأباطرة الرومان. أثناء الاستحمام، قُتل على أيدي رجال موالين لأخيه تيتوس فلافيوس دوميتيان، الذي قُتل بعد اغتصابه العرش على يد عشيق زوجته.

أما بالنسبة لأبناء قبائل إسرائيل، «... فسوف يَقَعُونَ بِفَمِ السَّيْفِ، وَيُسْبَوْنَ إِلى جَمِيعِ الأُمَمِ...» كما هو مذكور في (إنجيل لوقا 21، 24). كان على اليهود الانتظار ألفي عام قبل أن تتحقق نبوءة حزقيال: «وَتُفْلَحُ الأَرْضُ الْخَرِبَةُ عِوَضاً عَنْ كَوْنِهَا خَرِبَةً أَمَامَ عَيْنَيْ كُلِّ عَابِرٍ. فَيَقُولُونَ: هذِهِ الأَرْضُ الْخَرِبَةُ صَارَتْ كَجَنَّةِ عَدْنٍ» كما هو مذكور في (سفر حزقيال 36، 34-35). ولكن حتى يومنا هذا، لا يزال السلام بعيد المنال في تلك الأرض.

اتُّخِذَ القرار بتدمير القدس خلال عرض عسكري للفيالق تحت أسوار المدينة المحاصرة. ومع أن تيتوس أبدى علامات على أنه يرغب في الحفاظ على القدس، فإن إهانة نسر فيلقه من قبل اليهود المتعصبين كانت إهانة شديدة جداً، وكان اعتداءً ووصمة عار لم يكن بمقدور قيصر الرومان أن يتسامح معها أبداً. وفي لحظة غضب، قرر معاقبة اليهود بتدمير مدينة القدس. وقد فعل.

الجزء السادس

البرابرة

375–410 م

من فريتيغيرن إلى ألاريك

الفصل السادس عشر

فوضى في الإمبراطورية
معركة أدريانوبل
التاسع من آب عام 378 م

«حلّ الليل وغطى الأرض بأجنحته الداكنة».

- *الشاعر الروماني فرجيل، 70 – 19 ق.م.*

سادت الفوضى في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية. التي كان عمرها آنذاك قد اقترب من نحو مائتي سنة، قتل العديد من المطالبين بلقب أغسطس بعضهم البعض. وكل إمبراطور يتبع الآخر؛ في بعض الأحيان كان هناك حتى اثنان أو ثلاثة من المتنافسين في الوقت نفسه. انتخبت جحافل الرومان في الشمال ماكسيمينيوس إمبراطوراً، فيما اختار مجلس الشيوخ بالبينوس وبوبينوس، واختارت القوات الموجودة في أفريقيا غورديانوس البالغ من العمر ثمانين عاماً كإمبراطور لها. انتحر غورديانوس عندما سمع أن ابنه قُتل على يد ماكسيمينيوس؛ وقُتل ماكسيمينيوس على يد قواته. وقُتل الإمبراطوران اللذان اختارهما مجلس الشيوخ على يد حرسهما الإمبراطوري؛ وتسلق حفيد غورديانوس العرش ليقتله حارسه الشخصي. وأعقب تلك المجزرة «عصر الثلاثين طاغية» -كانوا في الواقع تسع عشرة فقط- وقد ماتوا جميعاً بوسائل عنيفة.

بدأت قوة أخرى في التعبير عن نفسها، وهي الكنيسة المسيحية،

والتي اكتسبت أهمية عظيمة. وكان عليها فعل الكثير لهذا الاضطراب في البلاط الإمبراطوري والتهتك في أخلاق أبنائه. سرعان ما بدأت عبادة يسوع تحل محل عبادة الآلهة القديمة؛ وبعضهم خلق من الإمبراطور إلهاً. وتفشى نوع من الهوس الديني، كان نتيجة الغرور الجامح من جانب سلسلة من الأباطرة، الذين أوهمتهم السلطة بلا حدود، وساد لديهم الميل إلى جنون العظمة. وعندما فرضوا إرادتهم بالكامل على البشر، أعلن الأباطرة الرومان أنهم الرب. بدأ النظام الصارم -الذي أوصل روما إلى العظمة وأصبح العقيدة الحاكمة للمجتمع الروماني- بالانهيار. أما الإمبراطورات فكان سلوكهن غير مقيد وكن يقضين أوقاتهن بلا خجل مع سلسلة من العشاق. اقتدت زوجات المواطنين بهن وأظهرن رخصاً جنسياً مماثلاً. مع خرق مدونة الأخلاق، انغمر الجميع في مشاهد من الفجور، تتابعت على المجتمع الرذائل الأخرى. اجتاح الانغماس المفرط في عواطف الروح أبناء الأمة مثل الطاعون.

منذ زمن بعيد، توقف المواطنون الرومان عن الخدمة كجنود عاديين من أجل جمع ثروات هائلة من الأراضي التي غزتها جحافلهم الشجاعة. ونظراً لأن العبيد كانوا غير مؤهلين للخدمة العسكرية، فقد كان يتمّ استقدام المجندين من الأراضي التي ما زالت غير محتلة شمال نهر الدانوب، من إليريا وإسبانيا. وكان يتميز بينهم أبناء قبائل القوط الرهيبين. الذين ارتحلوا من مناطق البلطيق واستقروا في ولايات دلتا الدانوب وأوكرانيا. خدمهم مكرهم ومهاراتهم بشكل كبير ليكونوا صيادين ومحاربين محترفين، مع قدرة بديهية ممتازة لنصب الفخاخ وإقامة الكمائن. كان المحاربون القوطيون هم المورد البشري المثالي لإشباع شهية روما النهمة لتزويد جحافلها المساندة بالمقاتلين. لقد كانوا فرساناً ومقاتلين ممتازين، ومن بينهم تشكل عدد كبير من جحافل المرتزقة التي تدفقت للقتال تحت راية النهب المشروع. في جميع المعارك الرومانية في تلك الفترة، نال

القوطيون الحصة الأكبر من الأوسمة، ولكن أيضاً من الخطر. ولكن هذا أكسبهم خبرة عظيمة في إدارة شؤون القتال.

كانت القاعدة السياسية في عهد الإمبراطور أوغسطس تعتمد في الأساس على سياسة عسكرية دفاعية. ولأجل حماية حدود الإمبراطورية، قام بتأسيس خمسة وعشرين فيلقاً، وهذا يعني مئة وخمسين ألف رجل جاهزين للقتال. ولدعم قوة هذا الفيلق الروماني، دعا إلى أن يكون هناك عدد متساو من القوات المساندة، والتي زاد عددها في نهاية المطاف إلى حوالي أربعمائة ألف فرد، كانوا يخدمون لمدة خمس وعشرين سنة ويحصلون على أجر أقل بكثير مما يحصل عليه الجندي الإمبراطوري. لكن الأجر لم يكن المشكلة الرئيسة، بل تدريب روما لعدوها المحتمل على فنون القتال. قام الأباطرة اللاحقون بإجراء تغييرات طفيفة على التشكيلات العسكرية، بصرف النظر عن استقدامهم لعدد أكبر من المساعدين، كان يطلق عليهم الفيديراتي (federati)، حتى أصبح البرابرة يشكلون العنصر الرئيس في الفيالق الرومانية. تمّ استخدام ألمع العقول العسكرية لتعليم البرابرة كيفية القتال. وقد أثبتوا أنهم تلاميذ أذكياء ومتحمسون، وعند انتهائهم من أداء الخدمة العسكرية، كانوا ينقلون كل ما تعلموه إلى قبائلهم. وبهذه الطريقة، ساهمت روما إلى حدّ كبير بالإطاحة النهائية بالإمبراطورية الرومانية (imperium romanum). يجب أن لا تغيب عن البال الإشادة بمهارة روما السياسية التي جعلت هذا الوضع يستلزم أربعة قرون من الزمن حتى ينشأ.

كان لدى معظم الأباطرة فكرة عقيمة عن تقديرهم لشخوصهم. كانوا جميعاً يتنعمون بالثروة والسلطة، ويتصرفون كأباطرة، لكنهم سرعان ما واجهوا الحقيقة المرة بسقوط مظاهرهم الكاذبة ولم يمتلكوا أية وسيلة لوقف الانحدار السريع نحو الكارثة. حتى جثوا على ركبهم يتوسلون المساعدة، وكان من يطلبون منهم المساعدة ينظرون إليهم بسخرية، ثم لا يفعلون شيئاً، سواء للإمبراطور أو لإمبراطوريته. ومن هنا تكمن

المفارقة في أن البرابرة هم الذين امتلكوا القدرة على التغيير. لقد أصبحوا الفاعلين الرئيسين الذين يتابعون العمل وفق مفهومهم عن مصالحهم القبلية الخاصة، مثل توسيع الأراضي لقطعانهم، أو في كثير من الأحيان الحصول على الغنائم السهلة.

وكان انضباط الجحافل، الذي بقي بمفرده، بعد انقراض كل الفضائل الأخرى، هو من دعم عظمة الدولة، ولكن أفسده الطموح، أو تلاشت قوته بسبب ضعف الأباطرة. تمّ تقويض قوة الحدود، التي كانت تتألف دائماً من الأسلحة بدلاً من التحصينات؛ وتُركت أفضل المقاطعات نهباً لفظاظة أو طموح البرابرة، الذين سرعان ما اكتشفوا تراجع قوة الإمبراطورية الرومانية[17].

وهكذا، أصبحت قوة خارجية هي التي تحدّد وتيرة الاضطرابات الداخلية: تقدمت قبائل البرابرة الرُّحل نحو الأراضي الرومانية. بحلول بداية القرن الرابع، بات النظام الروماني في أزمة هيكلية. لم يعد الأباطرة هم الموجهون الوحيدون للنظام الإمبراطوري. كانت لدى قبائل القوطيين والفاندال، التي تزوِّد الجيوش بمعظم قواتها البشرية، أجنداتها الخاصة وصممتها لتناسب احتياجاتها. كانت العواقب وخيمة. إلى جانب الاضطراب الناشئ عن الاستبداد العسكري المتزايد باستمرار وضعف الأباطرة الرومان، الذين باتوا ليس أكثر من مجرد دمى يتلاعب بها المرتزقة البرابرة، فقد ظهر تهديد جديد للإمبراطورية: وهو عمليات التنقل التي تقوم بها الأمم والسكان الأصليين للسهول الكبرى التي تمتد شرقاً من أنهر الألب والدانوب والدون، أو من أقصى الشمال على طول مياه بحر البلطيق الداكنة والمليئة بالصخور. لقد كانوا سكان الأراضي المقفرة الشاسعة والغامضة التي تحوي البحيرات والغابات والمستنقعات، والذين يتكلمون لغتهم الغريبة ويعبدون آلهتهم الوثنية. وكانت أكبر قبيلة بينهم على الإطلاق هي القوط.

17- راجع: E. Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire, New York, 1953.

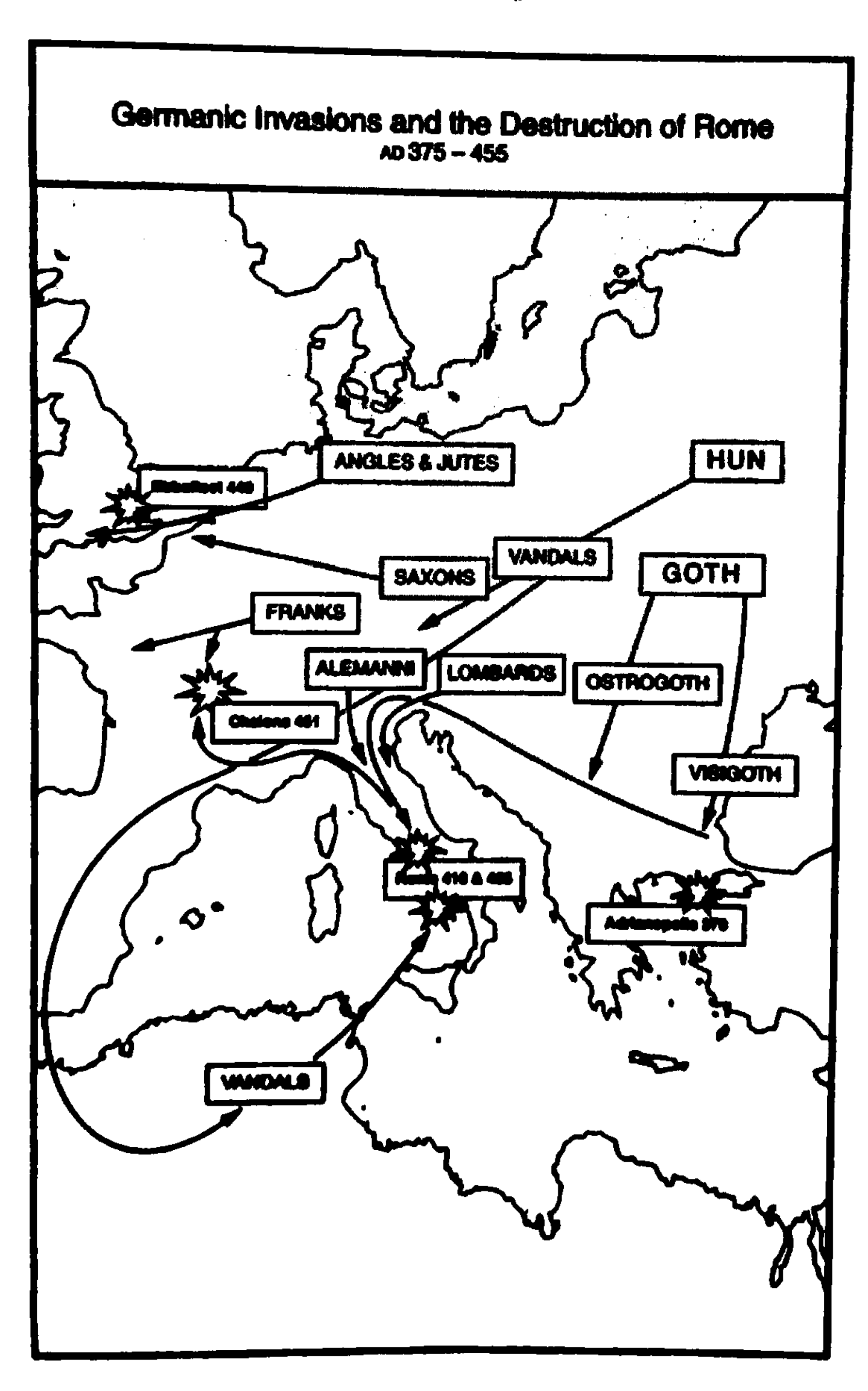
لم تكن الكفاءة العسكرية للقوط هي السبب الرئيس للكارثة التي كانت تلوح في الأفق. فقد كانت جحافل الرومان أفضل تسليحاً من البرابرة. وتمّ إنجاز خطوات تقنية كبيرة في عملية صهر الحديد الذي تُصنع منه الأسلحة، وكان يمكن لكل مائة رجل الاعتماد على الدعم من المنجنيق أو المقلاع. لكن الحماسة الوطنية التي أدّت إلى سيطرة روما على العالم لم تعد موجودة الآن. لم يعد تأمين الحماية للإمبراطورية يتمّ من قِبل الرومان بل من قبل الليميتيني (limitanei)[18] و(comitatenses) الكوميتاتينس (ميليشيا محلية). مع هذا التجنيد المتزايد للمحاربين من القبائل، خاصة في سلك الضباط، سرعان ما أصبح البرابرة يمتلكون أعلى سلطة في الإمبراطورية. لم يبدوا أي ولاء خاص للنسر الروماني. وهل بقي هناك نسر[19] على كل حال؟ لقد رضع مقاتلو جحافل سكيبيو وقيصر الرومانية مع حليبهم حب الوطن الأم روما، وبعد ذلك قدّموا حياتهم بكل سرور فداءً لحماية بلادهم وعائلاتهم، أو لغزو أراضي الغير ليصنعوا مجد روما. لا يمكن قول الشيء نفسه عن أبناء القبائل الإيليريين أو التراقيين أو القوط. فكانوا بالكاد يلبون النداء «لحماية روما»، المدينة التي لم يكن أكثرهم يعرف أين توجد حتى على الخريطة. منذ تلك اللحظة وعلى مدى قرون، كان كل القتال الذي دار في روما يديره مقاتلو قوات القبائل المساندة، من قبائل الرايتي أو الغال أو الألاني أو القوط أو الفاندال، الذين كانوا في بعض الأحيان غير راغبين في القتال ضد إخوانهم في القبيلة.

المرة الأخيرة، التي عادت فيها الإمبراطورية الرومانية إلى سابق مجدها، كانت في عهد الإمبراطور قسطنطين. تمّ تحدي حكمه من قبل القنصل ماكسينتيوس، الذي أعلن نفسه إمبراطوراً. قرر قسطنطين أن ماكسينتيوس كان عدواً خطيراً جداً بحيث لا يُسمح له بالعيش، خاصةً منذ أن استولى

18- الجنود في المناطق الحدودية. المترجم.

19- شعار الجيش الروماني. المترجم.

على روما، وتوجه إلى ميدان القتال. قبل حدوث المواجهة بينهما على ضفاف نهر التيبر عند جسر ميلفيان (312 م) رأى الإمبراطور قسطنطين صليباً في السماء وسمع صوتاً يقول له: «مع هذه الإشارة، ستنتصر». حينها وعد بأنه سيعتنق الدين المسيحي إذا جعله إله المسيح ينتصر.



اصطفت قوات الجانبين عند طرفي الجسر الخشبي. قاد قسطنطين قواته في هجوم قوي عبر الجسر. سقط الرجال من كلا الجانبين، ونظراً لضيق الجسر، كان القتال جسداً لجسد وسيفاً بسيف. كانت المذبحة هائلة. اندفع الرجال إلى الأمام وليس في رؤوسهم سوى فكرة العبور. في ذروة القتال، تمّ رمي ماكسينتيوس من الجسر ونزل إلى قاع النهر بسبب ثقل الدروع التي كان يرتديها. سار قسطنطين إلى روما باعتباره المنتصر وحافظ على وعده؛ كان يدرك أنه استطاع في خطوة واحدة ماكرة توحيد جزء كبير من روما خلف راية الرب ورايته الخاصة. في عام (325 م) دعا إلى عقد أول مجلس للكنائس المسيحية. جرى هذا الحدث الكبير في مكان في مدينة نيقية (تسمى حالياً إزنيق وتقع في تركيا). أصبحت المسيحية دين الدولة الرسمي في روما وتمّ تعميد الناس. مع وفاة قسنطين (337 م) بدأت شمعة الإمبراطورية تخبو، في انتظار العاصفة التي ستخمدها.

وبينما كان القياصرة مشغولين بقتل بعضهم بعضاً، بدأ البرابرة المتواجدون في الشمال في الاستفادة من هذا الوضع. كانت حدود روما تتعرض باستمرار إلى غارات تشنّها قبائل الهيروليين والكوادي والسكسون (والأخيرة جاءت في الغالب عن طريق البحر لتتوجه إلى بريطانيا). ومع ذلك فإن الخطر الرئيس الذي كان يهدد وجود الإمبراطورية الرومانية قد جاء من ثلاث قبائل توتونية كبيرة: هي فرانكس وأليماني وأكبر قبيلة فيهم جميعاً، القوط. ومع ذلك كانت لا تزال هناك حاجة إلى شيء ما كي تشتعل الشرارة.

وصل هذا الشيء على ظهور الخيل من السهول الداخلية الجرداء لمنغوليا. في عام 372 م، ظهر حشد من الخيالة يمتطون مهوراً صغيرة رشيقة في روسيا البيضاء، موطن قبائل الألانيا والقوط الشرقيين. لقد كانوا من قبيلة شيونغنو، وهي كلمة لم يستطع القوط نطقها، لذلك أطلقوا عليهم ببساطة اسم «الهون». لم يقف شيء في وجههم. وباندفاعهم اكتسحوا

قبائل الألانيا في معركة نهر التانايس (372 م)، ومن هناك واصلوا اندفاعهم، مهددين قبائل القوط الشرقية. أثناء محاولته منع الهون من عبور نهر الدنيبر، قُتل زعيم القوط الغربي إرماناريك. قام مليون فرد من القوط الشرقيين، بقيادة اثنين من أمرائهم وهما ألاثيوس وسافراكس بالتدفق نحو الحدود مع إخوانهم القوط الغربيين، ناشد زعيمهم أثاناريك، الإمبراطور الروماني الجديد فالنس التدخل لمنع جموع القوط الشرقيين من أن تجتاح أراضي القوط الغربيين. تردد القيصر فالنس، في ذلك الوقت كان القوط الغربيون يتجمعون قبالة نهر الدانوب. وافق الإمبراطور الروماني بعد ذلك على السماح للقوط الغربيين بالعبور إلى إمبراطوريته، طالما سلموا أسلحتهم وجميع الشباب الذين في سن الخدمة العسكرية. بينما كانت المحادثات جارية، وكانت تعد بأن تكون طويلة، قام اثنان من الأمراء الصغار من القوط الغربيين وهما ألافيوس وفريتيغيرن، بإثارة مشاعر شعبهم بعدم الرضوخ للمطالب الرومانية المبالغ فيها. استجاب لدعوتهم مليون من القوط الغربيين. وقام مائتا ألف من المحاربين المدججين بالسلاح والمدربين بترك الرومان، وشقوا طريقهم إلى منطقة تراقيا.

بينما كان الرومان مشغولين في إقليم تراقيا، وصل حشد من القوط الشرقيين إلى نهر الدانوب في منتصف فصل الشتاء (376 م)؛ وقد تراكمت كتل الجليد في النهر لتمنع تدفق مياهه فيما يعرف بسدود الجليد. على الشاطئ المقابل، كان يسيطر على الحامية الرومانية في حصن كارنتونوم، فيلق واحد. انتظر أمير القوط الشرقيين، الأمير سافراكس، حتى استعد الجميع، ورفع سيفه. حلّق سهم ملتهب عالياً وانطلق مائة ألف رمح في الهواء. رفع الأمير صوته بصرخة الحرب القبلية وجاءته الإجابة بصيحات فرح، ارتطم الحديد بالحديد والخشب بالخشب. واخترقت الضجة هواء الشتاء البارد وتوجهت نحو الفيلق الروماني الذي كان يحرس الشاطئ المقابل. لم يحدث من قبل أن كان هناك مثل هذا الحشد الكبير من الناس -من الأمم والقبائل والمحاربين- يستعد لغزو الإمبراطورية الرومانية

الغربية. بدأ حشد المقاتلين الهائل بالتحرك، مصطحبين معهم زوجاتهم وأطفالهم من جميع الأعمار والحيوانات الأليفة والخيول وآلاف العربات، نزلوا إلى شاطئ النهر ثم عبروا الجليد.

كان من الواضح أن هذين الحشدين الكبيرين من القوطيين -كانوا أساساً من الدم نفسه رغم أنهما ينتميان إلى شقيقين استمرت عداوتهما على مدى أجيال- كان من المحتم أن يحدث اصطدام بينهما، وسينتج عن ذلك على الأرجح أنهار من الدماء. كان هذا ما كان يعوّل عليه الإمبراطور الروماني. لكنهما لم يصطدما، على الأقل ليس بسيوفهم. التقى زعيما القوط الشرقيين ألاثيوس وسافراكس مع زعيمي القوط الغربيين ألافيوس وفريتيغيرن وشكلوا تحالفاً دمج القبيلتين في أمة واحدة؛ وباتحادهم فقط يمكن أن ينشئا جبهة مشتركة ضد الجحافل الرومانية. وجد الإمبراطور فالنس نفسه قد وقع في فخ مع اثنين من الجيوش المقاتلة الضخمة وهي تنقّض على القسطنطينية. حاول التغلب عليهما، لكن كانت النتائج كارثية.

بدأت الحرب بين القوط والرومان خلال المفاوضات التي جرت بين الإمبراطور فالنس وقادة القوط الغربيين. فبحجة الرغبة في الدخول في محادثات سلام، قام فالنس بإغراء الأمراء للدخول إلى معسكره. وأثناء جلوسهم في حفل العشاء الترحيبي، اقتحم رجال الإمبراطور قاعة الاحتفال. قتلوا ألافيوس أمير القوط الغربيين، لكنهم فشلوا في قتل فريتيغيرن. خاض حراس أميري القوط الغربيين قتالاً ماتوا فيه حتى آخر رجل، ولكن في وسط ذلك القتال الصاخب تمكن فريتيغيرن من الفرار عبر باب لم يكن فيه حراس، وقفز على حصانه واندفع يعدو به وسط ظلام الليل. قام بتحشيد القبائل. وقبل أن يدمج بين قواته من القوط الغربيين مع قوات القوط الشرقيين، خاض مواجهة مع قوة رومانية في منطقة ماريانابوليس (تضمّ حالياً مدينة شومن في بلغاريا، التي بُنيت عام 377 م)، وانتصر بسهولة، لأن طريقة القتال القوطية كانت تعتمد على المرونة وقوة سلاح الفرسان. بعد المعركة، انضم القوط الغربيون إلى

القوط الشرقيين ثم قاما بتمرد في جميع أنحاء إقليم تراقيا الواقع شرق الإمبراطورية الرومانية.

حذر ألاثيوس أحد قادة القوط الشرقيين فريتيغيرن قائد القوط الغربيين: «إذا أزعجنا الرومان بشكل كبير، فإنهم سيوجهون جيشهم ضدنا. الإمبراطورية وحش عملاق من الأفضل عدم إيقاظه. هل تريد محاربتهم؟»

أجاب فريتيغيرن، «نعم، سنهزمهم في المعركة».

ثم قال سافراكس، الزعيم الثاني للقوط الشرقيين: «في الواقع، لقد اشتبكنا معهم عند النهر وفي الممرات الجبلية، لكن لم يقم أي أحد منا بالاشتباك مع الجحافل الرومانية في السهول. لا يمكنني حتى أن أتذكر آخر مرة حاول فيها أحد القيام بذلك».

رد فريتيغيرن الذي كان هدفه الرئيس هو الانتقام فقط وليس السعي وراء الغنائم: «لقد استطعنا أن نحشد الكثير من الرجال للوقوف بوجه الإمبراطورية، وسيبقى شعبنا يتغنى ببطولاتهم لمدة ألف عام».

«لن تستجيب جميع القبائل لدعوتك».

«سيستجيبون إذا وعدناهم بثروات القسطنطينية!»

خيّم صمت صادم. الذهاب إلى القسطنطينية! لا بدّ أن فريتيغيرن شخص مجنون! لكنه كان يعرف ما الذي كان يتحدث عنه. فمقاتلو الجحافل الذين يسيرون على الأقدام لا يمكنهم أبداً مواجهة الفرسان. وبينما كان لدى جيش الإمبراطورية جنود مشاة، فقد كان لدى القوط مقاتلون من الفرسان.

«بإمكان قوة من الفرسان مدربة بشكلٍ جيد التغلب على جحافل الرومان!» وهكذا أقنع الآخرين رويداً رويداً بوجهة نظره. وهكذا حُسِم الأمر.

في النهاية، تمّ إجبار الإمبراطور فالنس الضعيف والمتردد إلى وجوب القيام بردّ، فاستدعى جيشه وتحرك معه إلى تراقيا لمنع القوط من تدمير

المقاطعة بأكملها. بينما كان يسير عبر القسطنطينية إلى أدريانوبوليس، حيث كانت قواته تتمركز في الجزء الشرقي من الإمبراطورية الرومانية، وقع حدث على طول الحد الفاصل ما بين نهري الراين-الدانوب والذي كان فريداً من نوعه للغاية في ذلك الوقت. وسواء تمّ تصميم الأمر من قبل المحاربين القوط أو حدث بشكل عفوي، فقد أدى ذلك إلى أن يشتعل الغضب في كل قبيلة جرمانية وبدأت تطالب بالانتقام، ووصل الضغط على الحاميات النائية لروما المتواجدة على نهر الدانوب إلى أقصى حدوده. طلب فالنس المساعدة من شريكه في الحكم، ابن أخيه غراتيان، الذي هرع بقواته إلى نهر الراين، حيث كانت قبائل الألامينيين قد عبرت إلى بلاد الغال. تمكن غراتيان من هزيمة البرابرة في مدينة أرجينتاريا (كولمار حالياً)؛ دفع أربعين ألف مقاتل من قبائل الألامينيين، ومن ضمنهم ملكهم بريانوس حياتهم ثمناً لذلك الغزو، وبينما كان غراتيان منتصراً، لم تكن الأمور تسير على ما يرام بالنسبة للإمبراطور فالنس في تراقيا البعيدة، خاصة بعد انضمام قوة مشتركة من حوالي ثلاثمائة ألف مقاتل قوطي إلى مجموعة من أفراد قوات الإسناد القوطية المدربين تدريباً عالياً، والذين كان من المفترض أن يقاتلوا من أجل روما، لكنهم قتلوا ضباطهم الرومان قبل أن يتركوا جيش الإمبراطور. لقد أحضروا معهم أسلحتهم، لكن الأهم من ذلك أنهم كشفوا عن خطة الإمبراطور القتالية.

وبهذا، تغيّرت نغمة الحرب. فالضابط (التريبيون) سيباستيانوس، الذي كان يمسك بخط الدفاع الاخير للإمبراطورية، تمّ إخباره من قبل جنود الاستطلاع المتواجدين في المقدمة أنه قد يكون هناك مجموعة كبيرة من البرابرة ستصل بسرعة من وراء ستار مقاتلي سلاح الفرسان. حاول جنود الاستطلاع اختراق المكان، لكن تمّ صدّهم وتعرضوا لخسائر كبيرة. كان مثل هذا التقدم السريع غير عادي. فهؤلاء البرابرة تدفقوا مثل الفيضان، ونهبوا كل ما يمكنهم نهبه، ثم استراحوا للاستمتاع بغنائمهم.

أرسل سيباستيانوس المزيد من دوريات الفرسان لتتبع تحركات العدو، وفي الوقت نفسه، أرسل رسولاً لتحذير الإمبراطور.

كان جنود استطلاع القائد سيباستيانوس على حق. لم يتوقف القوط ولا للحظة عن مسعاهم لنهب مناطق الريف. كانوا يتوجهون إلى أدريانوبوليس مباشرة. تنهد القائد (التريبيون) سيباستيانوس قائلاً: «بحلول الليل سوف يصلون إلى معاقلنا الأمامية». قبل اثنتي عشرة سنة، كانت لديه ثلاث جحافل للقيام بهذه المهمة، لكن عشر سنوات من المشاحنات والنزاعات الداخلية جعلته يخسر نصف هذا العدد. كذلك، فإن الأباطرة لم يكونوا يهتمون في ذلك الوقت بتوسيع حجم الجيوش بشكل يزيد عن حدّ الضرورة القصوى، خوفاً من اندلاع تمرد في صفوف المقاتلين وانتخابهم لإمبراطور خاص بهم والانقلاب على إمبراطورهم الحقيقي. كان على سيباستيانوس بذل كل جهد ممكن لوقف تقدم القوط قبل وصولهم إلى أدريانوبوليس. لن يغفر الإمبراطور أبداً للقائد الذي يسمح للبرابرة أن ينهبوا مدينة رومانية. كان عليه أن يؤخر تقدم العدو أملاً في وصول قوة الإغاثة في الوقت المناسب. كان الإمبراطور فالنس قادماً من القسطنطينية، لكن إذا لم يصل في الوقت المناسب فسوف يتم سحق رجال سيباستيانوس تحت حوافر خيول القوطيين.

في الأيام الأولى من شهر آب عام 378 م، توقفت مسيرة القوطيين فجأة، وأقاموا مخيماً لهم، عند سلسلة من التلال المتدحرجة والوديان الواسعة كانت تبعد عشرة أميال فقط عن مدينة أدريانوبوليس.

كان التصميم الروماني لتحقيق أقصى استفادة من نظام الطرق الرائع لديهم هو مفتاح نجاح استراتيجيتهم. من خلال الاستفادة الكاملة من الطرق العسكرية المرصوفة بالحصى، يمكنهم أن يدفعوا بالجيوش على بعد مئات الكيلومترات لمواجهة قوات العدو الأكثر شراسة، التي لا يُستهان بها على الأقل بسبب أعدادها الهائلة. كان جنرالات روما دائماً قادرين على تحشيد قوة كبيرة بما يكفي لإلحاق هزيمة فورية ومنكرة

بأعدائهم. كان أكثر من تبنيا هذه الاستراتيجية هما القائد الروماني ماريوس ويوليوس قيصر. لكن ذلك كان قبل خمسمائة عام، ولم يكن الإمبراطور فالنس مثل يوليوس قيصر.

تمّ تغيير مستقبل الإمبراطورية بسبب نوبة من الغيرة المجنونة. اجتاحت مشاعر الحسد فالنس بسبب النجاحات التي حققها ابن أخته غراتيان على القبائل الألامانية، وكذلك تلك التي حققها مرؤوسه، الضابط (برتبة تريبيون) سيباستيانوس، الذي نجح، مع قوة بسيطة نسبياً، في تأخير زحف القوط في سلسلة من الغارات الجريئة. وبصحبة خمسين ألف جندي، وصل الإمبراطور إلى أدريانوبوليس عشية الثامن من آب عام 378 م. وهناك تمّ إبلاغه بأنه سيواجه القوط الغربيين فقط، ورأى بذلك فرصة جيدة لتصحيح الأمور. في الواقع لقد ذهب القوط الشرقيين للقيام بغارة. لم يكن الإمبراطور فالنس يرغب بأن يشاركه أي شخص آخر في النصر الذي من شأنه أن يرفعه إلى قمة هرم أمجاد روما. لقد اتخذ قراراً متهوراً بعدم انتظار وصول الجيش الروماني الثاني تحت قيادة شريكه في الحكم غراتيان، الذي كان قادماً بسرعة نحو أدريانوبوليس من الشمال. لم يأخذ غراتيان استراحة سوى ثلاثة أيام فقط، ومع وجود خمسين ألفاً إضافياً من مقاتلي الجحافل المدربين والمدججين بالسلاح مع مقاليعهم ومنجنيقاتهم، فإن الإمبراطور فالنس لن يتمتع بتفوق عددي ساحق فحسب، بل كان سيحاصر القوط الغربيين بين فكي كماشة. لكن ما هو الثمن؟ كان عليه أن يقبل أن يشاركه انتصاره ابن أخيه المغرور. سار فالنس بجيشه من دون السماح لرجاله بالراحة مباشرة نحو معسكر القوطيين. «أريد أن أمحوهم عن وجه الأرض، وليس مجرد إلحاق الهزيمة بهم. أريد أن أقتل الكثيرين منهم لدرجة تجعلهم يرتعشون حينما يسمعون باسم الإمبراطور أوغسطس فالنس».

لكن حادثة واحدة حسمت القضية. قبل خمسة أيام من ظهور فالنس مع جحافله، التقى فابيوس توليوس، مبعوث القائد سيباستيانوس، مع

زعيم القوط الغربيين فريتيغيرن. كانت مهمته ذات شقين: محاولة وقف تقدم القبائل القوطية من خلال تقديم تنازلات لهم، والأهم من ذلك، أن يجلب له معلومات عن حجم قواتهم ومواضعها. بينما كان في طريقه إلى خيمة زعيم القوطيين، كان فابيوس توليوس يلقي نظرة سريعة حول معسكر عربات الخيل. لم يثر اهتمامه ما وقع نظره عليه. بدا معسكره وكأنه قافلة لمجموعة من الغجر أكثر من كونه معسكرَ جيشٍ منظماً جيداً.

تحدث المبعوث قائلاً: «يا أمير القوط، من الأفضل لك حماية أراضيك من طاعون قبائل الهون المتجه من الشرق بدلاً من مواجهة قوات الإمبراطور».

نظر فريتيغيرن، الذي كان بصحبة محاربيه الأشداء بصرامة، إلى المبعوث الروماني وقال له: «يبدو لي أن قائدك يمرِّغ وجهه في التراب متوسلاً من أجل الحصول على السلام. فليمرغ إمبراطوركم وجهه في التراب نفسه. استدر وارجع إلى رئيسك. أخبره بأننا نحن الذين يجب أن ننتقم من القتل الدنيء لأميرنا من قِبل إمبراطوركم». أومأ المحاربون برؤوسهم وضربوا الأرض بأقدامهم. وأضاف فريتيغيرن مع ابتسامة: «وعلاوة على ذلك، لا يوجد كنز يمكن العثور عليه مع قبائل الهون».

نظراً لأن فابيوس توليوس لم يلتقِ سوى بفريتيغيرن زعيم القوطيين الغربيين فقط، ولم يشاهد سوى المحاربين القوطيين الغربيين في المخيم، فقد ترك ذلك لديه انطباعاً خاطئاً بأن القبائل القوطية قد تفرقت وأن كل ما سيتعين على الجيش الروماني مواجهته هم القوط الغربيون فقط. عند عودته، نقل ملاحظته إلى سيباستيانوس، الذي نقلها بدوره إلى إمبراطوره. لقد مثّلت تلك الحادثة حالة نموذجية للمعركة التي يشعلها أحد المتحاربين الذي تصرف بناء على معلومات استخباراتية خاطئة. لأن ما لم يكن يعرفه الرومان هو أن فريتيغيرن قد تمّ اختياره من قبل جميع القبائل كقائد عام لها، وإن كان يشرك في القرارات العسكرية أميري القوط الشرقيين ألاثيوس وسافراكس، وفي يوم زيارة فابيوس توليوس،

كان العديد من محاربي القوط الغربيين يبحثون عن اللحم الطازج، فيما ذهب القوط الشرقيون للمشاركة في سلسلة من أعمال النهب.

اعتمد فريتيغيرن على بقاء فالنس في أدريانوبوليس بانتظار وصول جيش غراتيان، وفوجئ عندما علم أن الإمبراطور تجنّب دخول أدريانوبوليس وكان متوجهاً إليه. مباشرة لم يُضِع فريتيغيرن وقته. أرسل السعاة للحاق بركب ألاثيوس وسافراكس واستدعاء مقاتلي القوط الشرقيين. احتاج فريتيغيرن من أجل الوقوف بوجه جحافل الإمبراطور، والتي كان يعتقد أنه تمّ تعزيزها بالفعل من قبل رجال غراتيان، إلى مقاتلي القوط الشرقيين ليقفوا إلى جانبه في المعركة التي أدرك أن عليه خوضها الآن. لقد فات الأوان على تفكيك خيم المعسكر وهجره؛ وبسبب الأعداد الغفيرة من النساء والأطفال والماشية فإن القيام بعملية انسحاب استراتيجي كان أمراً شبه مستحيل. كان فريتيغيرن يأمل فقط في أن تصل رسالته إلى قادة القوط الشرقيين في الوقت المناسب.

على جميع التلال المحيطة بالمخيم، كانت النيران مشتعلة وتتوهج في الصباح الباكر. عندما انتشرت الشائعات الأولية حول وصول طلائع قوات الرومان وانتشارهم في المخيم، تجمع حشد هائل أمام خيمة فريتيغيرن. الذي كان عليه أن يطمئنهم.

عندما كانت روما لا تزال دولة لا تُقهر، كان الفرق الوحيد بين القادة والجنود العاديين هو مجرد شريط على السترة. لكن اليوم، يرتدي الأرستقراطيون ثياباً فضفاضة من الحرير وذات لون أرجواني، لم يعودوا يركبون الخيول، بل يضعونها أمام عربة مطلية ثم يجلسون على وسائد حرير لتنقلهم العربة إلى ممتلكاتهم من الأراضي الشاسعة العظيمة على طول الساحل، وكان كل واحد من أباطرتهم يريد أن يرى صورته في أعلى التماثيل ارتفاعاً وأكثرها إثارة للإعجاب، وقد وضعت في وسط أحياء المدينة، ولا يشعرون بالرضى إلّا عندما يزيِّن الناس تماثيلهم الحجرية بالذهب.

لقد استغل فريتيغيرن حقيقة أن القوط، كونهم شعباً من البدو الرحل، لم يكونوا بحاجة إلى أي رموز دائمة. هزّ أفراد حشد الناس المتجمع رؤوسهم حينما قال لهم. ولا حتى أعظم الملوك لم يفكر أبداً في وجود تمثال يقام على شرفه! «لكن هل تعرفون ما هو الأسوأ؟»

«أخبرنا، يا فريتيغيرن». صاح الناس.

«الأسوأ هو أنهم يهينون زوجاتهم ويمارسون متعتهم مع فتيان جميلين».

ارتفع صياح الجماهير اشمئزازاً؛ بالنسبة لهم لم يكن هناك شيء أكثر دناءة من الشذوذ الجنسي.

هناك ذهب وهناك نساء تحت تصرفكم. ويمكنكم أخذ كل شيء. قوة الإمبراطورية الرومانية ترجع إلى الحظ. لذلك، يجب التصرف في الوقت المناسب. الإرادة والقوة وحدها ليست كافية للتغلب عليها. الشيء نفسه ينطبق علينا. ولحظتنا المناسبة هي الآن!

رفع القوطيون أسلحتهم. «يا ويلكم منا، أيها الرومان، يا ويلكم منا، إننا القوطيون، نحن الرعب، نحن الشيطان...».

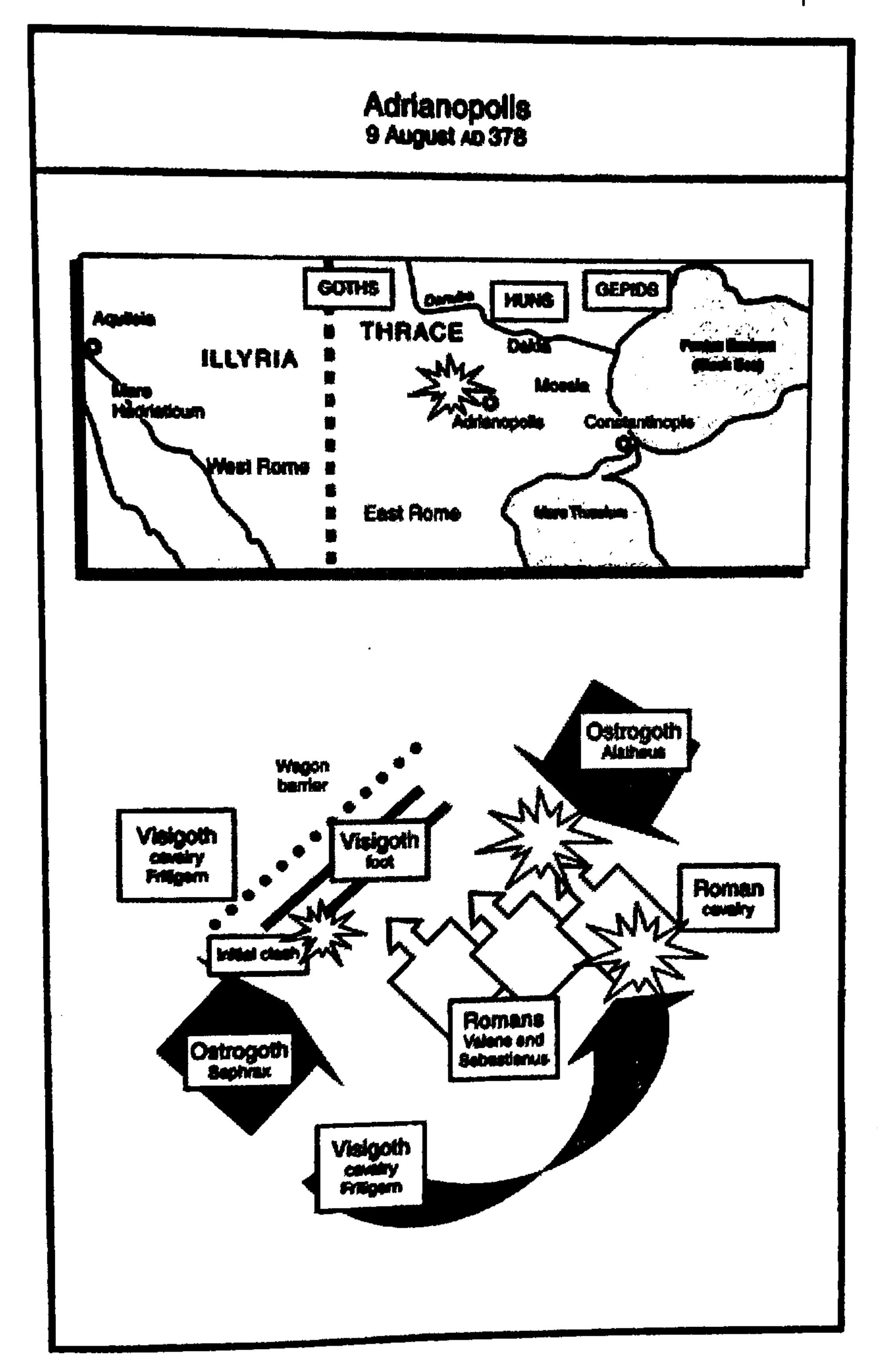
صعد فريتيغيرن على سرج حصانه. أشرق في وجهه الفخر، ولكن الغضب ملأه كذلك. كان الأمر كما لو أنه اكتشف للتو أنه لن يكون هناك سلام بين الرومان وقبيلته القوطية. لقد كان محقاً؛ كانوا يعيشون تحت السماء نفسها، ولكن في عالمين منفصلين.

انضمت قوة سيباستيانوس إلى قوات الإمبراطور فالنس خارج أدريانوبوليس، وبهذه القوة المشتركة تقدم الإمبراطور مباشرة إلى معسكر القوطيين. كان لديه ستين ألف رجل مقابل مائتي ألف من القوط الغربيين. لكن رجاله كانوا مدربين ومسلحين بشكل أفضل، ومنضبطين. قادتهم رحلتهم للسير على طول وادٍ تحدّه التلال؛ لقد اختار الوادي لأنه يمثل أفضل ساحة قتال لتشكيلاته، التي كانت تتكون في الغالب من قوات المشاة. في الليلة التي سبقت المواجهة، كان العديد من رجال سلاح

الفرسان لديه، وهم من الفرسان القوطيين الأشداء الذين كانوا يتقاضون أجورهم من روما، قد تركوا معسكره وانضموا إلى إخوتهم في الدم. كان ذلك موقفاً يثير الجنون: فالفرسان الذين يرتدون الزي العسكري الروماني ويحملون السيوف الرومانية سيقفون في وجهه. فقرر أنه بمجرد أن يكسب المعركة، سيقتلهم جميعاً. لكن كان عليه أن يحقق النصر أولاً.

في يوم التاسع من آب سنة 378 م. تسلقت الشمس بسرعة الأفق. لن يرى الكثيرون غروب الشمس. بدأت المعركة باشتباك عشوائي شارك فيه الجميع. سار الرومان إليها دون خطة أو إعداد، وقابلهم القوطيون بالمثل، مثل اثنين من السلاحف العملاقة زحفا نحو بعضهم البعض، اشتبك مقاتلو القوات المساندة الرومانيين المدججين بالسلاح فجأة مع عدد من المحاربين القوط الغربيين. بدأ القتال بالصراخ والشتائم من الجانبين؛ اصطدمت القوات البرية ببعضها البعض. لا أحد يريد أن يتزحزح من مكانه. خرجت الأمور عن السيطرة تماماً حين قفز المزيد من المحاربين نحو ساحة القتال، حتى اندلعت معركة منتظمة؛ جرى كل ذلك دون أدنى تدخل من جانب قادتهم المحترمين، الذين جلسوا على خيولهم يغلب عليهم الارتباك كما هو حال مقاتليهم الذين على الأرض. لم يكن هناك أدنى احتمال للنصر، بالنسبة لأي من الطرفين؛ لم يكن لدى أي أحد استعداد لأن يستلّ سيفه ويدخل أتون المعركة. كانت الفوضى كبيرة لدرجة أنه حتى القادة لم يعد بإمكانهم تمييز الصديق عن العدو، خاصة بوجود الزي الروماني الذي كان يرتديه المقاتلون الذين فروا من معسكر الرومان. استمر هذا الصراخ لنحو نصف ساعة حتى استنفد كلا الجانبين قواهما لدرجة أنهما بدآ ببطء في فك الاشتباك. كان الرومان، الأكثر انضباطاً وتدريباً، أول من استجاب لذلك. انتظموا في تشكيلات قتال ودعموا جنود مشاتهم من الخلف بمعدات الحصار والمقاليع. كانت تنطلق زخات من القذائف الفولاذية من المنجنيقات المروعة ليدوي صفيرها عبر الهواء، لتنفجر بكاملها في حشود القوط الغربيين

الذي كانوا بلا قيادة. تدحرج العشرات من الرجال على الأرض، وقد مزقتهم القذائف الفولاذية.



انطلق فريتيغيرن قائد القوط الغربيين في جميع أنحاء ميدان القتال، وهو يصدر الأوامر بصوت عال، في محاولة للحصول ولو على القليل من النظام في خطوطه القتالية. كان يدرك أن كل غارة يقوم بها الرومان، ستتبعها على الفور تقريباً واحدة أخرى. كل ما كان بإمكانه فعله هو أن ينظر ويراقب بينما كان يندفع رعاعه غير المنضبطين للاشتباك مع مقاتلي القوات المساندة للجيش الروماني والذين كانوا غير منضبطين أيضاً في قتال محموم بالأيدي. لم يساعد ذلك فالنس، الذي لم يستطع المهاجمة بجحافله بشكل منسق بسبب حدوث هذا القتال الجانبي، لكن هذا القتال منح فريتيغيرن فسحة من الوقت. فأمر بنقل العربات إلى أسفل التل، حيث اصطفت بعضها بجانب البعض وشكلت حاجزاً دفاعياً عبر قاع الوادي. الشيء الآخر الذي نجح في فعله هو منع فرسانه من التقدم للأمام للانخراط في المذبحة التي لا معنى لها. عندما نظر بعد ذلك عبر قاع الوادي، رأى كيف تمكنت وحدات السنتوريين[20] من السيطرة على مقاتليها. بعد أن استعدت كتائب المشاة الرومانية ورفعت أعلام القتال، حينها اقتربت اللحظة الحاسمة بالنسبة للقوطيين. كان فريتيغيرن لا يزال ينتظر الأخبار من القوط الشرقيين ما لم يتمكن من جعل محاربيه يخرجون من هذه المواجهة غير المجدية وينشئ منهم تشكيلاً يمثل خطاً صلباً أمام العربات، فإن هناك كارثة في انتظاره.

كان فالنس يعرف أن رجاله كانوا متفوقين إلى حدّ كبير على شلة من المحاربين البرابرة الذين يواجهونه. حتى لو تمّ تشكيله ببطء في صف واحد، فإن هذا القطيع من كلاب الصيد يمكنه أن يعضّ يده، لكنه لن يخرج منتصراً. لقد بصقوا على العهود التي وقّعوها مع الإمبراطورية الرومانية لأنهم اعتقدوا أنهم أقوى من الجحافل الرومانية. كانت هذه الأفكار خطيرة، لأنها منحتهم القوة. لم يكن فالنس يريد الانتصار في القتال فقط؛ إنما كان يريد إبادة القبائل. ومع ذلك، فقد حرص على عدم ارتكاب خطأ فادح،

20- هي وحدات قتالية رومانية مكوّنة من مئة مقاتل. المترجم.

كما فعل شقيقه فالنتينيان عندما لقي حتفه. على طول حدود الدانوب، قلّل فالنتينيان من إرادة القوط وشجاعتهم. لقد كانت أمة قديمة ذات عادات ومعتقدات فطرية، وكانت إحدى هذه المعتقدات أنهم أمة لا تُقهر.

رفع فالنس يده لإيقاف حراسه. لقد أراد أن يقود حصانه بمفرده والنظر إلى عيون هذا المقاتل المتغطرس من القوط الغربيين قبل أن يجعله ينحني ويضع قدمه على رقبته. كان قد تقدم بالكاد بضع خطوات عندما بدأ يدوي صوت بوق القوطيين. التفت وهو على سرج حصانه لمواجهة رجاله، الذين هتفوا له بقوة.

حاول سيباستيانوس أن يحذّره من أن «رجالنا بحاجة إلى الراحة يا سيدي الإمبراطور».

فقال فالنس: «اللعنة عليهم، اترك وقتاً للخوف لينمو بين البرابرة». لقد كان يأمل أن البرابرة إما أن يهاجموا خطوطه أو ينكسروا عند رؤية جحافله المحتشدة ويهربون. لم يفعلوا ذلك أيضاً. رفع الإمبراطور يديه. تقدم الآلاف من مقاتلي الجحافل بخطوات متناسقة، من خلف جدار من الدروع. لقد كان مشهداً مخيفاً، كان قد أثار الرعب في قلوب أعدائهم على مدى قرون عديدة. وفجأة ترددوا ثم توقفوا. يبدو أنه قد حدث اضطراب بين المقاتلين عندما حدّقوا في نقطة ما بعيدة جداً في الأفق، على ضوء الكثير من الدروع التي كانت تلمع في ضوء الشمس، وكانت بعيدة جداً فلم يستطيعوا التعرف على لون أعلام المعركة المرفوعة. كانت هذه بالتأكيد طليعة قوات مساعد الإمبراطور غراتيان، التي تحركت بشكل أسرع من المتوقع. شعرت العديد من الوحدات الرومانية بالبهجة. فقد كانت قواتهم الاحتياطية تظهر من خلف العدو. كانوا سيصطادون القوط الملعونين وهم واقعون في الفخ وسوف تكون نتيجة معركتهم انتصاراً سهلاً.

لاحظ فريتيغيرن أيضاً شيئاً غير عادي. تجاهل رجاله، ونظر إلى صف مقاتلي الجحافل الرومانية الذين كانوا يتقدمون ببطء مرة أخرى عبر المنخفض الأرضي الواسع الذي يفصل ما بين اثنين من التلال

المتموجة. بالنسبة لفريتيغيرن، فقد حان الوقت لبث العزم في صفوف محاربيه. فاندفع على طول صف العربات المتراصفة بإحكام وخاطبهم قائلاً: «كونوا شجعاناً، يا محاربي القوط. إما أن نقاتل من أجل كل شيء أو يجب أن نموت». بعنف صاخب، رفع القوطيون دروعهم وسيوفهم ثم اندفعوا من وسط جدار العربات مباشرة نحو الكتائب الرومانية. كان فريتيغيرن في المقدمة على ظهر جواده الضخم، يتقدم بسرعة عبر الأرض الرطبة، وجواده ينثر الوحل بحوافره. توجه مباشرة نحو قائد تشكيل السنتوريين الروماني الذي كان يحمل ريشة أرجوانية على خوذته، وسار بمهل من أمام صف مقاتليه. أمسك زعيم القوط اللجام بيده اليسرى وامتشق سيفه البربري الطويل. بضربة واحدة قام بقطع رأس قائد تشكيل السنتوريين، كان عملاً فذاً شاهده برهبة الرومان والقوط سويةً.

وضع الرومان دروعهم على الأرض وشكّلوا منها جداراً صلباً. ثم انتظروا تأثير ذلك. ظلت الأجواء من حولهم ساكنة لعدة دقائق... استدعى فالنس أفراد سلاح الفرسان الروماني الموجود؛ جاء بضع مئات منهم وهو يدورون بخيولهم حول الجناح الأيمن، وتحركوا بشكل أسرع وأسرع. أصبح هدير حركتهم يصم الآذان... ثم جاء القوطيون واصطدموا بالمئات منهم. تمكنت النار القاتلة الصادرة من الأقواس الرومانية من شلّ المحاربين. وبسرعة شديدة استداروا، في محاولة للهروب من وابل القذائف التي كانت تصبّها المقانيع المخيفة لقوات الإمبراطور فالنس. الذي أرسل فرسانه إلى الجحافل لنقل أوامره بالشروع في شنّ هجوم عام.

كان الرومان على بعد ثلاثمائة ياردة من معسكر القوطيين عندما جاءهم فارس وهو يندفع مسرعاً من أعلى التل، وجسده يتمايل فوق سرج حصانه. كان الدم يتدفق من جرح غائر في صدره. وسط ألم شديد، انزلق عن حصانه وتوجّه مترنحاً نحو المجموعة المحيطة بإمبراطوره: «سيدي الإمبراطور، البرابرة قادمون...». تمكن من الهمس بهذه الكلمات قبل

أن يسقط على الأرض. أي برابرة؟ كان الرجل ميتاً والموتى لا ينقلون أخباراً. أصبح وجه فالنس شاحباً ومنشغلاً بالتفكير. البرابرة؟ لا يمكن أن يكون الأمر صحيحاً.

عندما كانت طلائع قوات الإمبراطور على بعد مائة خطوة فقط من خط العربات، وكانت أبواق حرب الجحافل تطلق صفير الهجوم الأخير، كان هناك فجأة تحرك على سفوح التلال المتواجدة فوق ساحة المعركة. إنهم البرابرة! وصل الفرسان القوط الشرقيين من الشرق! في الواقع، وكما هو الحال عندما كانوا يصطادون الحيوانات البرية، فقد أخفوا عملية وصولهم من خلال الدوران حول أنفسهم في دائرة واسعة. لقد تتبعوا صوت المعركة، وبمجرد أن أصبح بإمكانهم سماع صليل السيوف، انقسموا إلى مجموعتين، واحدة تحت قيادة ألاثيوس، والثانية بقيادة سافراكس. كانت المفاجأة كاملة. بدت حشودهم وكأنها موجة اجتاحت قمة التلتين؛ كانت قريبة، وقريبة جداً بحيث لم تكن الجيوش الرومانية المتقدمة وقادتها قادرين على الرد في الوقت المناسب. أمر فالنس جحافله بالاستدارة ومواجهة أجنحة سلاح فرسان القوط الشرقيين، ولكن الأوان كان قد فات على جعل هذه المناورة فعّالة. نزل الفرسان القوطيون من التلال على جانبي الوادي. كان هناك الكثير منهم وكانوا قريبين من بعضهم البعض لدرجة أن ركبهم كانت تتلامس.

قبل اشتباكهم، انتشروا في ترتيب مفتوح وكان المقاتلون الذين يقودهم ألاثيوس في الوسط. بعد عشرين خطوة وراءهم كان يأتي خط آخر من الفرسان القوطيين. وهكذا فقد انتشروا على مساحة واسعة، لكنهم ما زالوا قادرين على الالتفاف من حول الرومان. في الوقت نفسه، وصل جنود مشاة القوط الغربيين إلى صفوف الرومان؛ اصطدمت السيوف بالسيوف، والأجساد بالأجساد، مما جعل من المستحيل عملياً بالنسبة لجحافل الرومان أن تستدير وتواجه الفرسان. بدأت الأبواق الرومانية تصدر نداءات التراجع بشكل متواصل، ولكن بالنسبة للكثيرين

لم تكن هناك إمكانية للتراجع. غطت سحابة كثيفة من الغبارعملية كان أفضل وصف لها هو المذبحة الجماعية.

ألقى فوجان كاملان -بقيادة ضباط رومان ولكن مقاتليهم كانوا من القوات المساندة من إقليمي إيليريا وتراقيا- سيوفهم واستسلموا. وتم تجميعهم سريعاً واقتيادهم خلف حاجز العربات بواسطة عدد من المحاربين. وهناك كان عليهم أن يواجهوا مجموعة من النساء القوطيات، اللواتي يصرخن بهستيريا ويتوعدنهم وهن يتسلحن بأدوات متنوعة من الشوكات إلى سكاكين المطبخ. تطلب الأمر بعض الجهد الهائل قام به حراس القوط الغربيين لمنع نسائهم من قتل الأسرى. وبالنسبة لهم فقد انتهت الحرب وبات مستقبلهم غير مؤكد. فإذا انتصر الرومان، فسيتمّ إعدامهم بتهمة التخاذل، وإذا انتصر القوط فسيكونون عبيداً لهم.

أوجد استسلام مقاتلي القوات المساندة للإمبراطور فالنس ثغرة كبيرة في الجهة اليمنى للقوات الرومانية. قام فريتيغيرن، بتحشيد الفرسان القوط الشرقيين، وجعلهم يصنعون دائرة وراء مسرح المعركة واصطدموا بمؤخرة قوات الرومان. وقاموا باجتياح الجحافل الرومانية بينما كانت عاصفة رملية تجتاح الصحراء. أما أولئك الرومان الذين واجهوا موكب القوط الغربيين فقد أجهدوا أنفسهم ببساطة. سقطت الفؤوس على الرؤوس، وانشطرت الدروع الواقية للأبدان تحت ضربات السيوف العشوائية ومئات الرماح التي كانت تتقاطر عليهم. وبعد أن تخلى عنهم مقاتلو القوات المساندة، وأُغْلِق الطريق عليهم من الأمام بواسطة حاجز من العربات وآلاف من قوات مشاة القوط الغربيين، فيما كانوا يتلقون الضربات من الجوانب على يد جناحين من سلاح فرسان القوط الشرقيين، وهوجموا من الخلف من قبل الخيالة القوط الغربيين، استمر الرومان في القتال، وما كان يبدو مثل انتصار مؤكد تحوّل بسرعة إلى سباق مع الموت. أدّت الهجمات الشرسة على جحافلهم إلى تقسيم تشكيلات القتال الرومانية إلى أفواج منفصلة، حتى صارت مجموعات

صغيرة فقط تقاتل وحدها. في هذه اللحظات الوحشية من الاشتباكات بالأيدي، لم تميز عمليات قطع الرقاب بالسيوف بين الصديق والعدو. كان عزاؤهم البسيط أنهم لم يكن لديهم أي وسيلة لمعرفة مَن الذي ذُبح وبسيف مَنْ. بدأت الجيوش تضعف، وقوتها تُستنزف، فيما قامت الأفواج بصنع أكوام لجثث من سقطوا. ليس من الغريب أن صمت الموتى كان يضطرهم إلى الاستماع إلى صرخات الجرحى المؤلمة، المحكوم عليهم بالموت المؤكد، والذي استنزف إرادة الرومان في القتال. كان تفكيرهم الوحيد يتركز في إنقاذ حياتهم عن طريق الهرب. وقد وجدوا كل منفذ للخروج مغلقاً من قبل جحافل الخيالة القوط المسعورين، الذين كانوا يوجهون الضربات لجميع الهاربين. ولكن لم ينج ولا واحد منهم.

تلاشى صخب الضوضاء. تناثرت في ميدان القتال أكوامٌ من الجثث، حيث وقف الرجال الشجعان في ساعة صمودهم الأخيرة. عندما أصبحت الشمس في أوجّها، بدت أبواق الحرب للقوطيين تصدح بأصوات نهاية المعركة التي انتصروا فيها. لقد تركوا جثث موتى العدو وأشباه الموتى لينهشها بنات آوى والطيور الجارحة. في المساء بدأت الرياح تهبّ وتغطي ساحة المعركة، وهي تحمل بقايا الجثث، التي شكلت طبقة رقيقة من الغبار الناعم.

في وقت لاحق، وبينما كان الباحثون في النفايات البشرية يقومون بتجريد الموتى من الأشياء الثمينة، عثرت دورية لمقاتلين قوطيين على الإمبراطور فالنس مصاباً بجروح لكنه لا يزال على قيد الحياة. قاموا باقتياده للمثول أمام فريتيغيرن المنتصر، قدم الإمبراطور لزعيم القوط فدية ضخمة من أجل الحفاظ على سلامته. رفض الأمير القوطي قبولها؛ أراد أن ينتقم من الفعل المخزي الذي ارتكبه الرومان، ولا شيء أقل من ذلك. لا تسرد كتب التاريخ كيف تمّ قتل الإمبراطور الروماني، فهي تذكر فقط أنه وضابطه (التربيون) المخلص سيباستيانوس، وجميع الأسرى الرومانيين، قد قُتِلوا.

بعد أن حققوا النصر وأصبحت إدريانابوليس في متناول أيديهم،

كان القوط على وشك التوجه إلى البلدة عندما وصل جنود الاستطلاع إلى المعسكر، وأعلنوا أن جيش غراتيان قد وصل أخيراً، وهذا يعني أن المدينة باتت تدافع عنها قوة ضخمة من جحافل الرومان. ولم يسبق لجيش القوطيين، الذي هو في الأساس جيش خيالة سريعي الحركة أن تعلّم أبداً التعامل مع جدران القلاع الضخمة، تحول القوطيون بعيداً عن أدريانابوليس وقاموا بتدمير تراقيا. تدميرهم الوحشي هذا لكنوز اليونان القدماء الرائعة والمعابد والآثار والكتاب المقدس، جعل التاريخ يخلدهم بلقب: «القوط الهمجيون»[21].

في واحدة من المعارك العديدة التي دارت بين قوات النهب للقوط الغربيين والقوات الرومانية التي صمدت بقيادة الضابط (التريبون) بروموتوس، قُتل الأمير فريتيغيرن (383 م).

من خلال القضاء على «الجيش الروماني الأخير» بقيادة الإمبراطور فالنس، أصبحت معركة أدريانوبوليس نقطة تحول في التاريخ. لقد جردت الإمبراطورية الرومانية من دفاعاتها وأدت تدريجياً إلى انهيارها. وأحدثت ثورة في التاريخ العسكري: حيث تراجعت قوة المشاة أمام تشكيلات الفرسان. تمّ تحطيم جحافل روما تحت حوافر خيول الفرسان البرابرة. في عدة مناسبات في تاريخها، عانت روما من عدد من الكوارث الماحقة، لكنها لم تكن حاسمة أبداً. أما معركة أدريانابوليس فقد كانت صراعاً ملحمياً. فقد هزّت الإمبراطورية من أساساتها[22]. وقد فاقت التهديد الذي مثّله هنيبعل بعد معركة كاناي، وأثبتت معركة أدريانابوليس أنها نقطة تحول حاسمة في التاريخ. بعد هزيمة الإمبراطور فالنس، ظلت الإمبراطورية الرومانية لمدة خمسمائة عام تواجه الانهيار.

21- يشير مصطلح القوطية إلى نوع من الكاتدرائيات التي كانت موجودة في العصور الوسطى التي تعبّر عن الأسلوب البربري في تشييدها، ومن عمليات التدمير التي قاموا بها في تراقيا.

22- راجع: Prof. M. Bang, Cambridge Medieval History (vol. 1).

بدأت فصول الدراما في أدريانوبوليس عندما أخطأ أحد الجواسيس وأسس إمبراطور تحركاته الاستراتيجية على معلومات خاطئة. وقد تفاقم الأمر بسبب عدم الالتزام بالمنطق التكتيكي حينما دفع هذا الإمبراطور المهووس بالنصر جيشه ضد عدو منقسم، دون أن يستطلع عن مكان القوة الرئيسة الأخرى للعدو. وبضربة حظ، ومع الظهور المفاجئ وغير المتوقع لحشود الفرسان الساحقة، حُسِمت المعركة.

جعلت المعركة من القوط قوة كبرى، وتبدد الاعتقاد الروماني بأن الجنس البربري أدنى مرتبة منهم. في معركة أدريانابوليس، دُمِّر آخر جيش روماني، وبذلك أصبحت نهاية الإمبراطورية الرومانية أمراً لا مفرّ منه.

الفصل السابع عشر

عندما تنهار روما، سينهار العالم أيضاً
سقوط روما
24 آب عام 410 م

«ظهر الملك ألاريك أمام روما المرعوبة، وحاصرها، ونشر الفوضى واقتحم المدينة».

- *من كتاب المؤرخ أوروسيوس،*

كتب التاريخ السبعة ضد الوثنيين.

عام 414 م[1].

شعر الحاكم الروماني المسؤول عن منطقة جبال الألب الجوليانية بالانزعاج. ظلت حدوده هادئة لعدة سنوات، ومثلما كان يعتمد في عزلته على إيرادات عقاراته الغنية الواقعة بالقرب من هيركولانيوم وترك شخصاً آخر يقلق بشأن المقاطعة الملعونة، فقد استيقظ مذعوراً من أحلام يقظته حينما تجرأ فارس على الإعلان عن غزو البرابرة. لم يكتشف جنود الاستطلاع سوى حفنة من الخدم الذين يرافقون القوات وهم على أحصنتهم، لكنه كان يعتقد أنه قد تكون هناك قوة أكبر تسير خلفهم.

حينها قال الحاكم يوليوس غايوس ليسينيوس، الذي كان يعلم أنه لم

1- راجع Orosius, Historiae adversum Paganos, transl. Rome, 1882.

يكن جنرالاً عظيماً: «علينا أن نذهب إلى التلال لتلقينهم درساً. لقد مرّ وقت طويل منذ أن قمنا برحلة استكشافية. هذه المرة سوف نقوم بتدمير هؤلاء البرابرة، ولا نكتفي بهزيمتهم، لكننا سنقتل الكثير منهم حتى لا يعودوا أبداً!». لقد شعر أنه مع جحافله المنظمة من القوات المساندة من قبائل الإيلاريين، يمكنه التعامل سريعاً مع هذه الغارة. وذلك من شأنه أن يعطي هؤلاء المقاتلين القذرين، الكسولين، شيئاً يفعلونه. لكن يوليوس غايوس ليسينيوس لم يدرك، ولم يحاول أن يعرف ما الذي كان ينتظره. بعد عدة أسابيع مات، وكذلك كان حال من تبقى من فيلقه. فهم لم يواجهوا قبيلة صغيرة من البرابرة، ولكن المنتصرين في معركة أدريانابوليس، القبائل القوطية!

مع انتقال الوصاية على عرش الإمبراطورية الرومانية الغربية إلى الإمبراطور هونوريوس، الذي كان ذا شخصية كريهة وماكرة بشكل مفرط سرعان ما انتقلت عدوى المناخ الذي كان يعيش فيه البلاط والذي يتسم بالميوعة إلى مقاتلي الجحافل. فلم يعودوا يشتكون من الأجور المنخفضة فحسب، بل يشكون أيضاً من وزن خوذاتهم ودروعهم الواقية. انهار الانضباط[2] وتمّ التخلي عن التدريب وأصبحت التمارين العسكرية مستهجنة، فقد السيف الروماني الرهيب مهابته. منذ وقوع الكارثة في أدريانابوليس، حط جيش روما الفاقد كفاءته من قدره أمام أعدائه. عندما واجههم عدو شجاع، فضلوا عار الهروب على الصمود والإصرار الذي قاد أسلافهم إلى العظمة. ومرة أخرى كانوا في مواجهة مثل هذا العدو، أمة محاربة شرسة على استعداد لاستخدام القوة البدائية والعنف الجامح لنهب روما الخالدة. وكان يقودهم أحد المحاربين العظماء في عصره، وهو ألاريك القوطي.

انضم ألاريك، أمير القوط الغربيين، إلى جيش الإمبراطور ثيودوسيوس كقائد للخيّالة. أثناء خدمته في الجيش الروماني، استغل الشاب ألاريك

2- عن فيجيتيوس الذي كان مؤرخاً عسكرياً معاصراً.

وقته جيداً وتعلم كل ما في وسعه من قضايا الاستراتيجية العسكرية، التي كان يخطط لاستخدامها ضد مدربيه العسكريين. في عام 390 م، قاد مجموعة من الخيّالة القوطيين ليغير بهم عبر نهر الدانوب، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يختبر فيها هذا العدو المستقبلي دفاعات روما. تمكن الإمبراطور ثيودوسيوس، الذي تحدى سلطة الإمبراطور فالنتينيان الثاني ونازعه على التاج واضطر إلى خوض حرب أهلية، من إيقاف تقدم ألاريك من خلال عرض إجراء محادثات للسلام معه. في غضون ذلك، اغتصب جنرال روماني، هو ماغنوس كليمنز ماكسيموس، تاج غراتيان وواجه ثيودوسيوس في إحدى المعارك. بمساعدة جنرال من قبائل الفاندال وهو الشاب اللامع، ستيليكو، تمكن ثيودوسيوس من هزيمة مكسيموس. بهذا الانتصار، اتحدت الإمبراطورية الرومانية للمرة الأخيرة تحت قيادة حاكم واحد، هو ثيودوسيوس، الذي كان يقيم في القسطنطينية. أصبح ستيليكو «المحافظ على السلام» بحكم الأمر الواقع. بعد وفاة ثيودوسيوس، انقسمت الإمبراطورية بين ولديه غير الأكْفَاء، أركاديوس في الشرق وهونوريوس في الغرب.

أصبح هونوريوس قيصر الإمبراطورية الغربية الجديدة، لكنه كان إمبراطوراً بالاسم فقط؛ كانت كل السلطة تقع بيد ستيليكو، القائد العسكري صاحب المهارة والجرأة الكبيرة. كان الإمبراطور هونوريوس يكره ستيليكو بسبب نجاحه ونبله وشعبيته، لكنه كان الوحيد القادر على إنقاذ الإمبراطورية. أبقت سياسته المتسامحة البرابرة عند حدودهم، واستمروا في تزويد جحافل روما بالجنود. أصبح محبوباً جداً من قبل جحافل القوات المساندة لدرجة أنهم اعتبروه والدهم، وحاربوا من أجل ستيليكو مثل بعض أفراد جيشه الخاص.

في الوقت الذي أبقت فيه الاضطرابات الداخلية الإمبراطوريتين الرومانيتين منشغلتين على الدوام، بدأ خطر جديد يلوح في الأفق وينذر بالسوء قادماً من الشرق: فقد واجهت قبائل الهون بقيادة الملك أولدين

نفاد أراضي الرعي لقطعان خيولها الهائلة وبدؤوا في الاتجاه غرباً. ونتيجة لذلك، قام ألاريك ملك القوط الغربيين المنتخب حديثاً بخرق المعاهدة التي كان قد وافق عليها من قبل مع ستيليكو وشنّ غارة جديدة على منطقة تراقيا (395 م). وتجول في مناطق الريف كما شاء، وكان مقاتلوه القوطيون ينهبون ويقتلون. في محاولة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، سار ستيليكو مع جحافله لمواجهته، ولكن صدرت له الأوامر بالخروج من تراقيا من قبل أركاديوس الإمبراطور الشرقي الروماني، الذي كان أكثر اهتماماً بوجود جنرال قبائل الفاندال وجيشه الخاص إلى جانبه من اهتمامه بالدمار الذي لحق بأراضيه على يد المهاجمين القوطيين. وكان محقاً من إحدى النواحي؛ فقد كان ستيليكو هو رجل الساعة، فليست سوى براعته هي من استطاعت الحفاظ على الإمبراطورية الرومانية المتداعية من الانهيار التام. لكن الضغوط على المقاطعات النائية اتسعت وزاد معها الخطر على قلب الإمبراطورية.

في عام (401 م)، وافق ألاريك على أن تدفع له فدية كبيرة من قبل مبعوثي الإمبراطور أركاديوس لإخلاء جزء من الإمبراطورية. كان ألاريك قد وضع عينه على المدن الإيطالية الغنية في الشمال. كان هذا يعني المواجهة مع جحافل الكونت ستيليتو في الإمبراطورية الغربية. قبل تمكن الكونت من وضع جحافله، فاجأ ألاريك الخط القتالي الروماني الصغير الذي كان واجبه الدفاع عن (Limes) الليمس[3] وعبر نهر الدانوب، وتدفق جيشه عبر جبال الألب جوليان. سادت حالة من الذعر عندما أصبح معروفاً أن الوجهة النهائية للقائد ألاريك كانت روما. هرب الإمبراطور هونوريوس من المدينة الخالدة إلى رافينا، وهي قلعة محاطة بأسوار عالية وأميال من المستنقعات التي لا يمكن اختراقها. لقد تحصن داخل قصره، محاطاً بمستشارين خائفين.

3- كان الليمس هو الجدار الدفاعي الذي أقامه الرومان على طول نهري الدانوب ودرافا.

صاح الإمبراطور وهو يرتعش: «إنهم قادمون! لقد أغاروا على الإمبراطورية من قبل، ولكن ليس بهذا الحجم أبداً. من أي دين هم؟».

«بعض البرابرة يسمون أنفسهم مسيحيين، لكن مسيحيي الإمبراطورية الشرقية يقولون إنهم ليسوا كذلك».

«من المؤكد أن أفراد القوات المساندة من البرابرة في جيوشي... سوف يمنعون هؤلاء الوثنيين من إيذاء إمبراطورهم المسيحي...». لكنهم لم يفعلوا ذلك.

كان تصميم ألاريك يشبه عناد كلب الصيد، وحصل من أولئك الذين خدموا تحت إمرته، على ولاءٍ أشبه بالتعصب. كان القتال من أجل الملك العظيم هو غاية المنى لكل شاب قوطي. ولأجل، مجموعة الخيالة العملاقة التي يقودها قام ألاريك باختيار الأفضل بين محاربيه. بعد أن هزم جحافل الحاكم ليسينيوس وعبر سلسلة الجبال التي تفصل وادي الدانوب عن البحر الأدرياتيكي، استولى ألاريك على المدينة الأدرياتيكية الرئيسية أكويليا [4]، وأشعل النيران فيها. أدى حلول فصل الشتاء بشكل مبكر على غير العادة إلى توقف مسيرته نحو روما. أقام معسكرات شتائية لقواته في وادي بو. ترك الأمر للرومان ليخمنوا ما إذا كان سيقوم عند حلول الربيع بالانتقال إلى رافينا أو ميلانو أو روما.

سمح تأخر مجيء فصل الشتاء لستيليكو بالسفر شخصياً عبر ممر برينر والدعوة إلى إقامة اتحاد بين قبيلة ريتيا في أعالي نهر الدانوب. تمكن ستيليكو أن يشتري بالذهب الروماني جيشاً يقاتل به، وبحلول أوائل الربيع، كان يقود قواته من المجندين عبر ممر القديس غوتهارد ويتوجه إلى ميلانو، التي كانت محاصرة من قبل ألاريك.

«لا تنسَ، أيها الملك ألاريك، أن روما تعتمد على صداقته مع القبائل

4- تقع بين مدينتي تريستي وفينيسيا ولا زالت موجودة فيها كاتدرائيتها التي هي في غاية الروعة، مع أرضية فسيفسائية مدهشة وينصح أي زائر لفينيسيا بزيارتها.

الألامانية والريتية». لقد كان هذا صحيحاً؛ فقد كان اسم ستيليكو يخلق الثقة والأمان بين العديد من القبائل البربرية. «وقد يأتون لمساعدة ستيليكو ويمنعوننا من غزو روما الغربية».

«لم نأتِ لغزو البلد. حروبنا ليست موجهة أبداً نحو الاستيلاء على الأرض، بل على حمل الغنائم». إذا طُلب منه التقدم بسرعة كبيرة، فقد علم أن رجاله سيطيعونه ويتبعونه بدلاً من التوقف على فترات متكررة للنهب. لقد كانوا في عمق مجال العدو، وإذا توقفوا للنهب وفرقوا قواتهم، فسيُقتلون جميعاً.

من أعالي الدانوب، وجه ستيليكو الدعوة إلى فيالق حامية روما في بلاد الغال وعلى طول نهر الراين للانضمام إليه في ميلانو. عندما سمع الملك القوطي بخطط ستيليكو، توجه لملاقاته مما أدى إلى حدوث ثلاث مواجهات غير حاسمة. الأولى كانت في آذار عام (402 م) بالقرب من مدينة آستا. وانتصر فيها ستيليكو، وبعد ثلاثة أسابيع، في 6 نيسان، هاجم ستيليكو بشكل مفاجئ معسكر ألاريك بالقرب من بولينتيا، بينما كان القوط منشغلين بالاحتفال بعيد الفصح. سارت بداية المواجهة لصالح ستيليكو، حتى جمع ألاريك مقاتلي سلاح الفرسان القوطي معاً، وبعد ذلك ألحق خسائر كبيرة بالرومان ومرتزقتهم، من قبائل الألاني وبينما كانت هذه المعركة تدور خارج المخيم، شقّ ستيليكو ومفرزة من الفرسان الرومانيين طريقهم إلى المخيم ودمروه، وأخذوا عدداً من الرهائن، بمن فيهم زوجة ألاريك المفضلة. مرة أخرى، لم يتم حسم أي شيء، ودفع هونوريوس فدية لإخراج ألاريك من إيطاليا. في غضون عام عاد القوطيون. في حزيران 403 م، واجه ستيليكو ألاريك بالقرب من فيرونا، حيث تمكن أخيراً من إيقاف تقدم ألاريك إلى وسط إيطاليا. بعد هذه المعركة، التي استنزفت الجانبين، بدأ الزعيمان في العمل بتجارة الخيول. تخلى ألاريك عن «ولائه» للإمبراطور الشرقي أركاديوس مقابل تعيينه حاكماً عاماً للإمبراطور هونوريوس على إقليم إليريوم.

بهذه الطريقة، استحوذت روما الغربية على إليريوم من القسطنطينية، لأن ألاريك كان حاكمها طوال الوقت، وإن كان قد عيّنه أركاديوس.

وقّع الإمبراطور الغربي على ورقة من البرشمان[5] بختمه على الصفقة. ولتجنب أي فرصة لحدوث مزيد من الإساءة إلى القوطيين وملكهم، امتثل الإمبراطور هونوريوس لجميع نزواتهم ومطالبهم. إذا أظهر هذا الأمر ضعفه، فلن يتحمل المسؤولية إلّا هو نفسه. على المستوى الشعبي، كان يُنظر إليه على أنه مجرّد شخص منغمس بشهواته، شبيه آخر لنيرون الذي كان يسلي نفسه بينما كانت روما تحترق، وبسبب عدم الصدق الذي أظهره في أعماله المختلفة المتعلقة بالرشوة والمراوغة، لم يثق به القوطيون تماماً. بدأ فساد السلطة وإشباع رغبات الإمبراطور باستنزاف الإمبراطورية.

بينما كان ستيليكو يشتبك مع ألاريك، كان هناك جندي روماني بسيطٌ يخدم في حامية في بريتانيا، وهو قسطنطينوس، قد أعلن نفسه إمبراطوراً على بريتانيا وبلاد الغال ونصب نفسه من خلال تقاسم السيطرة مع البرابرة الذين غايتهم السلب والنهب. أنهى تمرد قسطنطينوس حكم روما على بريطانيا، وببقائها بدون حماية من جحافل روما، تركت الجزيرة عرضة للعديد من الغزوات من قبل قبائل البيكتس، والاسكتلنديين وقراصنة البحر الساكسون.

كان ألاريك وستيليكو خصوماً في ساحة القتال، لكنهما كانا معجبين ببعضهما أيضاً كما هو شأن أغلب المحاربين. كان رجال قبيلتي الفاندال والقوط، وكلاهما من البرابرة، يتحدثون عن صلابة قادتهم. لقد اتخذا قرارات تسوية النزاع دون الإشارة إلى الإمبراطور الذي كان يجلس خلف أسوار رافينا. أدى هذا الأمر إلى أن يصاب الملك هونوريوس الغيور بجنون بنوبة غضب، واعتقد أنه كان مستبعداً عن شؤون الدولة. أدى حبسه لعدة أشهر خلف جدران قصره، دون أن تكون لديه أي فكرة عما كان يحدث في الخارج، إلى زيادة أعراض الجنون لديه.

5- ورق نفيس شبيه بالرقوق. المترجم.

تآمر هونوريوس مع ثلاثة من الجنرالات الرومان الأرستقراطيين، وهم توربيليوس وفارنيس وفيغيلاتيوس والأخير كان شخصية بغيضة جعل من اسمه مرادفاً لوحدات القتل المرعبة فيغيلانتي: vigilanti؛ للتخلص من ستيليكو ثم إبعاد جميع قادة الفيلق البربري واستبدالهم برجال موالين لهونوريوس فقط. تمّ التخطيط لعملية القتل بعناية حتى يتمّ القبض على أقرب مساعديه في المصيدة نفسها. لم يفكر هولاء الثلاثة في حقيقة أن جميع الضباط الميدانيين الأكفاء قد جاؤوا من صفوف قوات البرابرة المساندة وأن مثل هذا التطهير قد يضعف جحافل روما إلى حدّ لا شفاء منه.

أدى اغتيال ستيليكو (408 م) أخيراً إلى نهاية روما. أقام هونوريوس وليمة على شرف ستيليكو. وبينما كان جالساً على طاولة إمبراطوره، اقتحم الحراس المسلحون القاعة وغرزوا سيوفهم في ستيليكو ورفاقه. بعدها قامت وحدات سلاح الفرسان، ووحدات القتل المعروفة باسم الفيغيلانتي، بالتجول في جميع أنحاء الجحافل في شمال إيطاليا وبدأت بذبح معظم مساعدي ستيليكو. تمّ القبض على وحدات من القوات المساندة من قبائل الريتي، والألاني، والإيليريان والغال وهي في وضع يائس؛ وكانت عوائلهم، التي استقرت في المدن الإيطالية، قد احتُجزت كرهائن من قِبل قوات الفيغيلانتي لمنع مقاتلي الجحافل من القيام بأي رد فعل. في تلك الساعة الحرجة، لجؤوا إلى عدوهم السابق، الزعيم القوطي ألاريك. كان ألاريك شخصاً ينتهز الفرص وأدرك أن ذلك هو المدخل الذي سيسمح له بتحقيق حلمه؛ الاستيلاء على روما.

في عام (409 م)، عبر ألاريك، على رأس جيش جرار، جبال الألب ودخل البلدة الرئيسة أكويليا، حيث استقبله بترحاب مقاتلو جحافل القوات المساندة عند وصوله. وتابع مسيرته إلى الأسفل على طول معسكرات المجندين الإيطالية دون مواجهة أية مقاومة تُذكر. هرب الإمبراطور هونوريوس، الذي تعرض للخيانة من قبل المتآمرين، ليحتمي من جديد وراء جدران رافينا وترك روما تدافع عن نفسها.

في القاعة الكبرى التي كانت فارغة تقريباً. واجه هونوريوس، وهو يرتعش أمام النار محاولاً تدفئة نفسه، أحد ضباطه (التريبون) بالقول «قل لي، بماذا يتسلح هولاء البرابرة؟».

«بالرماح والسيوف، جلالة الإمبراطور».

«اذاً هم فرسان فقط ولا يستطيعون تسلق الجدران».

«نحن نعتقد ذلك، جلالة الإمبراطور». أبهجت الإمبراطور فكرة أن سلامته مضمونة. في المرة الأخيرة ترك البرابرة أسوار رافينا العالية ولم يحاولوا تسلقها، وسيفعلون ذلك مرة أخرى، هكذا كان يأمل على الأقل. جرد هونوريوس المناطق الريفية المحيطة بمدينة رافينا من إمداداتها الغذائية، ودعا جنوده الموالين القلائل إلى التجمع من حوله في حصن رافينا؛ وبالتالي استمر في ترك روما تدافع عن نفسها.

بحلول خريف عام (409 م)، قام ألاريك بالتخييم حول مدينة روما، التي يبلغ عدد سكانها مئة وعشرين ألف نسمة، ومحمية بجدران هائلة ويمكن الوصول إليها عبر اثنتي عشرة بوابة. والحقيقة كانت نقطة الضعف الوحيدة التي أظهرها البرابرة أنهم كانوا غير مسلحين جيداً بحيث يستطيعون الاستيلاء على الأماكن المحصنة من خلال شنّ هجوم عليها. لم يكن لديهم معدات حصار ولا تقنيات لتسلق الأسوار. ولكن كانت هناك وسائل أخرى للتغلب على الأسوار. لم يكن يجب على المرء أن يتسلقها لكي يستولي على المدينة. لم يكن ألاريك يملك المقاتلين الكافين لاقتحام الجدران، لكن كان لديه الوسائل لمحاصرة البوابات. كانت جميع إمدادات المدينة الضرورية تصل عن طريق السفن على نهر التيبر من ميناء أوستيا. بقطع خطوط الإمدادات، سيحكم ألاريك على روما بالموت جوعاً. لم يمر وقت طويل حتى بدأ الناس يعانون من الجوع.

اكتشف الأفراد من كلا الجنسين، الذين كانوا معتادين على التمتع بالراحة والرفاهية، كم كان شحيحاً توفير متطلبات الطبيعة

الضرورية؛ وأنفقوا بسخاء من كنوزهم الفريدة من الذهب والفضة للحصول على الأطعمة الرديئة والمكشوفة للهواء التي كانوا يرفضونها في السابق بازدراء. بدؤوا يلتهمون بنهم الطعام المكروه والذي كان يجعلهم يشمئزون، أما الغذاء الأكثر ضرراً وأذى لجسم الإنسان، فقد كان يتم التنازع عليه بشدة، بسبب ثورة الجوع. كان هناك شك غامض في أن بعض المنهكين اليائسين يتغذون على أجساد المخلوقات التي قتلوها سراً؛ ويقال إن حتى الأمهات ذقن لحم أطفالهن المذبوحين[6].

جاء وفد من المواطنين يتوسل إلى ألاريك. الذي رفض النظر في قضية السماح لقطاعات من السكان بمغادرة المدينة التي خربها الوباء. وكان ردّه: «كلما زادت سماكة القش، كلما أصبح تحريكه سهلاً». يمكن أن أعيد النظر فقط في حالة إذا قدمتم لي كل الذهب والفضة الموجود في مدينتكم. وكل شيء نفيس في حيازتكم وكل إخواني الذين جعلتموهم عبيداً لكم».

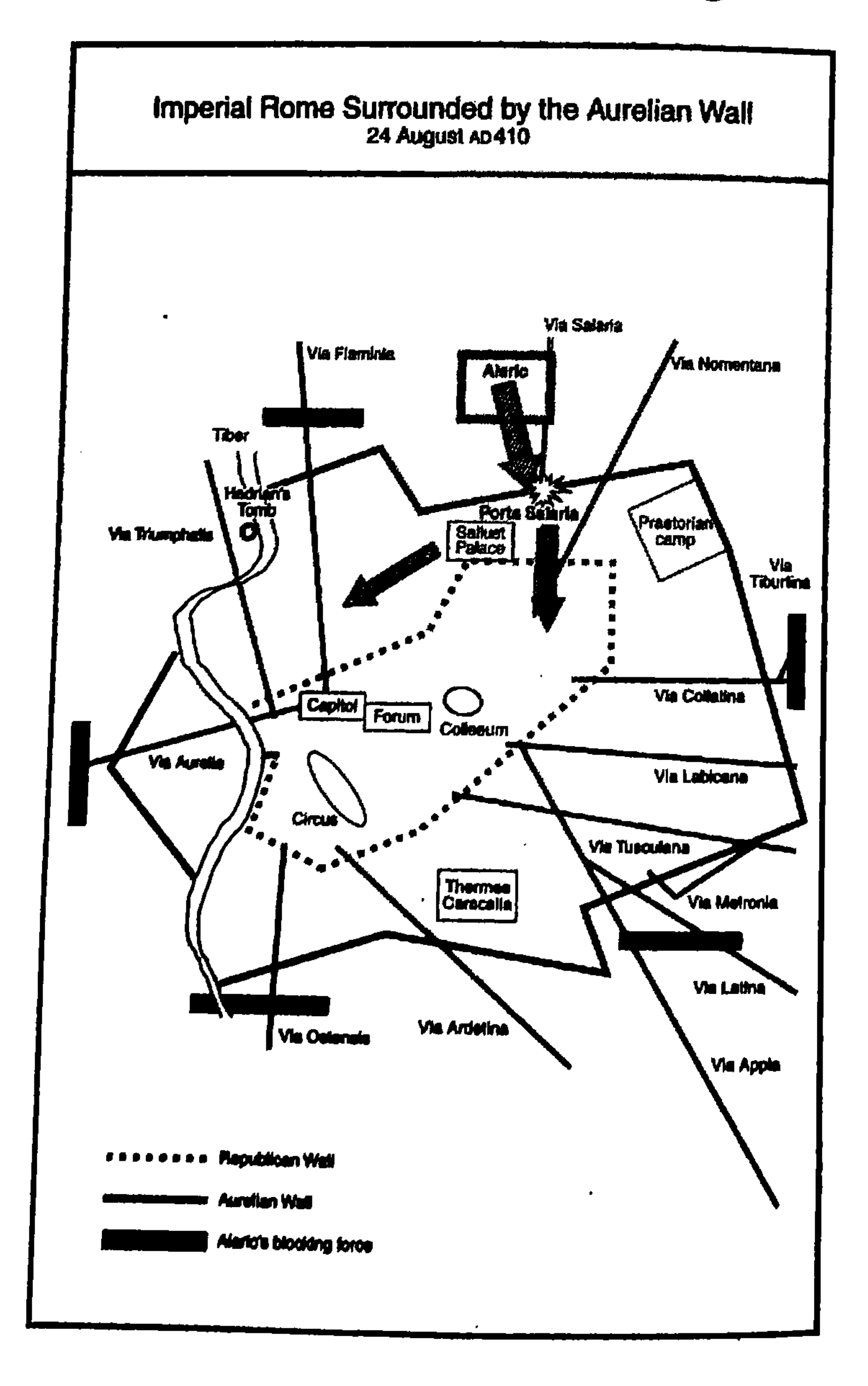
صدم الأرستقراطيون بالأمر: «مطالبك كثيرة، أيها الملك العظيم. وما الذي تنوي تركه لنا؟».

«حياتكم!».

تمكن عدد قليل من الرومان من الفرار من المدينة. وجلبوا معهم إلى رافينا حكايات عن البؤس الذي تعرضوا له وعدم الجدوى تماماً من استمرار المقاومة. قام الإمبراطور بمواساتهم، لكنه لم يفعل شيئاً آخر، تاركاً لأبناء روما مسألة الدفاع عن أنفسهم. عندما وصلت الأخبار إلى المدينة المحاصرة بأن لم يعد بإمكانهم الاعتماد على مساعدة من إمبراطورهم، زاد ذلك من إحباطهم. ذُبِحت جميع الخيول والحيوانات، وكانت الكلاب والقطط تُباع بأسعار عالية. حتى الحشرات أصبحت

6- راجع: E. Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire (XXXI), New York, 1953.

نادرة. ومع المجاعة جاءت الأمراض. بينما دمرت الأوبئة روما وقلصت إرادتها في القتال بسبب المجاعة والحمى، ترك ألاريك جزءاً من جيشه لمواصلة الحصار. وذهب مع البقية إلى معسكراتهم الشتوية في توسكانا. عندما حلّ الربيع، لم يذهب ألاريك إلى روما؛ بل توجه إلى رافينا.



«رافينا مدينة منيعة، يا مولاي».

«أنا أعلم، وسافتقد بعضاً من أفضل المحاربين، فهم يمسكون بروما، لكننا سنستولي الآن على رافينا وبعدها نتوجه إلى روما».

«جلالة الملك، من غير المنطقي أبداً الاهتمام بالمدينتين في وقت واحد»، تجرأ أحد مستشاريه على الإشارة إلى هذا الأمر.

«وفر عليّ حكمتك. نعم، قد نفقد واحـدة إذا حصرنا اهتمامنا بالأخرى. ولكن بمجرد أن نستولي على رافينا ونعاقب الخائن، فإن روما ستسقط دون قتال».

كان مستشار ألاريك على حق؛ لم يستطع جيش ألاريك تحمل عبء مدينتين عظيمتين في الوقت نفسه. حاول اقتحام رافينا وفشل. كان جزء كبير من أسباب ما حدث له علاقة مع غزو بعوض المستنقعات، الذي قلّص قوة رجاله، لأنهم سقطوا ضحية للحمى (الملاريا). بعد أسابيع من الإحباط، قاد جيشه إلى الجنوب لتعزيز حصار روما. هذه المرة لم يعد بحاجة إلى سيوف حادة للتغلب على أسوار المدينة؛ جاءته المساعدة من الداخل. في طلعة جريئة، تمكن بعض الرومان من اختراق الدفاعات عن طريق التدفق أسفل نهر التيبر. وقدموا لألاريك بعض الأخبار المفرحة.

حين قابلوه أخبروه قائلين: «أيها الملك ألاريك، سيستولي إخواننا على الحامية الموجودة عند بوابة سالاريان ويفتحون الأبواب أمام جيشكم». تمّ التخطيط للانقلاب ليلة 24 آب عام (410 م). تجمع المتعاطفون مع القوط في عدة منازل بالقرب من الجدران. في منتصف الليل، شقّ العشرات من المسلحين المؤيدين للملك القوطي طريقهم عبر الأزقة الضيقة باتجاه بوابة سالاريان. بعد اشتباك قصير، تغلبوا على المدافعين الذين تفاجؤوا بهم، ومن ثم قطعوا الحبل الذي يحمل الجسر المتحرك، والذي بسقوطه أحدث دوياً انتشر صوته في جميع أنحاء العالم المسيحي. اقتحمت جحافل الفرسان القوطيين المدينة الخالدة. أول ما عرف الرومان عن سقوط بلدتهم كان حين سماعهم أبواق الحرب

القوطية العالية والضجيج الذي تخلفه حوافر خيولهم وهي تعدو على الأرصفة.

ظهر ألاريك أمام روما، وفرض حصاراً ونشر الفوضى واقتحم المدينة. حقق ملك البرابرة ما لم يستطيع تحقيقه أحد من قبل، فلم يحدث أن دخل الجيش الغازي الأجنبي إلى روما المقدسة؛ ولا حتى هنيبعل تمكن من تحقيق ذلك. وهكذا فإن غطرسة ألاريك قد دفعته للاستيلاء على العرش الذي استولى عليه أباطرة روما لمدة أربعة قرون.

لم يأت ألاريك ورجاله لغرض احتلال روما، بل لنهبها. وأعقب دخوله المنتصر حملة «لنهب روما» - كانت عبارة عن ستة أيام من النهب والحرق والاغتصاب. وبعد شعور بالإحباط لعدة أشهر لوقوفهم أمام البوابات المغلقة، أطلق القوطيون العنان الآن لوحشيتهم المكبوتة. تعرضت روما للفظائع التي تلت ذلك الحدث عندما اجتمع النصر مع الوحشية ومع الفوضى. تمّ السماح لكل عاطفة شريرة بالظهور دون أن يُعاقب عليها أحد، سادت حينها أعمال الانتقام والشهوة والجشع. «روما لم تعد موجودة...» في أكبر عملية نهب شهدها تاريخ البشرية، تمّ نهب روما، مركز الكون وحامية كل كنوزه المسروقة. تمّ نهب كل شيء ولم يتبق شيء. سُرقت من المعابد والكنائس جميع الأيقونات وكؤوس الشراب المقدس الفضية؛ وتم إفراغ القصور الرائعة من الكنوز. أي شيء يمكن حمله كان مكدساً بأكوام عالية في العربات، وما كان لا يمكن إزالته تمّ تحطيمه، أو تكديسه وحرقه. كان المحاربون القوطيون يقودون العربات الرائعة، ويرتدون الملابس الفاخرة. تمّ إفراغ أقبية النبيذ. واندلعت المعارك بين اللصوص المخمورين.

في الأجزاء الأكثر فقراً في المدينة، حيث عُثِر على الأشياء القليلة القيمة، كان القوطيون الذين ينهبون غاضبين لدرجة أنهم أحرقوا المنازل. وأجّجت الرياح القوية النيران وطار الشرر فوق أسطح المنازل، واشتعلت النيران في أجزاء كثيرة من المدينة. وبينما كانت النيران تلتهم أجزاء كاملة

من المدينة، كان الناس يقفون بلامبالاة. سقط قصر سالوست الرائع ضحية للحريق الهائل. أخفت سحابة سميكة من دخان الزيت الرعب. كانت الرائحة الكريهة للدخان والموت منتشرة في كل مكان. وكما هو الحال دائماً، كان الأسوأ ينتظر السكان البائسين. جُرِّدت النساء النبيلات من ملابسهن وأجبرن على السير في الشوارع عاريات ليعانين من آلام الاغتصاب الوحشي على أيدي حشود من السكارى. كانت الفتيات الصغيرات يتعرضن للضرب الوحشي أمام أسرهن. كان يتمّ سوق أرفع الأرستقراطيين مكانة في المدينة مثل الماشية، ويتمّ صلبهم بالمسامير أو لكي يقوموا بجمع العديد من الجثث المشوهة المتعفنة في شمس الصيف الحارة؛ وأصابتهم الأمراض بسبب ملامستهم لجثث الموتى وباتوا قريبين من الموت بسبب المعاناة الرهيبة. اقتيدت النساء إلى خيام المحاربين أو وُضِعن في أقفاص للبيع في أسواق العبيد. أما أولئك الذين «لا قيمة لهم»، فهم الذين ظلوا يعيشون في ظروف طبيعية فيتركون بمفردهم، حتى يتمّ بيعهم أو ذبحهم. وأولئك الذين نجوا بمعجزة، فلم يعودوا يتصرفون مرة أخرى بشكل طبيعي؛ أصبحت عقولهم مختلة بسبب الرعب الذي عانوا منه.

كان هناك استثناء واحد ملحوظ. لم يكن ألاريك ملحداً تماماً، لأن الإلحاد لم يكن من سمات البقاء على قيد الحياة في عالم يضمّ عدة آلاف من الآلهة، ولم يهتم كثيراً بأي من الآلهة. لكن كان هناك نبي واحد أطلقوا عليه اسم «كريستوس»، وكان كثيرون يتبعون تعاليمه وكان هو يتجاهلها. لقد اعتقد الملك القوطي أنه من الحكمة عدم مواجهة الإله المسيحي الوحيد وممثله على الأرض. لذلك أعطى أوامر صارمة، تصل عقوبة من يخالفها إلى الموت، لحماية قدسية باسيليقا[7] القديس بطرس والقديس بولس.كان العديد من أصحاب النفوس الضائعة والرهبة، الذين كانوا يأملون في أن بقاءهم بالقرب من إلههم من شأنه أن ينقذهم، قد

7- كنيسة رومانية. المترجم.

اختبؤوا في سرداب الكنيسة وكانوا يرتعدون خوفاً وهم حول المذبح عندما اقتحمت المكان مجموعة من القوطيين السكارى. وقف محارب عملاق عند مدرجات الكنيسة وكان يلوح بسيفه الطويل وغايته ذبحهم. لقد فعل ذلك بهدوء تام، كما لو كان يقطع الخشب. عندما تمّ إبلاغ ألاريك بالحادث، أرسل دورية من الجنود وأمر بإعدام جميع المشاركين في تدنيس المكان المقدس فوق مدرجات الكنيسة. ثم أمر بترك جثثهم ملقاة وسط ضحاياهم ليكونوا عبرة للآخرين.

لقد شعر القديس أغسطينوس، أسقف مدينة هيبو أو بونة (مدينة بونة في الجزائر تسمى حالياً عنابة)، الذي كان يعيش في عزلة طوعية في زنزانة صغيرة للتفكير في أحداث العالم والدين، بالرعب الكافي بسبب ما جرى من أعمال نهب في روما جعله يقول في كتابه «Retractions التراجع»: تعرضت روما، في ذلك الوقت، إلى غزو من قبل القوطيين تحت حكم الملك ألاريك، وحدثت مذبحة شنيعة. جعلتني ألتهب حماساً لبيت الرب، وأنا مصمم على كتابة بحث عن مدينة الرب.

لم يكن البقاء في روما شيئاً جيداً بالنسبة لرجال ألاريك. على مدى ستة أيام انغمسوا في أعمال المجون واللهو بشكل غير محدود. هددت المشاحنات والصراع على الغنائم وتأثير طريقة حياة الرومان الفاسدة والفاخرة بتدمير روحهم القتالية، ولم تترك أمام الملك ألاريك أي خيار سوى إخراجم بالقوة من المدينة الخالدة. لم يكن القوط يشمئزون من ممارسة أعمال التعذيب لغرض الحصول على اعترافات بالقوة عن مواقع الكنوز الخفية، وأصبح الأمر سيئاً لدرجة أنهم قتلوا بعضهم بعضاً بسبب حيازة أشياء ثمينة. بعد ستة أيام من أعمال القسوة والانغماس في الشهوات والنهب، أمر ألاريك جحافله بمغادرة المدينة.

لم يكن هناك على الإطلاق سرد دقيق لعدد الضحايا الذين سقطوا خلال نهب المدينة. من المعروف بشكل واسع أن معظم مواطنيها الشرفاء انتهى بهم الأمر كعبيد. لكن بما أن البرابرة فضلوا الذهب على العبيد، فقد

تمكن بعضهم من إعادة شراء حريتهم مقابل مبلغ متواضع نسبياً من المال. أولئك الذين لا يمكن بيعهم لتجار الرقيق السوريين، أو الذين أثبتوا أنهم عديمو الجدوى أو أنهم كبار في السن، تمّ إعدامهم ببساطة قبل أن ينطلق الجيش الجرار في مسيرته نحو كامبانيا. كان ينتظر عاصمتها الجميلة، كابوا، مصيراً مماثلاً. نُهِبت المدينة، لكن مواطنيها سلموا. حينها تعلم القوطيون الاستمتاع بدفء أشعة الشمس الجنوبية وملذات النبيذ الجيد. لقد تمّ نسيان سنوات المصاعب التي مروا بها على طول جبال الإلب ونهر الدانوب. أصبحت قبائل الهون مجرد ذكرى لماضٍ بعيد.

لم يسمح الوقت للفاتح ألاريك بالاستمتاع بثمار ما نهبه. ربما لسعته بعوضة تحمل مرض الملاريا خلال الحصار السابق لرافينا. وبينما كان يستعد للعبور إلى صقلية، لزمته حرارة شديدة، واستمرت لعدة أيام، جعلته يتقلب في فراشه في المعسكر، وكان يستحم بعرقه ويرتعش من البرد. في ساعاته الأخيرة، استدعى أثولف، الذي أورثه مملكته. بعد أربعة أشهر من دخول روما، توفي ألاريك من الحمى. ادعى الكثيرون بعد ذلك أنها كانت طريقة الرب لمعاقبة الوثنيين.

كانت جنازته مذهلة مثل حياته وأظهرت الطابع الشرس للبرابرة. اضطر الآلاف من العبيد لبناء سدّ من أجل تحويل مياه نهر بوسينتو، الذي يمر تحت جدران كونسنتيا. كان هذا البناء مهمة ضخمة غرق خلالها الكثيرون. تمّ إنزال التابوت الملكي، المحشو بغنائم روما الذهبية، إلى قاع النهر الفارغ ثم تمّ استعادة المياه إلى قناتها الطبيعية. للحفاظ على هدوء ملكهم الفاتح أثناء موته، ولإخفاء الموقع عن صيادي الكنوز، غلّف القوطيون قبره بشكل وحشي غير إنساني؛ لقد شقوا حناجر كل واحد من آلاف العبيد الذين عملوا هناك. لم يكتشف أحد على الإطلاق السر، وما زال كنز ألاريك في نهر بوسينتو موجوداً في مكان ما ينتظر من يعثر عليه.

مع وفاة ألاريك انتهى فصل في التاريخ. تزوج خليفته، أثولف، من

غالا بلاسيديا شقيقة الإمبراطور هونوريوس، ثم غادر مع رجاله لغزو بلاد الغال (فرنسا) وإسبانيا (415 م). بعد سنوات عديدة من التجوال، استقر القوط الغربيون أخيراً في منطقة آكيتين (فرنسا)، حيث أسسوا أول إمبراطورية بربرية. قُتل أثولف، وأصبح واليا، الذي حل محله، أول ملوك تولوز (419 م). هناك بقي القوط الغربيون، مستقرين بسلام، يحرثون حقولهم، حتى أجبرهم خطر جديد على الاستيقاظ من طمأنينتهم لمواجهة عدوهم الأكثر فظاعة حتى ذلك الحين في مجال الذبح. في عام (451 م)، التقى ثيودوريك ملك القوط الغربيين مع أتيلا زعيم قبائل الهون[8].

في عام 452، غزا أتيلا زعيم قبائل الهون إيطاليا. التدخل الإلهي الذي تمثل في الشخص الذي يمثل الرب على الأرض، وهو البابا ليو الأول - وحقيبة الذهب الخاصة به - هو الذي أنقذ روما. ثم، عانت روما في عام 455 م، من غزو آخر من قبيلة جرمانية، وهي الفاندال تحت قيادة ملكهم، غايسيريك.

جرت الأمور هكذا: قام فالنتينيان الإمبراطور الذي كان غيوراً بقتل «آخر القادة الرومان» متمثلاً بشخص أيتيوس الذي كان منتصراً على قبائل الهون. قام بيترونيوس ماكسيموس، الذي كان تحت وصاية أيتيوس، بقتل فالنتينيان واغتصب التاج من خلال إجبار أودوكسيا، أرملة الإمبراطور، على الزواج منه. فلجأت أودوكسيا إلى غايسيريك ملك الفاندال، فقام بقتل الإمبراطور بترونيوس ماكسيموس، وقام رجاله بنهب روما. وفي المشهد الاخير للأحداث، قام غايسيريك بخطف أودوكسيا.

كان ميراث ألاريك فظيعاً. كانت روما قد نجت من الهجوم الذي شنّته قبائل الأتروسكي، والقرطاجيين، والكيمبري، والهلفيتس، والغاليين وبلجيا. ولكن لم يكن أي منهم مثل القوطيين، الذي تبين أنه العدو الذي

8- راجع كتاب المؤلف (العامل الحاسم دور الصدفة والغباء في التاريخ). صدر عن دار المدى.

سدّد أخيراً الضربة القاضية. لم تعد روما الخالدة كما كانت موجودة منذ قرون، حيث البلاط الرائع للأباطرة العظماء، والمدرجات والحمامات العامة المشيدة من الرخام، والمساكن التي تضمّ كنوز العالم والمعابد البيضاء مع أعمدتها الممشوقة المسروقة من أضرحة الإغريق، لم تعد روما موجودة.

«تم تدنيس المعبد، ونهب الذهب، وعجلة الحظ قد أنجزت ثورتها، وتشوّهت الأرض المقدسة مرة أخرى بالأشواك والعليق. كانت تلة الكابيتول تمثل سابقاً رأس الإمبراطورية الرومانية، وقلعة على الأرض، وترهب الملوك؛ برهنت على ذلك خطى العديد من الانتصارات، عززتها غنائم وإكاليل الغار من العديد من الدول... صروح الدولة والأفراد التي تأسست من أجل الخلود بدت مستلقية على الأرض، جرداء ومتهشمة، مثل أطراف عملاق عظيم؛ والخراب الأكثر وضوحاً كان في الآثار المذهلة التي نجت من جروح الزمن والقدر». هذه الكلمات كتبها بعد ألف سنة، في عام 1430، الكاتب بوجيو في كتابه تنوع الثروة De varietate fortunae.

كانت روما، هي القوة الوحيدة التي تجاوزت حدودها الوطنية على مدى قرون، والتي حافظت على القانون وبقاء الحضارة الغربية، وها قد ماتت. ومعها مات الأمل في المستقبل القريب في عالم أصبح مجنوناً.

لم يحدث سقوط روما بسبب قوة الشجاعة ولكن من خلال المؤامرات والخيانة. تغلب بضع عشرات من الرجال على الحراس وأسقطوا الجسر المتحرك، ورفضت جحافل روما من القوات المساندة القتال من أجل بقاء الإمبراطورية.

لم تكن قبائل القوط والفاندال والهون ولانغوباردس هي الوحيدة التي هزمت روما. كان زوال القوة العظمى في العصور القديمة أمراً لا مفرّ منه بمجرد حدوث انهيار اخلاقي في مجتمع روما وأباطرتها.

في اليوم الذي خبا فيه «مجد روما»، بدأت العصور المظلمة.

الخاتمة

«ويل للمهزومين!»
المؤرخ ليفي (59 ق.م - 17 م)،
كتاب التاريخ

ياعزيزي غولاكن «لن تكون هناك نهاية لمشاكل الدول، أو في الواقع للبشرية نفسها، إلى أن يصبح الفلاسفة ملوكاً لهذا العالم، أو حتى يصبح الذين نسميهم الآن الملوك والحكام فلاسفة».

• ***أفلاطون، كتاب الجمهورية (القرن الرابع ق.م)***

كانت المسيرة التي بدأت منذ معركة مجدو حتى سقوط روما مثل السير على حافة الجحيم.

نحن جميعا لدينا نزعة إلى تمجيد الماضي؛ ونسميه بالعصر الذهبي. وهكذا نفقد العديد من قطع ألغاز التاريخ الكبيرة. لم يصمد الكثيرون أمام ويلات الزمن والهمجية. لقد نجحت الصروح الرائعة، التي تعرضت لتقلبات الطبيعة، في النجاة من العواصف والأمطار والزلازل، ولكن لم تنجُ من التدمير الوحشي من قبل الإنسان. أطلال العصور القديمة تنتشر في الحقول غير المزروعة. لم يترك البابليون سوى جدار المعبد؛ دمر

الإغريق بيرسبوليس. قام الرومان برش الملح في قرطاج، ثم تمكنوا من إضرام النار في العديد من مجلدات الفلسفة الغربية في الإسكندرية؛ وجردت الكنيسة الكاثوليكية المدرج الروماني من الرخام. انظر إلى آثار روما، صورة عظمتها الأصلية. لا يمكن للزمن ولا البرابرة أن يتباهوا بمزايا هذا التدمير الهائل: لقد ارتكبه مواطنوها، من قبل أبنائها الأكثر شهرة. لقد حققوا بواسطة آلة الكبش ما لم يتمكن البطل البوني من تحقيقه بسيفه[1].

وترك لنا القدماء أيضاً فكرتهم عن الحضارة، والخير والشر. لقد كانوا رعاة للجمال ومظاهر الفضيلة. لكنها كانت هناك أيضاً المنتجات البربرية في عصر وحشي. شيدوا معابدَ، لم يسبق لها مثيل في روعتها، لكنهم مارسوا أعمال فسق كانت تنتهك أي قانون دون الخوف من عقاب. وهذا أدى إلى انهيار الأخلاق، وسقوط الإمبراطوريات العظيمة. لم يكن هناك شيء أبدي.

لعب الزمن بعض الحيل المثيرة للاهتمام حول تفسيرنا للعصور القديمة. نحن ننظر إلى المصريين والإغريق والرومان كممثلين بطوليين لبعض الزمن الذي كان نبيلاً بشكل لا يصدق، والحبكة المركزية في دراما سوفوكليس، التي تمثل رسالة توراتية حيث ينتصر الخير على الشر. ومع ذلك، في كل هذه القصص القديمة عن الخير والبهاء، كان هناك عنصر واحد مفقود: العنف، والوحشية، والجهل والقسوة التي هزت عالم العصور القديمة. شُنّت الحروب بوحشية مطلقة وذُبِح المهزومون لآخر رجل وامرأة وطفل. الشفقة لم تكن معروفة. دنست دماء الأبرياء الأراضي المقدسة والتراب المقدس.

كان مفتاح العظمة (وكما لا يزال حتى وقتنا الحاضر) هو الغزو. كان الدافع للكثير من المعارك الكبيرة في العصور القديمة الحصول على المكاسب الإقليمية. تمّ تحفيز الآخرين عن طريق العاطفة والانتقام. في أكثر الأحيان، كان الدافع لها امتلاك الثروة المنقولة، والذي يتلوه انغماس

1- راجع: Francesco Petrarca (Petrarch), 1304–74.

مرغوب في الشهوات وأعمال القسوة، كانت صروح القياصرة الرائعة تهدم وتُسوّى بالأرض أو يتمّ حرق المبادئ الملهمة للفلاسفة اليونانيين. المثال الرئيس لذلك هو تدمير أعظم معلم في العالم للفكر الحر، مكتبة الإسكندرية. فقد شارك الجميع في تدميرها: قيصر، المحاصر داخل جدرانه، في محاولة لحماية نفسه وراء ستار من نيران المخطوطات التي لا يمكن تعويضها؛ والأساقفة المسيحيون، الذين اعتبروا الأفكار الليبرالية الفلسفية تدعو إلى الوثنية؛ وأتباع النبي محمد، الذين كان يحركهم جهل متعصب. قبل إضرام النار في المكتبة العظيمة، أمر الخليفة عمر أتباعه: «إذا كانت كتابات الإغريق هذه تخالف كتاب الله، فهي ضارة ويجب تدميرها».

كانت تعقب غزو التراب الأجنبي مواجهات قصيرة ومكثفة ونوبات قصيرة من القتال المحموم. امتدت تداعياتها إلى ما هو أبعد من الزمان والمكان. كانت الفوضى العسكرية التي تتبع دائماً الثورة السياسية في «مهد الحضارة»، تغري الآخرين بغزو أو احتلال أو ببساطة تسوية الحسابات مع البلدان الجارة الأكبر والأكثر اكتظاظاً بالسكان، كما فعل الإسكندر عندما غزا بلاد فارس. احتاج الفرعون تحتمس إلى حماية طرقه التجارية ولذلك قام بفتح فلسطين. لم تنتهِ جميع المعارك دائماً بالنصر؛ كانت هناك إخفاقات كثيرة. شقّ داريوش وشورش طريقهما في بحر إيجه مع جيشيهما العملاقين، فقط لاكتشاف أن الأحاديث عن ضعف القوة العسكرية لبلاد اليونان مبالغ فيها إلى حدّ كبير؛ فشل هنيبعل في السيطرة على البحر الأبيض المتوسط لأنه تعرض للخيانة من قبل أبناء بلده. ويعود الفضل لحملات قيصر البرية الكبرى في الاستيلاء على أراضي أوروبا بأكملها والاحتفاظ بها، وبالتالي تعزيز سيطرة روما على العالم القديم. ثم فقد الإمبراطور فالنس كل شيء عندما كان يتصرف بناءً على الذكاء الخاطئ. لم تكن «جحافل البرابرة التي قدمت من الشرق أو الشمال» أكثر وحشية أو ظلماً من الأسبرطيين أو الرومان - ولكن ربما «لأنهم كانوا أجانب أكثر قليلاً». تمّ وصفهم بتلك الأوصاف.

من الغريب أن نجد أن مذبحة قيصر التي ارتكبها بحق القبائل التي غزاها والتي لم يكن لها مبرر قد تمّ منحها المكانة الوطنية نفسها لقتال روما ضد هنيبعل من أجل البقاء. كانت الرسالة الغالبة هي: أن جميع الحروب نبيلة، خاصة إذا لقيت حتفك في واحدة منها. ينجم هذا النقص في التوافق بشكل أساس عن الرغبة العميقة في رفع مستوى الموت في الحروب فوق مستوى الموت العادي، بحيث يجب منح الجندي الذي مات بضربة سيف أو رمح شرفاً أبدياً. لقد اعتقد بعض الرجال في الواقع أن الموت في معركة ملحمية مثل ثيرموبيلاي كان أكثر بطولة من الموت في الفراش، لأن الموت في السرير بدا لهم جميعاً شيئاً عادياً وليس شاعرياً. في أحسن الأحوال، قد تكون مثل هذه الرؤية الرومانسية للحرب هراءً صبيانياً، لكنها استُغِلت على يد أولئك الذين كانوا يحاولون حمل الآخرين على القتال من أجلهم وكانوا حريصين على إرسال الشباب إلى المقابر في وقت مبكر.

لم تستهلك أي فترة من التاريخ عدداً أكبر من الناس بسرعة أكبر وأكثر شمولية من العصور القديمة، حين كان الجميع يذبح بعضه البعض بلا رحمة. تركت لنا حملاتها العسكرية سلسلة من الدروس العسكرية والآثار السياسية؛ إخفاقات في الاستراتيجية ودور التسلح والقدرة القتالية للقوات المسلحة. من خلال الخوض في أحداث الماضي ربما نتعلم شيئاً للمستقبل.

ثم (كما هو الحال الآن) هناك أربعة موضوعات رئيسة تمر عبر مواقف المعركة التاريخية:

- المناورة بالمقاتلين.
- الابتكار الاستراتيجي.
- غزو العقول.
- المرونة في تبني خيارات جديدة عندما تفشل الخطط المسبقة في تحقيق النتائج.

لم تتغير المواضيع الأساسية ومبادئ الحرب أبداً. سابقاً والآن، كانت

القيادة الإبداعية والحكمة والشجاعة هي الركائز الثلاث للنصر. لقد أدى تردد الجبناء دائماً إلى حدوث كارثة، كما فعلت شجاعة الحمقى. كان على القائد العظيم أن يعلم أن الخطر كان متأصلاً في الحرب، وأن هناك فرقاً واضحاً بين المخاطرة المحسوبة والمغامرة المتهورة. كان البعض يؤمن بقضية أن الحق معهم؛ وقاوموا الغزاة الأجانب بمشاعر قومية شديدة وأظهروا ذلك من خلال استعدادهم للتضحية بحياتهم من أجل الوطن. الخطأ المشترك بينهما هو اعتقادهم أنهم كانوا يدافعون عن قضية عادلة ويقاتلون من أجل قضية عادلة. البعض اختصر كل شيء في صيغة بسيطة: قتل أكبر عدد ممكن من أعدائك سيحطم معنوياته. قاسوا تقدمهم من خلال أكوام الجثث المتراكمة التي تركوها وراءهم. وعندما جعلوا الأرض جرداء كانوا يسمون ذلك سلاماً.

في اللعبة القديمة التي تمّ خوضها من أجل اكتساب المجد في سجل تاريخ العالم، نجد العديد من الممثلين، الطيبين والأشرار. كان هناك الفراعنة والفلاسفة والديكتاتوريون والملوك والبرابرة. كانوا جميعاً من أصحاب البصيرة والبطولة والبربرية والإبداع والتدمير. جميعهم كانوا طموحين وكلهم بناة إمبراطورية. ارتفعت إمبراطورياتهم وسقطت. كان الملك هو الرمز، لكن الرمز لا يدوم مدى الحياة. إن التضحيات التي قدموها والانتصارات التي حققوها جعلتهم عظماء، تماماً مثل الحدود الواسعة التي مارسوا فيها سلطاتهم العسكرية وفرضوا فيها إرادتهم الوحشية.

كانت الحروب هي التي تحقق دائماً الهيمنة الاقتصادية والسياسية والثقافية. وقد جرت هذه الحروب بوحشية لا يمكننا حتى تخيلها، وانتهت دائماً بإبادة الأعداء. أظهرت جحافل روما أن القبائل الرحالة بحثاً عن أرض تستقر بها لا يمكن أن تتوقع سوى الموت. بمرور الوقت، أصبحت الإمبراطورية الرومانية ملعباً للأباطرة الفاسدين وزمرهم من مسؤولي البلاط. لقد حلّ زمان فقد فيه الأباطرة رؤوسهم، أو أنهم قتلوا بأنفسهم قادة جحافلهم. كانت الوسيلة التي تمكن الإمبراطور من

التمسك بسلطته هي إشراك المقاتلين الشماليين الأشداء، ونشأ جرّاء ذلك طاقمٌ من الجنرالات البرابرة الذين يمكن إبقاؤهم تحت السيطرة بسبب تنافسهم الشديد مع بعضهم البعض.

ليس هناك ما هو أبدي، وصلت العصور القديمة إلى نهايتها بسرعة البرق. اندلع صراع عنيف على الجثة التي كانت ذات يوم تمثل مجداً؛ تمّ سحق البقايا المتداعية للإمبراطورية الرومانية من قبل ما خلفته فترة ما عرف بالهجرة الكبرى Völkerwanderung[2]؛ كانت الأمم تتجول بحثاً عن المراعي. كانت النتيجة متوقعة: لم يكن هناك منتصرون، فقط خاسرون؛ انفتحت الستائر لمستقبل قاتم ومظلم، العصور الوسطى.

كان هناك الكثير من الشكوى سواء كان ذلك انحطاط مصر، وصنع إسرائيل، والخراب المتعاقب لآشور وبابل، وصعود بلاد فارس، والمجد الذي كان يحيط باليونان، وغزو قرطاج، وإخضاع بلاد الغال، أو في النهاية، سقوط روما، تشكلت مجتمعاتنا الحالية من قبل شعوب العصور القديمة من خلال سلسلة من الكوارث الدامية.

«ويل للمهزومين!» من خلال هذه الصيغة، التي لم تكن تعرف الشفقة، ظهرت إمبراطوريات بنت مجدها على رماد أولئك الذين أحرقوها. بالنسبة لنا، لم تبقَ سوى أبراجهم الضخمة التي قد نحكم من خلالها على عظمتهم، من هرم خوفو العظيم إلى مدرج تيتوس.

«ما دام المدرج شامخاً، فإن روما ستظل شامخة

عندما يسقط المدرج، تسقط روما.

وعندما تنهار روما، سينهار العالم»[3].

رحل جميع الأبطال والشجعان العظماء، لكنهم ظلوا في ذاكرتنا.

2- هي فترة من الهجرة البشرية المكثفة لأوروبا منذ حوالي عام 376 إلى 800 م أثناء فترة الانتقال من العصور القديمة المتأخرة إلى فترة العصور الوسطى. المترجم.

3- ذكر هذه العبارة القديس بيدا المكرم (673-735 م) كما أن الشاعر اللورد بايرون ذكرها في كتابه أسفار تشايلد هارولد Childe Harold's Pilgrimage.

المحتويات

«اعتادت آذاننا منذ فجر التاريخ الإصغاء إلى الأكاذيب، وتشبّعت عقولنا على مرّ العصور بخزين من الافتراضات. جعلنا الحقائق تبدو غريبة وحوّلنا القصص المزيفة إلى حقائق».

هذه الكلمات كتبها قبل أربعة آلاف سنة المؤرخ الفينيقي سانشونياثون، ولا تزال تحتفظ بحيويتها حتى اليوم.

كانت الحرب عاملاً ثابتاً في الحضارة البشرية. حدثتنا الكتب عن الاضطرابات العنيفة التي هزت العالم منذ آلاف السنين، والتي ساهمت في تغيير مجر ى التاريخ، والتي كان معظمها يلمّع صورة المنتصر. لم تشر إلا قلة نادرة من الكتب إلى الارتدادات المرعبة لذلك القتال الذي لا يرحم، وإراقة الدماء والدمار اللذين تخلفهما الحروب. نحن ننظر إلى الكتب التاريخية على أنها مقاربة وثيقة مع الأحداث كما حدثت بالفعل.

وإن بعض الثوابت، التي تظهر في أعمال جميع المؤرخين الذين عاشوا خلال فترة محددة، والذين تم نشر رواياتهم بمختلف الترجمات والكتب على مر العصور، ليست سوى الحقيقة. نحن لا نسأل عمن روى قصتهم.

كانت السلطة الحاكمة دائما هي المؤرخ، لأننا لا نستطيع أن نخترق العالم الذي اختار أن يعرضه أمامنا إلَّا عن طريقه. على مد ى ثلاثة آلاف عام من السرد الملحمي، لم يكن دور المؤرخ إخبارنا كيف كان يتصرف ملكه، ولكن كان عليه إقناعنا أن نؤمن بما كتبه. اندلعت الحروب للدفاع عن «الخير» ضد «الشر»، ولكن عندما يتعلق الأمر بأسلوب خوض المعركة، كان من المثير للغرابة كم كان يتشابه «الخير» مع «الشر». فكلا الجانبين كانا يستخدمان الوسائل نفسها تماماً لقتل بعضهما البعض. وفي النهاية، ينتصر «الخير»، لأن كل إله (وكل كتاب تاريخ) كان يقف دائماً إلى جانب «الخير» وهو الطرف المنتصر.


9 789933 604608